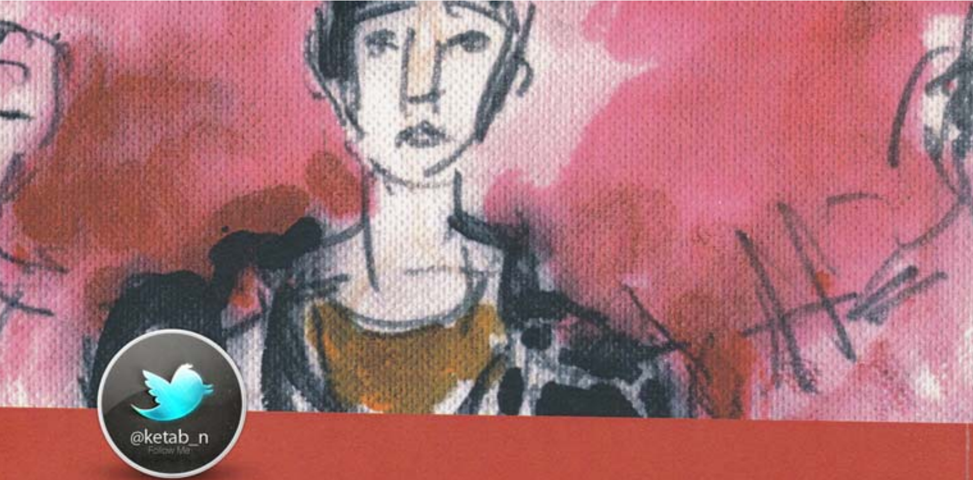


دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

الجزء الرابع

ترجمة: سامي الدروبي

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع وَرَثَة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

4

ترجمة: سامي الدروبي

المركز الثقافي العربي

الكتاب: **الإخوة كارامازوف 4 (رواية)**
المؤلف: **دوستويفسكي**
المترجم: **سامي الدروبي**
الطبعة الأولى: 2010
ISBN 978-9953-68-467-7

الناشر: **المركز الثقافي العربي**
بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان
ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01352826 ـ 01750507
فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب
ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 شارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 522303339 ـ 522307651
فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

الجُزْءُ الرَّابِع

الباب العاشر

الصبيـان

- 1 -

كوليا كراسوتكين

نحن في أول شهر نوفمبر (تشرين الثاني). درجة الحرارة إحدى عشرة درجة تحت الصفر. المياه تتجمد. وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناعم. فهذه هي الريح الجافة الحادة[1] تسفعه الآن في الشوارع الحالكة من مدينتنا الصغيرة، فتجمعة أكداساً على ميدان «السوق». الصباح يملؤه الضباب، ولكن الثلج انقطع عن الهطول. إنك ترى، غيرَ بعيد من الميدان، قرب متجر آل بلوتنيكوف، منزلاً صغيراً، نظيفاً جداً في الداخل والخارج على السواء، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين. إن الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً[2] قد مات منذ زمن طويل. . . فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة؛ ولكن أرملته، وهي امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة، في نحو الثلاثين من عمرها، ما تزال على قيد الحياة وتعيش من إيراداتها، في منزلها النظيف. وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة، لأن لها طبعاً رقيقاً حنوناً، وإن تكن على شيء من المرح. لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها، وهي لم تعش معه إلا سنةً واحدة، أي الزمن الذي كان لازماً لإنجاب ابنها. ومنذ ذلك الحين، منذ اليوم الذي ترملت فيه، لم تعش إلا من أجل هذا

الصغير، فوقفت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده. ولكنها، على حبها ابنها، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر كلها، حباً حنوناً لا حدود له، قد عانت من العذاب، كما تتصورون ذلك، أكثر كثيراً مما ذاقت من الفرح، فهي كل يوم تقريباً ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد، أو أن يمرض، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه، فيتسلق كرسياً ويسقط عنه، إلخ. . . وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية، ثم حين قُبل بعد ذلك في المدرسة الثانوية بمدينتنا، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه في دروسه. وأسرعت تتعرف كذلك بمدرِّسيه، بل وبنسائهم أيضاً، وتعلقت برفاق صفه، فهي تدلِّلهم وتتفانى في بذل جميع الملاطفات لهم، حتى لا يلحقوا بابنها أي إساءة، وحتى لا يسخروا منه أو يضربوه. وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً إلى السخرية منه بسببها، فأخذوا يناكدونه، مطلقين عليه اسم «دلّوع أمه». ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه. إنه طفل شجاع، «قوي قوّة هائلة»، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت في نفوسهم. وكان حاذقاً بارعاً، قوي الطبع صلب الإرادة جريئاً مغامراً جسوراً. وكان إلى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق في الرياضيات وفي تاريخ العالم على الأستاذ داردانيلوف نفسه. ولكنه رغم أنه ينظر إلى الآخرين من علٍ، يعرف كيف يحافظ، في وضعه، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق. ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة في معاملتهم. وكان يعرف خاصةً كيف يحافظ على القصد والاعتدال. كان قادراً على ضبط نفسه عند

الاقتضاء، فهو لا يتجاوز قط، في علاقاته بالمسؤولين عنه، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها، ولا يُعدُّ تخطيها إلا تمرداً وتردياً في الفوضوية وخروجاً على المشروعية. على أنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر، ولايعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة، فينطلق في أفعال مرحة طائشة، مثل سائر الصبية الصغار، لا بدافع «الشيطنة» والحق يقال، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما، وإحداث أثر في النفوس، ولفت الأنظار إليه، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة، والقيام بدور من الأدوار. وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغياناً واستبداداً. وقد خضعت الأم وأذعنت منذ زمن طويل، وإنّما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها «لا يحبها كثيراً»، وكانت لا تطيق هذه الفكرة ولا تستطيع احتمالها. كان يتراءى لها دائماً أن كوليا «فاتر العاطفة» تجاهها، وكان يتفق لها أن تبكي بكاء هسترياً، آخذةً عليه هذا الفتور؛ وكان الفتى يكره هذه «المشاهد»، فكلما طالبته أمه بمزيد من إظهار العاطفة، ثبت هو، وكأنما عن قصد، مزيداً من الثبات على جمود إحساسه وبرود عاطفته. والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً، وإنما كان يفعله على غير إرادة منه، فتلك كانت طبيعته ولكن الأم كانت على خطأ فقد كان يحبها كثيراً، غير أنه كان يكره هذا الإفراط السخيف في إظهار المشاعر، كان يكره تلك «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، كما كان يقول بلغته، لغة التلميذ.

وكان أبوه قد خلَّف مكتبة خاصة. وكان كوليا يحب القراءة، فقرأ عدداً من الكتب المودعة في الخزانة. لم يُقلقِ هذا أمَّه، غير أنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً

من أن ينصرف إلى اللعب. هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنّه هذه. على أن الفتى الذي كان لا يحب أن يتخطى بعض الحدود في عبثه، قد أخذ منذ زمن يثرثر حول أمور كانت ترعب أمه رعباً شديداً. لم يكن في سلوكه شيء يجافي الأخلاق، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشة. من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها في هذا الصيف نفسه، أثناء عطلة يوليو إلى قريبة من قريباتها تسكن في مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا، لقضاء أسبوع عندها. إن زوج هذه المرأة موظف في السكة الحديدية، فهو يعمل في محطة القطار بالمنطقة (وهي المحطة نفسها التي سافر منها إيفان فيدوروفتش كارامازوف إلى موسكو منذ شهر). راح كوليا في الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه في المدرسة عند عودته. وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين في المنطقة كان بعضهم يسكن حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن في منازل تبعد قليلاً عن المحطة. هكذا تألفت منهم عصبة عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وبينهم اثنان من مدينتنا. وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً، وتخيلوا أنواعاً من العبث والهزل، ثم إذا بهذه العصبة المرحة تخترع في اليوم الرابع أو الخامس رهاناً غبياً بروبلين على مغامرة فظيعة. إن كوليا، وهو أصغر أفراد العصبة تقريباً، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب، قد اقترح في ذات يوم، من قبيل حب الظهور أو من قبيل إبراز الجسارة، أن يتمدّد على وجهه في إحدى الليالي بين خطي السكة الحديدية، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار

فوقه بسرعة عند الساعة الحادية عشرة. لا شك أن كوليا قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً واستنتج أن في وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطي السكة الحديدية، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه. ولكن ما أشد ما تحتاج إليه هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش! وكان كوليا يُزْعَمُ أنه قادر على ذلك، فهزئ منه الفتيان في أول الأمر، ونعتوه بأنه كذاب وبأنه متبجّح، فما زاده ذلك إلا اغتياظاً وعناداً؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر إليه هؤلاء الفتيان الذين هم في الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية، وأن يرفضوا أن يعدّوه نداً لهم، وأن يصفوه بأنه «صغير»، وتلك في نظره إهانة لا تطاق! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل إلى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المحطة قد أخذ يجري سريعاً. واجتمعت العصبة. كانت الليلة غير مقمرة، وكان الظلام دامساً. وفي الساعة المتفق عليها تمدّد كوليا بين خطي السكة الحديدية. اختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار في أسفل المنحدر قرب الطريق، وهم يشعرون بشيء من الانفعال في أول الأمر، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك. وسُمعت أخيراً من بعيد همهمة القطار الذي غادر المحطة. وسطع ضوءان أحمران في الليل، وأقبل القطار العملاق يجري مسرعاً بضجة كدوي الرعد. صاح الصبيان وقد شلّهم الذعر في مخبئهم، يقولون لكوليا[3]: «اركض، اركض، اهرب»، ولكن كان قد فات الأوان. ووصل القطار ومرَّ فوق كوليا. ظل كوليا متمدداً بلا حراك. وهرع إليه الصبيان يحاولون إنهاضه. فإذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة، ثم يمضي يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة. حتى إذا وصل إلى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر

بالإغماء ليرعبهم. ولكن الحقيقة هي أنه قد أغمي عليه فعلاً، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة. ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم «الجَسور» إلى الأبد. وقد عاد الصبي إلى المنزل في تلك الليلة شاحباً إلى درجة البياض، وانتابته في الغد حمى خفيفة. ولكنه كان يشعر بسعادة، وكان يضحك ويمزح. ولم يذع أمر هذا الحادث فوراً، وإنما ذيع بعد عودة كوليا إلى مدينتنا، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً؛ وتدخلت أم كوليا لدى الإدارة ضارعة إليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى، وظلت تبذل مساعيها، إلى أن تولى المعلم داردانيلوف، وهو رجل محترم مسموع الكلمة، أمرَ الدفاع عن الصبي، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث. إن داردانيلوف هذا، وهو رجل عازب ليس متقدماً في السن، كان قد أُخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل، وتجرّأ على عرض الزواج عليها في السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً. ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها. ومع ذلك ظل داردانيلوف يقدِّر، على أساس بعض العلائم الخفية، أن عليه أن لا يفقد الأمل، وأن الأرملة الشابة الفتّانة، ولكن المبالغة في عفتها ووسواسها، لا تخلو من الميل إليه والإعجاب به. وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التي قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة، وقد أُفهم داردانيلوف، حين شُكِرَ له توسطه في الأمر، أنه ليس محظوراً عليه أن يراوده أي أمل. صحيح أن ذلك قد قيل إلماعاً بعيداً غامضاً، ولكن داردانيلوف، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة. وكان يحب كوليا، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف إليه، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية

متشددة. ولسنا نبتعد عن الإنصاف إذا قلنا إن كوليا نفسه كان يجافيه. لقد كان كوليا يحضِّر واجباته المدرسية بكثير من العناية، وكان ثاني التلاميذ ترتيباً في صفه، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التي يلقيها عليه المعلم. وكان جميع رفاقه، من جهة أخرى، مقتنعين بأنه قوي في مادة تاريخ العالم إلى درجة أنه يستطيع أن ينافس أستاذه. وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا أستاذه ذات يوم: «من بنى مدينة طراودة؟»، فاقتصر داردانيلوف في الإجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير، ولم يقل شيئاً عمن بنى مدينة طروادة تحديداً، أي مَنْ هم هؤلاء الأشخاص، وعدَّ هذا السؤال لسبب ما تافهاً لا داعي إليه. وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم باني طروادة. وكان كوليا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينة طروادة من كتاب سماراجدوف[4] الذي كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه. وأراد جميع التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بنى طروادة، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سرِّه، وظل محاطاً في علمه الذي لا سبيل إلى معرفته، بهالةٍ من المهابة والاحترام.

وقد حدث تغير في موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية. إن السيدة آنا فيدوروفا (وهذا هو اسم الأرملة كراسوتكينا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التي قام بها ابنها، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة.

وارتاع كوليا من الحالة التي صارت إليها أمه. فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنَّ بعد الآن عن هذه الأعمال، وليمتنعنَّ في

المستقبل عن مغامرات من هذا النوع. حلف على ذلك أمام الأيقونة وهو يجثو على ركبتيه، وحلف على ذلك أيضاً بذكرى أبيه، كما طلبت أمه. وقد انفجر كوليا «الجسور» عندئذٍ باكياً بكاء طفل في السادسة من عمره، واستسلم لنوبة من «العاطفة»، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين. ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح «فاتر الشعور»، كما في السابق، «بارد العاطفة»، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً، وأكثر تواضعاً وصرامةً، وأطول روية. ولكن ما إن انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا في مغامرة جديدة، فوصل اسمه حتى إلى أسماع قاضي الصلح. على أن القضية في هذه المرة كانت من نوع آخر تماماً ولم تكن أكثر من «شيطنة» مضحكة وحمقاء ليس فيها خطر، ولم يكن هو نفسه الفاعل فيها، وإنما جرفه إليها غيره. وسنشير إليها فيما بعد على كل حال. وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة، وأحس داردانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة. يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يدرك ويحزر الأحلام الخفيّة التي تراود أستاذه، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه «العواطف السّخيفة»؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون أية مداراة، ملمحاً إلى أنه يعرف كل المعرفة الهدف الذي يريد أن ينتهي إليه داردانيلوف. غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه في هذه الناحية أيضاً. فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز ولو كان غمزاً مستتراً، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام؛ وإذ أدركت أمه، بإحساس قلبها المرهف، الأسباب التي تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف الجديد، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان. ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسمَ

داردانيلوف بحضور كوليا عَرَضاً. وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهّم الوجه، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر إلى حذاءيه فاحصاً حالتهما، أو ينادي كلبه «بِرِزفون» غاضباً حانقاً، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه لا يعلم إلا الله لماذا! كان كوليا يضغط على الكلب أشد أنواع الضغوط من أجل أن يعلمه أنواعاً شتى من الحيل. واستطاع أخيراً أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً إلى المدرسة؛ ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا إلى المنزل، فمتى رأى «برزفون» صاحبه أخذ ينط ويتواثب طرباً، وأخذ يتقرب منه ويتحبب إليه، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت، أي صار يقوم بالحركات التي عُلِّمها، ولكنه لا يفعل ذلك في هذه المرة بأمر، بل من تلقاء نفسه، في اندفاعة انفعاله وشكرانه.

بالمناسبة: لقد أغفلت أن أقول إن كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك الفتى الذي طعنه في وركه الصبيُّ إيليوشا الذي يعرفه القارئ (هو ابن النقيب المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدَّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يسمونه «بالليفة» احتقاراً.

– 2 –

الأولاد

في ذلك الصباح من شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، صباح يملؤه الجليد والضباب، كان كوليا كراسوتكين في المنزل. اليومُ يومُ أحد، فلا مدرسة. ودقت الساعة الحادية عشرة. إن كوليا يريد أن يخرج من المنزل حتماً «لأمر هامٍ جداً». ولكنه كان في البيت عندئذٍ وحيداً، وقد عُهد إليه بحراسةِ البيت إن صح التعبير، لأن جميع الكبار قد اضطروا إلى الغياب عن المنزل لظروف طارئة. إن منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين صغيرتين، يفصلها عن الشقة التي تشغلها صاحبة الدار دهليز. وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب، فهي تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً. وقد توثقت بين المرأتين، وهما في سن واحدة، عرى صداقة قوية. أما الطبيب فكان قد سافر أولاً إلى اورنبورج منذ أكثر من سنة، ثم سافر من هناك إلى طشقند، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر، فلولا الصداقة التي قامت بين زوجة الطبيب والسيدة كراسوتكينا التي خففت حزنها، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها في البكاء والنحيب. ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب غاية سوء الحظ، كان من الضروري أن تبلغها خادمتها الوحيدة، كاترينا، في لحظة مباغتة لم تكن في الحسبان، ليلة الأحد نفسها، أنها تتأهب لأن تضع

مولوداً. ذلك ما حدث. أما إن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة. اضطربت زوجة الطبيب للحادث اضطراباً شديداً، وقررت أن تنقل كاترينا، ما دام في الوقت متسع، إلى قابلة في مدينتنا كانت تستقبل في منزلها نساء في مثل هذه الأحوال. ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ، فمضت بها إلى القابلة ومكثت قربها. وفي الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التي تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيءٍ من الحماية للخادمة التي توشك أن تلد. هكذا غابت السيدتان عن المنزل. ومن جهة أخرى، كانت آجافيا، خادمة السيدة كراسوتكينا، قد ذهبت إلى السوق. فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً، إلى حين، بحراسة الدار ومراقبة طفلَيْ زوجة الطبيب، الصبي والبنت، اللذين بقيا وحدهما معه في المنزل. لم يكن دور الحارس يرعب كوليا، لا سيما وأن الكلب «بِرِزفون» إلى جانبه. ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة في الدهليز، وأن يظل «ساكناً» لا يتحرك. وكان كوليا يذهب ويجيء بين الغرف، فكلما خرج إلى الدهليز، انتفض الحيوان الشهم، وأدار وجهه إلى جهة سيده، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين ضارعتين؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً واأسفاه، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية، فيسرع الكلب إلى التجمد على سكونه المطلوب. والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً إلا بالطفلين. صحيح أن حادث كاترينا المفاجئ قد أيقظ في نفسه احتقاراً عميقاً، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً، وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍ. إن ناستيا[5]، وهي الكبرى، تبلغ من عمرها ثماني سنين، وتعرف القراءة. وإن أخاها،

وهو أصغر منها بسنة، يجد لذة عظيمة في الاستماع إلى القصص التي تقرؤها له. واضح أن في وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى إلى الضحك، كأن يضعهما في صف ويلعب معهما لعبة الجنود، أو لعبة الاختباء، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منهما بغضاضة، حتى لقد شاع في المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه، ولكن كوليا قد فنَّد هذه التهم، وقال إن لعبة الحصان تخل بالكرامة حقاً «في هذا العصر» إذا هو لعبها مع رفاق مثله في الثالثة عشرة من أعمارهم، ولكنه إنما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً، وليس من حق أحد أن يتدخّل في عواطفه. لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة. على أن كوليا لم يكن في هذه المرة منشرح النفس للعب. لقد كان عليه أن يُعنى يومئذٍ بقضية شخصية هامة جداً، بل وسرية بعض الشيء. والزمن يمضي. وآجافيا التي كان يمكن أن يوكل إليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد. لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات، ففتح باب شقة زوجة الطبيب، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين في القراءة تنفيذاً لأمره. فكانا يبتسمان ابتسامة عريضة صامتة كلما ظهر لهما، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك. ولكن كوليا كان مهموماً ولذلك لم يدخل غرفة الطفلين. فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم عزماً حازماً جازماً على أن يخرج دون أن ينتظر آجافيا المنحوسة، إذا هي لم تعد خلال عشر دقائق، وذلك طبعاً بعد أن يأخذ من الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابه عاقلين هادئين، وأن لا يخافا ولا يبكيا وعلى هذا، ارتدى معطفه الشتوي الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب، ووضع كيسه المدرسي على كتفه. ورغم التوصيات

الملحة التي تسديها إليه أمه بأن لا يخرج في «مثل هذا البرد» دون أن ينتعل خفًى المطّاط، فإنه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الخفين بنظرة ازدراء واحتقار وخرج وعلى قدميه جزمتان خفيفتان. فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج، ضرب الأرض بذيله ضربتين، واضطرب وتحرك، وتقلقل وتدحرج، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً. ولكن كوليا رأى أن هذا الإفراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة، ولم يصفر له منادياً إلا حين فتح الباب، فوثب الحيوان الشهم وقد جُنّ فرحاً، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا. اجتاز الفتى الدهليز، ودخل غرفة الطفلين. إنهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل، ولكنهما كفًا عن القراءة، وكانا منهمكين في مناقشة حامية جداً. كثيراً ما كان يتفق لهما أن تختلف آراؤهما في تقدير أحداث الحياة اليومية الطريفة، وكانت ناستيا هي التي تنتصر في هذه الخصومات دائماً، وأنها الكبرى. فإذا لم يشأ كوستيا[6] أن يعترف بالهزيمة، احتكم إلى كوليا كراسوتكين، فسرعان ما يكون الرأي الذي يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل في نظر المتخاصمين كليهما. وبدا على كوليا في هذه المرة أن الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين «الصغيرين» يشد انتباهه ويثير اهتمامه، فقد وقف في عتبة الباب يصغي إليهما. فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما في المناقشة.

قالت ناستيا مزقزقة:

- مستحيل، مستحيل أن أصدِّق أن القابلات يجدن الصغار في حقول الخضار تحت الكرنب؛ الآن فصل الشتاء، فلا تنبت خضار، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً إلى كاترينا؟

دمدم كوليا يقول لنفسه:

- عجيب!

- وعلى كل حال، إذا كانت القابلات يأخذن هؤلاء الأطفال من مكانٍ ما، فإنهن لا يأتين بهن إلا إلى النساء المتزوجات.

كان كوستيا يحدّق إلى ناستيا، ويصغي بانتباه، ويبدو عليه التأمل والتفكير. وقال أخيراً بصوت جازم على هدوء:

- ما أنت إلا غبية يا ناستيا! كيف يمكن أن يكون لكاترينا طفل وهي غير متزوجة؟

فقالت ناستيا متململة نافدة الصبر:

- أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً! لعل لها زوجاً ولكنه في السجن. ولذلك كان لها طفل.

سألها كوستيا بهدوء ووقار:

- أأنت واثقة من أن زوجها في السجن؟

فقاطعته ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول:

- أنا أعرف كيف حدث هذا. ليس لها زوج. أنت على حق. ولكنها كانت ترغب في أن تتزوج، فأخذت تفكر في زواجها المقبل، ففكرت ثم فكرت، ومن كثرة ما فكرت حصلت ليس على زوج بل على طفل!

قال كوستيا المهزوم هزيمة تامة:

- إذا كان الأمر كذلك، فهذا مختلف كل الاختلاف. ولكن كان ينبغي أن تذكريه لي من قبل، فإنني ما كنت لأستطيع أن أتقبّل الأمر.

تدخل كوليا قائلاً:

- هيه يا أولاد! إنكم أخطر مما كنت أتصوَّر!

صاح كوستيا يقول:
- هه! هل «بِرِزفون» معك أيضاً؟
ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه.
بدأ كوليا يقول بوقار ورصانة وقد بدا في وجهه الاهتمام الشديد:
- اسمعوا يا أولاد! أنا في وضع صعب ويجب أن تساعدوني. لا بد أن آجافيا قد كُسرت ساقها، لأنها لم تعد حتى الآن. ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها. ويجب عليَّ حتماً أن أخرج. فهل تأذنون لي أن أنصرف؟
تبادل الصغيران نظرة قلقة، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك الحين باشّين باسمَيْن. وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما.
- ألن ترتكبوا حماقات أثناء غيابي؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا أرجلكم؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة؟
ارتسم على قسمات الطفلين كَدَرٌ عميق.
- إذا وعدتموني بأن تبقوا عقلاء، فسوف أريكم شيئاً، سوف أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقي.
فاطمأن وجها الطفلين في الحال. وصاح كوستيا مشرق المحيا:
- أرني هذا المدفع!
دسَّ كراسوتكين يده في كيس المدرسة وسلَّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز فوضعه على المائدة.
- ها... ها... هذا يهمكم! انظروا: إنه محمول على عجلات!
قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائدة. وأضاف:
- ويمكن إطلاق النار منه. يُحشى خردقاً، فتخرج الطلقة.

- هل يمكن القتل به أيضاً؟
- طبعاً! بهذا المدفع يمكن قتل أي إنسان، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً.
أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود، وكيف يمكن إدخال الخردق. أراهما فتحة صغيرة في البرونز تسمى بيت النار، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يرتد إلى وراء عند الإطلاق. أصغى إليه الصغيران بفضول شديد، وأثار خيالهما خاصة ذلك الارتداد.
سألته ناستيا:
- هل عندك بارود أيضاً؟
- عندي.
قالت وهي تبتسم ابتسامة ضارعة وتجرّ كلماتها جراً:
- أرنا البارود أيضاً.
فدس كراسوتكين يده في كيسه مرةً أخرى، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقي، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق. حتى لقد مضى في الملاطفة إلى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود في راحة يده.
- انظروا! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار، وإلا حدث انفجار يدمرنا جميعاً.
كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الإثارة.
وأخذ الطفلان يتفحصان البارود في خشية واحترام يزيدان لذتهما. ولكن اهتمام كوسيتا كان منصرفاً إلى الخردق خاصة. قال يسأل:
- ألا يحترق الخردق؟
- لا، لا يمكن أن يشتعل الخردق.
قال كوستيا متوسلاً:

- اعطني بضع حبات من الخردق.

- سأعطيك. هاك هذه الحبات. خذها. ولكن لا ترها لأمك ما لم أعد أنا؛ وإلا ظنتها بارودا، فماتت هلعاً، وجلدتكما كليكما.

أسرعت ناستيا تقول:

- ماما لا تجلدنا قط.

- أعرف. ولكنني قلت هذا لجمال الصورة. يجب أن لا تكذبوا أبداً على أمكم، إلا هذه المرة، بانتظار عودتي. والآن، يا أولاد، هل أستطيع أن انصرف؟ ألن تبكوا جزعاً أثناء غيابي؟

قال كوستيا بصوت رخو، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن:

- سـ. . . .نـ. . . . .بكى! . . . .

وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة:

- طبعاً سنبكي.

- ما أخطركم في هذه السن يا أولاد! يا عصافيري الصغيرة! سيكون عليَّ أن أبقى معكم لا أدري إلى متى؛ والوقت يمر ملحاً إلحاحاً رهيباً واأسفاه!

قال كوستيا:

- أصدر أمرك إلى «برزفون» بالتظاهر بالموت.

- لا مناص. لا بد من اللجوء إلى «برزفون» أيضاً! برزفون: تعال هنا.

أصدر كوليا أوامره إلى الكلب، فأخذ الكلب ينفذ الحركات التي تعلمها. إن برزفون كلب كثيف الشعر ضخم القامة لا تستطيع أن تحدد لونه، فهو أشهب أغبر معاً، وهو أعور العين، مصلوم الأذن اليسرى، لا يدري أحد لماذا. أخذ الكلب يصيت ويثب فرحاً، ويتبختر، ويمشي على قائمتيه الخلفيتين، ويندفع ويستلقي على ظهره

رافعاً قوائمه الأربع في الهواء ويتظاهر بالموت. وإنه ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة إذا بالباب يُفتح وإذا بآجافيا، الخادمة السمينة الضخمة التي تعمل عند السيدة كراسوتكينا، وهي امرأة مجدورة الوجه، في نحو الأربعين من عمرها، إذا بها تظهر في العتبة حاملةً بيدها كيس المؤن التي اشترتها من السوق. وقفت آجافيا ونظرت إلى الكلب معجبة بينما الكيس يتدلى من طرف ذراعها اليسرى. ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر، فإنه لم يقطع ما كان بسبيله من تمثيل حين رآها، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له، فما إن سمع الكلب الصفير حتى وثب واقفاً على قوائمه، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه.

قالت آجافيا بلهجة واعظ:

- هذا كلب حقاً!

فسألها كوليا بقسوة:

- لماذا تأخرت يا جنس النساء؟

- أنا جنس النساء؟ انظروا إلى هذا الولد الخائب!

- خائب!

- طبعاً خائب! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أم لا. ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً...

- دمدمت آجافيا متذمرة، وهي تنهمك قرب الموقد. على أنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ. بالعكس: كان يبدو أنها تجد لذة في مشاجرة سيدها الفتى المرح.

قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة:

- اسمعي يا من عقلك كعقل العصافير. هل تحلفين لي بأقدس ما تقدسين في هذا العالم، وبشيء آخر أيضاً، على أنك ستعتنين

بالأولاد أثناء غيابي، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم؟ إن عليَّ أن أخرج.

فقالت آجافيا مدهوشة ضاحكة:

- وعلام أحلف؟ لسوف أهتم بهم من دون يمين أحلفها.

- بل يجب أن تحلفي على ذلك بخلاص روحك! وإلا لن أخرج.

- إذاً لا تخرج. هل يضيرني أن لا تخرج؟ ثم إن الأفضل أن تمكث في الدار، فالبرد في الخارج شديد يجمِّد المياه.

قال كوليا يخاطب الطفلين:

- اسمعوا يا أولاد! ستبقى هذه المرأة معكم إلى أن أعود، أو إلى أن تعود أمكم التي كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هي أيضاً. وسوف تهيئ لكم فطوركم. ستطعمينهم، أليس كذلك يا آجافيا؟

- جائز.

- إلى اللقاء يا طيوري الصغيرة. إنني أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير.

ثم أضاف يقول لآجافيا بصوت خافت وهيئة رزينة:

- أما أنت أيتها المرأة الطيبة فأرجو أن لا تقصّي عليهم، بصدد كاترينا، تلك القصص السخيفة التي تعودتنّ أن تخترعنها في مثل هذه الأحوال. فما ينبغي إفساد نفوسهم. تعال هنا يا برزفون!

قالت آجافيا متذمرة وقد فقدت في هذه المرة صبرها:

- اذهب إلى الشيطان! يا لك من فتى مضحك! يحسن أن تُجلد حتى تتعلم كيف تتكلم!

– 3 –

التلميذ

ولكن كوليا كان قد كف عن الإصغاء، ها هو ذا يستطيع الخروج أخيراً. وبعد أن اجتاز الباب الكبير، التفت إلى وراء، وشد كتفيه، ودمدم يقول: «اف. . . ما أشد هذا البرد!»، وسار في أول الأمر قُدُماً على طول الشارع؛ ثم مال بعد قليل إلى زقاق يؤدي إلى ميدان السوق، ووقف أخيراً أمام الدار التي تقع قبل الأخيرة، فأخرج من جيبه صفارة، فصفر بها صفيراً قوياً، كإشارة متفق عليها. ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة، فها هو ذا صبي أحمر الخدين في الحادية عشرة من عمره، يهرع نحوه. إن هذا الصبي يرتدي هو أيضاً معطفاً دافئاً، نظيفاً جداً، بل وأنيقاً. إنه الفتى سموروف، تلميذ الصف التحضيري (إن كوليا يسبقه بصَفَّيْن)، وهو ابن موظف ميسور كان أهله قد حظروا عليه أن يعاشر كراسوتكين الذي اشتهر بأنه صبي متهور عنيد مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة. واضح أن سموروف قد تسلل إلى الشارع على غير علم من أهله. إن سموروف هذا – ولعل القارئ يتذكر ذلك – كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا إيليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين. وهو الذي كلم ألكسي كارامازوف عن إيليوشا في تلك المناسبة.

قال سموروف وقد لاح في وجهه العزم:
- إنني أنتظرك منذ ساعة يا كراسوتكين.
واتجه الفتيان نحو ميدان السوق.
قال كوليا:
- تأخرت حقاً. وذلك بسبب بعض الظروف. قل لي: ألن تُجلد لأنك جئت معي؟
- دعك من هذا الكلام! أتظن أنني أُجلد في البيت؟ هل «برزفون» معك؟
- كما ترى.
- هل تنوي اصطحابه أيضاً؟
- طبعاً.
- آه... ليته «جوتشكا»!
- هذا مستحيل. «جوتشكا» لم يبق له وجود. لقد اختفى دون أن يخلف أثراً.
قال سموروف فجأة وهو يتوقف:
- خطرت لي فكرة. ما دام إيليوشا يَزْعَمُ أن «جوتشكا» كان كلباً طويل الشعر، مثل «برزفون» هذا، وكان أشهب اللون أيضاً، أفلا نستطيع أن نقول له إن هذا «جوتشكا»؟ لعله يصدق.
- اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغي للمرء أن يكذب، ولو في سبيل الخير. هذه واحدة. أما الثانية فهي إنني أرجو خاصة أن لا تكون قد تكلمت هناك عن زيارتي.
قال سموروف:
- أبداً. ما هذا الكلام؟ أأنا غبي إلى هذه الدرجة من الغباء؟
ثم أضاف متنهداً:

- ولكن «برزفون» لن يعزِّيه. إن أباه، النقيب، هذه الليفة، قد قال لنا إنه سيأتيه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً، وهو يعتقد أن إيليوشا سيتعزى بهذا الكلب. ولكنني أشك في ذلك.

- وكيف حال أليوشا؟

- حاله سيئة جداً. أظن أنه مصاب بالسل. إنه لم يفقد وعيه، ولكن تنفسه صعب... صعب جداً! طلب منذ مدة أن يخرج في نزهة، فألبسوه ثيابه وحذاءيه، فما سار بضع خطوات حتى تهالك. فهتف يقول لأبيه: «قلت لك مراراً يا بابا إن هذين الحذاءين غير صالحين. لقد كنت أجد مشقة في المشي بهما حتى في الماضي». ظن أنه سقط بسبب الحذاءين، مع أنه سقط بسبب ضعفه. لن يعيش أكثر من أسبوع. إن الدكتور هرتسنشتوبه يراه من حين إلى حين. لقد أصبحوا أغنياء من جديد. إن معهم مالاً كثيراً.

- أوغاد!

- من هم الأوغاد؟

- الأطباء أوغاد، هم وعلمهم كله. إنني أتكلم على وجه العموم، ولكنني أخصص أيضاً. أنا لا أؤمن بالطب. الطب لا حاجة إليه. على أنني أريد أن أدرس هذه المشكلة دراسة أدق. ولكن قل لي ما تلك النزعة العاطفية التي ظهرت لديكم، يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون إليه، أليس كذلك؟

- لا، ليس الجميع. نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم. ليس لهذا كبير شأن.

- إن ألكسي كارامازوف هو الذي يدهشني أمره خاصةً في هذه القصة. سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة، ثم هو يجد من

وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ في اصطناع العواطف!

- ليست عواطف مزعومة. أنت نفسك تذهب الآن إلى أليوشا، تذهب إليه لتصالحه.

- لأصالحه؟ تضحكني هذه الكلمة! ثم إنني لا أسمح لأحد بأن يحلّل ويفسّر أفعالي.

هتف سموروف يقول بحرارة:

- ما أعظم سعادة إيليوشا حين سيراك! إنه لا يتوقع زيارتك البتة. لماذا رفضت أن تجيء إليه طوال هذه المدة؟

- يا عزيزي الفتى الطيب، هذا شأني أنا لا شأنك أنت. أنا أذهب إليه بإرادتي، لأن ذاك يحلو لي. أما أنتم فتذهبون إليه مدفوعين دفعاً من ألكسي كارامازوف. ذلك هو الفرق. ثم مَنْ قال لك إن في نيتي أن أصالحه؟ أنا لا أحبّ هذه الكلمة.

- كلا. نحن لا نذهب إليه بسبب كارامازوف! لقد ذهب التلاميذ إليه من تلقاء أنفسهم؛ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف في أول الأمر فذلك أمر طبيعي. ليس في سلوكنا هذا شيء من حماقة أو من عاطفة مصطنعة! ذهب إليه واحد منا في البداية، ثم فعل ذلك واحد آخر، وهكذا دواليك وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا! لسوف يُجنّ إذا مات أليوشا. هو يدرك أن ابنه لن يعيش. وقد سعد سعادة كبيرة بتصالحنا معه. سألنا أليوشا عن أحوالك، ولكنه لم يضف إلى ذلك شيئاً. سألنا عنك ثم صمت. أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه. ثم إن سلوكه كان دائماً سلوك إنسان مختل العقل. ولكنه رجل نبيل جداً، ولقد أخطأنا في الحكم عليه. إن الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذي ضربه في ذات يوم، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد ذلك أباه.

- مهما يكن من أمر فإن كارامازوف هذا يظل لغزاً في نظري. كان في وسعي أن أتعرف عليه منذ زمن طويل، غير أنني أحبّ في بعض الحالات أن أظهر كبريائي. على كل حال، لقد كونت لنفسي رأياً فيه، وما زلت في حاجة إلى التثبت من هذا الرأي.

قال كوليا هذا وصمت وقوراً رصيناً. ولزم سموروف الصمت أيضاً. واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين بإعجاب شديد، وما كان له قط أن يعامله معاملة الند للند. وهو الآن يحسّ بفضول قوي، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة «بإرادته»، فلا بد أن يكون في الأمر إذاً سر. لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة؟ ولماذا يذهب إلى إيليوشا في هذا اليوم على وجه التحديد؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ميدان السوق حيث تزدحم في هذه الساعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع. هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهم عارضات خبزاً وبسكويتاً وخيطاناً. إن الناس في مدينتنا يطلقون، بسذاجة، اسم الأسواق على تجمعات الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة. وكان «برزفون» يجري في جميع الجهات، ويسرح ويمرح، راكضاً إلى اليسار تارة، وإلى اليمين تارة أخرى متجهاً إلى كل موضع فيه شيء يشمه. فإذا لقي كلاباً أخرى بادلها، بسرور واضح، حركات التودد المألوفة، بوزاً إلى بوز، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب...

قال كوليا فجأة:

- أحبّ أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية يا سموروف. هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشَمِّ بعضها بعضاً؟ لا شك في أنها إذ تفعل ذلك تخضع لقانون عام من قوانين الطبيعة.

- نعم، لقانون مضحك جداً في رأيي.

– كلا، ما هو بمضحك، أنت مخطئ، ليس في الطبيعة ما يضحك، رغم كل ما قد يظنه الإنسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء! لو كان في وسع الكلاب أن تفكر وأن تنتقد لوجدت حتماً في السلوك الاجتماعي لدى البشر، سادتهم، من الأمور المضحكة في نظرها مثل ما نجد نحن في سلوكها، وربما أكثر من ذلك! أكرر ذلك: لأنني مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب الحيوانات. تلك فكرة من راكيتين، وهي فكرة ممتازة. أنا اشتراكي يا سموروف.

سأله سموروف:

– ما الاشتراكي؟

– الاشتراكي من يؤمن بأنه يجب أن يكون جميع البشر متساوين، والملكية لديهم واحدة ومشتركة، وأن يلغى الزواج، وأن يتغير الدين وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد، وهلّم جرا.. إنك لم تبلغ من النضج في سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور. ما أشد البرد مع ذلك!

– صحيح. تبلغ درجة الصقيع اثنتي عشرة درجة تحت الصفر اليوم. لقد نظر أبي في الترمومتر منذ قليل.

– هل لاحظت يا سموروف إن المرء، حين تهبط الحرارة في وسط الشتاء إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى إلى ثماني عشرة درجة، لا يشعر بالبرد مثلما يشعر به في بداية الشتاء حين تتجمد المياه عرضاً ولا تهبط الحرارة إلى أكثر من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، ولا يكون هنالك إلا ثلج قليل. كما هي الحال اليوم؟ ذلك إن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد. كل شيء في الإنسانية عادة، والأمر كذلك في ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية. إن العادة هي المحرّك

الكبير للحياة الإنسانية. انظر إلى هذا الفلاح كم هو مضحك!

قال كوليا ذلك وهو يومئ إلى فلاح طويل القامة يرتدي معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة. كان الفلاح واقفاً عند عربته مدثر اليدين بقفازين قصيرين، وهو يضرب يديه إحداهما بالأخرى نشداناً للدفء، وقد غشت حبيبات الجليد الفضية لحيته الطويلة الشقراء.

قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح:

- تجلّدت لحيته.

فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة:

- لست الوحيد الذي تجلدت لحيته.

قال سموروف قَلقاً:

- لا تسع إلى مشاكسته.

- ليس في هذا بأس. لن يزعل. هو رجل طيب. إلى اللقاء ماتفى!

- إلى اللقاء!

- هل اسمك إذاً ماتفى فعلاً؟

- طبعاً. أكنت تجهل ذلك؟

- لم أكن أعرف ذلك. وإنما سميتك بهذا الاسم مصادفة.

- غريب. أأنت تلميذ في المدرسة؟

- نعم.

- ها... وهل يجلدونك في المدرسة؟

- أحياناً.

- هل الجلد مؤلم؟

- تقريباً.

- كذلك هي الحياة.

بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً.

- استودعك لله يا ماتفي!

- استودعك الله. أنت غلام طيب!

- وتابع الفتيان طريقهما. قال كوليا:

- هذا الفلاح لطيف محبب. إنني أحبّ الحديث مع عامّة الشعب، ويحلو لي أن أنصفهم.

- لماذا كذبت عليه فقلت إننا نُجلد في المدرسة؟

- كان لا بد من مواساته قليلاً.

- مواساته؟ لم أفهم.

- اسمع يا سمورروف. أنا لا أحبّ كثيراً أن أُسأل حين لا أُفهم فوراً. هناك أمور يصعب شرحها. إن هذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون في المدرسة، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك. ما من تلميذ لا يُجلد؟ فلو قلت له بفظاظة إننا لا نُجلد في المدرسة لما فهم شيئاً ولأحزنه ذلك. على أنك لا تفهم هؤلاء الناس. يجب أن تجيد معاملة الشعب.

- ولكنني أتوسل إليك أن لا تتحرش بهم، وإلا فقد تقع لنا قصة كالتي وقعت لنا في ذلك اليوم، مع ذلك الغبي!

- هل يخيفك هذا؟

- لا تمزح يا كوليا. إنني أخاف، والله! لسوف يغضب أبي غضباً رهيباً. لقد حظروا عليّ حظراً قاسياً أن أخرج معك.

- اطمئن. لن يقع شيء هذه المرة. صباح الخير يا ناتاشا!

كذلك صاح كوليا يحييّ بائعة كانت تقف تحت إفريز حانوتها. فأجابت المرأة التي تبدو شابة، أجابت تقول بصوت حاد:

- ناتاشا؟ أتريد أن تضحك؟ أنا اسمي ماريا.
- ماريا؟ هذا أحسن. استودعك الله.
- انظروا إلى الولد الوقح! طوله طول حبة البطاطا، ثم هو يعاكس النساء!
قال كوليا وهو يلّوح بيديه كأن المرأة هي التي تزعجه:
- طيب طيب... ستقصين عليَّ هذا في يوم الأحد القادم. أنا الآن مشغول!
فصرّت ماريا تقول غاضبة:
- ليس عندي ما أقصه عليك يا متبجح! انظروا إلى هذا الولد! أنت الذي ناديتني متحرشاً بي، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح! إن السوط هو ما تستحقه أيها الولد البطال! نحن نعرفك...
فانفجرت البائعات اللواتي كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها بالضحك، وفجأة، انبجس من رواق المخازن في الميدان رجل غاضب حانق. إن هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجاري، حتى إنه ليس من مدينتنا، وإنما هو مارٌّ بها عرضاً. هو شاب يرتدي قفطاناً أزرقاً طويلاً، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوي، ووجهه طويل شاحب مجدور. إنه يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً، وها هوذا يتجه رأساً نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده. قال له صارخاً بغضب:
- أنا أعرفك، أنا أعرفك من زمن...
نظر إليه كوليا متفرساً فيه، فلم يفلح في أن يتذكر متى وأين احتكَّ بهذا الرجل. إن مشاجراته في الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكرها جميعاً. سأله كوليا بلهجة ساخرة:
- ها... تعرفني؟

- «نعم نعم، أعرفك أعرفك. . . - ردَّد الرجل في غباء.
- هذا خير لك. أنا مستعجل الآن. استودعك الله.
فصاح المستخدم يقول:
- تعود إلى وقاحاتك؟ تعود؟ أنا أعرفك يا وقح! أتعود إلى وقاحاتك؟
قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرَّس في الرجل:
- ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو أن لا أكون. ليس هذا من شأنك!
- كيف؟ ليس من شأني؟
- ليس من شأنك أنت على كل حال!
- من شأن مَنْ اذن؟ ألا قلت لي!
- هو الآن من شأن تريفون نيكيتش.
- أي تريفون نيكيتش تعني؟
- سأل الرجل وقد بدت في وجهه علامات دهشة بهاء، ولكن صوته ما يزال غاضباً. نظر إليه كوليا بوقار، ثم سأله على حين فجأة بقسوة:
- هل ذهبت إلى «كنيسة الصعود»؟
- أي كنيسة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أذهب إليها؟ كلا، لم أذهب.
قال المستخدم متحيراً مرتبكاً. فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة وإلحاحاً:
- هل تعرف سابانييف؟
- أي سابانييف؟ كلا. . . لا أعرفه.
قال كوليا يحسم الحوار:
- فليأخذك الشيطان إذن!
ثم مال فجأة إلى يمين، وانصرف بخطى سريعة، كأنه يرفض أن

ينزل إلى حيث يكلّم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانييف.

صاح المستخدم يسأله وقد ثاب إلى نفسه واضطرب من جديد اضطراباً شديداً:

- انتظر، اسمع، أي سابانييف تعني؟

- ثم التفت فجأة إلى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء:

- لماذا كلمني عن سابانييف؟

فانفجرت النساء تضحك.

قالت إحداهن:

- هذا الولد ماكر.

فكرر المستخدم يسأل ملحاً وهو يحرك يده اليمنى بإشارات عريضة:

- أي سابانييف؟ من هذا؟

قالت إحدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة:

- أغلب الظن أنه سابانييف الذي كان مستخدماً عند آل كوزمتشوف... لا يمكن إلا أن يكون هو...

حدّق إليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة.

وعادت امرأة ثانية تقول:

- عند آل كو....ز.... متشوف؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون! كان اسمه كوزما وليس تريفون. والتلميذ إنما ذكر اسم تريفون نيكيتتش. فليس المقصود إذاً سابانييف ذاك نفسه.

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل في المناقشة فتقول بعد أن ظلت طول الوقت صامتة تصغي بانتباه شديد:

- بل أنت مخطئة. لم يكن اسمه تريفون ولا سابانييف، بل كان اسمه تشيجوف، ألكسي إيفانوفتش، أتذكر ذلك جيداً: ألكسي

إيفانوفتش تشيجوف.

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة:

- هذا صحيح. المقصود هو تشيجوف فعلاً.

كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدةً واحدة، وقد بدت في وجهه أمائر الحيرة والذهول. ثم صاح بيأس:

- ولكن لماذا، لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال: «هل تعرف سابانييف؟»؛ هلاّ قلتنَّ لي لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات! لا يعلم إلا الشيطان ما الذي كان يدور في رأسه حين كلمني عن سابانييف...

فأجابته إحداهن بصوت صارم:

- ما أنت إلا أحمق! ألم نقل لك إن المقصود ليس سابانييف بل تشيجوف، الكسي إيفانوفتش تشيجوف؟

- تشيجوف؟ أي تشيجوف؟ قولي لي ما دمت تعلمين!

- هو رجل طويل القامة طويل الشعر، كانت له دكته في السوق هذا الصيف.

- ما شأني أنا بصاحبك تشيجوف هذا؟ هه؟ قلن لي أيتها النساء الطيبات!

- هل عليَّ أنا أن أعرف ما شأنك به؟

وقالت امرأة أخرى:

- هل نعرف نحن؟ يجب أن تعرف أنت ما الذي يريده منك، ما دمت تصرخ هذا الصراخ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن، يا أهبل! أم تراك لا تعرف الرجل؟

- أي رجل؟

- تشيجوف طبعاً!

- شيطان يأخذ تشيجوف هذا وأنت أيضاً معه! سوف أضربه، ذلك كل ما أقوله لكُنَّ، لأنه سخر مني.

- أأنت تضرب تشيجوف؟

- لا، لا، ليس تشيجوف من سأضربه، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق، وإنما سأضرب الصبي. ائتينني به إلى هنا، ائتينني به حالاً، حالاً... لقد سخر مني!

ضجت النساء تضحك ضحكاً صاخباً. أما كوليا فكان قد ابتعد، وهو يسير الآن مختالاً اختيال المنتصرين؛ وأما سمورروف الذي يسير إلى جانبه فإنه يلتفت من حين إلى حين نحو عصبة البائعات الصائحات. إن سمورروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجاً كبيراً، ولكنه يخشى أن يجره كوليا إلى قصة لا تحمد عقباها.

سأله سمورروف وهو يتنبأ بالجواب:

- عن أي سابانييف كلمته؟

- أأنا أدري؟ سوف يظلون يتشاجرون في هذا الأمر حتى المساء. لشد ما أحبّ أن أحيِّر وأن أربك الأغبياء من جميع فئات المجتمع. انظر! هذا بليد آخر هناك، ذلك الفلاح، هل تراه؟ كثيراً ما يقال: «اغبى الأغبياء غبي فرنسي». أما أنا فأرى إن وجوه الروس تكشف أحياناً عن غباوة يحسدون عليها. أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد؟ إنني أقصد ذلك الفلاح نفسه. ما رأيك؟

- دعه وشأنه يا كوليا. هيا بنا نمضي!

- لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال! إنني أشعر باندفاع لا سبيل إلى مقاومته. أنت..! صباح الخير أيها الفلاح الطيب!

ها هوذا الرجل المنادى، وهو فلاح قوي البنية، يبدو أنه ثمل قليلاً، يزدان وجهه المدوَّر الخالي من المكر بلحية متناثرة لوّحها

الشيب، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر إلى الفتى.

- طيب، ليكن، صباح الخير، إذا كنت لا تعبث!

- وإذا كنت أعبث؟

- لك ما تشاء عندئذٍ، اعبث قليلاً أيها الفتى. مباح للمرء أن يتسلى في هذا العالم. ليس يسيء ذلك إلى أحد.

- معذرة أيها الطيب، لقد أردت أن أمزح.

- سيغفر الله لك.

- وهل تغفر لي أنت؟

- من كل قلبي. امض في سبيلك!

- يبدو لي أنك فلاح ذكي.

- أذكى منك.

قال الرجل على غير توقع، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته.

فأجابه كوليا مرتبكاً:

- أشك في ذلك.

- بلى، بلى! أنا أذكى منك.

- قد يكون هذا حقاً.

- أرأيت؟

- استودعك الله أيها الفلاح.

- استودعك الله.

قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات صمت:

- الفلاحون أنواع. لم أكن أتوقع في هذه المرة أن أقع على فلاح ذكي. إنني أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاءً لدى أبناء الشعب.

وفي بعيد، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف. فغذَّ الفتيان الخطى، وقطعا بسرعة، دون كلام تقريباً، المسافة الكبيرة التي كانت ما تزال تفصلهما عن منزل النقيب سنيجيريف. حتى إذا صارا على بعد عشرين خطوة منه، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج إلى الشارع. وقال لسموروف شارحاً:

- أريد أولاً أن أتعرف به وأن أتشمم جو المكان.

فاعترض سموروف قائلاً:

- علام نأتي به إلى هنا؟ الأفضل أن تدخل رأساً، وسوف يسعدهم كثيراً أن يروك. ما أغرب هذه الفكرة، أن تتعرف بالرجل على قارعة الطريق في هذا البرد الشديد!

قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع هيئة السيطرة والتسلط في معاملة «الصغار»).

- هناك أسباب تدفعني إلى استدعائه إلى هنا إلى البرد الشديد، وأنا أعرف ماذا أفعل.

فأسرع سموروف يطيع الأمر راكضاً إلى المنزل.

– 4 –

«جوتشكا»

أسند كوليا ظهره إلى السياج، مصطنعاً هيئة الوقار، منتظراً وصول أليوشا. إنه يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف إلى أليوشا. لطالما سمع التلاميذ يتكلمون عنه، ولكنه كان حتى الآن، حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشيء من الازدراء، حتى إنه لم يفته، في بعض المناسبات، أن «ينتقد» سلوك أليوشا. الواقع أنه كان في قرارة نفسه يرغب رغبة قوية في أن يلقاه: إن شيئاً ما، في التفاصيل التي تُنقل إليه دائماً عن أليوشا، كان يحببه به ويجذبه إليه. لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة: إن عليه قبل كل شيء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله. فهو يقول لنفسه: «وقد يعدّني صبياً في الثالثة عشرة، فيكلمني كما يكلّم سائر هؤلاء الصبية الصغار. لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء؟ سوف ألقي عليه هذا السؤال في أول فرصة. إن ما يضايقني خاصةً هو أنني قصير القامة إلى هذا الحد. إن توزيكوف أصغر مني سناً وأطول مني قامةً. ولكن محياي ينم عن ذكاء. أنا دميم، أعرف ذلك؛ إن وجهي ليس وسيماً، ولكنه يعبِّر عن ذكاء. ينبغي لي، من جهة أخرى، أن أحرص على أن لا أسرف في الإفصاح عن نفسي والإعراب عن مشاعري. لو وثبت إلى عنقه،

فمن عسى يظنني؟ أوه! يا للخزي إذا هو ظنَّ أنني لا أجرؤ أن أفكّر في هذا!...».

كذلك كان كوليا فريسة اضطراب شديد، رغم كل ما كان يبذله من جهود في سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة. وكان قصر قامته خاصةً هو الذي يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه «المحروم من الوسامة». نعم، قصر قامته. لقد رسم منذ العام الماضي، على الجدار، في بيته، خطاً بقلم الرصاص، يشير إلى طول قامته؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن، يقف تحت هذا الخط كل شهرين، مهموم القلب، قلق البال، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد. ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد إلا ببطء. فكان ذلك يملأ نفسه في بعض اللحظات كمداً ويأساً. والحق أن قسمات وجهه لم تكن «محرومة من الوسامة»، بل لقد كانت لطيفة محببة. إن وجهه أبيض شاحب فيه بعض النّمش. وإن عينيه الشهباوتين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً، وتنظران نظرات جريئة، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة في بعض الأحيان. وإن وجنتيه عريضتان، وشفتيه صغيرتان دقيقتان، ولكنهما في مقابل ذلك حمراوان جداً. أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك، وكان أقنى. فكان كوليا إذا نظر إلى وجهه في المرآة، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم: «أنف أفطس، أفطس تماماً» - ويبتعد عن المرآة مغتاظاً. وكان يتساءل في بعض الأحيان، وقد راوده الشك حتى في هذا: «هل لي حقاً وجه ذكي؟». يجب أن لا نظن مع ذلك أن همَّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره. فإن الأمر لم يكن كذلك قط. فمهما تكن اللحظات التي كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية، فقد كان ينساها بسرعة، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة «وإنما تشغله عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً

كاملاً»، على حد التعبير الذي كان يحلو له أن يعرِّف به نشاطه وعمله.

لم يلبث أليوشا أن ظهر، فاتجه إلى كوليا بخطى سريعة. فلاحظ كوليا، من بعد، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير. تساءل مغتبطاً: «هل يبهجه إلى هذه الدرجة أن يراني؟». يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه في اللحظة التي تركناه فيها. هو لايرتدي الآن مسوح الدير، بل يرتدي بدلةً أنيقة، ويضع على رأسه لبادة رمادية، وقد قصَّ شعره قصيراً، وكان هذا الزي يناسبه كثيراً، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً. وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً، وكأنه مجتمع على نفسه. وقد دُهِشَ كوليا حين رأى أليوشا يخرج إلى الشارع بلا معطف، ولا شك أن أليوشا قد نسي من تعجله أن يرتدي معطفه.

مدَّ أليوشا يده إلى كوليا بغير تكلف قائلاً له:

- ها أنت ذا أخيراً! لقد انتظرنا أن نراك بصبر نافد.

- أعلم أنني قد تأخرت، وسأشرح لك أسباب ذلك. على كل حال، يسعدني أن أتعرف إليك. لطالما تمنيت أن تتاح لي هذه الفرصة، لأنني سمعت عنك كثيراً.

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب، لأن الانفعال قد قطَّع أنفاسه.

- كنا سنتعارف على كل حال. أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً. ولكنك أسرفت في التأخر عن المجيء إلى هنا، أسرفت إسرافاً شديداً.

- قل لي: كيف هو الآن؟

- حالة إيليوشا سيئة جداً. سيموت لا محالة.

هتف كوليا يقول بحرارة:

- ماذا تقول! هلاَّ اعترفت أن الطب حقير وكريه يا كارامازوف!

- هل تعلم أن إيليوشا قد نطق باسمك مراراً؟ حتى لقد كان في بعض الأحيان يتكلم عنك في أحلامه، وفي لحظات هذيانه أيضاً. واضح جداً أنك كنت عزيزاً عليه في السابق... قبل ذلك الحادث... حادث الطعن بالسكين. يبدو أن لهذا سبباً آخر... قل لي: أهذا كلبك؟

- نعم، هو «برزوفون».

- آ... أليس هو «جوتشكا» إذن؟ فقد ضاع «جوتشكا» إلى الأبد؟ قال أليوشا وهو ينظر إلى عينيي كوليا حزيناً.

فأجاب كوليا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة:

- أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون في «جوتشكا» وتحلمون به. إني مطلع على هذا لأمر. اسمع يا كارامازوف، سأشرح لك هذه القصة. إذا كنت قد جئت إلى هنا، واستدعيتك، فإنما فعلت ذلك لأبسط لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت.

وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة:

- في هذا الربيع إنما دخل إيليوشا الصف التحضيري. وأنت تعلم ما هو الصف التحضيري: صبية، أولاد صغار. فسرعان ما أخذوا يعاكسون إيليوشا. وأنا أتقدمه بصفين، فكنت أرقب تلك المشاهد، من بُعد طبعاً. رأيت أن الطفل صغير، هزيل، ولكنه لا يخضع ولا يستكين، حتى لقد يمضي إلى حد مقاتلتهم ضرباً بالأيدي. لقد كان ذا أنفة وكبرياء، وكانت عيناه تقدحان شرراً. إنني أحبّ الصبيان الذين هم على هذه الشاكلة. وكان الآخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسة بسبب هذه الكبرياء! وكانت ثيابه خاصة هي التي

تحتمل الاستهزاء به حينذاك: سروال مشمور، حذاءان متثائبان. . .
كان الصبية يندفعون إلى التهكم عليه بسبب ثيابه هذه أيضاً، وكانوا يحاولون إذلاله. أخذ ذلك يسوؤني، فسرعان ما تدخلت فأدَّبتهم. إنني أضربهم متى وجب أن أضربهم، وهم مع ذلك يعبدونني عبادة، هل تعرف ذلك يا كارامازوف؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخراً). وأنا أعبد الأطفال على كل حال. واعلم أن عندي في البيت، في هذه اللحظة نفسها، طفلين أعنى بهما، وهما اللذان أخَّراني اليوم. هكذا كفَّ الصبيان عن اضطهاد أليوشا، وأصبحت أحميه. ولقد كان الولد شديد الكبرياء صدِّقني، شديد الكبرياء جداً، ولكنه أذعن لي أخيراً إذعان عبد، فهو ينفذ أوامري، ويصغي إليَّ إصغاءه إلى إله، ويحاول أن يقلّدني في كل شيء. كان في أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع إليَّ فوراً، فنمضي معاً. وكذلك في أيام الآحاد. والتلاميذ في مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير، ولكن تلك آراء سخيفة. هذا هو رأيي وهذه إرادتي ويكفي، أليس كذلك؟ وحاولت أن أعلمه، أن أنمي ثقافته، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً إلى نفسي! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار. فأنت تريد إذاً أن تحدث أثراً في الجيل الجديد، أن تغيره، أن تكون نافعاً له. إنني أعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التي عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هي التي شاقتني فيك أكثر من صفاتك الأخرى. ولكن فلنعد إلى الوقائع: لقد أدركت أن الصبي أخذ يصير إلى الإفراط في الحساسية، في العاطفية. وأنا أكره أشد الكره هذه «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، أكرهها وأمقتها منذ ولدت، فاعلم هذا! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض في وضعه: فهو من جهة أولى شديد الأنفة

والكبرياء ومن جهة ثانية مخلص لي إخلاص عبد. كان يطيعني في كل أمر خاضعاً، ثم إذا بعينيه تقدحان على حين فجأة شرراً، فلا يريد أن يوافقني، بل هو يناقش ويماحك ويغضب. كان يتفق لي أن أعرض له بعض الآراء. لن أقول إنه كان يعارض عندئذٍ هذه الآراء، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفني أنا شخصياً، وأنه كان يتمرد ويعصي لأنني كنت أردّ على اندفاعات عاطفته ببرود. عندئذٍ قررت، حتى أربيه، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوّي تحفظي تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بي. كان ذلك من جانبي موقفاً مقصوداً محسوباً، يتفق ومبادئي. لقد أردت أن أصلح طبعه، أن أقوي عزيمته، أن أصلِّب إرادته، أن أخلق منه رجلاً... الخلاصة.... لا شك أنك تفهمني بنصف كلمة. وفي ذات يوم، لاحظت فيه اضطراباً غريباً. كان يبدو منهاراً مصعوقاً. وظل على هذه الحال أياماً. أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردُّه إلى قلة عاطفتي وحدها، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأهمّ. تساءلت ما عسى تكون الدراما التي تجري في نفسه. ولاحقته بالأسئلة، فإذا أنا أعرف الحقيقة: لقد تعرَّف، لا أدري كيف، إلى سمردياكوف خادم المرحوم أبيك (الذي كان ما يزال حياً في تلك الآونة). فعمد سمردياكوف إلى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية، بل قل مزحةً وحشية حقيرة هي أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً إلى كلب ضال، إلى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التي تبلع، دون مضغ، كل ما يقع تحت أسنانها... وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك. هكذا أعدَّا لقمة من خبز، وألقياها إلى «جوتشكا» ذاك الكلب الضخم الطويل الشعر الذي كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين. هو كلب من

تلك الكلاب التي ينسى الناس أن يطعموها، والتي تقضي النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبي يا كارامازوف؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله). انقضّ الكلب المسكين على لقمة الخبز، فبلعها، وسرعان ما أخذ يعول متلوياً من الألم، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوي على شيء، يئنّ متوجعاً. هكذا اختفى ذلك الكلب، على حسب الرواية التي رواها لي أليوشا نفسه. لقد اعترف لي إيليوشا بفعلته وهو يبكي، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقني متشنجاً، وما ينفك يكرر قوله: «كان الكلب يركض ويئن، يركض ويئن...»، فإلى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر!... لاحظت أن عذاب الضمير يضنيه، وأن الندم يهدّه هداً. أخذت الأمر مأخذ الجد. كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق، فعمدت إلى الحيلة والمكر... أعترف لك بذلك. تظاهرت باستياء شديد من فعلته، استياء أشد كثيراً من استيائي في الواقع. قلت له: «لقد ارتكبت عملاً حقيراً، عملاً جباناً... أنت نذل... لن أشي بك طبعاً، ولكنني أنهي الآن علاقات الصداقة بيننا. وسأفكر في الأمر، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبي الذي صحبني إلى هنا، وكان مخلصاً لي على الدوام): هل قررت أن أعيد الصلة بيني وبينك، أم قررت أن أهجرك إلى الأبد بصفتك فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام».

أحدثت هذه الأقوال في نفسه أثراً رهيباً. وسرعان ما أحسست - أعترف لك بذلك - أنني أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو وإسراف. ولكن ما العمل؟ لقد كنت أعمل عندئذٍ بوحي من قناعاتي. وفي الغد، أرسلت إليه سموروف لأبلغه أنني «لن أكلمه بعد اليوم قط». تلك هي الاصطلاحات التي نستعملها في المدرسة

للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين. والحقيقة أنني كنت أريد أن أهجره بضعة أيام فقط، ثم أمدّ إليه يدي حين أرى ندامته. تلك كانت نيتي الجازمة على كل حال. ولكن ماذا تظن أنه حدث؟ أصغى إلى الرسالة التي بلغه إياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً: «أبلغ كراسوتكين أنني سألقي بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس إلى جميع الكلاب، إلى جميع الكلاب!». قلت لنفسي عندئذٍ: «ها... ها.... لقد استيقظت فيه روح التمرد، فيجب أن تُقمع وتُقهر». وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة. وفي تلك الآونة إنما وقعت لأبيه تلك الحادثة، حكايةُ الليفة كما تعلم. إنك لتقدِّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف. وإذ رأى التلاميذ أنني هجرته فقد هاجموه من جديد، صائحين له من أجل إغاظته وإخراجه عن طوره: «ليفة، ليفة، إلخ». كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً، ذلك أنني أعتقد أنه قد كيلت له الضربات في ذات مرة. وفي يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها. وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأراقبه. أحلف لك أنني لم أكن قد سخرت منه. بالعكس: لقد أيقظ في نفسي عندئذٍ شفقةً كبيرة، شفقة كبيرة جداً. وكنت أوشك أن أهبّ إلى نجدته. ولكن نظرته التقت بنظرتي فجأة. ولست أدري ما الذي ظن أنه يقرؤه في عينيَّ، ولكنه استل سكّينه بغتةً، وهجم عليَّ، فأغمد السكّين في وركي، هنا، فوق الساق اليمنى قليلاً. لم أتحرك. أعترف لك يا كارامازوف أنني أبرهن في بعض الظروف على شجاعة. لم أزد على أن نظرت إليه باحتقار، وكانت نظرتي تقول بوضوح: «أهذا كل شيء؟ ألا تريد أن

تضربني أيضاً، عرفاناً منك بالصداقة التي حملتها لك؟ هيَّا، افعل بي ما تشاء!». ولكنه لم يطعن مرة أخرى، وفقد شجاعته فجأة، وخاف، ورمى السكّين ثم لم يملك زمام نفسه، فإذا هو ينفجر باكياً ناشجاً. ثم ولّى هارباً، لم أشِ به طبعاً. حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بأن يكتموا ما وقع بغية أن لا يصل الأمر إلى مسمع الإدارة. ولم أقل لأمي شيئاً كذلك، ولم أقصص عليها الواقعة إلا بعد أن التأم الجرح تماماً. وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال. وقد علمت بعدئذٍ أنه في ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه، ورماهم بالحجارة، وعضّ إحدى أصابعك. لا شك أنك تدرك الآن الحالة النفسية التي كان عليها حينذاك. ما العمل؟ إنه ليؤسفني أنني تصرفت تصرفاً أحمق. فحين مرض لم أزره لأغفر له... أقصد... لأتصالح معه... وأنا الآن نادم على ذلك. ولكني ينبغي أن أقول مع ذلك إن هناك، في هذه القضية، أسباباً دفعتني إلى أن أتصرف كما تصرفت. الخلاصة... هذه هي القصة كلها... ولكن واضحٌ أنني تصرفت تصرفاً أحمق..

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد:

- أوه! خسارة أنني لم أعرف قصة علاقاتك بإيليوشا[7]... وإلا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبني إليه. تصوّر أنه كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه. كنت أجهل أنك عزيز على نفسه إلى ذلك الحد. هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على «جوتشكا»؟ ألم تجده حقاً؟ إن أبا إيليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب في المدينة كلها. هل تتصور أن إيليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضوري، قال له مريضاً باكياً: «لئن كنت أتألم يا بابا، فلأنني قتلت جوتشكا... إن الله يعاقبني». لا سبيل إلى إخراج هذه الفكرة من

رأسه! لو استطعنا على الأقل أن نهتدي إلى جوتشكا هذا وأن نريه إياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت، بل إنه على قيد الحياة، إذاً لبعث حياً من شدة الفرح. ولقد كنا جميعاً نعوّل عليك في هذا.

سأل كوليا بفضول شديد:

- لماذا قدرتم أنني سأعثر على «جوتشكا»؟ لماذا كنتم تعوّلون عليَّ أنا ولا تعوّلون على أحد غيري؟

- شاع أنك تبحث عن الكلب وأنك ستجيء به إلى إيليوشا متى وجدته. أسمعنا سموروف في ذات مرة شيئاً من هذا القبيل. ونحن جميعاً نجهد في أن نقنع ايليوشا بأن «جوتشكا» حي، بأنه رُئي في مكان ما. وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدري من أين حملوه، فنظر أليوشا إلى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة، وطلب أن ترد إلى الأرنب حريته. ففعلنا ذلك. وفي تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً جرواً صغيراً من كلاب الحراسة. كان الأب يظن أن هذا سيواسي ابنه. ولكنني أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك. . .

- قل لي أيضاً يا كارامازوف: إلى أي نوع من الرجال ينتمي أبوه؟ إنني لا أعرفه إلا بالنظر. فما هو في رأيك؟ أهو مهرِّج؟

- لا! . . . إن هناك أناساً أوتوا حساسية عميقة، ولكن القدر قد صعقهم وسحقهم. وما تهريجهم عندئذٍ إلا نوع من الانتقام المرِّ الساخر إزاء أولئك الذين لا يجرؤون أن يواجهوهم ولا يجسرون، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه. ثق يا كراسوتكين أن هذا التهريج يمكن أن يكون له، في بعض الحالات، أساس تراجيدي جداً. إن أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على إيليوشا. يكفي أن يموت إيليوشا حتى يُجنَّ

حزناً أو ينتحر. إنني لا أنظر إليه مرة إلا اراد يقيناً اليقين من ذلك.

قال كوليا بانفعال:

- أفهمك يا كارامازوف. ألاحظ الآن أنك خبير في معرفة النفس الإنسانية.

- لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بجوتشكا.

- صبراً يا كارامازوف. قد نعثر على ذلك الكلب. أما هذا فهو «برزفون». سأتركه في غرفة أليوشا، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذي أتاه به أبوه. اسمع يا كاراماوف. سأذكر لك بعض الأمور. آه... رباه! ماذا أفعل؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً)... أؤخرك في هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف! ها أنت ذا ترى مدى أنانيتي... نحن جميعاً أنانيون، واأسفاه!

- لا تقلق. صحيح أن الجو بارد. ولكنني لا أصاب بالزكام بسهولة. على أننا نحسن صنعاً إذا دخلنا البيت. بالمناسبة: ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا، ولكن كوليا ماذا؟

- اسمي نيقولا، نيقولا إيفانوف كراسوتكين، أو نيقولا إيفانوف ابن كراسوتكين، إذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين.

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة. ثم أسرع يضيف:

- لعلك تقدِّر أنني أكره اسم نيقولا هذا؟

- لماذا؟

- لأنه مبتذل، تافه..

- أأنت في السنة الثالثة عشرة من عمرك؟

- بل في الرابعة عشرة. سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين. وأحب أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفي يا كارامازوف حتى تعرف طبعي معرفة جيدة منذ البداية: إنني أكره أن أُسأل عن عمري، بل أمقت ذلك أشد المقت... ثم... يجب أن أقول لك... هناك نميمة في حقي تجري الآن وتشيع... إنهم يدّعون أنني لعبت في الأسبوع الماضي مع تلاميذ الصف التحضيري لعبة اللصوص... صحيح أنني لعبت هذه اللعبة... لست أنكر ذلك... أما أن يُقال أنني لعبتها لنفسي، لمسرّتي أنا، فذلك تشنيع كريه. هناك أسباب تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك. فاعلم إذاً أنني لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصي، وإنما لعبتها لأسرَّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدوني. إن الناس في هذه المدينة يحبون الأقاويل. إن هذه المدينة لا تعيش إلا على الثرثرات، أؤكد لك ذلك.

- هبك لعبت لمسرتك الخاصة، فأي ضير في هذا؟

- لمسرتي الخاصة؟ ما هذا الكلام؟ أترضى أنت أن تلعب لعبة الحصان مثلاً؟

قال أليوشا مبتسماً:

- فكِّر قليلاً: في المسرح تُمثَّل التمثيليات للكبار، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال، ومعارك حروب، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع الطرق في بعض الأحيان. أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه في حقيقة الأمر، وإنما اكتسى صورة أخرى؟ اعلم أن الصبيان الصغار، حين يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق، أثناء فترات الاستراحة بين الدروس، إنما يقومون بعمل فني أيضاً على طريقتهم الخاصة. هذا فن ناشئ، هذه تطلعات فنية تتجلى في نفوس الصغار. وإن هذه الألعاب لتكون في بعض الأحيان أجمل من

تمثيليات المسرح. الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون إلى المسرح ليروا الممثلين، على حين أن الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون في آن واحد. هذا شيء طبيعي تماماً.

سأل كوليا وهو ينظر إلى أليوشا بانتباه شديد:

- أتعتقد بذلك حقاً؟ أهذه قناعتك؟ هل تعلم أنك تعبِّر عن فكرة شائقة جداً؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود إلى منزلي بعد قليل. لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة، أعترف لك بذلك. إنني جئت لأتعلّم منك يا كارامازوف.

بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة. فأجابه أليوشا وهو يبتسم له ويصافحه:

- وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك.

كان كوليا مفتوناً بأليوشا. ولقد أرضاه خاصة أن يعامله أليوشا معاملة الند للند، كما يعامل «شخص كبير».

قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية صغيرة:

- سأريك حيلة يا كارامازوف، هي نوع من التمثيل المسرحي. لهذه الغاية إنما جئت إلى هنا.

- لندخل أولاً إلى عند أصحاب الدار، في اليمين. لقد خلع هناك جميع رفاقك معاطفهم، لأن جو الغرفة خانق، والمكان ضيق.

- لن أمكث مدة طويلة، فلا حاجة إلى خلع معطفي. وسيبقى «برزفون» في الدهليز، ويتظاهر بالموت. «تعال يا «برزفون». ارقد ومت». ها هو ذا قد مات. وسأدخل أولاً، فأرى ما يجري، ثم أصفر في اللحظة المناسبة منادياً: «تعال يا «برزفون»». فيسرع الكلب وقد جُنَّ فرحاً. ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب في اللحظة المناسبة. سألقّنه التعليمات اللازمة، فترى هذه الحيلة...

- 5 -

على سرير إيليوشا

المكان ضيق والجو خانق في الغرفة المعروفة لدينا التي تسكنها أسرة النقيب المتقاعد سنيجريف، والتي كان يتكدس فيها في تلك الساعة زوار كثيرون جداً. إن عدداً من الصبيان يجلسون قرب سرير إيليوشا. ورغم أنهم مستعدون جميعاً، مثل سموروف نفسه، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع إيليوشا هو من صنع أليوشا، فلقد كان الأمر كذلك في الواقع. ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم إلى غرفة إيليوشا واحداً بعد واحد، متحاشياً الاندفاعات العاطفية، متحاشياً ما كانوا يسمونه بـ «عواطف العجول»، حريصاً على أن يضفى على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة. وقد أحسنت هذه الزيارات إلى إيليوشا، وواسته كثيراً. إن هذه الصداقة الحنونة وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية، أعداؤه القدامى، قد أثّرا في نفسه تأثيراً عميقاً. ليس ينقصه الآن إلا كراسوتكين الذي كان غيابه يُثقِلُ على صدره كثيراً. وإنْ كان ثمة شيء في ذكريات إيليوشا المُرَّة فهو ذلك الحادث الذي وقع بينه وبين كراسوتكين، صديقه القديم الوحيد وحاميه، الذي انقضَّ عليه إيليوشا بمذيته. وذلك ما أدركه سموروف حق الإدراك (وهو فتى ذكي جداً كان أول من جاء يصالح إيليوشا). بينما أسرع

كراسوتكين نفسه، حين أبلغه سموروف، بكلمات مغطاة، أن إيليوشا يحب أن يراه «لأمر من الأمور»، أسرع يقطع حديثه مع سموروف وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف إنه يعرف بنفسه ما الذي يجب عليه أن يعمله ليس في حاجة إلى نصائح أحد. وأضاف إلى ذلك أنه إذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك في الوقت الذي يراه مناسباً، لأن له «حساباته الخاصة» بهذا الصدد. حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً. وذلك هو السبب في أن أليوشا لم يزره كما كان ينوي أن يفعل. وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف إلى كراسوتكين مرةً ثم مرة ثانية، ولكن كوليا أجاب في المرتين كلتيهما بخشونة وتذمر، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة إيليوشا إلى الأبد إذا ارتأى أليوشا أن يجيء إليه؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن. وكان سموروف نفسه يجهل إلى آخر يوم أن كوليا قد قرر أن يجيء إلى إيليوشا في هذا الصباح. وفي عشية ذلك الأحد، حين ودَّع كوليا صاحبه سموروف، إنما أمره بأن ينتظره في صباح الغد ليذهبا معاً إلى أسرة سنيجيريف. وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبئ أحداً بأمر هذه الزيارة، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار. وأطاعه سموروف. كان سموروف يرجو في سرِّه أن يجيء كوليا بالكلب «جوتشكا»، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه في ذات مرة، بحضور سموروف، كلمات مفادها، «إنهم جميعاً حمير، لأنهم لمَّا يستطيعوا بعدُ أن يعثروا على الكلب، إذا كان الكلب ما يزال حياً». ومع ذلك، حين سمح سموروف لنفسه في ذات يوم، لاعتقاده بأن الفرصة مؤاتية، بأن يشير إشارة غامضة إلى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين، فإن كراسوتكين غضب غضباً شديداً وصرخ يقول: «أأنا حمار حتى أضيِّع وقتي في البحث في

أرجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين، بينما أنا أملك كلبي «برزفون»؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حدَّ الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه!».

لقد أصبح إيليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع في زاوية الغرفة تحت الأيقونات. وهو لم يرجع إلى المدرسة منذ اليوم الذي التقى فيه بأليوشا وعضَّ له أصبعه. لقد رقد في سريره في ذلك المساء نفسه، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض في بعض الأحيان ليسير بضع خطوات في الغرفة أو الدهليز. غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه. وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه، حتى لقد كفَّ عن الشراب، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون. وكثيراً ما كان يتفق له، بعد أن يروِّض صغيره في الغرفة ممسكاً به من ذراعه، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانيةً في سريره، أن يهرب إلى ركن مظلم من الدهليز، فيضع جبينه على الجدار، ويأخذ يبكي بكاءً متشنجاً، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها إيليوشا.

فإذا عاد إلى الغرفة حاول أن يسلِّي عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه، قاصاً عليه حكايات سحرية أو راوياً له نكتاً هزلية أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص أو محاكياً له حيوانات مختلفة فكان يَعْول ويقلد بأصوات مضحكة. وكان إيليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرِّج أمامه. كان يحاول أن يخفي الضيق الذي يحسّه، ولكنه كان يدرك حق الإدراك في قرارة قلبه المحطم المسحوق، أن أباه قد أذلَّه المجتمع، وأن ذكرى ذلك

اليوم الرهيب في الحانة تحاصره ولا تبارحه لحظة. وكانت نينا الكسيحة، أخت إيليوشا، المهيضة الوديعة، تكره هي أيضاً أن ترى ما يقوم به أبوها من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت إلى بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها). أما الأم البلهاء، فقد كانت تجد في ذلك لذة كبيرة، وكان تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرّي عنها. وهي في كل ما عدا ذلك من وقت، لا تكف عن الشكوى والبكاء، قائلةً إن الجميع قد نسوها، وإن أحداً لا يحترمها، وأن الإساءات والإهانات تنصبّ عليها، إلخ. غير أن تبدلاً لم يكن في الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام. أصبح يتفق في كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً إلى ايليوشا في ركنه، فإذا هي تطرق وتغرق في التفكير. لقد أصبحت أقرب إلى الصمت، وبدا عليها شيء من هدوء، فإذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكاؤها. وقد لاحظ النقيب هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة. ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايقها في أول الأمر، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحنقها. ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذٍ تسرّي عنها، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد، وبلغت من ذلك أخيراً أن صار وجودهم ضرورة لا غنى لها عنها، فإذا غابوا هوت إلى حزن مرهق. كانت إذا قصَّ التلاميذ حكايات أو أخذوا يلعبون، تضحك أو تصفق بيديها، وتناديهم إليها، في بعض الأحيان تقبّلهم. وكان الفتى سموروف يحظى بإيثارها إياه على غيره. أما النقيب فكان مجيء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً في كل مرة، وكان يأمل في تلك اللحظات أن يسرّي وجودهم عن ايليوشا، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن. كان لا يشك لحظةً، رغم جميع المخاوف التي توقظها في نفسه حالة ابنه، في أن ابنه

سيسترد عافيته فجأة، وكان هذا الاقتناع هو الذي شد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة. إنه يستقبل هؤلاء الزوَّار الصغار باحترام وتأثر، ويسعى ويدور حولهم، ويضع نفسه في خدمتهم، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا. لذلك كفوا أخيراً عن هذه الألعاب. غير أن الأب قد عوَّض الأولاد عن هذا، فأصبح يشتري لهم سكاكر وفطائر وجوزاً، ويعد لهم شاياً وساندويشات. يحسن أن نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه في هذه الفترة. فقد قبل أن يأخذ المائتي روبل التي أرسلتها إليه كاترينا إيفانوفنا بعد رفضه الأول، قبلها في هذه المرة بغير عناء، كما تنبأ أليوشا تماماً. ثم بعد ذلك جاءت إليهم كاترينا إيفانوفنا بنفسها لتتعرف إليهم بعد أن علمت بأحوالهم التعيسة وبمرض ايليوشا بمزيد من التفصيل واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم بسخاء، ونسي النقيب كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه. وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض بانتظام كل يومين بطلب من كاترينا إيفانوفنا، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج تُذكر رغم الأدوية الكثيرة التي حشا بها المريض. غير أنهم كانوا في ذلك اليوم، أي في صباح يوم الأحد ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو. طبيب ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع. لقد طلبته كاترينا إيفانوفنا خصيصاً، لقاء أجور باهظة. صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا، وإنما هي استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد، ولكنها انتهزت فرصة وجوده في مدينتنا، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً، وأبلغت النقيب بذلك مسبقاً. ولكن النقيب، في مقابل ذلك، لم يكن يتوقع

زيارة كوليا كراسوتكين، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذي تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً.

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة، كان النقيب والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير، ويتأملون جرو الحراسة الرضيع الذي وُلد البارحة وجيء به لتوه. كان أبو أليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع، آملاً أن يسرِّي به عن ابنه الذي لم يستطع أن ينسى اختفاء «جوتشكا» الذي مات بلا شك. وكان ايليوشا الذي يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير، أصيل، من أرقى أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام جداً) كان يتظاهر، لباقةً، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية. ومع ذلك كان جميع الحضور، الأب والأولاد على السواء، قد أدركوا حقّ الإدراك أن هذا الكلب الجديد لم يزد على أن أذكى في قلب المريض تلك الذكرى الأليمة، ذكرى الآلام التي سبَّبها للكلب المسكين «جوتشكا». كان الكلب الصغير مضطجعاً قرب أليوشا يتحرك. وكان ايليوشا يبتسم ابتسامة ضعيفة واهنة، وهو يلاعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة. كان واضحاً أن أليوشا معجب بالحيوان الصغير... ولكن هذا الحيوان الصغير ليس «جوتشكا»؛ إن «جوتشكا» ما يزال غائباً! آه... يا ليت أن الجمع بين «جوتشكا» وهذا الكلب الصغير ممكن، إذاً لكان ذلك سعادة كبرى!...

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا:

- كراسوتكين!

حدث اضطراب خلال لحظة، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبي السرير كاشفين بذلك عن إيليوشا، وهرع النقيب يستقبل كوليا، متمتماً:

- أدخل، تفضل... أيها الضيف العزيز! يا صغيري ايليوشا، هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك...

لقد أسرع كوليا يمد يده إليه، فبرهن في الحال على معرفته التامة بالآداب الاجتماعية إذ التفت أولاً نحو زوجة النقيب، الجالسة على مقعد (وكانت في تلك اللحظة مستاءة جداً، فهي تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير أليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الجديد)، فانحنى يحييها بكثير من الاحترام، ثم التفت نحو نينا فحيَّاها كما تُحيَّا سيدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً في نفس البلهاء. فانبرت تقول بصوت عال وهي تباعد ذراعيها.

- يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب. شتّان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض!

تمتم النقيب يقول بحنان يخالطه قلَق على حالة امرأته:

- كيف هذا يا عزيزتي؟ يركب بعضهم فوق بعض؟ ماذا تقصدين؟

- طبعاً... هكذا يصلون جميعاً. في الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر، ويتواقحون فيدخلون راكبين إلى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا... أهؤلاء زوار محترمون؟

- ولكن مَنْ دخل على هذا النحو يا عزيزتي، مَنْ؟

- هذا واحد ركب على ذاك، اليوم. وهذا ركب على الآخر أيضاً...

كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير ايليوشا. وقد شحب لون ايليوشا شحوباً شديداً، فأنهض جسمه وحدّق إلى كراسوتكين. إن كراسوتكين لم يره منذ شهرين فها هو ذا يقف على حين فجأة مبهوتاً

من منظر رفيقه القديم الصغير: كان لا يتوقع أن يراه بوجه نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان قد اتسعتا هذا الاتساع. وخطف بصره هزال يديه أيضاً. إنه يتأمله الآن في دهشة أليمة، بينما ايليوشا، المتيبس الشفتين، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً. تقدم كوليا خطوة نحوه متحيّراً، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد إليه يده:

- هيه يا أخي... كيف حالك؟

واختنق صوته، ولم يسعفه استهتاره. تقبضت قسمات وجهه، واختلجت أطراف شفتيه. وكان ايليوشا، الذي ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة، يبتسم له ابتسامة ضعيفة. رفع كوليا يده فجأة، وأجراها في شعر أليوشا لا يدري لماذا، وقال له متمتماً بصوت خافت:

- الأمر بسيط، اطمئن...

قال له ذلك إما ليشجعه أو لأنه لم يعرف لماذا قال هذا الكلام. صمتا كلاهما لحظة. ثم سأل كوليا بصوت لا أحاسيس فيه:

- أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر؟

فأجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول:

- نـ.... عـ....م.

- إن بوزه أسود، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً.

- قال كوليا بوقار وبرصانة، كأن للكلب ولبوزه الأسود خطورة خاصة.

والحق أن كوليا كان عاجزاً حتى الآن عن السيطرة على انفعاله، رغم جميع الجهود التي يبذلها، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل «طفل».

وأضاف قائلاً:

- سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر. أنا أعرف هذا.
هتف أحد الفتيان يقول:
- سيكون ضخماً.
فقالت أصوات أخرى:
- حتماً.. ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة. سيكون حجمه كحجم عجل.
وأسرع النقيب يقول مؤيداً:
- سيكون ضخماً ضخامة عجل، ضخامة عجل حقاً. لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً... إنه من نوع شرس جداً... أبواه أيضاً ضخمان شرسان... يصل طولهما إلى هنا... اجلس، تفضل اجلس... اجلس على سرير ايليوشا، أو إجلس هنا على الدكة. أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذي انتظرناه زمناً طويلاً... هل جئت في صحبة ألكسي فيدوروفتش؟
جلس كوليا على السرير قرب إيليوشا. لا شك أنه قد أعدَّ أثناء الطريق كل ما كان ينوي أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام... فها هو ذا يجيب عن سؤال النقيب قائلاً:
- بل جئت... جئت... مع «برزفون»... عندي الآن كلب يسمى هكذا... هو اسم سلافي تماماً. إنه ينتظر هناك... فمتى صفرتُ له أسرع يجيء.
والتفت نحو إيليوشا فجأة وقال له:
- أنا أيضاً عندي كلب.
ثم إذا هو يسأل إيليوشا بغتة:
- هل تتذكر «جوتشكا» يا أخي؟

فما إن سمع إيليوشا هذا السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً، وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة. وكان أليوشا واقفاً قرب الباب، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجيء على ذكر «جوتشكا»، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً.

سأل إيليوشا بصوت محطَّم:

- أين هو «جوتشكا»؟

- دعك من «جوتشكا» يا أخي... اختفى... «جوتشكا» ضاع...

صمت إيليوشا وحدَّق إلى كوليا من جديد. واستطاع أليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بإلحاح للمرة الثانية، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً.

- «جوتشكا» اختفى ولم يترك أثراً. وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة كتلك الفطيرة؟

كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة، بصوت أصبح لاهثاً لا يدري أحد لماذا. ثم أردف يقول:

- ولكنني اصطحبت «بِرِزفون»... هذا اسم سلافي. لقد جئت بهذا الكلب.

فقال إيليوشا فجأة:

- لا أريده!

- بلى بلى. أحبّ أن تراه، يجب أن تراه. سوف يسليك. لقد جئت به خصيصاً... إن له شعراً طويلاً كالآخر... هل تأذنين لي يا سيدتي بإدخال كلبي؟

كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سنيجيريفا، متكلماً بانفعال لا سبيل إلى فهمه.

فصاح إيليوشا يقول بصوت محطَّم من الألم:
- لا، لا أريد.
وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب.
عندئذٍ وقف النقيب الذي كان يجلس على سحّارة قرب الجدار، وتدخل يقول:
- ربما كان الأفضل... ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر...
ولكن كوليا أصرَّ بإلحاح، فالتفت إلى سموروف وصاح يأمره فجأة:
- افتح الباب!
فما إن نفّذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا، فإذا «برزفون» يهرع فيصير في الغرفة.
صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه:
- اقفز يا «برزفون»، هيا على قائمتين!...
فإذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، قرب سرير ايليوشا. فحدث عندئذٍ شيء لم يكن في الحسبان قط: ارتعش المريض الصغير، ونهض بكثير من الجهد والعناء، ومال على «برزفون» يتفحصه وكأنه لا يتنفسّ من شدة الانفعال، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً:
- ولكن هذا «جوتشكا»!
فصرخ كراسوتكين هو أيضاً يقول بصوتٍ مجلجل سعيد:
- فماذا كنت تظن إذن؟
وانحنى على الكلب، فأحاطه بذرعيه، وقربَّه من وجه ايليوشا، وهو يقول له:

- انظر يا أخي، انظر... ها أنت ذا ترى: إنه أعور ومصلوم الأذن. تلك هي بعينها العلامات التي ذكرتها حين وصفت لي «جوتشكا». وبفضل هذه العلامات إنما استطعت أن أجده. ولم أحتج من أجل ذلك إلى زمن طويل. كان كلباً لا صاحب له، لا صاحب له! (هكذا أضاف يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من ايليوشا إلى النقيب فإلى زوجة النقيب، فإلى أليوشا، ثم يعود إلى ايليوشا). كان هذا الكلب يعيش في الحوش الخلفي من منزل آل فيدوتوف، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى يأوي إليه، ولكنهم كانوا لا يطعمونه، فكان يضرب في البرية على غير هدى... ووجدته آخر الأمر... أرأيت يا صاحبي؟ إن هذا الكلب لم يبلع لقمتك وإلا لمات من ذلك حتماً. حتماً. لقد لفظها من دون أن يبلعها، لذلك ما يزال حياً. أنت لم تلاحظ إنه لم يبلع الدبوس. لقد لفظه. ولكن الدبوس قد وخز له لسانه. ولهذا السبب أخذ يعوي، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة. ولا بد أنه لبث يعوي زمناً طويلاً، لأن للكلاب في فمها أغشية حساسة جداً... أشدَّ حساسية من أغشية أفواه البشر... أشد كثيراً...

كذلك صاح يقول كوليا وقد احمرّ وجهه وأشرق حماسَة.

أما ايليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم، وهو يكتفي بأن ينظر إلى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون. لو أن كراسوتكين الذي لم يدر في خلده شيء، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التي يمكن أن يعانيها ايليوشا في هذه الدقيقة، ومدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض، إذاً لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحي. ولعل أليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذي ربما خطر بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر. أما النقيب

فقد أصبح هو نفسه وكأنه طفل صغير. فهو يهتف بصوت فرح سعيد:

- هذا «جوتشكا!» هذا «جوتشكا» إذن! إيليوشا، عزيزي ايليوشا، إنه هنا، إليك هو، صاحبك «جوتشكا»! بابا! هذا «جوتشكا»!

وكان النقيب كمن يبكي.

قال سموروف بمرارة:

- ما أغباني حين لم يخطر ببالي شيء! يا له من شاطر كراسوتكين هذا! ألم أقل لكم إنه سيجد «جوتشكا»؟ فها هو ذا قد وجده.

وقال صوت آخر فرح:

- وجده!

ودوى صوت طفل ثالث يقول:

- مرحى كراسوتكين!

وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم:

- مرحى! مرحى!

قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة:

- لحظة... اصغوا إليَّ. سأروي لكم كيف تم ذلك. الأمر كله هنا. لقد عثرت عليه، فقُدْته إلى بيتي، وخبأته في غرفتي، دون أن أظهر عليه أحداً حتى هذا اليوم. سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندي كلباً، ولكنني أوهمته أن الكلب هو «برزفون» فصدَّق ما قلته له. وفي أثناء هذا الوقت علّمت «جوتشكا» أنواعاً من الحِيَل. سوف ترون كيف أصبح «جوتشكا» عالماً. لقد روَّضته من أجل أن آتيك به مهذباً كل التهذيب وقد تمّت تربيته يا أخي! سوف ترى كيف أصبح صاحبك «جوتشكا» هل عندكم قطعة لحم؟ سوف يريكم شيئاً يميت

من فرط الضحك. قليلاً من اللحم، أليس عندكم قليل من اللحم؟

أسرع النقيب إلى الدهليز، وذهب إلى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها. ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين، أسرع كوليا يأمر «بِرِزفون» قائلاً له: «مت». فإذا بالكلب يأخذ يدور، ثم يستلقى على ظهره، ويسكن سكوناً تاماً، رافعاً قوائمه الأربع في الهواء. طفق الأولاد يضحكون. واستمر ايليوشا ينظر إلى الكلب، بابتسامة أليمة. ولكن الأم خاصةً هي التي كان يبدو أنها أكثر الجميع فرحةً من رؤية «بِرِزفون» متظاهراً بالموت، فهي تضحك ضحكاً صاخباً، وتنادي الكلب صافقةً بأصابعها: «بِرِزفون»، «بِرِزفون»!

قال كوليا باعتزاز مشروع:

- لن ينهضه شيء في الدنيا كلها! أبداًا مهما نودي عليه، فلن يتحرك. ولكن يكفي أن آمره أنا حتى ينهض فوراً. تعال يا «بِرِزفون»!

فما إن سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط ويعوي فرحاً. وهرع النقيب في تلك اللحظة حاملاً قطعة لحم مسلوق.

أسرع كوليا يسأله بوقار:

- أليس اللحم ساخناً جداً؟

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه، وأضاف يقول:

- لا، ليس ساخناً جداً، وإلا أضرّت السخونة بالكلب. انظروا الآن جميعاً! انظر يا ايليوشا. هلاّ نظرت! انظر، يا صاحبي! لماذا لا تنظر؟ أأجيئك به، ثم ترفض حتى أن تهتم؟

إن المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم في طرف بوزه الممدود، على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك. إن على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع، واللحم في متناول فمه، ما ظل

سيده يطلب منه ذلك، فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة. غير أن الكلب لم يُحمل على الانتظار إلا دقيقة قصيرة. صاح كوليا يقول:

- هيّا!

فإذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم «برزفون» بسرعة البرق. وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً.

هتف أليوشا يقول بلهجة فيها عتب على غير إرادة منه:

- هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجيء هذا التأخر كله لا لهدف غير ترويض الكلب؟

- طبعاً... هذا هو الهدف الوحيد. أردت أن أعرضه بكل روعته.

هكذا أجاب كوليا بسذاجة.

وقال ايليوشا ينادي الكلب وهو يصفق بأصابعه النحيلة ليلفت انتباهه إليه:

- «بِرزفون، بِرزفون»!

قال كوليا:

- لا حاجة بك إلى أن تناديه. سوف يقفز إلى سريرك من تلقاء نفسه.

ثم أمر الكلب قائلاً له، وهو يضرب السرير بيده:

- هنا يا «بِرزفون»!

فإذا بالكلب يثب إلى قرب ايليوشا.

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه، فلعق الحيوان وجه ايليوشا عرفاناً بالجميل. وشد ايليوشا نفسه إلى الكلب، وتمدد على سريره، وأخفى وجهه في جزائر شعره الكثيفة.

- يا ربي! يا ربي! - هتف النقيب.

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا، وقال له:

- ايليوشا! أستطيع أن أريك شيئاً آخر أيضاً... لقد جئتك بمدفع صغير. سبق أن حدثتك عنه، هل تتذكر؟ لقد قلت لي عندئذٍ: «لشد ما أحبّ أن أراه!». فها أنذا جئتك به اليوم.

قال كوليا ذلك، وسلَّ المدفع البرونزي الصغير من كيسه بسرعة. كان كوليا يُسرع، لأنه كان يحسّ هو نفسه بالسعادة. ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذي أحدثه ظهور «بِرِزفون». ولكنه كان في هذه المرة يتعجل إظهارهم على اللعبة غير عابئ بأي رزانة، ويقول في سريرة نفسه: «ها أنتم أولاء سعداء، فلأهبن لكم مزيداً من السعادة!». كان كوليا يشعر بافتتان قوي.

- لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل. فتمنيت الحصول عليها، ولكن من أجلك أنت يا أخي، من أجلك أنت. كان موروزوف قد أخذها من أخيه، وكان لا يستعملها. ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه «قريب محمد أو الجنون النافع»[8]. إنه كتاب فاسق ظهر في موسكو منذ مائة عام، أيامَ لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد. وموروزوف من عشاق هذه الأمور، حتى لقد شكر لي هذه المقايضة...

كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده إمساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به. ونهض ايليوشا عن سريره، وأخذ يتأمل اللعبة منتشياً مع استمراره على معانقة «برزفون» بيده اليمنى. وبلغ التأثّر ذورته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً، وأن في وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع، «هذا إذا كانت السيدات لا ترى في ذلك بأساً».

فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر في اللعبة من قرب، فلُبِّي طلبها فوراً. أعجبها المدفع البرونزي الصغير المركب على عجلات إعجاباً شديداً، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها. ولم تتردد في أن تأذن بإطلاق النار من المدفع، دون أن تفهم الموضوع جيداً في الواقع. وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهر عليهما الحضور. وتولى النقيب، بصفته عسكرياً قديماً، حشو المدفع، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح. أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة. وُضع المدفع على أرض الغرفة، ووُجِّهت فوهته نحو فضاء خال، ووُضعت ثلاث حبات من البارود وأُشعلت بعود ثقاب. فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق. ارتعشت «ماما» في اللحظة الأولى، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة. وكان الصبيان ينظرون إلى اللعبة بإعجاب صامت. غير أن النقيب كان أسعدهم طراً. وكان لا يحوّل بصره عن أليوشا. وتناول كوليا المدفع، فأهداه فوراً إلى المريض الصغير، كما أهدى إليه البارود والخردق، قائلاً له من جديد وهو في قمة الغبطة والسعادة:

- هذا لك، هذا لك، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه إليك.

فانبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل:

- بل اعطنيه أنا.

كان وجهها يعبر عن المرارة، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها. فتحير كوليا؛ واضطرب النقيب، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها:

- عزيزتي، عزيزتي، هذا المدفع لك، لك أنت. فليحتفظ به ايليوشا إلى حين، ما دام قد أُهدي إليه، ولكنه لك أنت طبعاً. سيسمح لك ايليوشا بأن تلعبي به كلما أردت ذلك. هو لكما كليكما. لكما كليكما...

فقالت الأم وهي توشك أن تبكي:

- لا، لا أريد أن يكون لنا كلينا. أريد أن يكون لي وحدي، ولا أريد أن يكون منه شيء لايليوشا.

صاح ايليوشا يقول فجأة:

- ماما، خذيه، إنني أهديه إليك.

وكأنما خشي أن يسيء إلى كوليا إذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر، فسأله ضارعاً:

- هل أستطيع أن أهديه إلى ماما يا كراسوتكين؟

فأسرع كوليا يقول موافقاً:

- لم لا؟

وتناول المدفع من بين يدي ايليوشا، فمدَّه بنفسه إلى الأم وهو يحييها أرقّ تحية. (لقد انفجرت الأم في البكاء من شدة التأثر).

صاحت الأم تقول بانفعال:

- ايليوشا، بنيَّ الصغير، أنت تحبني حقاً، أنت على الأقل.

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها.

- عزيزتي، هلاَّ أذنت لي أن أُقبِّل يدك؟

قال زوجها وحقق رغبته فوراً.

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهي تومئ إلى كراسوتكين.

- هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان.

وقال كوليا:

- أما البارود يا ايليوشا، فسأجيئك منه بقدر ما تشاء. إننا نصنعه بأنفسنا. لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة: أربعة وعشرون جزءاً من النطرون، وعشرة أجزاء من الكبريت، وستة من فحم الحطب. يطحن هذا كله معاً، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينةً تُمرَّ بعد ذلك

من خلال جلد. هكذا يتم الحصول على البارود.
قال إيليوشا:
- حدثني سموروف عن بارودك، ولكن بابا يقول إن هذا ليس هو البارود الحقيقي.
فقال كوليا محتجاً وقد احمرّ وجهه:
- ليس هو البارود الحقيقي؟ كيف ذلك؟ لكنه يحترق... على كل حال، لا أدري..
أسرع النقيب يصحح مُحرجاً:
- لا... أنا لم أقل شيئاً. ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقي يُصنع بطريقة أخرى، لا بأس... إن من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً.
- أنت أعلمُ منا على كل حال. لقد أشعلنا بارودنا في وعاء مرهم، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلّف إلا قليلاً من السناج. وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها إلا إمرارها من خلال جلد.. ومهما يكن من أمر، فأنت أدرى بهذه الأمور مني... بالمناسبة: لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا، جلده أبوه، هل بلغك هذا؟
هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا على حين فجأة. فأجابه ايليوشا:
- بلغني.
وكان ايليوشا يصغي إلى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية.
- كنا قد حضَّرنا زجاجة من بارود، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال: «قد تحدث انفجاراً» وجلد ابنه على الفور. حتى لقد كان في نيته أن يشكوني إلى إدارة المدرسة. وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يخالطني. أصبحوا لا يسمحون لأحد

بمخالطتي. حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد توسخت سمعتي، فهم يقولون إنني «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يبتسم ابتسامة ازدراء). يرجع هذا إلى زمن قصة السكة الحديدية تلك...

صاح النقيب يقول:

- لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه. كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيبين؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً!

كان النقيب يتفنن في تملق كوليا.

أجاب كوليا بلهجة استخفاف:

- خفت؟ لا... لم أخف كثيراً... لكن تلك الأوزة اللعينة هي التي جاءتني بسمعة التهور هذه.

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا من جديد.

كان كوليا يحاول أن يصطنع في كلامه هيئة عدم المبالاة، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود في هذا السبيل، لم يتمكن من العودة إلى السيطرة على نفسه، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة.

قال ايليوشا مشرق الأسارير:

- سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه! حكوها لي. ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً. هل صحيح أنهم قادوك إلى القاضي؟

قال كوليا يشرح منطلقاً:

- تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة وجعلوا من الحبّة قبّة على عادة الناس هنا. كنت اجتاز ميدان السوق حين كان يؤتى إليه بأوزّ، فوقفت انظر إلى الأوزّ. فإذا بفتى من هنا، فتى اسمه فشنياكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً في متجر آل بلوتنيكوف، إذا هو يأخذ يتفرس فيَّ ويسألني: «مالك تنظر إلى الأوزّ هكذا؟».

رفعت بصري نحوه. إنه شاب في نحو العشرين من عمره، له سحنة مدوَّرة غبية. إنني لا أحتقر الشعب أبداً، اعلموا هذا. إنني أحبّ البسطاء من الناس... نحن مختلفون كثيراً عن الشعب، تلك بديهية أؤمن بها... يخيَّل إليَّ أنك تضحك يا كارامازوف، أليس كذلك؟

- بتاتاً! بالعكس: أنا أصغي إليك بكثير من الانتباه.

هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة، فسرعان ما استرد كوليا شجاعته، وراح يكمل كلامه بفرح قائلاً:

- نظريتي الخاصة بسيطة واضحة يا كارامازوف. إنني أؤمن بالشعب، وإنني لأشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه، ولكن بدون أن أتملقه طبعاً، Sine qua. هذا شرط ضروري. ها... نعم... كنت أتكلم عن تلك الأوزة. التفت نحو ذلك الأبله فأجبته: «إنني أتساءل عما لعل الأوزة تفكر فيه الآن»، فحملق بغباء، ثم استأنف يسألني: «وما الذي تفكر فيه هذه الأوزة، في رأيك؟» قلت: «هل ترى تلك العربة المحمَّلة شوفاناً؟ إن الشوفان يتساقط من الكيس، وقد مدت الأوزة رقبتها لتنقر الشوفان، واقفةً تحت العجلة تماماً، هل لاحظت ذلك؟»، قال: «طبعاً لاحظته!» قلت: «فإذا دفعنا لعربة الآن قليلاً، قطعت العجلة رقبة الأوزّة، أصحيح أم لا؟». قال: «طبعاً ستقطع العجلة رقبة الأوزة!» قال ذلك فاتحاً فاه من السرور، فإلى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة. قلت: «فهيَّا بنا إذاً أيها الشجاع!» فردَّد يقول: «هيَّا بنا!». ولم يطل الأمر. وقف هو قرب اللجام من دون أن يراه أحد، ورابطت أنا جانباً لأوجّه الأوزة. أما صاحب العربة فلم ينتبه إلينا، لأنه كان يتحدث مع أحد الناس. ولم أحتج إلى التدخل من أجل أن أوجه الأوزة، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان، وأومأتُ إلى

الفتى، فشد اللجام، فما هي إلا لحظة حتى كانت رقبة الأوزة قد قُطعت. وشاءت المصادفة أن يرانا في تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين في الميدان، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له: «فعلت هذا عمداً». فقال لهم: «لا، لم أفعله عمداً» فقالوا: «بل فعلته عمداً»؛ وازداد صراخهم، وقالوا: «خذوه إلى قاضي الصلح!». واقتادوني أنا أيضاً قائلين: «كنت أنت حاضراً، فأنت الذي حرّضته، إن جميع الناس يعرفونك في السوق». والواقع أنني معروف جداً في السوق، لا أدري لماذا (كذلك أضاف كوليا قائلاً باعتزاز). وذهبنا إلى قاضي الصلح. وجيء بالأوزة أيضاً. خاف صاحبي الفتى وأخذ ينتحب. حقاً، كان يبكي كامرأة. أما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً: «على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوزّ». وكان ثمة شهود كثيرون. وفصل قاضي الصلح في القضية بسرعة: حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة، وختم قاضي الصلح كلامه قائلاً: «فلا مزاح من هذا النوع في المستقبل!» ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكي ويتشكى قائلاً وهو يشير إليَّ: «لست أنا... هو الذي حرّضني»، فأجبت، دون أن أفقد هدوء أعصابي، بأنني لم أعلّمه شيئاً البتة، وإنما عبَّرت عن فكرة هذه المزحة في صورة عامة، كمشروع لا أكثر. فابتسم قاضي الصلح نيفيدوف، ثم أسرع يندم على أنه تبسّم، وقال لي: «سأرسل تقريراً عنك إلى إدارة المدرسة في الحال، حتى لا تندفع بعد الآن في مشاريع من هذا النوع بدلاً من الانكباب على التحصيل وإعداد دروسك». والواقع أنه لم يش بي إلى إدارة المدرسة، وإنما كان ذلك منه تهديداً. غير أن القضية ذاعت في المدينة حتى وصلت إلى آذان المسؤولين في المدرسة.

إنكم تعلمون أن للمسؤولين في المدرسة آذاناً طويلة! استاء الأستاذ كولباسنيكوف الذي يعلّم الآداب الكلاسيكية استياءً شديداً، ولكن داردانيلوف دافع عني من جديد. وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حنق كلب مسعور. ولا شك أنك تعلم يا أليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة. أخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً، عدا خطيبته التي هي آية من آيات الدمامة. وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة في هذه المناسبة، قالوا:

بلوعة وأسف

علم تلاميذ الصف الثالث

أن الأستاذ كولباسنيكوف

أخطأه التوفيق فتزوج

وهلم جرا... هي قصيدة فكهة، سآتيك بها في مرة أخرى. أما داردانيلوف فلن أقول فيه سوءاً: إنه رجل واسع المعرفة، واسع المعرفة حقاً. إنني أحترم أمثاله من الناس، ولكن ليس لأنه دافع عني.

- ومع ذلك غلبته أنت في السؤال عن إنشاء مدينة طروادة.

انبرى يقول سموروف الذي كان يشعر عندئذٍ باعتزاز بكراسوتكين، لأنّ حكاية الأوزة قد فتنته.

وعاد النقيب يقول بلهجة المديح والتملق:

- غلبته حقاً؟ كان ذلك في موضوع إنشاء مدينة طروادة، أليس كذلك؟ لقد قيل لنا فعلاً إنك كنت أقوى منه في هذه النقطة. حدثني أليوشا عن هذا في ذلك اليوم نفسه..

قال إيليوشا:

- إنه يعرف كل شيء يا بابا، إنه أعلمُ منا جميعاً! هو يتواضع،

ولكنه أول التلاميذ في جميع العلوم. . .

كان أليوشا ينظر إلى كوليا بسعادة لا نهاية لها.

أجاب كوليا باعتزاز متواضع:

- أما حكاية طروادة هذه فهي في الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها.

لقد توصل كوليا أخيراً إلى إيجاد اللهجة المناسبة، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً: كان يحسّ أنه مهتاج قليلاً، وأنه قد روى حادث الأوزة بحرارة مفرطة. بينما كان أليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة فها هو ذا كوليا الحساس يتعذب الآن إذ يتساءل: «أتراه قد صمت احتقاراً لي، لاعتقاده بأنني استجدي المديح والثناء؟ إن كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك، فسوف أعرف كيف. .». وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الاعتزاز أيضاً:

- في رأيي إن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية.

- أنا أعرف من أنشأ طروادة! أعرف من بناها.

كذلك قال فجأة، على غير توقع، فتى لم يكن قد فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين. إنه تلميذ صموت خجول، جميل الوجه جداً، في نحو الحادية عشرة من عمره. إن اسمه كارتاشوف، وكان جالساً قرب الباب. دُهش كوليا دهشة شديدة، وتفرس في الطفل بوقار. الواقع أن ذلك السؤال، وهو: «من أنشأ مدينة طروادة؟»، كان قد أصبح سراً يُناقش في جميع صفوف المدرسة، وكان لا بد لمعرفة ذلك السر من الرجوع إلى كتاب سماراجدوف. وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب. ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذي كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية، فوقع عرضاً

على الصفحة التي يتكلم فيها الكتاب عن إنشاء مدينة طروادة. وحدث ذلك منذ مدة طويلة، ولكن الفتى كان شديد الخجل، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة. كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه في العلم. غير أنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه، فانطلق يتكلم، مرضياً بذلك حاجةً في نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع.

– قل لنا إذاً من أنشأ مدينة طروادة!». قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح. لقد أدرك من تعبير وجه الفتى، أن الفتى يعرف السرَّ، فسرعان ما تهيّأ لمواجهة جميع النتائج. وحدث شيء من الكدر في مزاج الحضور.

قال الفتى بسرعة:

– بنى مدينة طروادة: توسر، ودردانوس، وايليوس، وتروس.

واحمر وجهه فوراً وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير الألم في النفس. حدَّق إليه الفتيان الآخرون، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة، ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة. ظل كوليا يرمق المنافس الجريء باحتقار دون أن يفقد هدوءه، ثم تنازل فقال له:

– قل لنا إذاً كيف بنوها؟ قل لنا ماذا يعني على وجه العموم بناء مدينة أو دولة؟ هل جاء ووضع كل منهم آجرةً مثلاً؟

ضج الجميع يضحكون. واصطبغ لون الصبي المذنب بلون كلون القرمز في هذه المرة. وصمت، وأوشك أن يبكي. وتركه كوليا جالساً على كرسي الاتهام دقيقة أخرى. ثم راح يقول له بقسوة، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً:

– ما ينبغي للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية مثل

نشوء القومية إلا إذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال. على أنني من جهتي لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه.

وأضاف يقول بإهمال، مخاطباً جميع الحضور:

- ثم إنني لا أقدر تاريخ العالم كثيراً.

سأله النقيب بنوع من الذعر:

- لا تقدر تاريخ العالم؟

- نعم، لا أقدر تاريخ العالم. إنه دراسة الحماقات البشرية، لا أكثر.

وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً إلى أليوشا، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذي يتهيب كوليا رأيه:

- أنا لا احترم إلا الرياضيات والعلوم الطبيعية.

ولكن أليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ورزانته. فلو أبدى رأياً في تلك اللحظة إذاً لاختتمت المناقشة. غير أنه لم يفتح فمه، ومن الجائز «أن يكون صمته احتقاراً»، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً، وأردف يقول:

- وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة[9] جنون محض... ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفني في الرأي من جديد، أليس كذلك؟

قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة:

- حقاً، لست أوافقك على رأيك.

قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً:

- إذا شئت أن تعرف رأيي، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو في نظري إجراء بوليسي للقمع والاضطهاد. تلك هي الغاية الوحيدة

التي تُستهدف من تعليم اللغات القديمة. إنهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبِّل العقل. كانت الحياة حزينة غبية، فأرادوا لها مزيداً من الجهامة والبلادة والغباء. كان السخف يحكم العالم، فرأوا أن يفاقموا ذلك إذا أمكن. هذا هو السبب في أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية. ذلك رأيي بهذا الصدد، وإني لآمل أن لا أغيِّره وأن لا أحيد عنه في يوم من الأيام.

بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً. وظهرت على خديه بقعتان حمراوان.

قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيّد، وكان قد أصغى إلى كلام رفيقه بانتباه:

- هذه هي الحقيقة.

فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة:

- هو مع ذلك أول التلاميذ في اللغة اللاتينية!

فقال إيليوشا مؤيداً:

- نعم يا بابا، إنه يقول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف في اللغة اللاتينية.

اعتقد كوليا أن عليه أن يسوِّغ ذلك، رغم أنه سُرَّ كثيراً بهذا المدح، فقال:

- لا يبرهن هذا على شيء! إنني أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك، ولأنني وعدت أمي بأن أتم دراستي. وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أحتقر، في قرارة نفسي، كل الكلاسيكيين، وكل هذه الدناءة... أأنت غير موافق أيضاً يا كارامازوف؟

قال إيليوشا وهو يبتسم من جديد:

- ولكن أين الدناءة التي تتحدث عنها؟

- أين؟ ألا تفهم؟ لقد ترجمت مؤلفات الكلاسيكيين إلى جميع اللغات. فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية إذاً هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات، وإنما هنالك أسباب بوليسية، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس في هذا دناءة؟

فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً:

- ولكن من ذا الذي دسَّ هذه الأفكار في رأسك؟

- أولاً، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسي من دون أن يدسّها أحد في رأسي؛ ثانياً، أعلم أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذي شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن.

- وصل الطبيب!

كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة.

إن مركبةً خاصة تملكها السيدة خوخلاكوفا، قد وقفت فعلاً أمام المنزل. هبَّ النقيب إلى لقاء الطبيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح. أما الأم فاصطنعت وضع الوقار. واقترب أليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتب وسادة المريض، فكانت نينا تنظر إليه من قرارة مقعدها قلقة. أما الفتيان فقد أسرعوا يودّعون، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء. ونادى كوليا «بِرِزفون»، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير. وقال كوليا لإيليوشا مسرعاً:

- أنا لن أنصرف. سأنتظر في الدهليز ثم أعود متى ذهب الطبيب. سأعود مع «بِرِزفون».

وكان الدكتور قد دخل الغرفة. إنه شخص مهيب المظهر، يرتدي معطفاً من فراء دبّ، وله سالفان قاتمان طويلان، وذقنه محلوقة

بكثير من العناية. فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً: لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل.

- ما هذا؟ أين أنا؟

كذلك دمدم يقول دون أن يخلع معطفه، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً. إن الازدحام، وهذا المسكن الفقير، وهذا الغسيل المنشور على حبل في ركن الغرفة، إن ذلك كله قد حيَّره.

انحنى النقيب أمامه انحناءة كبيرة، وتمتم يقول مفرطاً في التملّق:

- أنت هنا يا سيدي، هنا، عندي، أنت آتٍ إليَّ...

قال الطبيب بصوت عالٍ أجشّ:

- هل أنت سنير....جير....يف؟ إذاً أنت السيد سنيجيريف؟

- نعم، أنا....

- آ!...

ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى، وخلع معطفه. فظهر في عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار. تناول النقيب المعطف طيراناً، وتنازل الطبيب فخلع قبعته، وقال يسأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر.

- أين هو المريض؟

– 6 –

نضج مبكر

سأل كوليا متعجلاً:

– ما الذي سيقوله الطبيب في رأيك؟ يا لها من سحنة كريهة! ألا ترى ذلك؟ إنني أكره الطب.

فأجابه أليوشا بحزن:

– إيليوشا هالك. أظن أن لا شك في هذا، وأن نهايته قريبة.

– يا للسفلة! الطب سفالة! على أنني سعيد بأن قد أتيحت لي فرصة معرفتك يا كارامازوف. لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل. ولكن يؤسفني أن لقاءنا قد تم في ظروف أليمة كهذه.

ودّ كوليا لو يقول شيئاً فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال، ولكنه شعر بشيء من الحرج. وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً.

تمتم كوليا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً:

– لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك إنساناً ذا مزايا أخلاقية نادرة. قيل لي إنك صوفي وإنك عشت في الدير. وإنني لأسلم بأن تكون صوفياً، ولكن... هذا لم يصدني عنك... إن الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك... ذلك ما يحدث دائماً في الطبائع التي تشبه طبيعتك.

سأله أليوشا بشيء من الدهشة:
- ماذا تعني بقولك «صوفي»؟ ومن أي شيء تريد لي أن أشفى؟
- من أفكارك عن الله، وهلم جرا...
- كيف؟ أأنت لا تؤمن بالله؟
- الحق أنني لا اعتراض لي على الله. صحيح أن فكرة الله ليست إلا افتراضاً... ولكنني أعترف بأن الله ضروري، بل ولا غنى عنه للمحافظة على النظام...، وهلم جرا... - ثم أضاف كوليا يقول وقد احمرّ وجهه فجأة:
- إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه[10]...
ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يحب أن يُظهره على معلوماته، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش «كشخص كبير». فقال كوليا لنفسه متضايقاً: «غير إنني لا أحبّ أبداً أن أعرض معلوماتي أمامه». وشعر فجأة بحسرة شديدة. وقال يحسم الأمر:
- أعترف لك بأنني أكره المناقشات في هذا الموضوع. ألا يمكن أن يحب المرء الإنسانية دون أن يؤمن بالله؟ ما رأيك؟ لقد كان فولتير مثلاً، لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب الإنسانية[11]. (وقال لنفسه باستياء: «أيضاً، أيضاً!»).
قال أليوشا في رفق، بصوت هادئ طبيعي، كما لو كان يحادث واحداً من أترابه أو حتى شخصاً أكبر منه سناً:
- لقد كان فولتير يؤمن بالله، ولكن يبدو أن إيمانه كان ضعيفاً، وكان كذلك لا يحب الإنسانية كثيراً.
دُهش كوليا كثيراً من تردد أليوشا هذا النوع من التردد في الإفصاح عن رأيه في فولتير، ومن هذه الطريقة في مخاطبته وكأنما يترك له، هو الصغير كوليا، حلّ هذه المشكلة.

سأله أليوشا:

- بالمناسبة، هل قرأت فولتير؟

- لا، لم أقرأه بالذّات... يعني... لكني... قرأت «كانديد»[12] في ترجمة روسية، ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة («أيضاً! أيضاً!»).

- وهل فهمته؟

- طبعاً.. فهمت كل شيء... أقصد... لماذا تقدّر أنني قد لا أكون فهمته؟ هناك فقرات كثيرة فاحشة طبعاً... أنا قادر أن أفهم أن هذه رواية فلسفية ترمي إلى البرهان على فكرة.

كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً. ثم قال فجأة، لا يدري المرء لماذا:

- أنا اشتراكي يا كارامازوف، أنا اشتراكي عنيد. ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً:

- اشتراكي؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك، أليس كذلك؟

شعر كوليا بامتعاض شديد، وقال يحتج بقوة:

- أولاً: ليس عمري ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة. وثانياً: لست أفهم ما شأن عمري هنا. الأمر الآن أمر آرائي لا عمري، أليس كذلك؟

- حين تتقدم في السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر في آراء الإنسان. ثم إنني أحسّ أنك تردد آراء سمعتها...

هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة، ولكن كوليا لم يدع له أن يتم كلامه، لأنه صاح يقول متحمساً:

- مهلاً! إنك من أنصار الخضوع والصوفية!. ألا فاعترف أن

الديانة المسيحية لم تنفع إلا الأغنياء والأقوياء، إذ سمحت لهم بإبقاء الفقراء على حالة العبودية. هل تستطيع أن تنكر هذا؟

هتفت أليوشا يقول:

- لحظة! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة. لا شك أنّ أحداً قد علّمك ذلك.

- مهلاً! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام حتماً؟ ثم إن أحداً لم يدخلني في عقيدة من العقائد. أنا قادر على أن أفكر بنفسي... واعلم، بالمناسبة أنني لا آخذ على المسيح شيئاً[13]. إن المسيح إنسان له آراء واسعة ومحترمة، ولو عاش في عصرنا لانضمّ إلى الحركة الثورية، ولربما قام فيها بدور مرموق... بل هذا مؤكد.

صاح أليوشا يسأله:

- من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله؟ من هو ذلك الغبي الذي ارتبطت به؟

- مهلاً إنّ الحقيقة لا تخفى. أعترف لك بأنني كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين في قضية من القضايا، ولكن... يقال إن بيلنسكي العجوز كان يقول هذه الأشياء نفسها.

- بيلنسكي؟ لا أتذكر ذلك. وهو على كل حال لم ينشرها.

- إذا لم يكن قد نشرها، فقد عبّر عنها في أحاديثه، على ما يقال. سمعت ذلك من... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذي سمعت منه هذا الكلام...

- هل قرأت بيلنسكي؟

- الحق... لا... لم أقرأه كله... ولكني قرأت كلامه عن تاتيانا[14] وكيف رفضت أن تذهب مع أونيجين.

- لماذا رفضت أن تذهب؟ أأنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء؟

قال كوليا محتجاً وهو يتسم ابتسامة غاضبة:

- أرجوك... إنك تظنني، كما يبدو، صبياً صغيراً من نوع سموروف. لا يذهبنّ بك الظن، على كل حال، إلى أنني ثوري متطرف. إنني كثيراً ما أختلف في الرأي مع راكيتين. وإذا ذكرت تاتيانا، فلا تحسب أنني من أنصار تحرر المرأة. إنني أعترف بأن المرأة مرؤوسة وأن وظيفتها الخضوع.

وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر. Les femmes tricottent[15]، كما قال نابوليون. ففي هذه النقطة على الأقل، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً. وإنني لأرى كذلك، من جهتي، أن الهجرة إلى أمريكا هروباً من الوطن خسّة ودناءة وصغار، بل هي أكثر من ذلك أيضاً: هي حماقة وغباوة! علام نسافر إلى أمريكا في حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها في بلادنا لنخدم الإنسانية في عصرنا هذا خاصة؟ ليس يعوزنا العمل. هنالك عمل كثير يجب القيام به. ذلك ما أجبت به.

- ذلك ما أجبت به؟ أجبت به مَنْ؟ هل عرض عليك أحد أن تسافر إلى أمريكا؟

- أعترف بأنهم حاولوا جري إلى ذلك، ولكنني رفضت. يجب أن يبقى هذا سراً بينا بطبيعة الحال. لا تقل عن ذلك كلمة لأحد. مفهوم يا كارامازوف؟ إنني لا أفضي بهذا السر إلى أحد غيرك. لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد «الشعبة الثالثة»[16]، وأن أتلقى دروساً في «جسر الجنازير».

ستتذكر المبنى الكبير
بقرب جسر الجنازير!

هل تتذكر هذا البيت من الشعر؟ إنه رائع. لماذا تضحك؟ أتراك

تظن أنني كذبت عليك تباهياً وافتخاراً؟ (قال كوليا ذلك، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق: «ماذا لو علم أنني لم أقرأ إلا هذا العدد من مجلة «الناقوس»[17]، الذي وجدته في مكتبة أبي، وأنني لا أعرف شيئاً آخر غيره في ميدان الأدب الثوري؟»).

قال أليوشا:

- لا، لا، لست أضحك، ولم يخطر ببالي قط أنك كذبت عليّ. المصيبة هي أنك لا تكذب وأن هذه هي الحقيقة للأسف. قل لي الآن: هل قرأت بوشكين؟ هل قرأت رواية «يفجيني أونيجين»، أنت الذي تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة؟

- لا، لم أقرأه بعد، ولكنني أنوي أن أفعل. واعلم يا كارامازوف أنني لا أحمل أفكاراً مسبقة وأنني أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً. لماذا ذلك السؤال؟

- لا لشيء!

هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع:

- قل لي يا كارامازوف: لا بد أنك تحتقرني احتقاراً رهيباً!

وانتصب واقفاً أمام أليوشا مشدوداً متوتر الأعصاب، وتابع كلامه يقول:

- هيّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران!

سأل أليوشا وهو ينظر إليه بدهشة:

- أحتقرك؟ لماذا عساي احتقرك؟ كل ما هنالك أنه يحزنني أن تُفْسَدَ بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك في فجر حياتها.

قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشيء من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته:

- دعك من طبيعتي الآن. الواقع أنني موسوس، أنا أعرف هذا.

إنني موسوس بغباوة، ببلاهة. لقد ابتسمت أنت منذ لحظة، فتخيلت أنا أن. . .

- ابتسمت لأسباب أخرى. سأشرح لك الأمر. لقد قرأت في الآونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبي، ألماني، عاش في روسيا وعبّر عن رأيه في شبيبة مدارسنا على النحو التالي: «لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل، لأعادها إليك في اليوم التالي مصحّحة»: نقص كبير في المعرفة وغرور شديد لا حدّ له، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا في رأي هذا الألماني.

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً:

- ولكن هذا صحيح كل الصحة! هأهأها! هذه هي الحقيقة صافية لقد أدرك عين الصواب. مرحى للألماني! ولكن هذا الرأس المربّع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا. إنني أسلّم بان فينا غروراً؛ ولكن هذه آفة من آفات سن الشباب يُصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن يصلحها. ونحن نملك في مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً، هي ميزة استقلال الفكر والاعتقاد. نحن نملك جرأة التفكير والامتناع، على حين أنهم، هم، لا يعرفون تجاه أي سلطة إلا عبودية كعبودية البقالين. . . ورغم كل شيء فإن ذلك الألماني قد رأى صواباً. مرحى للألماني! على أنني أظن أن من الواجب أن تَرُدّ الألمان إلى الرشد إنهم في حاجة إلى أن يُلَقَّنوا درساً، مهما يكونوا أقوياء في العلوم.

سأل أليوشا مبتسماً:

- لماذا تريد لهم أن يُردوا إلى الرّشد؟

- لعلني قلت هراء، أعترف لك بذلك. إنه ليتفق لي في بعض

الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع، وحين ابتهج أفقد سيطرتي على نفسي، فأقول أنواعاً من السخافات. ولكنني ألاحظ أننا نثرثر هنا في سفاسف بينما يبدو أن الطبيب تأخر هناك. على أنه ربما انتهز الفرصة ليفحص الأم في الوقت نفسه، وكذلك نينا الكسيحة. لقد أعجبتني نينا هذه كثيراً، هل تعلم؟ حين خرجت دمدمت تقول لي بصوت خافت جداً: «لماذا لم تجئ قبل الآن؟». قالت ذلك بلهجة تزخر عتباً. يخيّل إليّ أنها طيبة جداً، وأنها كذلك شقية جداً جداً.

قال أليوشا بكثير من الحرارة:

- نعم نعم، سوف ترى حين تعود إليهم أنها إنسانة رائعة. إنه ليفيدك كثيراً أن تتردد إلى أناس مثلهم، لكي تستطيع أن تقدّر تقديراً صحيحاً أشياء كثيرة أخرى، أشياء ستظهر لك وتنجلي لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل.

هتف كوليا يقول بحرارة:

- لشدما يؤسفني أنني لم أجئ قبل هذا الوقت! إنني ألوم نفسي على ذلك.

- شيء مؤسف حقاً. لا بد أنك لاحظت كم هي سعادة هذا الصغير المسكين بزيارتك. لشدة ما عذّبه انتظارك سُدى!

- لا تذكّرني بهذا. ذلك يعذّب نفسي تعذيباً شديداً. هذه خطيئتي على كل حال. لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التي لا أفلح في التخلص منها، رغم الجهود التي بذلتها طوال حياتي. إنني أدرك الآن يا كارامازوف أنني وغد تافه في أمور كثيرة.

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً:

- بالعكس: إنك شخصية رائعة، رغم ما بها من فساد. إنني

أفهم الآن جيداً كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير في ذلك الصغير المسكين الذي يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية.

هتف كوليا يقول:

- أأنت تقول هذا الكلام لي؟ تصوّر أنني ظننت غير مرة، منذ جئت إلى هنا، إنك تحتقرني! آه. . . ليتك تعلم مدى اهتمامي برأيك وحرصي عليه!

- أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية سريع التأذّي إلى هذه الدرجة؟ أفي مثل سنك؟ آ. . . لقد تصورت فيك هذا. منذ قليل، في الغرفة، حين كنت أصغي إلى الحكايات التي قصصتها، قلت لنفسي: لا بد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذّي.

- أحزرت إذن؟ يا لنفاذ بصيرتك! يا لقوة حدسك! أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أنا حكاية الأوزة. لقد أحسستُ في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخري بالمكر. وقد أخذت أكرهك عندئذٍ، وأخذت أطنب في الحديث عامداً. وبعد ذلك - ونحن في هذا المكان - أحسست بعد أن قلت عبارتي: «إذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه»، أحسست أنني تسرعت كثيراً في عرض معرفتي وإظهار علمي، لا سيما وأنني كنت قد قرأت هذه العبارة في كتاب. . ولكنني أحلف لك على أنني إن سارعت إلى إظهار معرفتي فما كان ذلك مني حباً بالظهور، وإنما صدر هكذا عفو الخاطر لا أدري لماذا، ولعله صدر عن فرح، بل إنه قد صدر عن فرح. . . على أنني أعلم حق العلم أن من العار جداً أن يرتمي المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح. ولكنني مقتنع الآن بأنك لا تحتقرني، وأن الأمر كله كان من تصوّر خيالي وحده. آه. . . لو علمت مدى شقائي يا كارامازوف! إنني أتخيل أحياناً، لا يدري إلا الله لماذا، أن

جميع الناس يسخرون مني، وإني لأشعر في مثل تلك اللحظات بأنني مستعد لتحطيم كل شيء.

قال أليوشا مبتسماً:

- وأنت تعذب أهلك طبعاً.

- نعم، ولا سيما أمي. قل يا كارمازوف: هل تجدني مضحكاً جداً؟

هتف أليوشا يقول:

- دعك من هذه التصورات، دعك منها تماماً! وما هو المضحك على كل حال؟ جميع الناس يكونون أو يبدون مضحكين في بعض المناسبات. الحقيقة أن الأفراد الذين يملكون مواهب عالية، في هذا العصر، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدهم الناس مضحكين، وهم أشقياء لهذا السبب. ولكن الشيء الذي يدهشني هو أنك عانيت هذا الشعور في هذه السن المبكّرة، وإن كنت قد أتيح لي أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين. فالأطفال أنفسهم قد أخذوا في أيامنا هذه يقاسون من هذا الخوف الغبي. يوشك ذلك أن يكون جنوناً. إنه إفراط في حب الذات لقد تجسّد الشيطان وتسلل إلى الجيل كله. نعم.. الشيطان.. - كذلك ردّد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذي كان ينظر إليه محدقاً.

وتابع يقول: أنت تشبه الآخرين في هذه النقطة. أريد أن أقول إنك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه. صدقني مع ذلك: ما ينبغي أن يشبه الإنسان جمهرة الناس.

- هل ينبغي للإنسان إذاً أن يختلف عن جمهرة الناس؟

- نعم. حتى لو كان جميع الناس على هذه الشاكلة. كن مختلفاً ولو صرت وحيداً. الواقع أنك لا تشبه الآخرين: فإنك لم تخجل

منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيونك المضحكة. فأي الناس يملك هذه الجرأة اليوم؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة إلى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً. فلا تتردّد إذاً في أن تتميز عن جمهرة الناس. لا تكن كسائر أولئك الملأ، ولو أمسيت وحيداً في نوعك. كن على غير شاكلتهم.

- ما أروع هذا الكلام الذي تقوله لي! إنني لأدرك الآن أن ظني فيك لم يخطئ. إنك قادر على أن تعزّي وتواسي. آه يا كارامازوف، لطالما انتظرت التعرف إليك! لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً! هل صحيح أنك أردت أن تتعرف إليّ أيضاً؟ لقد قلت منذ قليل إنك فكرت فيّ.

- نعم، سمعت عنك وفكّرت فيك.. هب حب الذات هو الذي أوحى إليك بذلك السؤال، فأي ضير في هذا؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال إضعافاً غريباً وكأن فيه حياء:

- هل تعلم يا كارمازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام. أليس هذا مضحكاً، مضحكاً جداً؟

أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة:

- البتة! وهبه مضحكاً، فأي بأس في ذلك، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة، عذباً هذه العذوبة؟

- اعترف يا كارمازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معي... إنني أقرأ هذا في عينيك.

كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة.

- ممّ عساني أخجل؟

- إذاً لماذا احمرّ وجهك؟

صاح أليوشا يقول ضاحكاً:

- أنت تجعل وجهي يحمرّ.

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة. ثم تمتم يقول شبه مرتبك:

- طيب.. أشعر ببعض الخجل، لا يدري إلا الله لماذا. أنا نفسي لا أعرف السبب.

هتف كوليا يقول في سورة من حماسة، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه:

- ما أعظم ما أحبك وأحترمك في هذه اللحظة، لأنك تشعر بخجل معي! ذلك أنك تشبهني...

قال أليوشا فجأة دون أن يدري لماذا:

- أصغ إليّ يا كوليا: لا شك أنك ستشقى كثيراً في هذه الحياة.

فقال كوليا يؤيد كلامه:

- أعرف ذلك. ما أصدق تنبؤك بالمستقبل!

- مع ذلك سوف تحب الحياة.

- صحيح. صحيح! مرحى! إنك نبي! نحن متفاهمان يا كارامازوف. وما يعجبني فيك خاصة هو أنك تخاطبني مخاطبة النّدِّ للند، مع أننا لسنا نَدَّين متكافئين، لا لا، فأنت أعلى مني! ولكننا سنتفاهم. طوال الشهر الماضي، ظللت أقول لنفسي: «إما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد، وإما أننا سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات!».

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة:

- منذ قلت لنفسك هذا الكلام، كنت تحبني، هذا أكيد.

- كنت أحبك، كنت أحبك حباً رهيباً، آه... نعم... وكنت أحلم بك! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم؟ هه... هذا هو الطبيب.. ترى ما الذي سيقوله لنا؟ انظر إلى تعبير وجهه!

- 7 -

إيليوشا

في تلك اللحظة خرج الطبيب من الغرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه. كان وجهه يعبّر عن الامتعاض والاحتقار، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ذلك المسكين. ألقى على الدهليز نظرة خاطفة، ثم حدّق إلى أليوشا وكوليا بقسوة. أشار أليوشا للحوذي من الباب، فاقتربت العربة التي أقلت الطبيب، من مدخل البيت. ولكن في تلك اللحظة هرع النقيب ليدرك الطبيب، فانحنى له انحناءه كبيرة، ثم رجاه متذللاً معتذراً، أن يسمح له بحديث أخير معه.

بدأ فقال:

- يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة... أهذا ممكن؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه، واكتفى بأن عقف يديه يأساً، وهو يلقي على الطبيب نظرة ضراعة قصوى، كأن الأقوال التي سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين.

أجاب الطبيب يقول في إهمال، بصوتٍ تخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه:

- لا حيلة لي في الأمر أنا لست إلهاً...

- دكتور.. يا صاحب السعادة... هل هذا وشيك، هل هو وشيك؟

أجاب الطبيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً:

- كونوا مستعدين لكل شيء.

ثم خفض عينيه وسار خطوة في اتجاه العربة.

قال النقيب مروَّعاً وهو يستوقف الدكتور من جديد:

- يا صاحب السعادة، ناشدتك يسوع المسيح... هل يمكن حقاً أن لا يكون هناك أي شيء، أي شيء يستطيع انقاذه بعد الآن؟

أجاب الطيب يقول نافد الصبر:

- هذا لا يتوقف عليّ الآن.

ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة:

- هم... ومع ذلك... إذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا مريضكم، فوراً، من دون إبطاء (وقد نطق الطبيب قوله «فوراً، من دون إبطاء») لا بقسوة فحسب، بل بما يشبه الغضب أيضاً، حتى إن النقيب ارتعش، إلى سيراكوز... فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغير، ولكن...

هتف النقيب يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم:

- إلى سيراكوز؟

فتدخل كوليا يقول بصوت رنّان يشرح الأمر، فنظر إليه الدكتور:

- سيراكوز هي في جزيرة صقلية.

فصاح النقيب يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً:

- في جزيرة صقلية؟

ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير إلى فقر مسكنه:

- أما رأيت إذن؟ وامرأتي، وأسرتي؟ ما الذي يصيرون إليه؟

- لا، لا، لن يكون على الأسرة أن تذهب إلى صقلية. أرسل

أسرتك إلى القفقاس في بداية الربيع... يجب أن تقيم ابنتك زمناً في منطقة القفقاس... أما زوجتك فلن تعالج هنالك إلا مدة قصيرة في مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم... ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً إلى باريس، إلى عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية. وفي إمكاني أن أزودك بكلمة إليه... إن من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن..

عاد النقيب يقول وهو يلوّح بذرعيه يائساً، ويشير إلى ألواح الخشب العارية التي تتألف منها جدران مسكنه:

- دكتور، دكتور، رأيت بعينيك!

فقال الطبيب وهو يضحك ضحكة صغيرة:

- هه... ليس هذا شأني أنا. أنا لم أزد على أن ذكرت لك، في الإجابة عن سؤالك، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولة أخيرة بعد اليأس... أما ما عدا ذلك... فأنا آسف ولكن...

- لا تخف، أيها «المداوي»، لن يعضك كلبي.

كذلك قال كوليا في صخب وقد لاحظ النظرة القلقة التي ألقاها الطبيب على «برزفون» المرابط في العتبة.

كان صوت كوليا يرتعش غضباً، وقد تعمّد أن يسميه باسم «المداوي» بدلاً من اسم «الطبيب»، إهانة له، كما شرح ذلك فيما بعد.

قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق إلى أليوشا مدهوشاً:

- كيف؟

ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة، كأنه يطلب منه تفسيراً لقلة الأدب هذه:

- من؟ ماذا؟ عمن يتكلم!

فقال كوليا من جديد، مشدّداً على كلماته:
- أنا صاحب «برزفون». لا تهتم بشخصي أيها المداوي.
قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذي يُسَمّى بهذا الاسم:
- «برزفون»؟ أي «برزفون»؟
- «برزفون»، «برزفون»، أي غرابة في هذا؟ إلى اللقاء أيها المداوي، سوف نلتقي مرة أخرى في سيراكوز.
استشاط الطبيب غيظاً، فانفجر يقول على حين فجأة:
- من هذا ال... من هذا... الوقح؟
فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه:
- هو تلميذ من هنا يا دكتور. إنه هازل، فلا تلقِ إليه بالاً.
وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له:
- اسكت يا كوليا.
ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاد الصبر في هذه المرة:
- لا تلق إليه بالاً يا دكتور.
فأَعْوَلَ الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً:
- إنه يستحق السوط، الـ.... ـسـ..... ـوط! يجب تأديبه!
اصفرّ وجه كوليا، وقدحت عيناه شرراً، وقال للطبيب بصوت مرتعش.
- هل تعلم أيها المداوي أن كلبي «برزفون» يستطيع أن يعضّ؟ تعال يا «برزفون»!
فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة:
- إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فهذا فراق بيني وبينك!
- اعلم أيها المداوي أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يستطيع أن يأمر نيقولا كراسوتكين. هو هذا الرجل.

قال كوليا ذلك وهو يومئ إلى أليوشا.

- «وإني أطيعه. وداعاً»!

ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة. واندفع «برزفون» وراءه.

لبث الدكتور جامداً زهاء خمس ثوان، كأنما قد استبد به ذهول، وهو ما يزال شاخصاً ببصره إلى أليوشا. ثم بصق على الأرض، وتقدم إلى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عال:

- عجيب، عجيب، عجيب، عجيب!

أسرع النقيب يساعده في ركوب العربة. أما أليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة. كان كوليا واقفاً عند سرير إيليوشا. فتناول أليوشا يده، ونادى أباه، فما هي إلا دقيقة حتى عاد الأب.

- بابا، بابا، تعال إلى هنا...

كذلك تمتم يقول إيليوشا في اضطراب شديد. ثم لم يقوَ على إتمام كلامه، فدفع ذراعيه الناحلتين إلى أمام، وطوّق بهما أباه وكوليا معاً في حركة متشنجة، وضم أحدهما إلى الآخر بعناق واحد، شاداً جسمه إليهما شداً قوياً. فأخذ النقيب عندئذٍ ينشج نشيجاً صامتاً. أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش.

إنّ إيليوشا يقول بلهجة مرة:

- بابا، بابا، ما أشد ألمي عليك!

قال النقيب متمتماً:

- بنيّ إيليوشا.... ملاكي... قال الطبيب إنك... ستشفى... وسنسعد جميعاً...

صاح إيليوشا قائلاً:

- بابا، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عني!... فهمته من النظر إليه!

وشدّ إليه أباه وكوليا من جديد، بكل قواه، مسنداً وجهه إلى كتف النقيب.

- بابا، بابا، لا تبك... حين سأموت ستأخذ صبياً آخر، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان، وتسميه باسم أليوشا مثلي، وتحبه كما تحبني...

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت يشبه أن يكون غاضباً:

- لا تقل سخافات يا صاحبي! ستشفى!

وتابع إيليوشا كلامه فقال:

- أما أنا يا بابا، فلا تنسني أبداً، تعال إلى قبري زائراً. اسمع يا بابا: أريد أن تدفنني قرب تلك الصخرة الكبيرة التي كنا نتجه إليها أثناء نزهاتنا. وزرني هناك مساء في صحبة كراسوتكين.. ومع «برزفون» أيضاً... سأنتظركم هنالك... بابا، بابا!

اختنق صوت إيليوشا. ظل الثلاثة متعانقين صامتين. وفي مقعدها، كانت نينا تبكي بكاء رقيقاً. وإذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع، انفجرت تبكي هي أيضاً، وصاحت تنادي:

- صغيري إيليوشا، صغيري إيليوشا!

انسل كراسوتكين من عناق إيليوشا بغتة، وقال يشرح بسرعة:

- إلى اللقاء يا صديقي. أمي تنتظرني على الغداء. من المؤسف أنني لم أنبئها. لسوف تقلق الآن... على أنني سأجيء إليك بعد الغداء، وسأمكث معك طوال النهار، وطوال المساء أيضاً. سأقص عليك حكايات كثيرة. سأرجع مع «برزفون». أما الآن فسأصطحبه، وإلا أخذ ينبح فأزعجك. إلى اللقاء!

وهرول إلى الدهليز. كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكي. ولكن دموعه تفجرت في الدهليز. وعلى هذه الحال إنما وجده

إيليوشا. قال له إيليوشا ملحاً:
- كوليا، عليك أن تفي بعهدك قطعاً، وأن تعود كما وعدته، وإلا حزن حزناً شديداً.
- سأرجع حتماً. آه... لشدّ ما يحزنني أنني لم أجئ قبل الآن.
كذلك تمتم يقول كوليا باكياً، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة.
وفي تلك اللحظة خرج النقيب من الغرفة كالمجنون، وأغلق الباب وراءه بسرعة. كان في وجهه تعبير غريب، وكانت شفتاه تختلجان. وقف أمام الشابين، ورفع ذراعيه في الهواء، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً بأسنانه:
- لا أريد صبياً صغيراً طيباً... لا أريد صبياً آخر! ألا فليُعقل لساني إذا نسيتك يا أورشليم[18]....
وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال، وتهاوى على الأرض راكعاً، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً أنات مشوّشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد في الغرفة.
هرع كوليا إلى الشارع. وصاح يقول لأليوشا بصوت جاف غاضب:
- إلى اللقاء يا كارمازوف! هل تأتي أنت أيضاً؟
- سأجيء هذا المساء حتماً.
- ماذا أراد أن يقول حين تكلم عن أورشليم؟ ما معنى هذا؟
- هذه آية من الكتاب المقدس «إذا نسيتك يا أورشليم»، معنى هذا: إذا نسيت ما هو عندي أعز شيء أغلى شيء، إذا خنت من ذكرياتي أقدسها، فلتنزل عليّ عندئذٍ...

- كفى! فهمت! لا تنس أن تجيء أنت أيضاً. تعال يا «برزفون»!

كذلك صاح كوليا ينادي الكلب بصوت حانق، واتجه نحو بيته بخطى واسعة.

الباب الحادي عشر

الأخ إيفان فيدوروفتش

- 1 -

عند جروشنكا

اتجه أليوشا نحو ميدن الكاتدرائية حيث يقع منزل التاجرة موروزوفا. كان أليوشا ذاهباً إلى جروشنكا. لقد أرسلت إليه جروشنكا، في ساعة مبكرة من الصباح، خادمتها فينيا، ترجوه ملحة أن يجيء إليها. وقد علم من سؤال فينيا أن المرأة الشابة تعاني منذ الليلة البارحة قلقاً جديداً قوياً. وكان إيليوشا، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال دمتري، قد زارها مراراً، تارة من تلقاء نفسه، وتارة بطلب من ميتيا. وكانت جروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد حبس ميتيا بثلاثة أيام، وظلت تعاني من المرض حوالى خمسة أسابيع؛ حتى لقد لبثت في الأسبوع الأول فاقدة وعيها. وقد تبدلت ملامح وجهها تبدلاً كبيراً أثناء ذلك الوقت، فاصفرت ونحلت، وإن تكن قد أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً. على أنها صارت في نظر أليوشا أعظم جمالاً وفتنة، وكان أليوشا يحب كثيراً أن يلتقي بنظرتها حين يجيء إليها. إن شيئاً ما في تعبير عينيها قد غدا أقوى ثباتاً وأكثر تروياً وتأملاً. إن المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحي، ونوعاً من عزيمة راسخة، وإن تكن هذه العزيمة تشتمل على إذعان وهدوء. إن غضناً قصيراً غمودياً يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ

على وجهها الرقيق معنى التأمل العميق، ويضفي عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوة في الوهلة الأولى. لم يبق هنالك، في الظاهر، أثر لما كان يرى فيها من خفة وطيش. ومع ذلك كان يُدهش أليوشا أنها لم تفقد مرحها رغم النازلة التي ألمّت بها ورغم اعتقال الرجل الذي تحبه، ورغم حبس هذا الرجل في اللحظة التي أوشكت أن تصبح فيها خطيبته، رغم اتهامه بجريمة خطيرة، وكذلك رغم مرضها الذي أعقب ذلك، ورغم قرب حكم المحكمة المحتوم. وإن عينيها اللتين كان فيهما كثير من الكبرياء في الماضي، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادئ وإن كان يتفق من حين إلى حين أن يسطع في نظرتها لهيب مقلق، ولا سيما في اللحظات التي يراودها فيها ذلك الهم القديم الذي لم يهدأ في قلبها أثناء تلك المدة. بل كان يشتد ويقوى بغير انقطاع. إن موضوع هذا الهم الأليم ما يزال هو نفسه: إنه كاترينا إيفانوفنا التي كثيراً ما ذكرت جروشنكا اسمها حتى في هذيانها أثناء المرض. كان أليوشا يدرك أن جروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة، رغم أن كاترينا إيفانوفنا لم تزر ميتيا في السجن مرة واحدة، كما كان في وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء في كل آن. وكان ذلك كله يضع أمام أليوشا مهمة صعبة، لأن جروشنكا لا تفضي بآلامها وتباريحها إلا إليه، وما تنفكّ تسأله المشورة والنصح، وهو في بعض الحالات لا يدري بم يجيبها، وماذا يقول لها.

لذلك كان أليوشا مهموماً مغموماً حين دخل مسكنها. كانت جروشنكا في بيتها، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة. وأدرك أليوشا، من الحركة السريعة التي قامت بها لتنهض عن مقعدها خلف المائدة وتهبّ إلى لقائه، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر. وكان هنالك على المائدة ورق لعب أعدّ لشخصين. إن أريكة الجلد التي كانت

في الجهة الأخرى من المائدة قد أحيلت الآن سريراً، وها هو ذا العجوز ماكسيموف، الضعيف المريض، ولكن على تبسم متكلف وتلطّف متصنّع، يرقد على هذا السرير نصف رقاد، مرتدياً ثوباً منزلياً، واضعاً على رأسه طاقية. إن هذا العجوز الذي ليس له مأوى لم يترك جروشنكا منذ عودتهما من موكرويه قبل شهرين، وهو يعيش في بيتها منذ ذلك الحين. لقد رجعا من موكرويه معاً في المطر والوحل، فلما وصلا إلى مسكنها كان البرد قد نفذ في جسمه حتى العظام، وكان يقاسي هلعاً شديداً ورعباً رهيباً، فما إن دخلا المسكن حتى جلس على الأريكة وأخذ يحدّق إلى المرأة الشابة صامتاً، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة. وكانت جروشنكا عندئذٍ مصعوقة من المصيبة التي نزلت بها، وكانت ترتعد من الحمى منذ تلك اللحظة، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى، مشغولة بإصدار أوامرها إلى خدمها. ثم نظرت إليه نظرة ثاقبة، فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقة وتبعث على الرحمة ونظر هو إلى عينيها ولم ينطق بكلمة. فنادت عندئذٍ فينيا، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعاماً. وظل العجوز طوال ذلك النهار لا يتحرك من مكانه، حتى إذا هبط الليل، وأغلقت النوافذ، سألت فينيا مولاتها:

- هل سيبيت الليلة هنا يا سيدتي؟

فأجابتها جروشنكا قائلة:

- نعم، أعدي الأريكة سريراً له.

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذلك، علمت أنه أصبح لا يعرف الآن إلى أين يأوي، لأن «السيد كالجانوف، المحسن إليه، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن في بيته، وأعطاه خمسة روبلات زاداً».

فقالت له جروشنكا بحزن وهي تبتسم ابتسامة شفقة وعطف: «إذن ابق هنا والله يرعاك». فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال، واختلجت شفتاه في نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل. ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها فوجد الطفيلي التائه في بيتها مأوى. ولم تطرده فينيا ووالدتها طباخة جروشنكا، بل ظلتا تطعمانه وترتبان له سريره على الأريكة. حتى إن جروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك واعتادته، فكانت إذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تبلّ من مرضها تماماً)، جلست إلى جانب «ماكسيموشكا»، وأخذت تثرثر معه في سفاسف وترهات، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر في شقائها. وقد اتفق أن كان العجوز يحسن قصّ الحكايات الشيّقة في المناسبات، فإذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها. وكانت جروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا أليوشا الذي كان مع ذلك لا يزورها كل يوم، ولا يمكث عندها إلا قليلاً. أما صاحبها التاجر العجوز فقد كان في تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً، وكان ملازماً فراشه. كان «بسبيل أن يرحل»، على حد تعبير سكان المدينة. وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بأسبوع وإذ أحسّ بقرب نهايته، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد إليه أبناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره، وفي الوقت نفسه أصدر أوامره إلى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا في بيته، وأن يبلغوها ما يلي إذا هي جاءت: «إن مولانا يأمر بأن تعيشي في السعادة والفرح زمناً طويلاً، وأن تنسيه نسياناً تاماً». ومع ذلك كانت جروشنكا ترسل من يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً.

حين دخل أليوشا على جروشنكا، رمت ورق اللعب، ومدت إليه يدها فرحة وهي تصيح:

- ها أنت ذا أخيراً! إن «ماكسيموشكا» هذا المسكين كان يتسلى بتخويفي زاعماً أنك لن تجيء. ليتك تعرف مدى حاجتي إليك! اجلس إلى المائدة. ماذا تريد؟ هل تريد قهوة؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة:

- بسرور. أشعر بجوع شديد.

- عظيم! فينيا، هاتي قهوة بسرعة! إن الماء يغلي منذ مدة طويلة. أمرت بإعداده خصيصاً لك. فينيا، هاتي فطائر باللحم أيضاً، ولتكن ساخنة. هل تعلم يا أليوشا أنه قد وقعت لي اليوم قصة رهيبة مع هذه الفطائر؟ حملتها له إلى السجن فردّها إليّ بخشونة، ورفض أن يمسّها، هل تصدق؟ حتى لقد رمى إحداها على الأرض ثم داسها بقدمه. قلت له: «سأتركها عند الحارس، فإذا لم تأكلها حتى المساء، كان معنى ذلك أنك تؤجّج في نفسك الغضب الشرير»، قلت له ذلك وانصرفت. فها أنت ذا ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى. كلما زرته انتهينا بمشاجرة.

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهي فريسة انفعال شديد. وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضاً بصره.

سألها أليوشا:

- ولأي سبب تشاجرتما اليوم؟

- لسبب ما كان لي حقاً أن أتوقعه. تصوّر أنه أصبح يغار من «القديم». لقد سألني: «لماذا تعطينه مالاً؟ أأخذت إذاً تعيلينه؟». هي الغيرة، الغيرة دائماً. إنه يغار حين يأكل، وحين ينام. حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها في الأسبوع الماضي، بصدد العجوز كوزما.

- ولكنه كان يعلم بوجود «القديم»!

- طبعاً كان يعلم بوجوده. كان على علم بهذه العلاقة منذ

البداية، وها هو ذا يأخذ يهينني اليوم فجأة لهذا السبب. إنني لأستحي أن أردد على مسمعك ما قاله لي صارخاً. يا له من أحمق! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت. من يدري؟ لعل راكيتين هذا هو الذي يثيره عليّ.

ثم أضافت تقول ذاهلة:

- ما رأيك؟

- رأيي أنه يحبك، يحبك كثيراً. ولكن أعصابه ثائرة الآن.

- من حقه أن تكون أعصابه ثائرة، ما دام سيحكم عليه غداً. وذلك بعينه هو السبب الذي من أجله أردت أن أزوره اليوم، لأحدِّثه عن يوم الغد هذا. تقول لي إنه ثائر الأعصاب. أفليس من حقي أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً؟ ثم هو يحدثني عن ذلك البولندي... يا له من أحمق! الحمد لله على أنه لا يغار من ماكسيموشكا أيضاً!

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً:

- كانت زوجتي تغار عليّ كثيراً.

فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم إرادتها:

- عليك أنت؟ دعك من هذا الكلام! ممن يمكن أن تغار عليك؟

- من الخادمات.

- اسكت يا ماكسيموشكا، لست اليوم في مزاج يمكنني من الضحك. إن غضباً شديداً قد استحوذ على نفسي. أما الفطائر، فليس يجديك أن تنظر إليها بنهم... لن تصيب منها شيئاً. إن أكلتها آذتك. ولن أعطيك خمراً كذلك. ها أنا ذي مضطرة إلى العناية بهذا المسكين أيضاً. ألا يمكن أن يقال إن بيتي أصبح ملجأ خيرياً للبر والإحسان؟

كذلك قالت جروشنكا ضاحكة.

فأجاب ماكسيموف بصوت واهن متباك:

- أنا لست أهلاً لإحسانك. أنا إنسان تافه لا قيمة لي. الأولى أن تغدقي مساعداتك على من قد يكونون أحوج إليها مني.

- ما من أحد ليس بنافع في هذا العالم يا ماكسيموشكا. هل يعلم المرء في الواقع إلى من يحتاج أو لا يحتاج. إن ذلك البولندي يقع الآن على عاتقي كذلك يا أليوشا. تصوّر أنه مرض اليوم هو أيضاً. وقد زرته. نعم، سأرسل إليه الفطائر عامدة، عامدة. لم يكن يخطر ببالي أن أفعل هذا. ولكن ميتيا اتهمني بأنني أرسلت إليه فطائر. لذلك سأرسل إليه منها اليوم عن قصد، هه! هذه فينيا تجيء برسالة. هي رسالة من البولنديين. لا شك أنهما يطلبان مالاً من جديد!

صدق ظن جروشنكا. إن البان موزيالوفتش يرسل إليها رسالة تبلغ مبلغاً عظيماً من الطول والتصنع على عادته، وفيها يرجو أن تقرضه ثلاثة روبلات، ضاماً إلى الرسالة سنداً بالمبلغ يتعهد فيه بردّ المال في غضون ثلاثة أشهر، مذيّلاً السند بتوقيعه وتوقيع البان فروبلفسكي أيضاً. وكانت جروشنكا قد تلقَّت قبل ذلك من صاحبها «القديم» عدداً كبيراً من مثل هذه السندات. بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين، ولكن جروشنكا علمت أن «البانين» قد جاءا يسألان عن صحتها مراراً. كانت الرسالة الأولى التي أرسلها البولندي طويلة، قد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب أسرته. وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعاً جداً، فلم تستطع جروشنكا أن تقرأ إلا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً. ثم إنها كانت في تلك الآونة لا تعبأ كثيراً بما قد يُكتب إليها! وفي الغد

أُتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها البان موزيالوفتش بأن تسلفه ألفي روبل، متعهداً بالسداد بعد فترة وجيزة، ولم ترد جروشنكا لا على الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية. ثم تتالت رسائله كل يوم. يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال. ولكن المبلغ الذي يلتمس أن تقرضه إياه ينخفض شيئاً بعد شيء، فيهبط إلى مائة روبل، ثم يهبط إلى خمسة وعشرين روبلاً، ثم إلى عشرة روبلا. وأخيراً تلقت جروشنكا رسالة جديدة يرجوها فيها البانان أن تسلفهما روبلاً واحداً. وقد ضمّا إلى الرسالة سنداً وقّعاه كلاهما. عندئذٍ شعرت جروشنكا بشيء من الشفقة. ومضت تزور البان عند الغسق، فإذا هي تجد البولنديين في عوز يشبه أن يكون تاماً، فلا طعام ولا تدفئة، ولا سجائر، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة البيت التي يسكنان عندها. إن المائتي روبل التي ربحاها في موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة. وما كان أشد دهشة جروشنكا حين رأت البانين يستقبلانها استقبالاً فيه كثير من التعاظم والادعاء، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية، مسترسلين في كلام متفخم متنفخ. لم تزد جروشنكا عندئذٍ على أن ضحكت من تكلفهما، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات. وقد قصت هذا المشهد على ميتيا في ذلك اليوم نفسه ضاحكة، فلم يخطر ببال ميتيا يومئذٍ أن يغار أو يستاء. غير أن البانين قد تشبثا منذ ذلك الحين بجروشنكا، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يضرعان إليها فيها أن تمدهما بمعونة مالية. فكانت ترسل إليهما في كل مرة مساعدات ضئيلة. ولكن ها هو ذا ميتيا يُظْهِرُ اليوم غيرة ضارية.

قالت جروشنكا مضطربة بعض الاضطراب:

- شاءت غباوتي أن أزوره اليوم عابرة، بضع دقائق، قبل أن

أذهب إلى ميتيا، لأنه مرض هو صاحبي «القديم» أيضاً، وقد قصصت ذلك على ميتيا ضاحكة. قلت له: «تصور أن صاحبي البولندي قد أخذ يغني لي أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة، آملاً أن يؤثر في نفسي وأن يردّني إليه». فإذا بميتيا يثب فجأة، ويأخذ يرشقني بإهانات فظيعة... يميناً لأرسلن للبولنديين فطائر! يا فينيا، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد، أليس كذلك؟ فأعطها ثلاثة روبلات لهما، وحمّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق. أما أنت يا أليوشا، فأريد حتماً أن تروي لميتيا أنني أرسلت إليهما فطائر.

قال أليوشا مبتسماً:

- لا، لن أروي له ذلك.

قالت جروشنكا بمرارة:

- دعك من هذا الكلام! أتتخيل أنه يهتم بأمري ويتعذب من أجلي، بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهراً لا أكثر؟

قال أليوشا:

- يتظاهر تظاهراً؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام؟

- ما أغباك يا صغيري أليوشا! «إلا إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك، إن ما يغضبني، أنا المسكينة، ليس هو أنه يغار عليّ. بالعكس: إن عدم غيرته هو ما يعذبني، هكذا أنا. لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً، فأنا نفسي مسمومة القلب شديدة الغيرة. ولكنني شقية لأنه لا يحبني البتة، وإنما هو يتظاهر اليوم بالغيرة عليّ. ذلك كل شيء. ما أنا بالعمياء. إنني أرى كل شيء رؤية واضحة. لقد أخذ يكلمني فجأة عنها، عن كاتيا تلك، ممتدحاً ما صنعته في سبيله، مثنياً على ما قامت به من أجله. قال لي: «لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك في المناقشات أمام المحكمة

إنقاذاً لي. واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم، وأعلمهم في الوقت نفسه». هو إذاً يحبها ولا يحبني، ما دام يتغنى بمدائحها أمامي ناظراً إليّ بعينيه الوقحتين! إنه مذنب في حقي، ثم هو يسعى إلى مشاجرتي ليلقي الذنب على عاتقي، على عاتقي وحدي، كأنه يريد أن يقول: «لقد كنت على صلة بذلك البولندي قبلي، فمن حقي إذاً أن أهجرك في سبيل كاتيا». تلك هي المسألة. إنه يريد أن يلقي الذنب كله عليّ وحدي. إنه يتعمَّد أن يشاجرني، يعمد ذلك تعمداً... ولكنني سوف...

لم تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوي أن تفعله. وإنما أخفت عينيها بمنديل، وطفقت تبكي في نشيج يثير الشفقة.

قال أليوشا بحزم:

- إنه لا يحب كاترينا إيفانوفنا.

فقالت جروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهي تزيح المنديل عن عينيها:

- سوف أعرف بنفسي إن كان يحبها أم لا.

لقد تقبّضت قسمات وجهها من الغضب. ولاحظ أليوشا، على حزن وحسرة، أن ما كان يشيع في وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح ساج قد حل محلّه الآن عنف وشر.

قالت فجأة تحسم الأمر:

- كفى سخافات! إنني لم استدعك لأكلمك في هذا، يا أليوشا، يا ملاكي! قل لي: ما الذي سيحدث غداً، ما الذي سيحدث غداً؟ ذلك ما يعذبني. أنا وحدي أفكر في هذا وأقاسي العذاب. إنني أنظر إلى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث. هل فكرت في الأمر أنت على الأقل؟ غداً سيحكم عليه مع ذلك! قل لي كيف ستجري

الأمور أمام المحكمة؟ إن الخادم هو الذي قتل، إنه الخادم! يا رب! هل يُعقل أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم، دون أن يتدخل أحد لإنصافه؟ إنهم لم يعمدوا حتى إلى إزعاج هذا الخادم بشيء، أليس كذلك؟

قال أليوشا مطرقاً مفكراً:

- استجوبوه استجواباً محكماً. ولكنهم خلصوا جميعاً إلى أنه ليس مجرماً. وهو الآن مريض جداً. إنه منذ وقوع ذلك الحادث يصاب بنوبات صرع لا تنقطع.

وأضاف أليوشا يقول:

- إنه مريض جداً.

- آه... يا رب! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي، وأن تشرح له القضية بنفسك بينك وبينه. يقال إنه استقدم من سان بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل.

- دبرنا المبلغ نحن الثلاثة: كاترينا إيفانوفنا وأخي إيفان، وأنا. أما الطبيب فإن كاترينا إيفانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو. إن المحامي فيتوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها، وكتبت عنها جميع الصحف، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر، لا طمعاً في المال، بل سعياً إلى المجد، لأن هذه القضية أصبحت شهيرة للغاية، وسيفيده أن يقترن اسمه بهذه القضيّة ولقد كلمته أمس.

سألته جروشنكا متعجلة:

- كلمته؟ فماذا قال لك؟

- أصغى إلى كلامي، ولكنه امتنع عن أبداء أي ملاحظة. قال إنه

قد كوّن رأياً شخصياً في الموضوع، ووعدني مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح.

– يحسب حساب ما قدمت له من شروح؟ ما معنى هذا الكلام؟ هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد! لسوف يضيعونه أخيراً. والطبيب، لماذا استقدموا الطبيب؟

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة:

– استقدموه كخبير. يريدون أن يقرروا أن أخي مجنون، وأنه قد ارتكب جريمة القتل في نوبة جنون ولم يكن يدري ماذا يفعل. ولكن أخي لن يوافق على ذلك أبداً.

هتفت جروشنكا تقول:

– ولكن هذا حق إذا كان قد قتل. لا شك في أنه كان فاقداً عقله، فاقداً عقله تماماً، ولا شك أنني مسؤولة عن ذلك، أنا الشقيّة. لكنه لم يقتل، لم يقتل! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل. المدينة كلها تعتقد بذلك. وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يستخرج منها إلا أنه قاتل. وجميع الأشخاص الذين كانوا في المتجر، وذلك الموظف أيضاً! وزبائن الحانة الذين ينقلون كل كلمة من كلماته، وكل قول من أقواله. إنهم جميعاً يشهدون عليه، ويتبارون في إغراقه.

قال أليوشا بلهجة فيها يأس:

– نعم، تكاثرت الشهادات تكاثراً يدعو إلى القلق.

ثم جريجوري، جريجوري فاسيلتش الذي يصر على أن الباب كان مفتوحاً. إنه لم يتزحزح عن هذه الشهادة. هو يدّعي أنه رأى الباب بعينه مفتوحاً. يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك. لقد ذهبت إليه وتكلمت معه. كاد يشتمني.

قال أليوشا:

- لشهادته شأن كبير، وهو أخطر الشهود على أخي.

قالت جروشنكا بلهجة غريبة وهيئة قلقة:

- أما عن جنون ميتيا، فيخيّل إليّ أنه ما يزال في مثل هذه الحالة حتى الآن... هل تعلم أنني أردت أن أكلمك في هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا؟ إنني أذهب إليه كل يوم، فما ينفك يزداد عجبي من سلوكه. قل لي رأيك: ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التي يحدثني بها في غير انقطاع؟ إنه يتكلم، فلا أتوصل إلى فهم ما يقوله لي. قدّرت في البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج إلى ذكاء عظيم وعلم واسع، فلا أستطيع أن أدركها. ولكنه أخذ يحدثني فجأة عن صبي، عن ولد صغير لا أعرفه. سألني: «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟ إنني أرتضي أن أذهب إلى سيبيريا بسبب هذا الصبي. صحيح أنني لم أقتل، ولكن يجب أن أذهب إلى سيبيريا». أي صبي يعني؟ إنني لا أفهم من هذا الكلام شيئاً. ومع ذلك طفقت أبكي وأنا أسمع له، لأنه أجاد الكلام إجادة رائعة. كان في عينيه دموع، فانفجرت أنا منتحبة. عندئذٍ قبّلني على حين فجأة، ورسم عليّ إشارة الصليب. ما معنى هذا كله يا أليوشا؟ قل لي: أي «صبي» يعني؟

قال أليوشا مبتسماً:

- إني لأتساءل أليس في هذا مكيدة يدبّرها راكيتين لقد أخذ راكيتين يتردد إليه في السجن. ولكن لا... ليس هذا من راكيتين. أنا لم أزر ميتيا أمس، ولكنني سأذهب إليه اليوم.

قالت جروشنكا وقد تلعثمت على حين فجأة.

- لا، ليس هو راكيتكا! إن أخاه إيفان فيدوروفتش هو الذي يبلبل له عقله. إنه هو الذي يزوره في السجن.

تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال:

- إيفان؟ ماذا تقولين؟ إيفان يزوره؟ لقد أكد لي ميتيا أن إيفان لم يزره مرة واحدة.

هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقد احمر وجهها احمراراً شديداً:

- آ... ذلك... ما أكثر ثرثرتي! لقد أسرفت في الكلام! لحظة... اسكت يا أليوشا! ما دمت قد زلّ لساني، فسأقول لك الحقيقة كلها: لقد زاره مرتين. مرة منذ وصل، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث، ولم أكن قد مرضت بعد. ومرة منذ أسبوع. وقد طلب من ميتيا أن لا يقول لك شيئاً عن هاتين الزيارتين. حظر عليه أن يذيع أمرهما لأي مخلوق. لقد زاره سراً.

كان أليوشا يفكر تفكيراً عميقاً. إن شيئاً ما يشغل باله الآن. لقد صعقه هذا النبأ.

قال ببطء:

- إن أخي إيفان لا يحدثني أبداً في قضية ميتيا. ثم إنه لم يكد يكلمني أبداً خلال هذين الشهرين. وكان يبدو ممتعضاً من زيارتي كلما زرته. لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع. هِمْ... إذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع فذلك غريب حقاً فلقد حدث في ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة.

أسرعت جروشنكا تقول:

- حدث فيه تغير، حدث ذلك بالتأكيد. إن بينهما سراً. كان بينهما سراً! قال لي ميتيا نفسه ذلك، قال إن الأمر سر. وهو سر يعذبه تعذيباً شديداً، هل تعلم؟ كان ميتيا مرحاً قبل ذلك وما يزال مرحاً حتى الآن: ولكن حين يهز رأسه، ويأخذ يسير في زنزانته، ويحك شعر صدغه بإبهامه الأيمن، أُدركُ أن هناك شيئاً في قلبه. أنا

أعرف هذا. كان قبل ذلك مرحاً جداً. وما يزال مرحاً حتى الآن في الواقع.

- ولكنك قلت لي إنه ثائر الأعصاب جداً.

- نعم، هو مرح وثائر الأعصاب في آن واحد. تثور أعصابه فجأة، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة، ثم يهتاج من جديد. إنه يدهشني مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا. إن ما ينتظره رهيب، ومع ذلك يتفق له أن يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل.

- هل صحيح أنه أراد أن لا تكلميني عن إيفان؟ هل قال لك: «لا تقولي شيئاً»؟

- ذلك بعينه هو ما قاله لي: «لا تقولي شيئاً!» هو خائف منك أنت خاصة. ذلك أن هناك سراً. وهو نفسه يعترف بأن هناك سراً. أليوشا، يا عزيزي، امضِ إليه، وحاول أن تعرف الحقيقة: ما ذلك السر الذي بينهما؟

وأضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعاً على حين فجأة:

- ثم عد إليّ وأخبرني. خلِّصني من قلقي وهمي، أنا التعيسة الشقيّة فعسى أن أعرف مصيري المنحوس! من أجل هذا إنما استدعيتك.

- هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك؟ لو كان كذلك، لما كلمك فيه البتة.

- الله أعلم. لعله أراد أن يحدثني في الأمر، ولكنه لم يجرؤ فاكتفى بالتنبيه. لقد أسمعني أن هناك سراً ولكنه لم يقل ما هو هذا السر.

- ماذا تفترضين؟

- ماذا أفترض؟ أفترض أن الأمر أمر ضياعي أنا. لقد اتفقوا هم

الثلاثة على تضييعي، لأنّ كاتيا وراء هذه المؤامرة. إن كاتيا هي التي أعدت كل شيء. لقد أطرى مزايا هذه المرأة، قال: «هي كيت وكيت». معنى ذلك أنني لست مثلها. إنه يمهد... إنه ينبهني. ذلك أنه قرر أن يتركني. هذا هو السر كله. لقد تآمروا هم الثلاثة: ميتيا وكاتيا وإيفان فيدوروفتش. اسمع يا أليوشا: هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة: لقد أعلن لي فجأة في الأسبوع الماضي أن إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا لأنه يزورها دائماً. فهل هذا صحيح أم لا؟ أجبني بصدق وإخلاص، دون أن تحاول مداراتي ومراعاتي.

- لا أريد أن أكذب عليك. إن إيفان لا يحب كاترينا إيفانوفنا. ذلك رأيي أنا على الأقل.

- هذا ما قدّرته أنا أيضاً. لقد كذب عليّ. يا له من وقح! واضح أنه كذب عليّ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة، ليستطيع بعد ذلك أن يلقي الذنب كله عليّ. ألا أنه لغبي. إنه لا يجيد حتى التمثيل. إنه بطبيعته صريح مسرف في الصراحة... ولكنني سألقنه درساً، سألقنه درساً! لقد صرخ يقول لي: «أنت تؤمنين بأنني قاتل». صرخ يقول هذا الكلام لي أنا. إنه يأخذ هذا عليّ أنا. طيب سامحه الله. أما كاتيا تلك، فويل لها. سأعرف كيف «أدبرها» أمام المحكمة. سوف أروي لهم قصة صغيرة... سوف أقول كل ما أعرف!

وأخذت جروشنكا تبكي بكاء مراً.

قال أليوشا وهو ينهض:

- إليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين يا جروشنكا: أولاً: هو يحبك، يحبك أكثر من أي شي في هذا العالم. ولا يحب أحداً غيرك على الإطلاق، تستطعين أن تصدقيني. أنا أعلم هذا. أنا من هذا على يقين تام. ثانياً: أريد أن تعرفي أنني لن أحاول أن

استخرج منه سرّه. وإذا أفضى إليَّ به اليوم من تلقاء نفسه، فسوف أنبّهه فوراً إلى أنني قد وعدتك بإبلاغك هذا السر. وسوف أعود إليك في هذا اليوم نفسه، فأقول لك كل ما أكون قد علمته. على أنني... يخيّل إليّ... أن كاترينا إيفانوفنا ليس لها ضلع في هذا الأمر، وأن السر يتعلق بشيء آخر غير هذا تماماً. بل إنني لواثق من ذلك. يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترينا إيفانوفنا. أنا من ذلك على قناعة راسخة. والآن إلى اللقاء.

صافحها أليوشا. كانت جروشنكا ما تزال تبكي. أدرك أنها لم تصدّق ما قدم لها من شروح مواسية. ولكن جروشنكا كانت قد تخففت من حزنها بعض التخفف لأنها عبّرت عنه. شعر أليوشا بشفقة عليها، وأسف لاضطراره إلي تركها وهي في ما هي فيه من كرب. ولكن كان عليه أن يسرع، لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها في ذلك اليوم.

– 2 –

الساق المريضة

إن الأمر الأول الذي كان على أليوشا أن يهتم به، كان في منزل السيدة خوخلاكوفا؛ فراح يسرع الخطى للوصول إلى هذا المنزل، ليفرغ من ذلك الأمر بأقصى سرعة، حتى لا يتأخر على ميتيا. كانت السيدة خوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع لقد تورمت إحدى ساقيها لسبب مجهول، فهي تقضي أيامها في مقصورتها مضطجعة على كنبة، مرتدية غلالة جذابة لكنها محتشمة، لأنها لم تضطر إلى ملازمة فراشها. كان أليوشا قد عبَّر بينه وبين نفسه، في يوم من الأيام، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة، وهي أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت بالرغم من مرضها تتغندر منذ زمن: فهي تتزين بمناديل صغيرة أنيقة من الدنتيللا وأشرطة جميلة، وهي تتفنن في التجمّل. ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه بملابسها، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه، ويعدها عبثاً لا طائل تحته. والواقع أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت، منذ شهرين، تستقبل، من بين مَنْ تستقبل من معارف وأصحاب، الموظف الشاب برخوتين في أحيان كثيرة.

حين وصل أليوشا الذي لم يزر السيدة خوخلاكوف منذ أربعة أيام، أسرع يتجه رأساً إلى غرفة ليزا. فمع ليزا إنما كان عليه أن

يبحث الأمر الهام الذي أشرنا إليه، لأن الفتاة قد أوفدت إليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحة أن يجيء إليها بأقصى سرعة ممكنة، «لأمر خطير جداً»، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة. ولكن حين ذهبت الخادمة إلى ليزا لتبلغها بوصول أليوشا، علمت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفة، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها «دقيقة واحدة». فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلا فمن الممكن أن ترسل إليه مَنْ يستدعيه من عند ليزا كل خمس دقائق، أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا.

كانت السيدة خوخلاكوفا مضطجعة على كنبتها، مهتمة بحسن ملبسها اهتماماً خاصاً، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبياً شديداً، فاستقبلت أليوشا بصيحات حماسة.

– منذ قرون، منذ قرون ما رأيتك! أسبوع كامل، كيف يمكن هذا؟ ولكن لا!... لقد جئت منذ أربعة أيام، جئت يوم الأربعاء الماضي. أأنت ذاهب إلى ليزا لا شك أنك كنت تريد أن تمضي إليها سائراً على رؤوس الأصابع حتى لا أسمعك. يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيدوروفتش، ليتك تعلم مدى القلق الذي تسببه لي حالة ابنتي! ولكنني سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد. ولو أن هذا أهم شيء، ولكن فيما بعد، فيما بعد! عزيزي ألكسي فيدوروفتش، إنني أعهد إليك بابنتي ليزا. إنني منذ موت الشيخ زوسيما، رحمه الله (وهنا رسمت السيدة إشارة الصليب)، أعدُّك ناسكاً، رغم أنك ترتدي رداءك الجديد على أجمل زي. أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة؟ ولكن لندع هذا الآن، ليس هذا أهم شيء، سنتحدث عن هذا فيما بعد. سامحني إذا ناديتك أحياناً باسم أليوشا فقط. أنا امرأة عجوز، فكل شيء جائز لي (قالت السيدة

خوخلاكوفا هذا وهي تبتسم في دلال وغنج). ولكن لندع هذا الآن. سنتحدث عنه فيما بعد. إن الشيء الأساسي هو أن لا أنسى الأمر الأساسي. ذكرني بذلك عند اللزوم، فإذا ثرثرت فابتعدت كثيراً عن الموضوع، فعليك أن تقاطعني سائلاً: «والأمر الأساسي؟». ولكن أنّى لي أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسي! منذ نقضت ليزا العهد الذي قطعته لك - عهد الطفلة يا ألكسي فيدوروفتش، أعني عهدها بأن تتزوجك - فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن إلا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك. الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشي الآن! إن ذلك الطبيب الجديد الذي استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذي سوف يحاكم غداً... ولكن فيم الكلام على الغد! إني متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت جزعاً. ذلك من الحشريّة خاصة. المهم أن هذا الطبيب قد جاء إلينا أمس وفحص ليزا ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً. ولكن لا، ها أنذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى... ليس هذا ما كنت أريد أن... لقد فقدت تسلسل أفكاري تماماً كما ترى. ذلك أنني متعجّلة. لماذا أتعجّل هذا التعجُّل؟ لا أدري. أصبحت لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً. لقد اختلط كل شيء في ذهني، حتى صار كالعقدة. إنني أخشى أن تفر من لحظة إلى أخرى ضجراً وسآمة مما أقول مع أنني لم أكد أراك رباه! ما لي نسيت! نحن نثرثر هنا، بينما... ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً. يا جوليا، يا جلافيرا، هاتوا القهوة، هاتوا القهوة حالاً.

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً إنه قد شرب القهوة منذ قليل.

- عند من؟

- عند أجرافينا السكندروفنا.

- عند تلك... تلك المرأة؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً. لست أدري على كل حال. يقال إنها أصبحت أشبه بقديسة، وإن جاء هذا متأخراً في رأيي... كان ينبغي أن يخطر ببالها ذلك من قبل، يوم كان ذلك ضرورياً ومفيداً. أما الآن فما الفائدة؟ اسكت، اسكت يا ألكسي فيدوروفتش، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك، أشياء تبلغ من الكثرة إنني أخشى أن أفقد تسلسل أفكاري فلا أقولها أبداً. وتلك المحاكمة الرهيبة... سوف أحضرها مهما كلف الأمر... إنني استعد لحضورها، سوف يأخذونني إلى المحكمة على كرسي. ثم إنني أستطيع جداً أن أبقى جالسة وسيكون بقربي أناس يسندونني. لا شك أنك تعلم أني دعيت إلى الشهادة. ماذا أقول لهم، ماذا أقول؟! إنني لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم. سوف يكون عليّ أن أحلف يميناً، أليس كذلك؟ قل لي...

- نعم، ولكنني أظن أنك في حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة.

- أستطيع أن أبقى قاعدة. أوه... ولكنك تفقدني تسلسل أفكاري. تلك المحاكمة، تلك الجريمة البشعة، ثم ذلك الرحيل إلى سيبريا التي سيذهبون إليها جميعاً. سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك! ما أسرع ما تمضي الحياة! كل شيء يجري، كل شيء يتغير، ثم لا يبقى أخيراً شيء، لا يبقى إلا عجائز يتربص بهم الموت. ليكن، ليكن... إنني أشعر بإعياء. إن كاتيا هذه «الإنسانة الفتّانة» - قد حطّمت جميع آمالي: إنها تنوي الآن أن تلحق بأحد أخويك إلى سيبيريا. وسيلحق بها أخوك الثاني إلى هناك، فيعيش في مدينة مجاورة. وبذلك لا يزيدون على أن يعذب بعضهم بعضاً. إن ذلك يفقدني صوابي، أؤكد لك... ولا سيما بسبب ما

نشر في الصحف عن هذه القضية. إن جرائد سان بطرسبرج وموسكو مليئة بأخبار هذه القضيّة منذ أسابيع. آه... نعم... تخيل أنهم تكلموا في هذه الصحف عني أنا أيضاً، زاعمين أنني كنت «الصديقة العزيزة جداً» لأخيك! إنني لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية. هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا الأمر، قل لي، هل تستطيع أن تتصوره؟

- مستحيل. أين وكيف نشر هذا الكلام؟

- سأريك الآن. لقد نشر في جريدة «الشائعات»[19] التي تصدر في سان بطرسبرج، وقد وصلتني الجريدة أمس، فأسرعت أقرؤها. إن هذه الجريدة قد بدأ صدورها في هذه السنة وأنا أحبّ الشائعات حباً شديداً، لذلك اشتركت في الجريدة. هل كان في وسعي أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولني أنا، ها هي الشائعات! اقرأ، اقرأ، الكلام هنا، في هذا الموضع.

قالت السيدة خوخلاكوفا ذلك ومدّت إلى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها.

كانت السيدة خوخلاكوفا في حالة انهيار نفسي شديد. ليس الأمر في هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج، وإنما هو هزة قوية أصابت كيانها كله، ولعل أفكارها قد بلغت في هذه الساعة من الاضطراب والبلبلة والتشويش أنها أصبحت في رأسها أشبه بغيوم متكاثفة. إن الشائعة التي نشرت في الجريدة المذكورة تتضمن غمزاً واضحاً وتعريضاً ساخراً لا بد أن يُحدث في نفسها أثراً أليماً جداً. ومن حسن حظها، مع ذلك، أنها كانت في تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على موضوع واحد. فبفضل ذلك إنما كانت تستطيع أن تنسى المقالة الفاضحة بعد دقيقة، وأن تنتقل إلى موضوعات أخرى

يجري عليها الحديث. ولا شك أن أليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نشر في صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء والمقالات الفظيعة التي تفتق عنها خيال المتخيلين والتي لا تمت إلى الواقع بصلة (إلى جانب المعلومات الصحيحة) عن أخيه، وعن آل كارامازوف جملة، وعنه هو أيضاً. من ذلك مثلاً ما نشرته إحدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر في أعقاب الجريمة الرهيبة التي اقترفها أخوه أنه اعتصم بدير من الأديرة، ليعيش حياة الرهبان. وقد أيّدت جريدة أخرى هذا النبأ، ولكنها أضافت إليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع شيخه زوسيما، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً. أما الشائعة التي نشرت في جريدة «الشائعات» فقد كان عنوانها ما يلي: «مراسلنا في سكوتو بريجونيفسك يكتب إلينا عن قضية كارامازوف» (ذلك هو مع الأسف اسم مدينتنا الصغيرة التي لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن[20]). إن المقالة قصيرة، ولم تذكر فيها السيدة خوخلاكوفا بالاسم. ولقد أُغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص، واقتصر على الإشارة إلى أن المجرم الذي أحدثت جريمته ضجة كبرى، والذي سيحاكم قريباً، هو ضابط جيش محال على التقاعد برتبة نقيب، متغطرس كسول من ملاكي الأقنان السابقين، هذا إلى أنه زير نساء مستهتر، كان له بعض التأثير في «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة»، فمن هذه السيدات «أرملة عاطلة» كانت تتصابى وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنيء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين في أكثر تقدير، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل، ليوافق على اختطافها والسفر معها إلى مناجم الذهب فوراً. ولكن الشقي آثر

أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل، آملاً أن لا تكشف جريمته، مفضّلاً أن يتعرّض لهذا الخطر على أن يرحل إلى سيبريا في صحبة السيدة العاطلة التي تنعم بمفاتن سن الأربعين. واختتمت المقالة على نحو ما يجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبها قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ولم تنس في الوقت نفسه أن تدين نظام الرقّ الملغى.

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع، ثم طوى ورقة الجريدة وردّها إلى السيدة خوخلاكوفا.

تمتمت تقول من جديد:

- هذا عني أنا، عني أنا، أليس كذلك؟ لا شك أبداً في أنه عني أنا. لقد نصحته فعلاً، قبل وقوع الجريمة بساعة أن يذهب إلى مناجم الذهب. فانظر ماذا خرج من ذلك فجأة: «مفاتن سن الأربعين»! لقد فعل ذلك عامداً! أسأل الله أن يغفر له «مفاتن سن الأربعين» هذه مثلما أغفرها له أنا. ذلك أن كاتب هذه المقالة هو... لا بد أنك تعرف من هو... إنه صديقك راكيتين.

قال أليوشا:

- هذا جائز جداً. ولكنني كنت أجهل ذلك.

- إنه هو، هو. ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب أنني طردته من منزلي. أظن أنك علمت بهذا الحادث.

- أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد إلى بيتك أما السبب الذي دفعك إلى هذا القرار، فأعترف أنني لم أعلم به... لم أعلم به منك على الأقل.

- إذاً علمت به منه هو! أهو حاقد عليّ كثيراً، وغاضب مني جداً؟

- نعم، هو غاضب، ولكنه غاضب من جميع الناس. أما السبب الذي من أجله أغلقت بابك دونه، فإنه هو الآخر لم يذكره لي. وأنا على وجه العموم لا أراه إلا نادراً. ليس هو صديقي.

- طيب. سأقول لك الحقيقة كلها. لا ضير. ثم إنني نادمة على شيء من الأشياء في هذه المسألة، إن هناك عنصراً صغيراً أنا مسؤولة عنه. هو أمر بسيط، بسيط جداً، أمر تافه لا قيمة له، حتى لقد لا يكون له وجود إلا في خيالي. اسمع يا بني العزيز (هنا بشّ وجه السيدة خوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وإن تكن لا تُفهم فكأنها لغز)... اسمع... إنني أشتبه في أنه... سامحني يا أليوشا، فإنما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها... أقصد... لا... إن عكس هذا هو ما أردت أن أقوله... إنني أخاطبك كما أخاطب أب... إذ لا مجال للحديث هنا عن أم... لا قيمة لهذا على كل حال... المهم أنني أكلمك كما كان يمكن أن أكلم الأب زوسيما معترفة. ذلك هو أحسن تشبيه هنا. ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك؟... فاسمع إذن: إن هذا الشاب الشقي، صاحبك راكيتين... (أوه.. رباه! إنني لا أستطيع أن أغضب منه حقاً! أنا مستاءة وحانقة... ولكن على ضعف...) الخلاصة: إن هذا الشاب الطائش المسكين قد أولع بي فجأة... تصور! أنا لم ألاحظ ذلك إلا فيما بعد، فيما بعد. أمّا في البداية أي منذ شهر فأصبح يكثر من زيارتي، وأصبح يجيء إليّ كل يوم تقريباً، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل. لم أشتبه في شيء لم يخطر ببالي شيء. ولكن ها أنذا ألاحظ قبساً من نور على حين فجأة، وها أنذا آخذ أنتبه إلى بعض الأشياء. أنت تعلم أنني أصبحت منذ شهرين أستقبل في كثير من الأحيان ذلك الشاب الطيب الرائع المتواضع الرصين،

بيتر ايلتش برخوتين، الموظف في مدينتنا. لقد التقيت أنت به عندي مراراً على كل حال. إنه شاب جاد كل الجد، لائق كل اللياقة، ألا ترى ذلك؟ إنه يجيء إلى بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام، (ولست أجد أي ضير في أن يجيء كل يوم على كل حال). هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام. أنت تعرف أني أحبّ الشباب يا أليوشا، الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة، من أمثالك أنت مثلاً يا أليوشا. أما هذا الشاب فله ذكاء يجعله مساوياً لرجل دولة. وما أجمل حديثه! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا، نعم، نعم، سوف أتوسط له حتماً. سيكون في المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول. وقد أنقذ حياتي تقريباً في ذلك اليوم الرهيب. أنقذني من موت محقق حين جاء إليّ في الليل. أما صديقك راكيتين، فإنه يجيء دائماً بحذاءيه الضخمين يجرهما على السجاد جراً. الخلاصة: أخذ راكيتين يُسمعني تلميحات في أول الأمر، وفي ذات يوم شدّ على يدي شداً قوياً حين انصرف. فما إن شدّ على يدي ذلك الشدّ حتى شعرت بألم في ساقي. وقد التقى عندي ببيوتر ايلتش مراراً، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب. واقتصرت أنا على أن ألاحظهما كليهما، فكان يسليني أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر. وإني لوحدي في ذات مرة (وكنت في تلك الآونة قد أصبحت مضطرة إلى الاضطجاع) إذا بميخائيل إيفانوفتش يجيئني حاملاً إليّ أشعاراً.... تصور!... هي قصيدة صغيرة أوحت إليه بها ساقي المريضة. انتظر. سأنشدك الأبيات:

كيف للساق الجميلة

كيف للساق اللذيذة

أن تعاني ألماً
يا لَهَمّي!

. . . . شيء من هذا القبيل. . . نسيت التتمة. يصعب عليّ دائماً حفظ الشعر. لا بأس على كل حال. لقد خبأت القصيدة في مكان قريب جداً. سوف أطلعك عليها فيما بعد. ولكنها رائعة، حقاً. هي لا تتحدث عن ساقي فحسب، بل تتحدث عن أكثر من ذلك، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً. يؤسفني أنني لا أتذكر الآن تلك الفكرة. الخلاصة: إن هذه القصيدة تستحق أن تحفظ في ألبوم. وقد شكرته طبعاً، فسّر بذلك سروراً عظيماً، كما يبدو. وما إن شكرته حتى دخل بيتر ايليتش فجأة، فإذا وجه ميخائيل إيفانوفتش يتجهم. أدركت أن وصول بيتر ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه. ذلك أنه كان ينوي، ولا شك، أن يقول لي شيئاً بعد قراءة القصيدة. لقد أحسست أنا بذلك ولكن ها هو بيتر ايلتش يدخل في تلك اللحظة نفسها. أطلعت بيتر ايلتش على القصيدة طبعاً، ولكن دون أن أقول له من الذي نظمها. على أنني واثقة، واثقة كل الثقة، من أنه حزر، وإن كان ينكر ذلك حتى الآن. هو يدّعي أنه لم يحزر شيئاً. ولكنه يَزْعَمُ ذلك عامداً. انفجر بيتر ايلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة ثم نقدها نقداً لاذعاً، فقال: «هي أشعار تافهة، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت في أكثر تقدير». لقد ثار على رداءة القصيدة الصغيرة. وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة وكأنما جن جنونه، بدلاً من أن يضحك، قلت لنفسي: «آه. . . يا رب! لسوف يتضاربان!». قال راكيتين؛ «أنا ناظم القصيدة لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح لأنني أرى أنه لا يليق برجل أن يضيّع وقته في النظم. ولكن أشعاري جميلة مع ذلك. إن في النية إقامة نصب

تذكاري لشاعركم بوشكين[21] لتغنيه بجمال سيقان النساء. وإن لأشعاري أنا اتجاهاً أخلاقياً. أما أنت (قال ذلك مخاطباً بيتر ايلتش)، فما أنت إلا رجل رجعي عاجز عجزاً تاماً عن فهم الصبوات العميقة للإنسانية. لقد ظللت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن. إن التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك، لأنك لست إلا موظفاً مرتشياً»! أخذت أصرخ أنا أيضاً، ضارعة إليهما أن يسكتا ويهدءا. وليس بيتر ايلتش هذا بالرجل الهيّاب، هل تعلم ذلك؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة، فبعد أن أصغى إلى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً: «كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات، ولو عرفت ذلك لما قلت الكلام الذي قلته، بل لانبريت أطري الأبيات. يقال إن الشعراء شديدو الحساسية سريعو الغضب...». الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة. لقد شرح لي هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً، لكنني ظننت في أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعة كاضطجاعي الآن أمامك، وكنت أتساءل: هل يليق بي أو لا يليق أن أطرد ميخائيل إيفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ في بيتي وأن يهين ضيفي. فهل تصدّق ما سأقوله لك؟ كنت مضطجعة وقد أغمضت عيني وأخذت أفكر: «أمن اللياقة أن أطرده أم لا؟ ولا أستطيع أن أجيب، فأعاني معاناة رهيبة، بينما قلبي يدق: أأصرخ طالبة إليه أن ينصرف أم لا؟». كان هناك صوت يهيب بي: «اصرخي!»، وكان هناك صوت آخر ينصحني بأن لا أصرخ. فما إن سمعت هذا الصوت الثاني الذي ينصحني بأن لا أصرخ حتى أخذت أصرخ فجأة وسقطت مغشياً عليّ فجأة. وقام البيت وقعد كما تقدّر. ونهضت بعد لحظات فقلت

لميخائيل ايفنوفتش: «يؤسفني أن أقول لك إنني لا أحبّ أن أراك بعد اليوم في منزلي». هكذا طردته من بيتي. آه يا ألكسي فيدوروفتش، إني لأعلم حق العلم أنني أسأت التصرف. ولقد كذبت من جهة أخرى، لأنني لم أكن غاضبة منه في الواقع. ولكنني تصوّرت فجأة، نعم فجأة، أن تدخّلي سيكون فيه كثير من الرّفعة والتميّز، وأن هذا المشهد سيكون جميلاً جداً. وهل تصدِّق لقد كان هذا المشهد طبيعياً، إلى درجة إنني طفقت أبكي، وظللت أبكي عدة أيام. ومع ذلك كنت قد نسيت فجأة بعد الغداء كل شيء. وقد انقطع راكيتين عن زيارتي منذ أسبوعين، فكنت أتساءل: «هل يُعقل حقاً أن لا يأتي بعد الآن قط؟». وظللت ألقي على نفسي هذا السؤال حتى أمس، حين جاؤوني عند المساء بجريدة «الشائعات» هذه، فلما قرأت المقالة أوشكت أن أنقلب على ظهري. من ذا الذي يمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة إلا راكيتين نفسه؟ لقد عاد إلى مسكنه غاضباً حانقاً، فلا بد أنه جلس إلى مكتبه فوراً ليدبّج هذه الرسالة الصحفية، ثم أرسلها إلى الجريدة التي سارعت إلى نشرها. حدث هذا منذ أسبوعين تماماً. ولكنني ألاحظ يا أليوشا أنني اتخبط في الحديث هنا وهناك، ناسية «الأمر الأساسي» الذي كنت أريد أن أكلمك فيه. ماذا تريد؟ ذلك أقوى مني!

حاول أليوشا أن يدسّ كلمة فقال في خراقة:

- أنا اليوم مستعجل جداً لأصل إلى عند أخي في الساعة المحددة.

- صحيح، صحيح. لقد ذكرتني بالأمر. قل لي: ما هو المسّ؟

سألها أليوشا مدهوشاً:

- أي مسّ؟

- المسّ القضائي. المسّ الذي من أجله يُغفر كل شيء. فمهما يقترف المرء من جرم، يغفر له على الفور.

- بأية مناسبة تسألين هذا السؤال؟

- إليك الأمر: إن كاتيا هذه... آه.... ما أروعها من مخلوقة! ما أجملها من إنسانة، ولكنني لم أستطع أن أعرف أيهما تحب. لقد كانت عندي منذ مدة، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً. جهد ضائع، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني على حين فجأة وضعاً سخيفاً جداً. إنها لا تتحدث معي إلا عن صحتي، ولا شيء غير ذلك. لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت لنفسي: «لا بأس، لا بأس، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتي!...» آ... نعم... كنت أسألك عن المسّ. وذلك بمناسبة وصول الطبيب.. هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيباً جديداً؟ ولكن لا بد أنك تعلم ذلك، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية، وأنت الذي استقدمته... لا ليس أنت، بل كاتيا... كاتيا أيضاً! إليك المسألة إذن: هذا رجل ليس بمجنون، ولكنه يصاب فجأة بمس: لقد احتفظ بوعيه، وهو يعلم ماذا يفعل، ولكنه مع ذلك ممسوس. لعل هذا ما جرى في حالة دمتري فيدوروفتش... لا بد أن مسًا أصابه... هذه نظرية حديثة اكتشفت منذ إعادة تنظيم محاكمنا. إن إعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت إلينا جميعاً، ولولاها لم نعرف المَسّ. لقد زارني الطبيب الجديد، وسألني عما حدث في تلك الأمسية، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك: كان يريد أن أصف له الحالة التي كان عليها أخوك. حقا لقد كان أخوك في حالة مَسّ واضحة. جاء إلي صارخاً: «أريد مالاً، مالاً، أنا في حاجة إلى ثلاثة آلاف روبل، فأعطني ثلاثة آلاف روبل» ثم مضى،

وأصبح قاتلاً على حين فجأة. كان يقول: «لا أريد أن أقتل، لا أريد». ولكنه قتل. فلهذا السبب إنما سيغفرون له، لأنه قاوم المَسّ، ثم قتل بعد ذلك.

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شيء من الضيق:

- ولكنه لم يقتل.

وأحس بتبرّم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شيء.

قالت السيدة خوخلاكوفا:

- أعرف أنه لم يقتل. إن العجوز جريجوري هو الذي قتل...

صاح أليوشا:

- جريجوري؟ كيف؟

- نعم، نعم، هو جريجوري. فبعد أن ضربه دمتري فيدوروفتش، لبث مغميّ عليه مدة من الوقت، ثم نهض فرأى الباب مفتوحاً، فهرع ليقتل فيدور بافلوفتش.

- ولكن لماذا، لماذا، لأي هدف؟

- انتابه مَسّ. لقد ضربه دمتري فيدوروفتش على رأسه، فلما أفاق من غيبوبته، كان المَسّ قد استحوذ على عقله، فمضى يقتل. ولئن كان ينكر أنه القاتل، فإن ذلك لا يبرهن على شيء، لأن من الجائز جداً أنه أصبح لا يتذكر. ولكن صدقني إذا قلت لك إن من الأفضل، من الأفضل كثيراً أن يكون دمتري فيدوروفتش هو الذي ارتكب الجريمة. ثم إنه هو الذي قتل. إن القاتل هو دمتري فيدوروفتش في الواقع، رغم أنني أؤكد أنه جريجوري، وذلك أفضل، أفضل كثيراً. لا تسئ فهمي. أنا لا أدعي أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه. لست أثني على قتل الابن أباه. بالعكس: أنا أؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم. ولكن من الأفضل مع

ذلك أن يكون هو القاتل. ولن تكون في حاجة إلى أن تشكو وتندب وتستنكر، ما دام قد قتل بغير وعي. أقصد أنه كان واعياً، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل. لا، لا، يجب أن يغفروا له أنا أؤيد تبرئته. لسوف تكون تبرئته مثلاً إنسانياً جميلاً، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات إعادة تنظيم القضاء. كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذي يقال إنه وجد منذ زمن. فما إن علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بشعور بلغ من القوة أنني أردت استدعاءك فوراً. وفي المستقبل، متى برِّئ أخوك، سيجب عليه حتماً أن يجيء إلى الغداء عندي منذ خروجه من المحكمة. سأدعو جميع معارفي وأصحابي، وسنشرب نخب إعادة تنظيم القضاء. لا أظن أن أخاك خطر جداً. ثم إنني سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين كبيراً، فإذا حدث شيء كان في الإمكان إخراجه من البيت. وبعد ذلك يستطيع أن يستقر في مدينة أخرى كقاضي صلح، أو أن يُعيَّن لوظائف من هذا القبيل، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير القضاة. وأي إنسان يستطيع من جهة أخرى أن يُزْعَمُ أنه مبرأ من المس؟ إننا جميعاً مصابون بالمس، أنت وأنا وسائر الناس. ليست تعوزنا الأمثلة على ذلك: هذا رجل يبدو في الظاهر هادئاً ويغني أغنية عاطفية. وفيما هو كذلك إذا بشيء من الأشياء لا يرضيه، فيخرج مسدساً ويقتل أول قادم ثم يُغفَرُ له كل شيء. لقد قرأت في الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة. إن الأطباء في أيامنا هذه يؤكدون دائماً، يؤكدون كل شيء. تصوّر أن ابنتي ليزا مصابة بمس. أمس اضطرتني إلى البكاء، وأمس الأول أيضاً. واليوم إنما اكتشفت الحقيقة، وهي أنها قد اعتراها مس. آه... ليتك تعلم كم تسبب لي ليزا من عناء! يبدو لي أنها فقدت عقلها. ترى لماذا استدعتك؟ أهي

استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم:

- بل هي استدعتني، وأنا ذاهب إليها.

فصاحت السيدة خوخلاكوفا تقول وهي تبكي:

- ولكن يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيدوروفتش، الآن إنما وصلنا إلى الأمر الأساسي. شهد الله أنني أكل إليك ليزا صادقة في ذلك كل الصدق. لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها، فليس هذا بالأمر الخطير جداً. وما كان لي أن أكل ابنتي بمثل هذه الطمأنينة إلى أخيك إيفان فيدوروفتش، سامحني إذا قلت هذا، رغم أنني أعده، حتى اليوم، شاباً تفيض نفسه فروسية. هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا، من غير أن أعلم أنا شيئاً؟

قال أليوشا مدهوشاً كل الدهشة:

- ماذا؟ كيف؟ متى زارها؟

ومع ذلك لم يعد إلى الجلوس، بل استمع إلى شروح السيدة خوخلاكوفا واقفاً.

- سأقصّ عليك كل شيء: ومن أجل هذا إنما استدعيتك فيما أظن. على أنني اصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك. إليك الأمر: لقد زارني إيفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو. فأما في المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر. وأما في المرة الثانية، وهي حديثة جداً، فقد كانت كاتيا عندي، فعلم بذلك، فجاء هو أيضاً. لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء إلى منزلي كثيراً، لأنني أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة... اعتقد أنك تفهم بسبب ميتة أبيك الفظيعة تلك[22].

. . . ولكن ها أنذا أعلم على حين فجأة أنه عاد إلى منزلي لا ليزورني أنا، بل ليزور ليزا. حدث ذلك منذ ستة أيام. حضر إليها، ومكث خمس دقائق، ثم ما لبث أن انصرف. لم أعلم بهذا إلا بعد ثلاثة أيام من جلافيرا، فدهشت دهشة شديدة. أسرعت أنادي ليزا، ولكنها لم تزد على أن ضحكت. وقالت تشرح لي: «كان يظن يا ماما أنك نائمة فجاء إليّ يسأل عن صحتك». أغلب الظن أن هذا صحيح.

ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لي ليزا من قلق! آه. . . يارب! . . . تصوّر أنها في ذات ليلة - حدث هذا منذ أربعة أيام، عقب زيارتك الأخيرة فوراً - قد انتابتها نوبة عصبية على حين فجأة: فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستيريا. لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية؟ فأنعم بهذا الترف؟ وتكرر ذلك في الغد، وتكرر أيضاً في اليوم الذي تلاه وأمس، وفي نحو المساء بدأت تظهر عليها أعراض المس. صرخت تقول لي بغتة: «أنا أمقت إيفان فيدوروفتش. يجب أن لا تستقبليه يا ماما، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا!». ذهلت، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة، شقياً هذا الشقاء كله فوق ذلك. ذلك أن هذه القصص كلها إنما هي شقاء لا سعادة، ألا ترى هذا الرأي؟ فلم يكن من بنتي إلا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها إهانة جارحة لي. ومع ذلك قلت لنفسي: «لا بأس، ما دمت قد استطعت أن أفرحها، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن». وكنت أنوي أنا نفسي، من جهة أخرى، أن أمنع إيفان فيدوروفتش من دخول بيتنا بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتي بدون إذني. حتى لقد كنت أريد أن أطلب منه شرحاً لذلك. ولكن ها هي ذا ليزا تثور على

جوليا ثورة عنيفة في هذا الصباح منذ استيقظت، حتى لقد بلغت من ذلك أنها صفعتها، هل تتصور هذا؟ أليس هذا شذوذاً غريباً؟ لاحظ أنني أنا لا أخاطب خدمي أبداً بصيغة المفرد. وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق جوليا وتقبل قدميها. وفي مقابل ذلك بعثت تبلغني أنها لن تجيء إليَّ، لن تجيء إليَّ قط، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا؟ فلما جررت نفسي إلى غرفتها يائسة، ارتمت عليَّ وغمرتني بقبلاتها وهي تبكي، وفيما هي تقبلني دفعتني إلى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة، فلم أعرف آخر الأمر شيئاً. أضع آمالي فيك يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أضرع إليك أن تذهب إلى ليزا، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها. ثم عد إليَّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها، ولتقص عليَّ كل شيء، أنا أمها. ذلك أنني سأموت، نعم سأموت إذا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً، وإلا فسأهرب من هذا البيت تاركة كل شيء. لقد نفدت قدرتي على الاحتمال، وخارت قوتي. صحيح أن صبري واسع، ولكن لهذا الصبر حدوداً، فإذا بلغت هذه الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة... آه... يا رب!...

وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تقول هذا الكلام، إذا هي تلمح الموظف برخوتين داخلاً إلى الغرفة، فصاحت تقول وقد أشرقت أساريرها على حين فجأة:

- هذا بيتر إيليتش يصل أخيراً! لقد تأخرت عن المجيء، تأخرت! هيه! اجلس، تكلم، قرر مصيري. ماذا قال المحامي؟ إلى أين تذهب يا ألكسي فيدوروفتش؟

- أنا؟ إلى ليزا...

- ها... نعم... صحيح... لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك، أليس كذلك؟ على هذا يتوقف مصيري، نعم مصيري...

دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج:

- لن أنسى، هذا إذا وفقت إلى أن... لكنني تأخرت..

- لا، لا... إن عليك أن تعود إليَّ حتما. لا أريد كلمة «إذا وفقت».... وإلا مت!...

كذلك صاحت تقول السيدة خوخلاكوفا، ولكن أليوشا كان قد خرج.

– 3 –

الشيطان الصغير

حين دخل إيليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة نصف مضطجعة على الكرسي المتحرك الذي كانوا ينقلونها عليه في السابق حين لم تكن تستطيع أن تمشي بعد. لم تقم ليزا بحركة من أجل أن تهبّ إلى لقائه، وإنما حدقت إليه بنظرة ثاقبة نافذة. كانت عيناها مشتعلتين قليلاً، وكان وجهها الشاحب يبدو مصفراً بعض الاصفرار. دهش إيليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها في غضون ثلاثة أيام. حتى لقد لاحظ أنها نحلت بعض النحول. لم تمد إليه يدها، بل هو نفسه لامس أصابعها النحيلة الطويلة التي كانت جامدة على ثوبها. ثم جلس أمامها دون أن يقول كلمة.

قالت ليزا بصوت جاف:

– أعلم أنك تستعجل الذهاب إلى أخيك في السجن. لقد احتجزتك ماما ساعتين، ولم تزد على أن كلمتك عني وعن جوليا أثناء تلك المدة كلها.

سألها إيليوشا:

– كيف عرفت هذا؟

فأجابته:

– تنصّت على الباب... لماذا تنظر إليّ هكذا؟ إنه ليحلو لي أن

أتنصت على أحاديث أمي، وسأظل أفعل ذلك كلما شاء لي هواي ذلك. لست أرى في هذا أي بأس، ولا يخطر ببالي أبداً أن أعتذر عنه.

- ما الذي جعل مزاجك معتكراً هذا الاعتكار؟

- أنا؟ بالعكس: أنا مسرورة جداً. لقد قلت لنفسي في هذه اللحظة نفسها، للمرة الثلاثين، إنني قد ألهمت حقاً حين نكثت بوعدي ورفضت أن أصبح زوجتك. أنت زوج لا يطاق. هبني تزوجتك، ثم كلفتك بأن تحمل رسالة إلى عشيقي: لسوف تقوم بهذه المهمة، ولن تقتصر على حمل الرسالة إليه بل ستجيئني بالرد أيضاً. وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك.

وأخذت ليزا تضحك. فقال إيليوشا مبتسماً:

- إن فيك مزيجاً من الطيبة والخبث والسذاجة في آن واحد.

- أنا ساذجة لأنني لا أخجل منك. لا أتحرج أمامك، بل أرفض أن أخجل منك، نعم منك أنت بالذات. قل لي يا إيليوشا: لماذا أنا لا أحترمك؟ إنني أحبك كثيراً، ولكنني لا أحترمك. وإلا لما استطعت أن أقول لك هذا في وجهك، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- هل تعتقد أنني لا أحترمك؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى. كانت تتكلم بسرعة، في نوع من تعجل قلق مهموم.

- أرسلت سكاكر إلى أخيك دمتري فيدوروفتش في سجنه. إيليوشا، ليتك تعلم كم أنت لطيف! سوف أحبك كثيراً لأنني أبحت لنفسي أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة.

- لماذا استدعيتني اليوم يا ليزا؟

- أردت أن أنقل إليك رغبة. إنني أتمنى أن أُعَذَّب. أتمنى أن يتزوجني أحد، وأن يعذِّب روحي بعد ذلك: يخونني ويهجرني ويسافر. لا أريد أن أكون سعيدة.

- تحبين الفوضى إذن؟

- نعم، أحبّ أن أعيش في الفوضى. أحلم دائماً بإحراق المنزل. أتخيل كيف سأقترب من العمارة، وأشعل فيها النار دون أن يراني أحد. يجب أن يتم هذا بالسر حتماً. ويهب الآخرون ويهرولون هنا وهناك محاولين إطفاء اللّهب، ولكن اللّهب ما ينفك يشتد. وأكون هناك، أرى كل شيء ولا أنطق بكلمة. هوه! تلك سخافات! إنني ضجرة، ضجرة ضجراً رهيباً.

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة بإشارة اشمئزاز.

قال إيليوشا في رفق ولين:

- إنك تعيشين في الثراء.

- أيكون من الأفضل أن أعيش في الفقر؟

- نعم، ذلك أفضل.

- إن صاحبك الراهب الراحل هو الذي دسّ في رأسك هذه الأفكار. ذلك خطأ. فليبق الآخرون فقراء، أما أنا فأريد أن أكون غنية. آكل سكاكر، وأحصل على ما أطلب، ولا أعطي من ذلك شيئاً لأحد. لا، لا، لا تقل لي شيئاً (قالت ليزا ذلك وهي تحرك يدها بإيماءة تصد إيليوشا عن الكلام، مع أن إيليوشا لم يفتح فمه). لقد سبق أن قصصت عليَّ تلك الحكايات. لقد حفظتها على ظهر قلب إنها مضجرة. لو كنت فقيرة لقتلت أحداً. ولو كنت غنية لقتلت أيضاً. لماذا أبقى دون أن أعمل شيئاً؟ أريد أن أحصد، هل تعلم؟

أريد أن أجني محصول القمح. سوف أتزوجك، وتصبح أنت فلاحاً، فلاحاً حقيقياً. وسيكون عندنا مهر، مهر صغير جميل، هل تريد هذا؟ بالمناسبة: هل تعرف كالجانوف؟

- أعرفه.

- إنه يسير حالماً طوال الوقت. يقول: «لماذا أحيا؟ الأَوْلى أن أحلم. إن الإنسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية، أما الحياة فهي مضجرة دائماً». على أنه سيتزوج قريباً. لقد صارحني بحبه، هل تتصور؟ صارحني أنا أيضاً. هل تعرف كيف تدوّم خذروفاً؟

- نعم.

- هو أشبه بخذروف: يكفي أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور، وأنت تضربه وتضربه بسوط صغير. ذلك ما سأفعله. سأتزوجه ثم أظل أجعله يدور طوال حياته كخذروف. ألا تشعر بخجل من الثرثرة معي!

- لا.

- لا بد أنك حانق من سماع ما أقوله من ترهات سخيفة إلى هذا الحد. أنا لا أحبّ أن أكون قديسة، هل تعلم؟ ما هو العقاب الذي سأعاقب به في الحياة الآخرة على الخطيئة الكبرى؟ لا بد أن تكون عالماً بهذه الأمور.

قال إيليوشا وهو يتفرس في وجه الفتاة بانتباه:

- سوف يحكم الله عليك.

- سوف يحكم عليّ. ذلك بعينه ما أتمناه. أمثل أمام المحكمة، فيحكم عليّ، فأنفجر ضاحكة على حين غرة وأنا أحدق في أعين الجميع. آه... ما أعظم شوقي إلى إحراق المنزل، إلى إحراق منزلنا يا إيليوشا! أنت لا تصدق، أليس كذلك؟

- لم لا؟ إنه ليتفق حتى لأطفال في الثانية عشرة من أعمارهم أن يتمنوا إحراق شيء ما، ثم إذا هم يفعلون ذلك. هذا نوع من المرض.

- خطأ، خطأ! أعلم أن هناك أطفالاً... ولكنني أتكلم عن شيء آخر.

- أنت تعدين الشر خيراً. هذه نوبة طارئة لن تدوم، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم.

- لا بد أنك تحتقرني كثيراً حتى تقول هذا الكلام. الحقيقة أبسط من ذلك. أنا لا أحبّ عمل الخير، وأوثر عليه الشر. ذلك كل ما في الأمر، وليس في هذا أي مرض.

- لماذا تحبين عمل الشر؟

- لأدمّر كل شيء، فلا يبقى شيء. آه... ما أجمل أن أفتح عيني، فأرى أن كل شيء قد زال! أعلم يا إيليوشا أنني أحلم دائماً بأن أقترف سيئات كثيرة رهيبة. أظل أعمل زمناً طويلاً في الظلام والسر، ثم يكتشفون الحقيقة على حين فجأة سيهبّون عندئذ جميعاً ضدي، وسيشيرون إليّ بالأصابع. فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل الهدوء. ما أمتع هذا! لماذا يكون هذا ممتعاً يا إيليوشا؟

- لا أدري، ولكنني أعرف أنها هي الحاجة إلى تحطيم شيء ما، أو إشعال المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة. هذه العواطف توجد في نفوسنا أحياناً.

- أنا لم أقل كلاماً عابثاً، لسوف أفعل ما قلت.

- أصدّق.

- آه... ما أعظم ما أحبك لأنك تصدقني. أنت لا تكذب البتة، البتة، أليس كذلك؟ أم لعلك ظننت مع هذا أنني قلت ما قلت عامدة لأغيظك؟

- لا، لا أظن ذلك... وإن كان من الممكن أن يكون فيك إلى جانب هذا شيء من حب الإغاظة.

- صحيح. هنالك قليل من الإغاظة في هذا. أعترف لك بذلك.

ثم هتفت تقول فجأة وقد قدحت في نظرتها شرارة غريبة:

- لن أكذب أمامك أبداً.

دهش إيليوشا خاصة مما كان في الفتاة من جد. لم يكن في وجهها الآن أثر لسخرية أو «شيطنة»، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى في «أخطر» اللحظات.

قال إيليوشا مفكراً:

- ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة.

- صحيح، هذا هو تماماً! لقد عبّرت عن تفكيري نفسه. البشر يحبون الجريمة. جميع البشر يحبون الجريمة. يحبونها دائماً، لا في بعض «الساعات» فحسب. وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب، في هذا الأمر ما من أحد يحب أن يكون صادقاً في هذه النقطة. هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشر، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم.

- أما تزالين تقرئين كتباً سيئة؟

- نعم، وماما تحب هذه الكتب، وتخفيها تحت وسادتها. ومن هناك أسرقها.

- ألا تستحين أن تدمّري روحك هذا التدمير؟

- أحبّ أن أدمر نفسي. في هذه المدينة فتى تمدد بين قضيبَيْ السكة الحديدية ومرّ القطار فوقه. إنني أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته. انظر مثلاً: سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله.

- الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه؟

- هم مفتونون بذلك، مفتونون! صحيح أنهم يصيحون قائلين إن ذلك فظيع، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون. وأنا نفسي مفتونة، أنا أول المفتونين.

قال إيليوشا في رفق:

- هناك جانب من حق في ما ذكرته عن مشاعر الناس.

فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة:

- يا سلام. ما هذه الفكرة؟ من ذا يصدّق أن راهباً يقول هذا الكلام؟ لا تستطيع أن تتصور يا إيليوشا مدى ما أكنه لك من احترام لأنك لا تكذب أبداً. إسمع: يجب أن أقص عليك حلماً مضحكاً أراه في بعض الأحيان. يتفق لي أن أرى في الحلم شياطين. أكون في الليل وحدي مع شمعة في الغرفة، وفجأة تنبجس الشياطين من جميع الأركان. من كل مكان، حتى من تحت المائدة. يفتحون الباب، أرى في الخارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً. يريدون أن يدخلوا ليقبضوا عليَّ. يقتربون ويمدون مخالبهم وأرسم إشارة الصليب فإذا هم يتراجعون جميعاً وقد استولى عليهم الخوف. لكنهم لا ينصرفون تماما، بل يتلبثون قرب الأبواب وفي أركان الغرفة. وأشعر عندئذ برغبة قوية في أن أسب الله بصوت عال. وآخذ أشتم الرب، فإذا بالشياطين يتجهون نحوي جمهرة من جديد، فرحين كل الفرح، جذلين كل الجذل، يهمّون أن يقبضوا عليَّ... ولكن... قف! أرسم إشارة الصليب مرة أخرى، فيتراجعون مذعورين. ذلك أمر يجعلني أضحك حتى تنقطع أنفاسي في بعض الأحيان.

قال إيليوشا فجأة:

- أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً.

صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية:

- أهذا ممكن؟ لا تمزح يا إيليوشا، أرجوك لأن ما أقوله جد لا هزل. هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه؟

- يمكن جداً.

عادت ليزا تقول وقد استبدَّت بها دهشة تبدو شديدة:

- إيليوشا، أكرر قولي: هذا أمر هام جداً. ليس الحلم نفسه هو الذي يدهشني هذا الإدهاش كله، وإنما يدهشني أن ترى أنت في الحلم عين ما أرى أنا. أنت لا تكذب عليَّ قط، فقل لي الحقيقة هذه المرة أيضاً: أصحيح ما أفضيت به إليَّ الآن؟ ألم تكن مازحاً؟

- هي الحقيقة بعينها.

قالت ليزا فجأة بصوت متوسل:

- إيليوشا زرني كثيراً، زرني أكثر مما تزورني الآن.

قال إيليوشا بلهجة جازمة:

- سأزورك دائماً، سأزورك طوال حياتي.

عادت ليزا تقول:

- أنت الإنسان الوحيد الذي أفتح له قلبي هكذا. أنا لا أتكلم بصدق إلا مع نفسي ومعك. أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به وأركن إليه في هذا العالم. وإني لأحب أن أتحدث إليك أكثر مما أحبّ أن أتحدث إلى نفسي. زد على ذلك أنني لا أخجل منك البتة يا إيليوشا. لماذا لا أخجل البتة؟ هل صحيح يا إيليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم في عيد الفصح؟

- لا أدري.

- عندي كتاب يصف محاكمة يهودي، يقال إنه قطع أولا أصابع يدي طفل صغير في الرابعة من عمره، ثم صلبه بعد ذلك على

جدار، دقه بمسامير. وقد أكد أمام المحكمة أن الصبي الصغير مات بسرعة، بعد أربع ساعات... هذا سريع حقاً! ويقال إن الصبي ظل يئن بغير انقطاع، وإن اليهودي كان ينظر إليه مستمتعاً بالمشهد ما أحسن هذا!

- أهذا حسن؟

- نعم، حسن. أقول لنفسي في بعض الأحيان إنني أنا التي صلبت هذا الطفل. أراه معلقاً يئن، وأرى نفسي جالسة أمامه آكل الأناناس بالسكر. إنني أحبّ كمبوت الأناناس بالسكّر كثيراً. وأنت؟

كان إيليوشا ينظر إليها صامتاً. وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة، وهذا لهب يطوف بعينيها.

- حين قرأت تلك القصة عن اليهودي، ظللت أبكي طوال الليل، هل تعلم؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأناته (إن طفلا في الرابعة من عمره ليدرك ما يقع له) ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بالأناناس بالسكّر. فلما طلع الصبح بعثت برسالة إلى أحدهم طالبة إليه أن يجيئني حتما. جاء. قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس. قلت له كل شيء، كل شيء، وأضفت: «هذا حسن». فانفجر في قهقهة كبيرة، وأعلن أن هذا حسن جداً في الواقع، ثم نهض وانصرف. لم يمكث عندي إلا خمس دقائق. احتقرني، هه؟ قل لي يا إيليوشا أهو احتقرني أم لا؟

هكذا هتفت ليزا وهي تنتصب على كرسيها المتحرك وقد ومضت عيناها ببريق ساطع.

قاطعها إيليوشا يسألها وقد اضطرب اضطراباً شديداً:

- قولي: أأنت التي استدعيته؟

- أنا التي استدعيته.

- برسالة؟

- نعم، برسالة.

- أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذلك الطفل؟

- لا، ليس من أجل هذا، ليس من أجل هذا أبداً.

ولكن حين دخل غرفتي أسرعت ألقي عليه سؤالاً عن موضوع الطفل. فأجابني ضاحكاً، ثم نهض وخرج.

قال إيليوشا في رفق:

- لقد أحسن التصرف معك.

- ولكنه احتقرني، أليس كذلك؟ سخر مني؟

- لا... لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا الأناناس بالسكّر. إنه مريض جداً يا ليزا هو أيضاً.

هتفت ليزا تقول وقد التمعت عيناها:

- نعم نعم، هو مقتنع بذلك.

وتابع إيليوشا كلامه فقال:

- إنه لا يحتقر أحداً، لكنه لا يؤمن بأحد. ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً.

- وأن يحتقرني أنا إذاً أيضاً؟ أيحتقرني أنا أيضاً؟

- أنت أيضاً.

قالت ليزا في حنق شديد:

- طيب، طيب. حين خرج من عندي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر. إن الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع، وجميل جداً أن يحتقر المرء...

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهي تحدق إلى إيليوشا في عينيه. وصاحت تقول فجأة وهي تثب واقفة من كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة:

- هل تعلم يا إيليوشا؟ هل تعلم؟ أود لو. . . أنقذني يا إيليوشا!

ثم كررت تقول بصوت يشبه في هذه المرة أن يكون أنينا:

- أنقذني يا إيليوشا. من ذا الذي كان يمكنني أن أفضي إليه بما قلته لك اليوم؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك، كان هو الحقيقة صافية. أوه! سوف أقتل نفسي، لأنني أشمئز من كل شيء! أصبحت لا أريد أن أحيا، لأني سئمت من كل شيء. كل شيء! كل شيء يثير في نفسي الاشمئزاز. إيليوشا، لماذا لا تحبني البتة؟ إنك لا تحبني قط. . .

بهذا ختمت ليزا كلامها منفعلة. فقال إيليوشا محتجاً بحرارة:

- بل أنا أحبك.

- أفسوف تبكي علي؟

- سوف أبكي عليك.

- لا أريد أن تبكي عليّ لأنني رفضت أن أتزوجك، بل أن تبكي لغير سبب، هكذا، هل تفهم؟

- سوف أبكي.

- شكراً. أنا ظمأى إلى دموعك. أما الآخرون فليحكموا عليّ، وليدينوني، ليسحقوني جميعاً، جميعاً، دون استثناء أحد! لأنني لا أحبّ أحداً. هل سمعت؟ لا أحبّ أحداً، لا أحبّ أحداً البتة. إنني أكرههم جميعاً.

ثم أضافت وهي تتركه فجأة:

- اذهب الآن يا إيليوشا. لقد آن أن تمضي إلى أخيك.

سألها إيليوشا شبه مذعور:

- كيف أتركك وأنت في هذه الحالة؟

- إذهب إلى أخيك. سوف يغلقون السجن بعد قليل. أسرع.

إليك قبعتك. قبِّل ميتيا. انصرف. انصرف الآن.

قالت ليزا ذلك ودفعته إلى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون إخراجاً بالقوة. فكان إيليوشا ينظر إليها مدهوشاً دهشة أليمة، ثم إذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع في يده اليمنى. إنها رسالة صغيرة. ألقى نظرة على العنوان فقرأ: «إلى إيفان فيدوروفتش كارامازوف». فشخص ببصره إلى ليزا بقوة، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون هو التهديد. وأمرته بصوت مندفع، وهي ترتعش من رأسها إلى قدمها:

- اعطه هذه الرسالة، اعطه إياها حتماً، اعطه إياها اليوم، فوراً، وإلا شربت سماً. من أجل هذا إنما استدعيتك.

وأغلقت الباب وراءه فجأة. وسمع صوت المزلاج يدفع. وضع إيليوشا الرسالة في جيبه، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة خوخلاكوفا التي كان قد نسي وجودها. فما إن ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج من جديد، وشقت الباب قليلاً، فأدخلت إصبعها في الشق، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة. انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها إصبعها واتجهت تجلس على مقعدها بخطى بطيئة، جلست عليه منتصبة القامة تماماً، وأخذت تتفرس في إصبعها التي اسودت وفي الدم الذي تفجر تحت ظفرها. كانت شفتاها تختلجان، ودمدمت تقول مراراً بسرعة:

- حقيرة، شريرة، شريرة؟

– 4 –

النشيد والسرّ

كان الوقت متأخراً جداً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا في نوفمبر). لقد هبط الليل. ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات في سبيل دخوله على ميتيا. كان كل شيء، في مدينتهم الصغيرة، يجري كما تجري الأمور في أي مكان آخر. ففي الآونة الأولى التي أعقبت الاعتقال، وبعد التحقيق التمهيدي، كان الوصول إلى السجن صعباً، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون في رؤية السجين أن يقوموا ببعض الإجراءات الرسمية. ولئن لم تهمل هذه الأنظمة بعد ذلك، فقد استُثني منها عدد من الأشخاص. حتى لقد أصبح يسمح لميتيا في بعض الأحيان أن يكلّم زواره في غرفة المقابلات دون رقيب. على أن عدد هؤلاء المستثنين كان محدوداً. إنهم: جروشنكا، وأليوشا، وراكيتين. فأما جروشنكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش بعطف خاص. كان هذا العجوز يريد إصلاح خطأه الذي ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم في موكرويه. إنه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد، غيَّر رأيه في المرأة الشابة تغييراً تاماً. ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة، قد رقَّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله، وكان يقول لنفسه: «إنه رجل طيب تفيض نفسه

خيراً، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أورداه موارد الهلاك!».
إن نوعاً من الشفقة قد حلّ في نفس رئيس الشرطة محل الكره الذي شعر به في أول الأمر. وأما أليوشا، الذي يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً. وأما راكيتين الذي أخذ يزور ميتيا في سجنه كثيراً منذ زمن، فقد كان على علاقات طيبة متصلة «بآنسات رئيس الشرطة»، كما كان يسميهن، وكان يُرى في منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً. زد على ذلك أنه كان يعطي دروساً لأولاد مفتش السجن، وهو عجوز طيب لطيف، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له في ذلك قناة. وكان أليوشا، هو أيضاً، على صلة وثيقة بهذا المفتش، فهو يعرفه منذ مدة طويلة وكان المفتش يحب أن يتحدث معه في «الشؤون المقدسة». أما إيفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه، يهاب قوة فكره خاصة، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفاً كبيراً «بلغ هذه الدرجة من المعارف بعقله نفسه». وفي مقابل ذلك، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبة لا سبيل إلى مقاومتها. لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة في دراسة الأناجيل المزيّفة، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول في ذهنه من أفكار. حتى لقد كان في الماضي يسعى إليه في الدير، ويظل يناقشه ويناقش الكهنة من الرهبان ساعات.

جملة القول، إنه لم يكن على أليوشا حين يصل إلى السجن متأخراً إلا أن يذهب إلى مفتش السجن، فإذا بكل شيء يجري هيناً ليناً. أضف إلى ذلك أن جميع موظفي السجن حتى أصغر حارس، كانوا قد ألفوا أليوشا. والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها. وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودي، وينزل إلى القاعة التي تتخذ مكاناً للمقابلة.

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة، وجد نفسه وجها لوجه أمام راكيتين الذي يتهيأ للانصراف. كان راكيتين يتحدث بصوت عال إلى ميتيا الذي يُشيّعه ضاحكاً ضحكاً قوياً جداً بينما راكيتين يتذمر. إن راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا، ويتجنب أن يكلمه، ولا يحييه إلا على مضض، فلما لمح أليوشا في هذه المرة، قطب حاجبيه وأشاح عينيه، وتظاهر بانهماكه في عقد أزرار معطفه الشتوي ذي الياقة الفرائية، ثم انهمك بعد ذلك في البحث عن مظلته، ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما:

- أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخّصني.

فأجابه ميتيا مازحاً:

- وإياك أن تنسى خاصة ما يخصّ غيرك!

وأسرع يضحك من كلمته.

فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً:

- خير لك أن تسدي هذه النصيحة إلى ذويك آل كارامازوف، لا إلى راكيتين، أيها المستغلون!

فأجابه ميتيا قائلاً:

- ماذا دهاك؟ أنا إنما كنت مازحاً. شيطان يأخذك.

ثم أضاف يخاطب أليوشا، مشيراً برأسه إلى راكيتين الذي كان يبتعد مسرعاً:

- هم جميعاً كذلك. لقد كان هنا مرحاً صافي المزاج، فإذا هو يغضب الآن على حين فجأة. لقد أبى أن يحييك حتى بإيماءة. أأنتما متخاصمان تماما؟ لقد تأخرت اليوم، كنت أنتظرك نافد الصبر، بل كنت في ظمأ شديد إلى رؤيتك منذ الصباح. لا بأس، سنتدارك ما فات.

سأله أليوشا وهو يشير بعينه إلى الباب الذي خرج منه راكيتين:

- لماذا يزورك هذا كثيراً؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه؟

- أأنا تتوثق الصداقة بيني وبين ميخائيل؟ لا... إنه خنزير. هو يظن أنني... وغد مثله. أمثاله لا يفهمون المزاح، ذلك أهم ما يميزهم. لا يفهمون المزاح أبداً. نفوسهم جافة، مسطحة وجافة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتها حين وصلت إلى هنا. ولكنه رجل ذكي. هيه يا ألكسي، ها أنذا قد هلكت الآن!

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس أليوشا إلى جانبه. قال أليوشا خجلاً:

- نعم، سيحكم عليك غداً. ولكن ألم يبق لك أي أمل فعلاً يا أخي؟

قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة:

- ماذا تقصد؟ آ... فهمت... تقصد تلك المحاكمة! ولكن هذه القصة لا تعنيني. إننا لم نتحدث حتى الآن إلا في سفاسف، كهذه المحاكمة التي تبدأ غداً، وقد سكتُّ أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن. صحيح أنني سيحكم عليَّ غداً، ولكن ليس هذا ما جعلني أقول أنني هلكت. ليس رأسي هو الذي يتهدده الخطر حتى الآن، بل ما في داخل رأسي. لماذا تنظر إليَّ هذه النظرة التي تدل على الاستياء؟

- إنني لا أفهم ما تقصد يا ميتيا.

- أقصد أفكاري... أقصد «الايطيقا»[23]. ماذا تعني هذه الكلمة: «الايطيقا»؟

سأله أليوشا مدهوشاً:

- الايطيقا؟

- نعم. هل ذلك ضرب من العلم؟

- نعم، هناك علم يسمى بهذا الاسم... ولكن... أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم.

- أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم. إن راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة. شيطان يأخذه! إنه لن يصبح راهباً. إنه يفكر في الذهاب إلى سان بطرسبرج ويأمل أن يمارس هناك عمل النقد، ولكن في اتجاه أخلاقي رفيع. على كل حال، قد يكون نافعاً في هذا المجال، وقد يصبح شخصاً مرموقاً في الوقت نفسه. إنه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره... وبئست «الايطيقا»! هل تعلم أنني هلكت يا ألكسي، يا رجلاً تقيًا من رجال، إنني أحبك أكثر مما أحبّ سائر الناس. إن قلبي ليدمى حين أفكر فيك. من ذلك العالم الذي يسمى كارل برنار؟

سأله أليوشا مدهوشاً من جديد:

- كارل برنار؟

- لا، ليس كارل، لقد أخطأت. لحظة. أقصد كلود برنار[24]. من كلود برنار هذا لعله كيميائي؟

قال أليوشا:

- هو عالم من العلماء. ولكن أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أقول لك أشياء كثيرة عنه. لقد سمعت أنه عالم، ولكن لا أدري في أي ميدان من ميادين العلم.

استأنف ميتيا كلامه قائلاً:

- طيب... شيطان يأخذه... أنا أيضاً لا أدري... لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم في أيامنا هذه. أما راكيتين فسيعرف كيف يشق طريقه وينجح. إنه يحسن التسلل إلى كل مكان.

هو في نوعه برنار آخر. أوه! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار في هذا العالم الآن!

ساله أليوشا ملحاً:

- هلاّ قلت لي ماذا دهاك؟

- إنه ينوي أن يكتب شيئاً عني، عن قضيتي، ويأمل أن يكون ذلك بداية نشاطه الأدبي. ولهذا الغرض إنما يزورني. لقد شرح لي هو نفسه ذلك. إنه يرجو أن يكتب مقالة تتيح له أن يبسط بعض الآراء الأخلاقية، كأن يقول، إذا صدق فهمي: «ما كان يمكنه إلا أن يقتل، لأن بيئته قد أفسدته». وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكي على ما يقول. شيطان يأخذه. وليقل ما يشاء، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به. فذلك كله لا يعنيني في شيء. إنه لا يحب أخانا إيفان. إنه يكرهه. ولا يكن له وداً. أما أنا فإنني أحتمل زياراته لأنه رجل ذكي. ولكنني أعده مع ذلك مغروراً بعض الغرور. قلت له منذ لحظات: «ليس آل كارامازوف أوغاداً، بل هم فلاسفة لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة. أما أنت فإنك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك، لأنّك لست إلا فلاحاً». وقد ضحك ضحكاً خبيثاً حين سمعني أقول هذا الكلام. فأضفت عندئذ قولي: «لا جدال في الآراء»[25] نكتة حلوة، هه؟ على أي حال أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً.

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً علي حين فجأة.

قاطعه أليوشا سائلاً:

- لماذا تقدّر أنك هالك؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة؟

- لماذا أنا هالك؟ هِمْ... الواقع... إذا أردت أن أقول الحقيقة... إنني آسف على الله! هذا هو الأمر...

- آسف على الله؟ كيف؟

- تخيل ما يلي: إن هناك أعصاباً في موضع من الرأس... أقصد في الدماغ... (شيطان يأخذ الأعصاب!)... والأعصاب ألياف، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز أقصد يكفي أن أنظر إلى شيء من الأشياء بعيني حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً... ومتى اهتزت الألياف تكوّنت صورة، لا على الفور، بل بعد لحظة... تنقضي ثانية فيظهر شيئاً أشبه بلحظة... لا، ليس لحظة... (شيطان يأخذ اللحظة!)... أقصد تحدث صورة، أي يحدث شيء أو فعل... شيطان يأخذهما!... فذلك هو السبب في أنني أدرك ثم أفكر. ليس السبب هو أنّ لي نفساً، وإنني خلقت على صورة الله. سخافات هذه الأفكار كلها! لقد شرح لي ميخائيل كل شيء أمس، فشعرت بما يشبه الحرق في قلبي. العلم شيء رائع يا أليوشا! هي إنسانية جديدة ستولد. إنني أدرك هذا... ولكنني مع ذلك آسف على الله!

قال أليوشا:

- أنت آسف. هذا على الأقل أمرٌ جيّد.

- أن أكون آسفاً على الله؟ هي الكيمياء يا أخي، الكيمياء! لا حيلة لك يا صاحب القداسة، الكيمياء تتقدم، تنحوا، افسحوا المكان، افسحوا المكان! أما راكيتين هذا فإنه لا يحب الله! هو لا يحبه. تلك أكثر النقاط ضعفاً فيهم جميعاً! ولكنهم يكتمونه. إنّهم يكذبون. إنّهم يمثلون. سألته: «هل ستبسط هذه الأفكار في مقالات نقدية؟»، فأجابني ضاحكاً: «لن يُسمَحَ لي بذلك، هذا مؤكد»، فسألته بعد ذلك: «ولكن ما الذي سيصير إليه الإنسان في هذا كله، بغير إله، وبغير حياة آخرة؟ وإذن فمعنى هذا أن كل شيء سيكون

مباحا بعد الآن، وأن في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء؟»، فأجابني ضاحكا من جديد: «أكنت لا تعرف هذا إذن؟» ثم أضاف قائلاً: «إن الإنسان الذكي يمكنه أن يبيح لنفسه كل شيء، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يقبضوا عليك. ولذلك تتعفن الآن في زنزانة». ذلك ما قاله لي، لي أنا. هذا خنزير قذر حقاً! هؤلاء الأوغاد، كنت فيما مضى أطردهم. أما الآن، فأنا أصغي إليه، أسمع له. إن في ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة. وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً. في الأسبوع الماضي، قرأ عليّ إحدى مقالاته. فسجلت ثلاثة أسطر منها عامداً. لحظة. إليك ما سجلته.

وأسرع ميتيا فاستلّ من جيب صديرته ورقة وقرأ:

«من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة، يجب عليه أولا أن يضع شخصه في تعارض مع واقع حياته». هل تفهم ما معنى هذا؟

قال أليوشا الذي كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع:

– لا، لا أفهم.

– وأنا أيضاً لا أفهم. إن هذه الجملة غامضة وغير مفهومة، ولكنها تبدو لي ذكية وعميقة جداً. وقد أسرَّ إليَّ «إن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة. فالبيئة هي التي تفرضها...». إنهم يخافون البيئة. وهو ينظم أشعاراً، هذا وغد. لقد تغنى بساق خوخلاكوفا، هأ هأ هأ.

قال أليوشا:

– سمعت بذلك.

– ها... سمعت؟ هل سمعت تلك الأبيات؟

- لا.

- هي عندي. سأقرؤها لك. هذه حكاية طويلة، أنت لا تعرف، لم أقصها عليك. يا للوغد! منذ ثلاثة أسابيع قام في رأسه أن يغيظني. قال لي: «ما أغباك! أنت ضيعت نفسك، وضيعت نفسك في سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط. أما أنا فسأجني مائة وخمسين ألف روبل، بتزوجي من أرملة غنية. وبعد ذلك أشتري منزلاً جميلاً في سان بطرسبرج.». وأسرّ إليَّ عندئذ أنه يغازل السيدة خوخلاكوفا، التي لم تكن ذكية حتى في ريعان صباها، ثم لم يبق لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها. وأضاف قوله: «وهي فوق ذلك حساسة عاطفية، ومن هنا سآتيها. سوف أتزوجها، وآخذها إلى سان بطرسبرج، فأنشئ هنالك جريدة.». وكان يسيل على شفتيه لعاب شهواني فظيع وهو يقول لي هذا الكلام، ولكن لا بسبب خوخلاكوفا طبعاً، بل بسبب المائة وخمسين ألف روبل كان يسيل لعابه، ومنذ ذلك الحين أصبح يسرّ إليَّ كل يوم بأشياء جديدة، قائلاً: «إن الأمور تجري مجرى حسناً»، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك. ولكن ها هو ذا يطرد فجأة من منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد غلبه بيتر إيلتش بيرخوتين وانتصر عليه. مرحا! وددت لو أقبّل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها. في فترة زياراته لي إنما نظم تلك القصيدة. وقد اعترف لي قائلاً: «تلك أول مرة أقلّل من قيمة نفسي بنظم الشعر. لقد ارتضيت ذلك لأغوي امرأة حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه. فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع». إن هؤلاء الناس يجدون في جميع الأحيان عذرا يسوّغون به حقاراتهم ودناءتهم، هو عذر المنفعة الاجتماعية. وقد قال لي: «ومع ذلك

صنعت خيراً مما صنع صاحبك بوشكين، لأنني استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً في بضعة أبيات شعرية هي في ظاهرة مزاح ومرح». على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لي معقولاً. فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً، فإنه ما كان له أن يقتصر على التغني بالسيقان! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التي نظمها! إن فيهم غروراً، هؤلاء الشعراء جميعاً! إن العنوان الذي تخيله هذا الشخص لقصيدته هو التالي: «الشفاء ساق المحبوب الصغيرة».

يا للسّاق الفتانة
المتورمة الآن
الأطباء حولها منهمكون
ليضمدوها بحب وحنان
لست أندب الساق،
فإني أترك هذا لبوشكين.
لكنني أشكو الرأس
لأنه لا يفكر كما ينبغي أن يفكر.
كانت قد بدأت تفهمني
حين تمردت الساق!
هلموا فاشفوا الساق الرقيقة
حتى تستطيع الأفكار أن تحلّق.

إنه وغد، وغد حقاً، ولكن أشعاره مرحة. ثم إن فيها «فكرة وطنية»، كما يقول. لقد استشاط غيظاً حين طرد. كان يصرف بأسنانه من شدة الحنق.

قال أليوشا:

- لقد انتقم منذ الآن. نشر مقالة عن السيدة خوخلاكوفا.

وقصّ أليوشا على ميتيا بسرعة، قصة المقالة الواشية المتجنّية التي ظهرت في جريدة «الشائعات». فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه:

- إنه هو، إنه هو... هو كاتب المقالة. ليس في ذلك شك! آه من تلك الأقاويل والنمائم! أنا على علم... ما أكثر ما نشروا من تخرصات وأكاذيب لئيمة حقيرة حتى الآن، عن جروشنكا مثلاً! وعن الأخرى أيضاً، عن كاتيا... هم...

قال ميتيا ذلك، وأخذ يمشي في الغرفة مهموم البال.

استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت:

- لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخي. إن غداً ليوم عظيم رهيب بالنسبة إليك: غداً تتم إرادة الله... يدهشني مع ذلك أنك في عشية ذلك الغد تضيّع وقتك في الكلام عن سفاسف...

قاطعه ميتيا يقول بحرارة:

- لا يدهشنك هذا. أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقي العفن النتن، عن القاتل؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه، وأسرفنا في الكلام. لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف النتن ابن النتنة، لسوف يعاقبه الله... سوف ترى... ليعاقبنه الله لا محالة...

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد، وقبّله فجأة. كانت عيناه تسطعان. وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره:

- لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا، أما أنت فسوف تفهمه. ومن أجل ذلك إنما كُنتُ في ظمأ شديد إلى أن أراك. هل تعلم أنني،

منذ زمن طويل، أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة، هنا، بين هذه الجدران المتقشرة، ولكنني لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن. يبدو أنه لم يكن قد آن لي أن أسرّ إليك بما في نفسي بعد. لقد انتظرت، انتظرت إلى آخر دقيقة، لأفتح لك قلبي. أخي، أخي، إنني في أثناء هذين الشهرين الأخيرين، قد أصبحت إنساناً آخر. لقد ولد فيّ كائن جديد. الحق أنه كان موجوداً في منذ الأزل، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة. شيء رهيب! إنني لا أخشى أن أعمل بيدي في المناجم عشرين عاما. ذلك لا يهمني. هناك شيء آخر هو الذي أخشاه الآن. إنني أخشى أن يزول، من جديد، الإنسان الذي بعث حيًا في نفسي. إن المرء يستطيع أن يجد حتى في سجون الأشغال الشاقة، حتى في جحيم غياهب المناجم، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب إنساني وإن يكن رجلاً قاتلاً. يستطيع المرء أن يصادقه، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يحيا وأن يحب وأن يتألم! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين، ليشعل في قلبه مرة أخرى شعلة الحب التي أطفأها الظلم، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سنين، إلى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفس أحياها الألم وطهّرها ونقّاها وأسبغ عليها حلّة النبل والكرم، فإذا هي تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء. إن في وسعنا أن نحيي الملاك في الشيطان، وأن نبعث البطل في الجبان. إنهم كثر هنالك، أولئك الذين سقطوا، إنهم مئات ومئات، ونحن جميعاً مسؤولون عن مصيرهم. لماذا رأيت في حلمي «الصبي»، وأنا أجتاز من حياتي مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة؟ «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟» تلك إشارة من السماء نزلت عليّ في ساعة المحنة

العظمى. سأمضي إلى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الصبي. إن جميع البشر مسؤولون عن آثام سائر الناس. مسؤولون عن جميع الأطفال لأن في هذا العالم أطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار. وجميعهم هم «الصبي» سأمضي من أجلهم جميعهم، لأنه لا بد أن يكفّر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم. أنا لم أقتل أبي، ولكن من واجبي أن أضحي بنفسي. إنني أقبل ما كُتب عليّ! هنا، في هذا السجن، إنما فهمت هذه الأشياء كلها... هنا، بين هذه الجدران المتقشرة.. إنهم كثيرون هناك، تحت الأرض، يحفرون في المنجم. صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال، وصحيح أن إرادتنا ستكون محطمة. ولكن، هناك، في ذلك الألم الكبير، سنبعث إلى الفرح، إلى الفرح الذي لا يمكن بدونه أن يحيا الإنسان. إلى الفرح الذي بدونه لا يوجد الله، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هي الميزة التي ينفرد بها الله. رباه! إلا فليفنِ الإنسان نفسه في الصلاة والدعاء! كيف يمكنني أن أعيش تحت الأرض بدون الله؟ إن راكيتين يكذب! وحين سيطرد البشر الله من على سطح الأرض، سنهتدي إليه نحن في جوف الأرض، ونرتد إليه. إن السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة يستحيل عليه أن يحيا بدون الله، بل يستحيل عليه ذلك أكثر من الإنسان الحر الطليق! فمن غياهب الليل، سنغني نحن الذين نعيش تحت الأرض، سنغني نشيدا حزينا يمجّد الخالق ينبوع السعادة والضياء. تبارك الرب، وتبارك فرحه! إني أحبّ الله!

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات. كان قد اصفر وجهه، وتقبضت شفتاه تقبضاً عصبياً، وسالت من عينيه دموع. واستأنف كلامه يقول:

- لا يا أخي، إن الحياة غنية، في وسع المرء أن يحيا تحت

الأرض أيضاً. لا تستطيع أن تصدِّق يا أليوشا إلى أي حد أحبّ الآن أن أحيا، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي المحمومة القوية في أن أوجد وأن أعرف، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التي استولت علي وأنا بين هذه الجدران المتقشرة! إن راكيتين لن يفهم هذا في يوم من الأيام، لأنه لا يفكر إلا في تحصيل ثروة، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره. لذلك انتظرتك نافد الصبر. ليس يهمني الألم. لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيراً. كنت أخافه في الماضي، ولكنني أصبحت لا أخافه. هل تعلم أنّ من الجائز أن أرفض الإجابة أمام المحكمة؟ يخيّل إليَّ في بعض الأحيان أن بي من القوة ما سوف يمكنني من تذليل جميع المصاعب، والانتصار على جميع المحن، لا لشيء إلا أن أقول لنفسي في كل لحظة سعيداً: «أنا موجود». لسوف أردد وأنا في العذاب الذي لا نهاية له: «أنا موجود». لسوف أهتف حين يشنجني الألم: «أنا موجود». لسوف أشعر إذا ربطت بالعمود وشددت إليه، بأنني ما زلت أحيا، وسوف أرى الشمس. وهبني لم أرها، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتلألأ. لأن أعرف أن الشمس تتلألأ فذلك وحده حياة كاملة. أليوشا، طفلي الحبيب، إن أفكارهم الفلسفية تقتلني قتلاً، تعساً لهم! إن أخانا إيفان...

قاطعه أليوشا سائلاً:

- هيه... ماله، إيفان؟

ولكن ميتيا لم يسمع.

- كنت في الماضي أجهل جميع هذه الشكوك، ولكنها كانت تضطرب في نفسي على غير علم مني. ولعلني لم أندفع في الشراب، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف إلا لأن تلك المعاني

كانت تغلي في داخلي. فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها إنما كنت أتخبط ذلك التخبط. إنا أخانا إيفان ليس مثل راكيتين. إنه يخفي في نفسه فكرة يكتمها سراً. إن أخانا إيفان يشبه أبا الهول. إنه يصمت، يصمت دائماً. أما أنا فإن فكرة الله تعذبني، وهي عذابي الوحيد الحق. ما عسى أن يحدث إذا لم يوجد الله؟ لنفرض أن راكيتين على حق، لنفرض أن الدين فكرة من صنع خيال الإنسان. إذا لم يوجد الله كان الإنسان هو سيد الأرض، ورئيس الكون! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الإنسان فاضلاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال، وأنا لا أنفكّ ألقي على نفسي هذا السؤال. من الذي سيحبه الإنسان إذا لم يوجد الله؟ قل لي: إلى من سيندفع الإنسان بشكران روحه، ولمن سيغني أنشودة فرح؟ إن راكيتين يسخر من هذا كله. هو يرى أن الإنسان يستطيع أن يحب الإنسانية مستغنيا عن الله. لا يستطيع إلا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام. أما أنا فلن أفهمه في يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلة لراكيتين. قال لي اليوم: «الأَوْلى بك أن تهتم الآن بزيادة حقوق الإنسان المدنية. فإذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم. فبذلك تخدم الإنسانية خدمة أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها». أجبته قائلاً: «إنك إذا أنكرت الله، تنتهي إلى زيادة سعر اللحم أنت نفسك، فتربح بالكوبك روبلا». عندئذ غضب راكيتين. ما هي الفضيلة؟ اشرح لي الفضيلة يا ألكسي. أنا في ذهني فكرة عن الخير، ولكن الصيني في ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتي أنا. وهذا يعني أن الخير فكرة نسبية، أليس كذلك؟ أليس الخير فكرة نسبية؟ هذه مشكلة مقلقة. لن تسخر مني، أنت على الأقل، إذا قلت لك إن هذه المشكلة قد أرّقتني ليلتين،

فلم أستطع النوم. إنني أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا في هذه المشكلة. باطل! إن إيفان لا يؤمن بالله. إنه لا يؤمن إلا بالأفكار. ذلك يفوق مستواي. ولكنه يصمت. أحسب أنه ماسوني. سألته فلم أظفر منه بجواب. ملت عليه ميلي على نبع حقيقة لأروي ظمئي، ولكنه لم يجبني. مرة واحدة، أفلتت منه كلمة.

سأل أليوشا معجلاً:

- ماذا قال؟

- سألته: «أكل شيء مباح إذن؟» فقطب حاجبيه وقال: «كان أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً فاسقاً، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً». ذلك كل ما قاله لي. لم يقل شيئاً آخر. على الأقل، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين.

قال أليوشا بمرارة:

- حقا؟ متى جاء إليك؟

- سأحدثك عن هذا في مرة أخرى. أما الآن، فما حان الحين بعد. أنا لم أكد أكلمك عن إيفان حتى هذه الساعة. أرجأت الحديث عنه إلى النهاية. فمتى ختمت القضية وصدر الحكم، سأقصّ عليك شيئاً. سأقول لك عندئذ كل شيء. هناك حكاية رهيبة. ستكون حَكَماً عليّ في هذه المسألة. أما الآن فلا أريد أن أعالج هذا الموضوع اصمت بانتظار ذلك. كنت تكلمني منذ هنيهة عن يوم الغد، عن المحاكمة، فهل تصدِّق أنني لا أعلم شيئاً؟

- هل تكلمت مع ذلك المحامي؟

- المحامي؟ دعك من هذا! لقد قصصت عليه كل شيء. إنه وغد لطيف من أوغاد العاصمة، إنه برنار! هو لا يصدق كلمة واحدة

مما أقوله له. تصوّر أنه مقتنع بأنني أنا القاتل! أرى ذلك في نظرته إليّ. سألته: «فلماذا توليت إذاً مهمة الدفاع عني؟». إنني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً. وقد استدعوا كذلك طبيباً، بغية أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون! إلا إنني لا أطيق ذلك ولن أسمح بذلك! إن كاترينا إيفانوفنا هي التي تظن أنها بذلك تقوم «بواجبها» حتى النهاية. على أنها تجبر نفسها على ذلك إجباراً وتحمل نفسها عليه (قال ميتيا هذا وهو يبتسم ابتسامة مرة). إنها قطة! قاسية القلب! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه، وتعرف أنني وصفتها بأنها امرأة «ذات غضب شديد». لقد نقل إليها هذا الكلام. نعم، لقد تكاثرت الشهادات عليَّ حتى أصبحت لا تُعَدّ ولا تحصى. ما يزال جريجوري يتهمني. هو رجل شريف، لكنه غبي. ما أكثر الشرفاء عن غباوة! هذه فكرة عبّر عنها راكيتين. لقد أصبح جريجوري يناصبني العداء. أصبح عدوي. وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه. أقول هذا وأنا أقصد كاترينا إيفانوفنا. أخشى... آه... أخشى خاصة أن تقص على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل. إنها لن تعفيني من قصّ هذه الحكاية، معتقدة أنها بذلك تبرئ ذمتها تجاهي! آه... لسوف تمضي إلى نهاية الشوط... أنا أعرفها. ولكنني لا أريد تضحيتها هذه! سوف أشعر من ذلك بالخزي والعار أمام قضاتي. كيف يمكنني أن أحتمل هذا؟ اذهب إليها يا أليوشا لترجوها أن لا تقص هذه الحكاية على الناس. أتظن أن هذا مستحيل؟ لا ضير إذن. سيان عندي أن تقصها أو لا تقصّها سأتحمل. أما هي فلست أشفق عليها ولا أرثي لها. هي التي أرادت ذلك. لن تنال إلا ما تستحقه. وأما أنا يا ألكسي، فسوف ألقي فيهم خطاباً... أعلم

هذا. . . (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم ابتسامة مرة من جديد). ولكن، ولكن. . . هناك جروشنكا، جروشنكا. . . آه. . . رباه! لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب؟ (كذلك صاح ميتيا فجأة وفي صوته دموع). إن صورة جروشا تقتلني، تقتلني قتلاً، تقتلني قتلاً! لقد زارتني جروشا في هذا اليوم.

- حكت لي كل شيء. لقد أهنتها إهانة شديدة.

- أعرف هذا. تباً لطبعي ما أرداه! لقد عذبتها بالغيرة. وحين ودّعتها ندمت وقبّلتها ولكنني لم استغفرها.

صاح أليوشا يسأله:

- لماذا لم تستغفرها؟

- حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها، على خطيئة ارتكبتها فعلاً. . . لا سيما المرأة التي تحبها، مهما تكن أخطاؤك في حقها، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف إلا الشيطان ما في نفسها. أنا خبير في هذا على الأقل. حاول مرة أن تعترف لها بأنك أذنبت في حقها، وأن تقول لها: «أنا مذنب، فاغفري لي، اغفري لي». لتسمعنّ منها عندئذ سيلاً من ملامات. لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة، بل ستأخذ تذلّك وتخفضك إلى الأرض، معدّدة جميع أخطائك، حتى تلك التي لم تقترفها. لن تنسى شيئاً، وسوف تضخم كل شيء، وستختلق أخطاء جديدة عند الحاجة، وبعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك. وخير النساء هنّ اللواتي يغفرن على هذا النحو. ولكنها ستفرغ أولا أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك. تلك هي القسوة الكاسرة المفترسة القابعة فيهنّ جميعاً. أعلم هذا. كذلك خلقن، من أولاهن إلى آخرهن، هاته الملائكة اللواتي لا نستطيع أن نحيا بدونهن. سأطلعك بغير تكلف ولا تحرّج على

حقيقة كبرى يا صغيري الطيب: إن كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة. ذلك هو اقتناعي العميق. بل هو أكثر من اقتناع: هو شعور عميق وعاطفة حميمة. إن على الرجل أن يكون كريماً، وهذا لن يغض من قيمته أبداً، ولو كان بطلا أو قيصراً. أما أن يستغفر، فكلا ثم كلا! يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الأحوال. تذكر دائماً هذه القاعدة التي علمك إياها اليوم أخوك ميتيا، أخوك ميتيا الذي أوردته النساء موارد الهلاك. لا، لا، إنني أوثر أن اصلح أخطائي في حق جروشنكا بطريقة أخرى، دون استغفار. إنني أعظّمها وأقدّسها حقا يا ألكسي. ولكنها للأسف، لا ترى ذلك، وتعتقد أنني لا أمحضها حباً كافياً. إنها تعذبني بحبها. لم يكن هذا أمراً ذا بال في الماضي. كنت في الماضي لا أحبها إلا بسبب منحنيات جسمها الجهنمية. أما الآن فإن روحها هي التي نفذت في نفسي فصرنا روحاً واحدة. بها إنما أصبحت رجلاً. هل يزوجوننا في السجن؟ إن لم يزوّجونا فلأموتن غيرة. كل يوم أحلم بأمور فظيعة تثير غيرتي... ماذا قالت لك عني؟

ردّد له أليوشا أقوال جروشنكا. أصغى ميتيا بانتباه شديد، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة، وظل راضياً مغتبطاً، وهتف يقول:

- هي إذاً لا تحقد عليّ لأنني غيور. تلك امرأة حقا! قالت لك: «أنا نفسي قاسية»، أليس كذلك؟ آه... إنني أحبهن، هاته النساء القاسيات، رغم أنني لا أطيق أن يعذبنني بالغيرة. لا أحتمل هذا. سيكون بيننا شجار كثير، ولكنني سأحبها حباً أبدياً لا نهاية له. هل سيزوجوننا؟ هل يزوجون السجناء؟ لسوف يستحيل عليّ أن أحيا بدونها...

سار ميتيا في الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه. وكان الظلام قد خيّم أثناء ذلك. وفجأة ظهر على ميتيا القلق، كأن فكرة ثقيلة قد هاجمته وجثمت على صدره.

- آه!... قالت لك إن هناك سراً بيننا، أليس كذلك؟ قالت إننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا؟ لا يا عزيزتي جروشنكا!... لقد أخطأت الظن... أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه إلا النساء، هاته الحمقاوات! لا بأس يا أليوشا، يا بني العزيز، سأكشف لك عن سرّنا.

نظر ميتيا إلى جميع الجهات محاذراً، ثم اقترب من أليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس في أذنه وقد بدت في وجهه معاني السرّ، رغم أن أحداً لا يستطيع في الواقع أن يسمعهما: فالعجوز غافٍ على دكة في ركن من القاعة، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا سماع الحديث.

قال ميتيا بهمس سريع:

- سأكشف لك عن سرنا. لقد كنت أنوي أن أطلعك على هذا السر فيما بعد، ولكن كيف يمكنني أن أتخذ قراري بدونك؟ أنت كل شيء في نظري. ومهما أقل إن إيفان يفوقنا، فأنت في نظري ملاك. ولقرارك وحده قيمة في الواقع. من يدري؟ لعلك أنت المتفوق لا إيفان. اسمع: إن المسألة مسألة ضمير وأخلاق. هذا سر خطير جداً، يبلغ من الخطورة أنني لا أستطيع أن أحمله وحدي، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه. فأنا أعتمد عليك. على أن اتخاذ القرار لم يحن حينه بعد. وإنما يجب انتظار صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، كان عليك أن تقطع برأي في الأمر فتقرر مصيري. أما الآن فلا تقل شيئاً. سأشرح لك الموضوع، فتصغي إلى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأي. عليك أن تصغي وتصمت.

لن أقول لك كل شيء اليوم. سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل. عليك خاصة أن لا تقول شيئاً، أن لا تنطق بكلمة: لا سؤال، ولا حركة! اتفقنا؟ ولكنني نسيت: هناك عيناك، فما عساني صانعا بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك؟ آه من عينيك! إنني أخشى أن تقولا لي رأيك ولو سكتّ. اسمع يا أليوشا: لقد اقترح عليّ إيفان «أن أهرب». لن أقصّ عليك التفاصيل: لقد تصورنا كل شيء، وسيدبّر كل شيء. اسكت، لا تنطق بكلمة. سأسافر إلى أمريكا مع جروشنكا. ففي الحقيقة أنا لا أستطيع أن أعيش بدونها! وماذا أعمل بدونها لو أنهم منعوها اللحاق بي؟ هل يزوجون السجناء؟ إيفان يؤكد أنهم لا يفعلون. فما عساي أفعل بدون جروشنكا، تحت الأرض، في المناجم، مع المطرقة؟ لن أفعل أكثر من أن أسحق رأسي بهذه المطرقة. ولكن من جهة أخرى هناك الضمير. سأكون قد فررت من الألم. لقد تلقيت إشارة من السماء، فإذا هربت كنت أتجاهل هذه الإشارة، وأعرض عن طريق التطهّر الذي فتح أمامي. إيفان يؤكد أنني سأستطيع أن أصبح في أمريكا بالإرادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع مني في المناجم تحت الأرض. طيب! ولكن أين يصبح النشيد الذي سننشده من تحت الأرض، إذا أنا سافرت إلى أمريكا؟ أمريكا. . . إن أمريكا هي العودة إلى هذا العالم الباطل. لا بد أن أمريكا ملأى بأنواع الدناءة. أعتقد أن الأمر هنالك كذلك. هل أفر من التكفير عن ذنوبي؟ هل أهرب من طريق الصليب؟ إنني أفضي إليك بما في نفسي يا ألكسي، لأنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني. أما الآخرون فإن ما قلته لك في هذه اللحظة ليس في نظرهم إلا حماقة وغباوة وسخفا. لسوف يظنون أن لوثة خالطت عقلي فجننت، أو أنني أبله. لا، أنا لم أفقد عقلي، ولا أنا معتوه.

إن إيفان يدرك، هو على الأقل، ماذا يعني ذلك النشيد، ولكنه لا يجيبني، بل يلزم الصمت. إنه لا يؤمن بالنشيد. لا تقل شيئاً! اسكت! اسكت! قرأت جوابك في عينيك. لقد انتهيت إلى قرار منذ الآن. لا تعلن هذا القرار، ارحمني، لأنني لا أستطيع أن أحيا بدون جروشنكا. انتظر صدور الحكم!

أنهى ميتيا كلامه منقلب السحنة. كان يمسك أليوشا من كتفه بقوة، ويغرس في عيني أخيه نظرة ملتهبة مثقلة بمسألة قلقة. وعاد يردد مرة ثالثة قوله:

- هل يزوّجون السجناء؟

أصغى إليه أليوشا بدهشة عميقة، وأحس باضطراب شديد. وسأله:

- قل لي: هل يلح إيفان على مشروع الهرب هذا؟ ومن ذا الذي فكر في هذا المشروع؟ مَنْ أول من فكّر فيه؟

- هو الذي فكر فيه. وإنه ليلح كثيراً. لم يكن قد زارني قبل ذلك. ثم إذا به يجيء إليَّ فجأة منذ أسبوع، فيأخذ يتحدث في مشروع الهرب هذا على الفور. إنه يلحّ إلحاحاً رهيباً. هو لا يرجوني رجاء، لا يتوسل إليَّ توسلاً، بل يأمرني أمراً. إنه لا يشك في أنني سأطيعه، رغم أنني فتحت له قلبي كما فتحته لك الآن، وحدثته عن النشيد. شرح لي خطته تفصيلاً. لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية. سأبسط لك هذا فيما بعد. إنه يلح إلحاحاً حانقاً. وهو يعرض عليّ المال خاصة: عشرة آلاف روبل للهرب، وعشرين ألفا للاستقرار في أمريكا. يقول إننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين إلى النجاح كل الاطمئنان.

سأله أليوشا من جديد:

- وهل طلب منك أن لا تحدثني في هذا الأمر؟

- أمرني بأن لا أقول كلمة واحدة لأي إنسان، وخاصة لك أنت، خاصة لك أنت، بأي حال من الأحوال! أغلب الظن أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي. لا تذكر له أنني أفضيت إليك بهذا السر. لا تقل له كلمة واحدة في هذا الأمر، أرجوك، أضرع إليك!

قال أليوشا:

- أنت على حق. لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، عرفت أنت نفسك ما الذي يجب عليك أن تفعله. سيكون قد ولد فيك إنسان جديد، وهذا الإنسان الجديد هو الذي سيقرر.

- إنسان جديد أو برنار يقرر كما يمكن أن يقرر برنار. لعلني أنا نفسي واحد من أمثال برنار.

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم ابتسامة مرة. قال أليوشا يسأل أخاه:

- أخي، هل يمكن حقا أن لا يكون لك أي أمل في تبرئة نفسك؟ فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة، وحرك رأسه بالنفي، وقال متعجلاً:

- أليوشا، ملاكي، آن لك أن تنصرف. لقد سمعت الآن صوت المفتش في الفناء، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى. تأخرنا كثيراً، وهذا يخالف النظام. عانقني وقبلني بسرعة، وارسم عليّ إشارة الصليب يا ملاكي. أرسم عليّ إشارة الصليب لنازلة الغد.

تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر.

قال ميتيا فجأة:

- إن إيفان يقترح عليّ الهرب، ولكنه مقتنع بأنني القاتل.

وطافت بشفتيه ابتسامة حزينة.

سأله أليوشا:

- هل سألته إن كان يعتقد أنك القاتل؟

- لا، لم أسأله عن هذا. أردت أن أسأله، ولكنني لم أجسر. على أنه لا داعي إلى سؤاله، لأنني أقرأ رأيه في عينيه. والآن أستودعك الله!

تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر مرة ثانية. وأسرع أليوشا ينصرف. ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة لحظة هم أن يخرج من الحجرة، وقال له وهو يمسكه من كتفيه:

- أليوشا، قف هكذا أمامي! وانظر في وجهي...

وأمسك أليوشا مرة ثانية بيديه بقوة من كتفيه. كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مروّعاً في الظلام. وتقبضت شفتاه، وغارت نظرته في عيني أليوشا:

- أليوشا، قل لي الحقيقة كاملة كأن الله يسمع كلامك في هذه اللحظة. أتعتقد أنني قتلت؟ أتعتقد أنت، نعم أنت، أنني قتلت؟ أريد أن أعرف الحقيقة، لا تكذب، لا تكذب...

كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره.

كأن قوة ما دفعت أليوشا فترنح تماما بينما انغرز في قلبه شيء حاد أحسّ به إحساساً واضحاً.

فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة:

- ما هذا الكلام؟ ما هذا الكلام؟ ماذا أصابك؟...

فعاد ميتيا يقول مردداً:

- قل الحقيقة، أريد الحقيقة، لا تكذب.

فهتف أليوشا يقول بصوت متهدج مرتجف:

- لم يخطر على بالي لحظة أنك قاتل.

كان الانفعال يخنقه، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف يميناً. فأشرق في وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة. وقال ببطء كأنه يثوب إلى نفسه بعد إغماء:

- شكراً، شكراً. لقد رددت إليَّ الحياة. تصوّر أنني كنت أخشى حتى الآن أن ألقي عليك هذا السؤال. كنت أخاف أن أسألك، أن أسألك أنت خاصة! امض الآن. لقد أمددتني بقوى ليوم الغد، بارك الله فيك! انصرف الآن. حان أن تنصرف.

وأضاف يقول بغتة:

- أحِبّ إيفان!

خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه. إن هذا الشك الذي يعذّب ميتيا، إن إساءة الظن هذه التي تساوره، حتى هو أليوشا، قد فتحت بصر أليوشا على هوة اليأس السحيقة التي هوى إليها أخوه الشقي، والتي لم يكن أليوشا يظنها عميقة هذا العمق كله. وشعر أليوشا فجأة بشفقة عميقة لا نهاية لها تستولي عليه وتعذبه في لمح البصر. كان قلبه المجروح يؤلمه ألما فظيعا. وعادت إلى ذهنه تلك العبارة التي هتف بها أخوه ميتيا: «أحبّ إيفان». وكان أليوشا ذاهباً إلى إيفان على كل حال، فلقد كان يجب أن يراه منذ هذا الصباح. إن التفكير في إيفان يعذبه كما يعذبه التفكير في ميتيا. والآن، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا، أصبحت حاجته إلى التحدث مع إيفان أقوى منها في أي وقت مضى.

– 5 –

ما أنت، ما أنت

كان على أليوشا، حتى يذهب إلى إيفان، أن يمر أمام منزل كاترينا إيفانوفنا. كانت نوافذ الشقة مضاءة. توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد. إنه لم ير كاترينا إيفانوفنا منذ أكثر من أسبوع، وخطر على باله أن إيفانِ يمكن أن يكون عندها الآن، ولاسيما في عشية يوم حاسم كيوم الغد. فبينما هو يصعد السلّم الذي يضيئه مصباح صيني بنور ضعيف، إذ هو يلمح رجلاً يهبط السلّم، وما إن وصل هذا الرجل إليه حتى عرف أنه أخوه. إذن لقد كان إيفان عند المرأة الشابة ثم تركها في هذه اللحظة.

قال إيفان فيدوروفتش في لهجة جافة خشنة:

– آ... أهذا أنت إذن؟ طاب يومك، وإلى اللقاء. أأنت ذاهب إليها؟

– نعم.

– لا أنصحك بذلك، لأنها مضطربة، ولن تفعل زيارتك إلا أن تفاقم اضطرابها.

صاح صوت يقول من أعلى، من خلال باب فتح على حين فجأة:

– بل اصعد، اصعد. أأنت آت من عنده يا ألكسي فيدوروفتش؟

- نعم، رأيته منذ برهة.

- هل حمّلك رسالة إليّ؟ أدخل يا أليوشا. وأنت أيضاً يا إيفان، تعال، آمرك بهذا... هل سمعت؟

كان صوت كاترينا إيفانوفنا يبلغ في تلك اللحظة من صرامة الأمر أن إيفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد، أن يصعد ثانية في صحبة أليوشا.

- ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقاً:

- لقد تجسست علينا.

ولكن أليوشا سمع دمدمته.

قال إيفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون:

- اسمحي لي أن لا أخلع معطفي. ثم إنني لن أجلس، لأنني لا أنوي أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة.

قالت كاترينا إيفانوفنا:

- اجلس يا ألكسي فيدوروفتش.

وظلت هي نفسها واقفة.

إنها لم تتغير كثيراً منذ شهرين، ولكن وميضاً خبيثاً يسطع الآن في عينيها القاتمتين. سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له في تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً.

- ما الذي كلفك بأن تقوله لي؟

قال أليوشا وهو يحدق إلى عينيها:

- كلفني بأن أقول لك شيئاً واحداً. إنه يرجوك أن تراعي نفسك، وأن لا تذكري أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً)... أن لا تذكري أمام المحكمة... ما جرى بينكما... أثناء أول لقاء... في تلك المدينة الصغيرة...

قاطعته كاترينا إيفانوفنا وهي تضحك ضحكة مرة:

- آ. . . يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال؟ أهو خائف على نفسه أم عليّ؟ قل لي! من ذا أراعي في هذا الأمر؟ أأراعي نفسي أم أراعيه هو؟ تكلم يا ألكسي فيدوروفتش!

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور في فكرها.

قال بصوت رقيق عذب:

- هو يرجوك أن تراعي نفسك وأن تراعيه أيضاً.

فقالت بلهجة مسعورة وهي تحمر احمراراً شديداً على الفور:

- هكذا.

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض:

- إنك لا تعرفني بعد يا ألكسي فيدوروفتش! وربما كنت لا أعرف نفسي أنا أيضاً. من يدري؟ قد تتمنى أن تسحقني سحقاً في الغد بعد إدلائي بشهادتي أمام المحكمة.

قال أليوشا:

- قولي ما يمليه عليك الشرف. لا حاجة إلى أكثر من ذلك.

فأجابت بقسوة:

- ليست المرأة شريفة دائماً. لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أنني سأتقزز من الكلام عن هذا الوحش، عن هذا الشخص الكريه. . . ولكن لا! إنه ما يزال في نظري إنساناً.

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستيريا وهي تلتفت بغتة نحو إيفان فيدوروفتش:

- ولكن هل مؤكد أنه قَتَل؟ أهو القاتل؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على إيفان

منذ دقائق قليلة قبل وصوله، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة، للمرة المائة في أغلب الظن، قد انتهت بمشاجرة.

وتابعت تقول مخاطبة إيفان أيضاً بصيغة المفرد:

- لقد ذهبت إلى سمردياكوف. . . أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه! بسببك إنما صدقت أنا ذلك.

ضحك إيفان ضحكة حمل نفسه عليها حملاً. وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد. لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة إلى هذا الحد.

قال إيفان بجفاف وخشونة:

- كفى هذا اليوم. أنا ذاهب. سأرجع غداً.

ودار على عقبيه فجأة، وخرج من الغرفة واتجه رأسا إلى السلم. فأسرعت كاترينا إيفانوفنا تمسك يدي أليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة:

- اتبعه، ادركه! لا تدعه وحده لحظة واحدة. إنه مجنون. ألا تدري أنه فقد عقله؟ لقد أصيب بحمّى عصبية، صدقني! طبيبي هو الذي قال لي ذلك. هيًا، أسرع! اركض لتدركه. . .

وثب أليوشا من مكانه واندفع في أثر إيفان فيدوروفتش. لم يكن إيفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة.

- ماذا تريد مني؟

كذلك هتف يقول إيفان ملتفتاً فجأة إلى وراء عندما لمح أن أخاه يريد اللحاق به. وتابع كلامه يقول بلهجة حانقة:

- لا شك أنها أمرتك بأن تتبعني لأنني مجنون، أليس كذلك؟ لقد حفظت هذه القصة على ظهر القلب.

- واضح أنها مخطئة في هذا. ولكنها على حق حين تقول إنك

مريض. لقد تفرّست في وجهك منذ قليل، فلاحظت أنك مريض، مريض جداً، يا إيفان!

كان إيفان يسير دون أن يتوقف، وكان أليوشا يتبعه.

سأله إيفان بصوت أصبح هادئاً على حين فجأة وخالياً من آثار الحنق وسمع فيه فجأة فضول ساذج للغاية:

- هل تعرف يا ألكسي فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً؟

أجابه أليوشا قائلاً:

- لا، لا أعرف. ولكن يخيَّل إليَّ أن الجنون أشكال شتى.

- هل تعتقد أن في وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد جُنَّ؟

فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة.

- أحسب أن المرء لا يقدر في مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه.

صمت إيفان نصف دقيقة. ثم قال فجأة:

- إذا كنت تحب أن تكلمني فأرجوك أن تغيّر موضوع الحديث.

فقال أليوشا في خجل:

- صحيح. كدت أنسى. معي رسالة لك.

وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدَّها إلى أخيه...

كانا في تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع، فسرعان ما عرف إيفان خط صاحبة الرسالة.

قال وهو يضحك ضحكة خبيثة:

- ها... رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة.

ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها في الهواء دون أن يفضّ الظرف، فتناثرت أجزاؤها. وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره:

- لم تبلغ السادسة عشرة ثم هي تعرض نفسها.

فهتف أليوشا قائلاً:

- كيف هذا؟
- كيف؟ كأية امرأة فاسقة.
فقال أليوشا يحتجّ في ألم:
- ما هذا الذي تقوله يا إيفان؟ إنها طفلة! أنت تهين طفلة. هي مريضة، مريضة جداً. لعلها جُنَّت هي أيضاً... ما كان يمكنني أن أرفض حمل رسالتها إليك... وكنت أحبّ أن أعرف جلية الأمر منك أنت... حتى يمكن إنقاذها.
- لن تعلم منى شيئاً. إذا كانت هي طفلة فلست أنا حاضنتها. اسكت يا ألكسي. كفى! إنني لا أفكر فيها، حتى ولا تخطر على بالي.
وصمتا كلاهما بضع لحظات. ثم قال إيفان فجأة بصوت حانق قاطع:
- سوف تقضي الليل كله مصلية مبتهلة إلى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً في المحكمة.
- هل تقصد... كاترينا إيفانوفنا؟
- نعم... إنها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيّعه. سوف تصلي من أجل أن تهتدي إلى الرأي السديد. إنها لا تعرف هي نفسها حتى الآن ما الذي ستقوله، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتهيأ للأمر. هي أيضاً تعدّني حاضنة لها، وتريد لي أن أهدهدها!
قال أليوشا بحزن:
- كاترينا إيفانوفنا تحبك يا أخي.
- جائز. ولكنها لا تعنيني.
- إنها تتألم. لماذا قلت لها إذن... في بعض المرات... كلاماً

يمكن أن يبعث فيها أملاً؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل.

كذلك قال أليوشا بصوت فيه شيء من لوم خجل. وأضاف:

- سامحني إذا قلت لك هذا الكلام!

فقال إيفان متضايقاً منزعجاً:

- لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغي أن أتصرف، أي أن أقطع صلتي بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة. يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً. لو تركتها الآن لضيَّعَت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام. ذلك أنها تكرهه، وهي تعلم أنها تكرهه. كل شيء هنا كذب، كذب متراكم طبقات! هي الآن، وإلى أن أقطع صلتي بها، ستظل تأمل، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان، لعلمها بأنني أريد أن أخرجه من المأزق. فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين؟

لقد ترجّعت كلمتا «القاتل» و«الشيطان» في قلب أليوشا ترجّعاً أليماً موجعاً.

وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ إلى معنى أقوال إيفان:

- كيف يكون في وسعها أن تضيّع أخانا؟ ما هي الأشياء التي يمكن أن تقولها في شهادتها فتنزل بدمتري كارثة؟

- أنت تجهل هذا حتى الآن. إنها تملك ورقة مكتوبة بخط دمتري نفسه، ورقة تثبت إثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور بافلوفتش.

صاح أليوشا يقول:

- مستحيل!

- لماذا؟ لقد قرأت الورقة بنفسي.

أجاب أليوشا بقوة:

- لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع. ذلك مستحيل استحالة مطلقة، لأن دمتري لم يقتل. ليس هو قاتل أبينا، ليس هو قاتله...

توقف إيفان فيدوروفتش عن المشي. وسأل أخاه بلهجة فيها شيء من الاستعلاء:

- فمن عسى يكون القاتل في رأيك؟

قال أليوشا بصوت خافت نافذ:

- من؟ أنت تعرفه.

- ماذا؟ أتقصد ذلك الاتهام الغبي لرجل أبله مصاب بالصرع؟ أتقصد سمردياكوف؟

شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله. وقال:

- أنت تعلم حق العلم من هو القاتل.

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير إرادة، وكان يختنق اختناقاً.

فقال إيفان يصرخ في هذه المرة صراخاً مسعوراً وتبخّر تحفظه كله فجأة:

- من تعني؟ من تعني؟ تكلم!

لقد فقد إيفان كل سيطرة على نفسه.

عاد أليوشا يقول بهمس مختنق:

- أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت لا لست أنت....

سأله إيفان مذهولاً:

- «لست أنت»؟ ماذا تريد أن تقول؟

فكرر أليوشا قوله:

- لست أنت قاتل أبينا، لست أنت!

وخيّم الصمت لحظة. ثم قال إيفان شاحباً وهو يبتسم ابتسامة لا يكاد يكون فيها من التبسم إلا انفراج الشفتين:

- أعلم أن القاتل ليس أنا طبعاً. هل تهذي؟

وغرس نظراته في عيني أليوشا. وكان الأخوان قد وصلا إلى أحد مصابيح الشارع من جديد.

- لا يا إيفان، أنت نفسك قلت غير مرة، إنك أنت القاتل.

تمتم إيفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة:

- متى قلت أنا هذا؟ متى؟... لقد كنت بموسكو في ذلك الأوان... متى قلت أنا هذا الكلام؟

- قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها إلى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين.

كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة. كان يتكلم كمن تدفعه إلى الكلام قوة لا تُغَالَب، قوة غريبة عن إرادته إن صح التعبير:

- اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً إن القاتل الحقيقي هو أنت. ولكنك لست القاتل يا إيفان. أنت مخطئ. لست أنت القاتل. هل تسمعني؟ لست أنت، لست أنت! الله قد أرسلني لأقول لك هذا.

سكت الأخوان. وامتد صمت ثقيل خلال دقيقة كاملة. إن كلاً منهما يحدّق إلى عيني أخيه منكفئ اللون شاحب الوجه. وفجأة أخذت أعضاء إيفان كلها ترتعش، وأمسك أليوشا من كتفه، ودمدم يقول كازّاً أسنانه:

- جئت إلى بيتي إذن في السر، في الخفاء... جئت ليلاً بينما كان هو عندي، هو... هيّا اعترف! رأيته، رأيته، أليس كذلك؟

سأله أليوشا مذهولاً:

- من تعني؟ أتعني ميتيا؟

زأر إيفان يقول خارجاً عن طوره:

- لا، ليس ميتيا. شيطان يأخذ ميتيا. قل: أأنت تعرف أنه يأتي إليّ؟ كيف علمت بذلك؟ تكلم!

تمتم أليوشا مروّعاً:

- من هو؟ مَنْ تقصد؟ إنني لا أعرف من الذي تشير إليه بهذا الكلام.

- بل تعرف، تعرف... ولولا ذلك ما استطعت أن.. يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر...

وسكت إيفان فجأة في وسط الجملة، وأمسك عن الكلام. بدا أنه يفكر في شيء ما. وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

عاد أليوشا يقول بصوت مختلج:

- أخي، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدّق كلامي، أعرف هذا. قلت لك ما قلت لتتذكر قولي إلى الأبد: لست أنت القاتل. تذكر هذا طوال حياتك، هل تسمع؟ لقد أمرني الله بأن أقول لك هذا الكلام، ولو جعلك ذلك تكرهني بعد اليوم...

ولكن إيفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه بسلوكه. فبدأ يقول بسخرية باردة:

- اسمع يا ألكسي فيدوروفتش! أنا لا أطيق الأنبياء ولا المرضى بداء الصرع. أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم مقتاً شديداً... تعلم ذلك حق العلم. إنني أقطع منذ الآن كل علاقة لي بك، أقطع كل علاقة لي بك إلى الأبد فيما يخيّل إليّ. أرجوك أن تتركني فوراً، عند هذا المفترق. وليس لك على كل

حال إلا أن تمضي في هذا الشارع الصغير الذي يفضي بك إلى مسكنك. وحاذر خاصة أن تجيء إليّ اليوم. هل سمعت؟

ودار على عقبيه، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر إلى وراء.

صاح أليوشا يقول له:

- أخي، إذا حدث لك شيء في النهار، فاذكرني أنا قبل كل شيء!...

لم يجب إيفان. وانتظر أليوشا، عند مفترق الطرق، قرب المصباح، غياب شبح أخيه في الظلام. وعندئذ ابتعد هو أيضاً في الشارع متّجهاً إلى مسكنه بخطى بطيئة. كان الأخوان يسكنان منفصلين في منزلين مختلفين. لم يشأ أحد منهما أن يقيم في المنزل الخالي الذي خلفه فيدور بافلوفتش. كان أليوشا يستأجر غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سكان المدينة. وكان إيفان يقيم في بيت منفرد بعيد عن مسكن أخيه استأجره من امرأة ثرية صغيرة أرملة أحد الموظفين. لم يكن يخدمه هنالك إلا عجوز صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم في الساعة السادسة من المساء، وتنهض من نومها كل يوم في الساعة السادسة من الصباح. ولكن إيفان كان قد أصبح قليل المطالب في شؤون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين، وأصبح يميل إلى الوحدة والاعتزال في بيته، ويحلو له أن يتولّى بنفسه ترتيب الغرفة التي ينام فيها، ولا يدخل سائر غرف بيته إلا نادراً. فلما وصل إلى باب منزله وضع يده على الجرس ولكنه أمسك عن قرعه فجأة. شعر أنه كان ما يزال يرتعش كله من الغضب. فما هي إلا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً، واستدار على عقبيه، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة، وذهب إلى منزل صغير من خشب، يوشك أن يكون متداعياً

ويقع على بعد فرسخين، وهو منزل تسكنه ماريا كوندراتيفنا، تلك المرأة التي كانت في الماضي جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتمس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء، وكان سمردياكوف ينشدها أغانيه على القيثارة. لقد باعت هذه المرأة بيتها الصغير الذي كانت تقطنه في الماضي، وأصبحت تسكن الآن مع أمها في كوخ حقير، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً. فإلى عند سمردياكوف إنما كان يتجه الآن إيفان فيدوروفتش، تدفعه إلى ذلك فكرة مباغته قاهرة.

– 6 –

أول اجتماع بسمردياكوف

هذه ثالث مرة يزور فيها إيفان الخادم سمردياكوف، بعد عودته من موسكو، ليتحدث معه. كان قد اجتمع به مرة أولى بعد وقوع الكارثة فوراً، يوم وصوله من موسكو، وزاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين، ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية، ولم يكد يراه أو يسمع عنه شيئاً منذ شهر ونيف. إن إيفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو إلا بعد موت أبيه بخمسة أيام، وكان أبوه قد دفن عشية رجوعه هو من موسكو. ويرجع سبب هذا التأخر إلى أن إيليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترينا إيفانوفنا أن تتولى إبلاغه نبأ الوفاة ببرقية، وكانت المرأة الشابة تجهل هي أيضاً عنوان إيفان على وجه الدقة، فأبرقت إلى عمتها والى أختها وفي تقديرها أن إيفان فيدوروفتش سيزورهما عندما يصل إلى موسكو. وقد حدث أن إيفان لم يزرهما إلا في اليوم الرابع بعد وصوله إلى موسكو، فلما قرأ البرقية أسرع يعود إلى مدينتنا. وكان إيليوشا أول شخص تحدث معه إيفان عن الفاجعة، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه إيليوشا يرفض رفضاً مطلقاً أن يشتبه في دمتري، وإنما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً معتبراً أنه هو القاتل، على خلاف الرأي الذي أجمع عليه الناس في مدينتنا. فلما تحدث إيفان

بعد ذلك مع رئيس الشرطة ووكيل النيابة «واطّلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق، ازدادت دهشته منا» من موقف إيليوشا، فنسب هذا الموقف إلى عاطفة الأخوة القوية، وإلى العطف والشفقة على شقيّ مسكين، ذلك أن إيفان كان لا يجهل في الواقع أن إيليوشا يحب دمتري كثيراً. ولنقل في هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف إيفان نحو أخيه دمتري فيدوروفتش: لقد كان إيفان يكره أخاه دمتري كرهاً حقيقياً، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة إلا في القليل النادر، وهي شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز. لقد شعر إيفان دائماً بنفور من ميتيا، وكان ينفر حتى من شكله، ويسخطه ما تحمله كاترينا إيفانوفنا لهذا الشاب من حب. وقد زار المتهم ميتيا في السجن يوم وصوله نفسه، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل، بل عززت هذا الاقتناع ورسخته. لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجَيَشان مَرَضي. كان ميتيا يتكلم كثيراً، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً، وكان يعبّر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة. كان يتهم سمردياكوف، وما ينفك يخبط في كلامه خَبْطَ عشواء، عائداً على حين فجأة إلى مسألة الثلاثة آلاف روبل التي «سرقها» منه المتوفى، قائلاً من حين إلى حين: «كان هذا المال مالي أنا، هبني سرقته فلا جناح عليّ». أما القرائن التي تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها، حتى إذا عرض الوقائع التي كان يرى أنها دليل على براءته، اضطرب كلامه واختلطت الأمور في حديثه بكثير من الخرافة، وكأنه كان لا يجب أن يبرئ نفسه في نظر أخيه أو في نظر أي إنسان آخر، فهو يغضب ويثور، ويحتقر الاتهامات مستعلياً، ويرد عليها بلعنات وشتائم، ويتهكم باحتقار على شهادة جريجوري بشأن الباب المفتوح، مؤكداً أن «الشيطان هو الذي

فتحه»، دون أن يحاول البحث عن أي تعليل ممكن لهذه الواقعة. حتى لقد وجد السبيل، أثناء هذا الاجتماع الأول بأخيه إيفان فيدوروفتش، إلى أن يهينه ويجرح شعوره، مردداً في جفاء وخشونة أن الذين يدّعون «أن كل شيء مباح» ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه. وجملة القول إنه لم يُظهر لإيفان شيئاً من مودة، بل خاشنه وأغلظ له القول. وبعد هذا الاجتماع مع ميتيا فوراً إنما ذهب إيفان فيدوروفتش إلى سمردياكوف.

كان إيفان، حين غادر موسكو، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار، وفكّر في الحديث الذي جرى بينهما عشية رحيله. إن عدداً من التفاصيل كان يوقظ في نفسه الشبهات ويقلقه إقلاقاً شديداً. ولكن إيفان، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف. كان إيفان يريد أن يتحدث بنفسه اولاً مع سمردياكوف. وكان سمردياكوف يومئذ في مستشفى المدينة. وقد صرّح الدكتور هرتسنشتوبه لإيفان، وكذلك الطبيب فارفنسكي الذي لقيه إيفان في المستشفى، صرّحا له جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً، حتى لقد استغربا سؤال: «ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل؟». وقد أفهما إيفان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة خطورة شديدة، لأنها امتدت عدة أيام، وتكررت مرات كثيرة، حتى كادت تودي بحياته، وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدماها والاجراءات التي عمدا إلى اتخاذها إنما أصبح من الممكن أن يقال الآن إن المريض لن يموت من هذه النوبة الرهيبة التي ألمّت به. وأضاف الدكتور

هرتسنشتوبه قوله: «على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل». واذ كان إيفان يسأل بشيء من نفاد الصبر «هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً»، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون، وإنما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ. فقرر إيفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة. وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل.

كان سمردياكوف راقداً على سريره في حجرة ذات سريرين. أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث.

ابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة مرتابة حين رأى إيفان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجل، أو هذا ما شعر به إيفان على الأقل. ولكن ذلك الوجل سرعان ما تبدد، حتى لقد دهش إيفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك. واستطاع إيفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً. لقد كان سمردياكوف ضعيفاً أشد الضعف، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناء في تحريك لسانه، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالغاً، واصفرّ لونه اصفراراً شديداً. ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه. وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضَؤُلَ وصَغُرَ، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً، ولم يبقَ من ذؤابته إلا خصلة متناثرة في قمة الرأس.

ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضّن قليلاً، والتي تغمز من حين إلى حين لتوحي بمعان ماكرة، تشهد بأن سمردياكوف ما يزال سمردياكوف. وتذكَّر إيفان جملته التي سبق أن قالها له ذات يوم: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع إنسان ذكي».

جلس إيفان على طاولة من جهة قدمي المريض. فانقلب سمردياكوف على فراشه متألماً، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم، كأنه لا يريد أن يكون البادئ بالكلام. ولم يكن في نظرته شيء يدل على الفضول.

سأله إيفان:

- هل تستطيع أن تتحدث معي؟ لن أتعبك كثيراً.

فتمتم سمردياكوف يقول بصوت واهن:

- طبعاً أستطيع أن أتكلم.

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك:

- هل وصلت منذ مدة طويلة؟

- وصلت اليوم... جئت لأوضح الموقف.

تنهد سمردياكوف. فأسرع إيفان يسأله فجأة:

- لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر.

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر. ثم قال:

- كيف كان يمكن أن لا أعلم؟ كان كل شيء واضحاً سلفاً، ولكنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر.

- تتنبّأ بماذا؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران... ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل إلى القبو؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك إلى القبو!

سأله سمردياكوف بهدوء:

- هل ذكرت هذا في الشهادة التي أدليت بها؟

غضب إيفان فيدوروفتش وأجابه بقوله:

- لم أذكره بعد، ولكنني سأذكره حتماً. هناك نقاط كثيرة عليك أن توضّحها لي، واعلم أنني لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معي!

- أمثّل دور الماكر؟ إن أملي كله معقوداً عليك، كأنك الرب!

كذلك قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه، مكتفياً بإغماض عينيه لحظة.

بدأ إيفان يقول:

- أولاً، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع. لقد سألت عن هذا الأمر، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ. يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التي يُصاب بها بنوبة من هذا النوع. فكيف أمكنك إذاً أن تحدّد لي سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعيّن المكان الذي ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول إنه القبو؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن النّوبة ستلم بك في القبو، إذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعاً، وتظاهرت بها تظاهراً؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل، جارًا كلماته جراً:

- كان عليّ أن أنزل إلى القبو في كل حال، بل كان عليّ أن أنزل إليه عدة مرات في اليوم. وفي ظروف كهذه الظروف إنما سقطت في العام الماضي. صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم والساعة التي توافيه فيها نوبة صرع، ولكنه يستطيع أن يحسّ ذلك وأن يوجسه.

- نعم، ولكنك تنبأت باليوم والساعة.

- خير لك، يا سيدي، في ما يتعلق بمرضي، أن تسأل أطباء هذا المستشفى. سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا! أما أنا فلا أرى أن عليّ أن أزيد على ما قلت شيئاً.

- والقبو، القبو؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك في القبو؟

- لا يقلقنّك أمر القبو! المسألة بسيطة: حين كنت نازلاً إلى القبو ألمّ بي ذعر وخوف وقلق، ألمّ بي ذعر لأنك كنت غائباً فلم يبق لي أحد يحميني. نزلت إلى ذلك القبو وأنا أقول لنفسي: «الآن ستجيئني النوبة، الآن!... هل سأقع؟ هل سأسقط؟» وبسبب ذلك القلق الذي شعرت به عندئذ إنما أحسست فجأة بذلك التشنج اللعين في حلقي، بذلك التشنج الذي لا حيلة لي في دفعه... ثم ترنّحت... وتدحرجت!... هذه التفاصيل كلها، وكذلك الحديث الذي جرى بيني وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل، حين أطلعتك على مخاوفي وقلقي بشأن القبو، ذلك كله قصصته بأمانة على الدكتور هرتسنشتوبه، وعلى قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش، فسجّلا جميع تصريحاتي في المحضر. أما الدكتور فارفنسكي فقد ألحّ عندئذ على أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت هذا المجرى، وعلى أن نوبة الصرع التي أصابتني إنما كان مردّها حتماً إلى خوفي منها، وتوقعي لها: «أسوف أسقط أم سوف لا أسقط؟»، فإذا بالنوبة توافيني في تلك اللحظة بعينها. ذلك ما دوّنوه في المحضر، وأضافوا إليه أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف الذي كان يهجس في نفسي.

قدم سمردياكوف هذه الإيضاحات ثم تنفس تنفساً عميقاً شاقاً، كأنه يحسّ بأنه محطم مبلبل من فرط العناء.

- أألنت ذكرت هذه التفاصيل إذاً في شهادتك؟

ذلك أن إيفان كان ينوي أن يخيف الخادم بتهديده بإفشاء أمر الحادث الذي جرى بينهما عشية الجريمة، فإذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه إلى ذكر جميع التفاصيل.

وقال سمردياكوف بصوت صار ثابتاً على حين فجأة:

- ماذا كنت أخشى؟ بالعكس: إنني أحرص على أن تُسجّل الحقيقة كلها في المحضر.

- هل ذكرت الحديث الذي جرى بيننا كلمة كلمة؟

- لا، لم أذكره كلمة كلمة.

- هل قلت لهم أيضاً إنك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامي؟

- لا، لم أقل لهم ذلك.

- قل لي الآن لماذا كنت حريصاً ذلك الحرص كله على أن أسافر إلى تشرماشنيا؟

- كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو. ان تشرماشنيا أقل بعداً من موسكو على كل حال.

- كاذب! كنت تريد أن أبتعد عن هنا. «سافر، اهرب من الإثم». ذلك ما كنت تقوله لي.

- لئن أسديت إليك هذه النصيحة، فإنما فعلت ذلك من باب الصداقة لك، والإخلاص لشخصك، لأنني كنت أتوقع النازلة التي كانت ستحل بهذه الدار، فكنت أشفق عليك وأرثي لك. غير أن اهتمامي بسلامتي غلب عليّ، فقلت لك «اهرب من الإثم»، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار، فأحملك على البقاء هنا لتحمي أباك.

هتف إيفان يقول غاضباً على حين فجأة:
- كان عليك أن تقول لي ذلك صراحة أيها الأحمق!
- كيف كان يمكنني أن أكلمك بصراحة أكثر؟ كان الخوف قد شلّني شللاً، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك. صحيح أن هناك ما كان يحملني على أن أخاف أن يرتكب دمتري فيدوروفتش حماقة ما، وأن يستولي على ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له، ولكن كيف كان في وسعي أن أتنبأ بأن الأمر سينتهي إلى جريمة قتل؟ كنت أظن أنه سيكتفي بأخذ الثلاثة آلاف روبل التي كان سيدي يخبئها في ظرف تحت الفراش. ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك. أكان في وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع؟
قال إيفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر:
- إذا كنت تقول أنت نفسك إن التنبّؤ بذلك كان مستحيلاً، فكيف كان يمكنني أن أتنبّأ أنا به فأبقى هنا؟ إنك تخلط الأمور وتتخبط في الكلام.
- كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأنني كنت ألحّ عليك أن تسافر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو.
- كيف كان يمكنني الوصول إلى هذه النتيجة؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟
بدا على سمردياكوف تعب شديد، فصمت بضع لحظات من جديد. ثم قال:
- كان يمكنك أن تحزر ذلك، حين لاحظت أنني كنت أوثر أن أعلم أنك في تشرماشنيا لا في موسكو لأن موسكو بعيدة جداً. فإذا عرف دمتري فيدوروفتش أنك قريب من هنا، فلعله كان سيتردد، وكان في وسعك إذا كنت في تشرماشنيا أن تسارع فتجيء لتحميني عند

الحاجة لأنني قد حدثتك عن مرض جريجوري فاسيلتش وعن توجّسي من نوبة الصرع التي ستوافيني. وقد أطلعتك، عدا ذلك، على الإشارات التي يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب. وحين أسررت إليك أن دمتري فيدوروفتش كان على علم بهذه الإشارات لأنني أطلعته عليها، كنت أقدّر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر، وأنك ستعدل حتى عن السفر إلى تشرماشنيا، وأنك ستبقى هنا.

حدث إيفان نفسه قائلاً: «إنه يقول كلاماً مترابطاً جداً، رغم أنه يسيء نطق الكلمات. فأين هي إذاً تلك الاضطرابات العقلية التي تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه؟».

هتف إيفان يقول غاضباً:

- أنت تمكر بي، يا لك من شيطان!

فأجابه سمردياكوف وقد لاح في وجهه أقصى البراءة:

- أعترف لك بأنني كنت قد أيقنت أنك فهمتني وفهمت ما أقصد تماماً آنذاك.

فصاح إيفان يقول غاضباً من جديد:

- لو قد فهمت لبقيت.

- وأنا ظننت أنك حزرت كل شيء، وفهمت كل شيء وأنك أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الإثم، بالهرب إلى مكان بعيد، من باب الخوف لتنقذ نفسك.

- أتراك تتخيل أن جميع الناس جبناء مثلك؟

- معذرة يا سيدي. كنت أظن أنك مثلي!

عاد إيفان يقول مضطرباً:

- طبعاً، كان عليّ أن أحزر... كان عليّ أن أحزر حقاً أنك تهيئ دناءة ما...

- ولكن إيفان صاح يقول فجأة وقد تذكر نقطة معينة من الحديث الذي جرى بينهما قبل رحيله.

- لكنك تكذب! تكذب! هل تتذكر أنك اقتربت من عربتي لحظة رحيلي لتقول لي: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي»؟. إذاً لقد سرّك أن تراني راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لي المديح!

تنهد سمردياكوف مرة ومرة وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد أنفاسه، وظهر في وجهه ما يشبه الحمرة، وقال وهو يكاد يختنق:

- لئن سُررت، إن سروري لم يكن له من سبب إلا أنني رأيتك لا تسافر إلى موسكو بل إلى تشرماشنيا التي هي أقرب من موسكو على الأقل. أما الأقوال التي تعدّها مديحاً، فإنك قد أسأت فهمها. ذلك أنني قد قصدت بها إلى لومك في حقيقة الأمر. ولكنك لم تفهم ذلك.

- لومي على ماذا؟

- على أنك رغم توجّسك الشر، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا لحمايتنا. ذلك أنني كنت أنا أيضاً معرّضاً لأن أُقحم في القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التي كان يمكن أن يُظن أنني سرقتها.

قال إيفان يسبه من جديد:

- شيطان يأخذك! لحظة... هل حدثت قاضي التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الإشارات، عن تلك الضربات على النافذة؟

- حدثتهما عنها. قلت لهما كل شيء.

دُهش إيفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد. ثم استأنف كلامه قائلاً:

- إذا كنتُ قد خطر لي شيء آنذاك، فقد خطر لي أن من الممكن

أن ترتكب أنت حقارةً ما. صحيح أن دمتري كان يمكن أن يقتل، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلّم به حينذاك... أما أنت، فكنت أتوقع منك أية حقارة. ألم تسرّ إليّ أنت نفسك أن في وسعك أن تصطنع نوبة صرع؟ لأي غرض قلت هذا؟

- قلته عن بساطة. إنني لم أتظاهر بنوبة صرع في يوم من الأيام. وإنما أردت أن أتباهى أمامك وأتفاخر. كان ذلك غباوة مني. كنت أحبك كثيراً، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة.

- إن أخي يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت.

أجابه سمردياكوف يقول بابتسامة مرة:

- ماذا بقي له أن يقول؟ من ذا الذي سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلة؟ الباب الذي رآه جريجوري فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال... كيف يمكنه أن يتهمني بعد هذا؟ سامحه الله! إنه يرتعش فزعاً فيحاول إنقاذ نفسه بأي طريقة!...

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثم أردف يقول:

- هو الأمر نفسه... إنه يريد أن يلقي الجرم على عاتقي مدعياً أنني أنا الذي قمت بالضربة... أعرف القصة... ولكن فكّر قليلاً: لقد ذكرت لك مازحاً أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع. أفكان يمكن أن أقول لك إنني قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوي قتل أبيك؟ هل يتخيل أحد أن إنساناً يبيّت جريمة كهذه الجريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدّ فضح نفسه سلفاً، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة، بالتحدث في هذا الأمر إلى ابن الضحية نفسه؟! ذلك شيء لا يمكن تصديقه إطلاقاً. لا يمكن أن يحدث ذلك أبداً. ما من أحد يسمعنا في هذه اللحظة، ما من أحد يسمعنا إلا الله. ولكنك، لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضي التحقيق، لن تزيد على أن

تخدمني وأن تحميني: هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة كلها؟ ذلك ما سيفهمه جميع الناس.

قال إيفان فيدوروفتش وقد أدهشته ما تشتمل عليه هذه الملاحظة الأخيرة من منطق:

- اسمع، إنني لا أشتبه أبداً في أنك ارتكبت هذه الجريمة، بل إنني لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك.

- نطق إيفان بهذه الكلمات وهو ينهض. ثم أردف يقول: - وإني لأشكر لك أنك طمأنتني في هذا الموضوع. إنني أتركك الآن، ولكنني سأزورك مرة أخرى. إلى اللقاء. أتمنى لك شفاء سريعاً. ألأنت في حاجة إلى شيء؟

- شكراً يا سيدي! شكراً لك على كل شيء. إن مارفا أجناتفنا تهتم بأمري، وتجعلني في غير حاجة إلى شيء البتة، على عادتها في الشهامة والأريحية. لا شيء يعوزني. وهناك أناس طيبون يزورونني كل يوم.

- إلى اللقاء. ثم لن أكشف شيئاً مما ذكرته لي عن حذقك في اصطناع الصرع والتظاهر به.

ثم أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا:

- وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا في شهادتك أنت أيضاً.

- أنا أفهمك كل الفهم. ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت، فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذي جرى بيننا حينذاك أمام المنزل.

وهنا خرج إيفان فيدوروفتش من غرفة المريض مسرعاً، ولم يدرك فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التي قالها سمردياكوف من معنى مهين، إلا بعد أن قطع نحو عشر خطوات في الممر، فأوشك

عندئذ أن يقفل راجعاً إلى المريض، ولكن هذه النية التي هجست في نفسه نصف ثانية، لم تلبث أن تبددت، واكتفى بأن دمدم قائلاً: «ذلك كله سخافات!»، ثم أسرع يغادر المستشفى. كان الأمر الأساسي هو أنه صار مطمئناً وخاصةً من مسألة أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف، رغم أنه كان من المفروض أن يحدث عكس ذلك. لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب؟ كان إيفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته، حتى لقد كان ينفر بعض النفور من تحليل هذه النقطة. كان يحاول، فيما يبدو، أن ينسى شيئاً ما. وقد اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن ميتيا هو الجاني، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التي تجمعت على أخيه. وكان عدد من الشهادات يدينه إدانة خاصة، رغم صدور هذه الشهادات على أشخاص قيمتهم ضئيلة للغاية، من ذلك شهادة فينيا وأمها. أما تصريحات برخوتين وروّاد الحانة ومستخدمي متجر بلوتنيكوف والشهود في موكرويه، فقد كانت خطورتها واضحة بلا جدال. وكانت التفاصيل خاصةً تدعو إلى القلق. إن المعلومات التي تتعلق بالإشارات «الطَّرقات» السرية قد أثرت في قاضي التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة جريجوري عن الباب المفتوح، إن لم يكن أكثر. وقد أجابت امرأة جريجوري، مارفا اجناتفنا، عن سؤال ألقاه عليها إيفان فيدوروفتش فقالت إن سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقداً على حصيرة «تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه»، وإنها رغم أنها نامت نوماً عميقاً، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنّات المريض. وأضافت تقول: «إنه لم ينقطع عن الأنين، لم ينقطع عن الأنين». وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذي أطلعه إيفان على شكوكه بشأن سمردياكوف، قائلاً إنه لا يبدو له مجنوناً

أبداً، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة: «هل تعرف ما الذي يشغله الآن؟ تصوّر أنه يقضي وقته في حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب. إنه يخفي تحت وسادته دفتراً سجّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية. هئ هئ!». هكذا عدل إيفان أخيراً عن شكوكه، وأصبح لا يفكر في أخيه دمتري إلا ويشعر باشمئزاز. ومع ذلك بقي هنالك شيء يبدو له غريباً: إن إيليوشا ما يزال يدّعي، في إصرار وعناد، أن الجريمة لم يرتكبها دمتري، وأن «أغلب الظن» أن سمردياكوف هو الجاني. ولقد كان إيفان يحترم دائماً، في قرارة نفسه، آراء إيليوشا، لذلك كان موقف إيليوشا في هذه القضية يدهشه كثيراً. ومن الغريب أيضاً أن أليوشا لم يسعَ يوماً إلى انتهاز فرصة يتحدث فيها إليه عن ميتيا، لا ولا كان البادئ في الكلام عن هذا الموضوع قط، وإنما كان يقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي يلقيها عليه أخوه. ذلك أمر أدهش إيفان كذلك. يحسن أن نلاحظ على كل حال أن إيفان كان في تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً في مشاغل غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه. إنه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترينا إيفانوفنا. ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذي استبد بإيفان فيدوروفتش والذي سيؤثر في مجرى مصيره كله فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى، موضوع رواية أخرى لا أدري بعد هل أكتبها في يوم من الأيام. ولكنني لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن: وهي أن إيفان حين رجع من عند كاترينا إيفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا، فصرّح لأخيه بأن هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها، إنما كان يكذب كذباً لا حياء فيه. فالحق أنه كان يحبها حباً جنونياً، ومع ذلك فمن الصحيح أيضاً أنه كان يكرهها في بعض اللحظات

كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن يقتلها. ولهذا أسباب كثيرة: منها أن كاترينا إيفانوفنا التي هزها ما حدث لميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت إيفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلّص. لقد كانت تشعر بأن الأحداث التي جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها، وها هو ذا رجل كان يحبها منذ زمن طويل - آ. . . نعم، هي تعرف هذا تمام المعرفة - رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال، ها هو ذا يعود اليها. ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها المُحب من عنف عارم مضطرب وهو واحد من آل كارامازوف في هذه الناحية ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة. وكانت في الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع، لأنها خانت ميتيا، وكانت في اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع إيفان (وهي مشاجرات كانت تتكرر كثيراً)، لا تتردد عن أن تصرح له بذلك في وجهه غاضبة غَضَباً شديداً. وبسبب هذا الموقف الذي كانت تقفه إنما اتهمها إيفان، في حديثه مع أليوشا، بأنها «تراكم الكذب طبقات». والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب، وذلك ما كان يُحنق إيفان فيدوروفتش خاصة. . . ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد. وحسبنا أن نقول الآن إن إيفان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت. غير أن الخواطر الغريبة التي سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف. فاذا هو يعود يلقي على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع: لماذا نزل إلى الطابق السفلي في منزل أبيه صامتاً كسارق في الليلة الأخيرة التي قضاها في المنزل واسترق السمع إلى ما يفعله أبوه في الأسفل؟ لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر،

ولماذا اجتاحت نفسه فجأة في صباح اليوم التالي وهو في الطريق كآبة عميقة، وعند وصوله إلى موسكو قال لنفسه: «أنا وغد!» إنه ليبدو له الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة حدّ أنه ينسيه حتى كاترينا إيفانوفنا. وفيما هو يجيل هذا الخاطر في رأسه ذات يوم، التقى بأليوشا في الشارع، فاستوقفه ثم إذا هو يسأله على حين فجأة:

- هل تذكر أنني في اليوم الذي اقتحم فيه دمتري منزل أبينا بعد الغداء، وضربه، قد قلت لك بعد ذلك في الفناء إنني أحتفظ لنفسي «بحق الرغبة والتمني»؟ هل قدّرت في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى موت أبينا؟ هه؟ أجب!

قال أليوشا بصوت خافت:

- نعم قدّرت ذلك.

- كان ذلك هو الحقيقة على كل حال، ولا حاجة بالمرء إلى كبير مكر حتى يصل إلى هذه الحقيقة. ولكن ألم تشعر في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى فعلاً أن أرى «وغداً يلتهم وغداً آخر»، أي أن يقتل دمتري أبانا، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة... وإنني ما كان يسوءني أن أساعد من جهتي على ذلك؟ قل!...

اصفرّ لون أليوشا قليلاً وحدّق إلى عيني أخيه صامتاً.

هتف إيفان يقول:

- هلاّ تكلمت أخيراً! إنني أريد بكل قواي أن أعرف ما فكرت فيه يومذاك. أريد أن أعرف الحقيقة بأي ثمن، الحقيقة، هل سمعت؟

وتنفس إيفان تنفساً شاقاً، ونظر إلى أخيه أليوشا بنوع من غضب مستبق.

فدمدم أليوشا يقول:

- سامحني... لقد قدّرت ذلك أيضاً.

ولكن أليوشا لم يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أي «ظرف مخفف».

قال له إيفان بجفاف:

- شكراً.

ثم تركه هناك وابتعد بخطى سريعة.

أحسّ أليوشا منذ ذلك اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه، بل وإنه يشعر نحوه بشيء من الكره، لذلك كفّ هو نفسه عن زيارته. وبعد ذلك اللقاء الذي تحدثنا عنه مضى إيفان فيدوروفتش إلى عند سمردياكوف رأساً، دون أن يعرّج على مسكنه.

- 7 -

ثاني اجتماع بسمردياكوف

كان سمردياكوف قد غادر المستشفى. إن إيفان فيدوروفتش يعرف عنوانه الجديد، ويعرف أن الخادم قد أقام في البيت الخشبي الصغير الذي تداعى جزء منه الآن، والذي يتألف من حجرتين اثنتين، يفصل بينهما ممر. أما ماريا كوندراتيفنا فتشغل إحدى الغرفتين مع أمها، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية. ما من أحد يعرف بأي صفة كان سمردياكوف يعيش عند هاتين السيدتين: أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً؟ ولقد دعت أسبابٌ، فيما بعد، إلى افتراض أن سمردياكوف إنما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا، وأنه كان لا يدفع أجراً. وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيراً وتعدانه رجلاً متفوقاً. قرع إيفان فيدوروفتش الباب، ثم دخل الممر، ودلّته ماريا كوندراتيفنا على «الغرفة الجميلة» التي يسكنها سمردياكوف، فاتجه إليها قدماً لا يلوي على شيء. الغرفة مدّفأة تدفئة شديدة بموقد مكسو بالخزف. والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً كثيراً في مواضع عدة، وفي شقوق الورق ترتع صراصير لا حصر لها لحركاتها أصوات لا تنقطع. والأثاث بائس: دكتان على طول الجدارين، وكرسيان قرب مائدة من خشب، بسيطة جداً، لكنها مغطاة بغطاء مشجّر وردي اللون. والنافذتان الصغيرتان تزدان كل

منهما بأصيص أزهار. وفي أحد الأركان تُرى أيقونات. وعلى المائدة سماور من نحاس، صغير الحجم، كثير التقعّر، مع صينية وفنجانين.

كان سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاي، فالسماور قد أُطفئ. إن سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة، عاكف على كتابة شيء في دفتر. هذه محبرة صغيرة موضوعة في متناول يده، وهذه شمعة في شمعدان من البرونز تلقي ضوءاً ضعيفاً على مائدته. أدرك إيفان فيدوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبلّ من مرضه إبلالاً تاماً. أصبح لونه أكثر نضارة، وأصبح خداه أقل خسوفاً، واسترد ذؤابة رأسه، وعاد يدهن شعره من جديد. إنه يرتدي الآن معطفاً للمنزل زاهي الألوان مبطناً بقطن، لكنه مهترئ جداً. وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لإيفان فيدوروفتش أن رآهما من قبل، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن ضاعف حنق إيفان فيدوروفتش. فجأة، قال إيفان فيدوروفتش لنفسه: «أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين؟». رفع سمردياكوف رأسه ببطء، وشخص ببصره إلى الزائر من خلال النظارتين محدقاً. ثم خلعهما بغير تعجل، ونهض متوانياً متكاسلاً، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التي لا يملك أن يستغني عنها. رأى إيفان فيدوروفتش كل هذا في لحظة، وسرعان ما أدرك معنى هذا، وقد لاحظ خاصةً نظرة سمردياكوف التي كانت تعبّر عن الاستياء وتعبّر عن عداوة وقحة وحتى متكبرة، فكأنه يقول له: «ما الذي يحملك على إزعاجي هنا وقد سبق أن تكلمنا عن كل شيء؟». كبح إيفان فيدوروفتش جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً. وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه:

- الحر في غرفتك شديد.

فأجابه سمردياكوف آذناً:

- اخلع إذاً معطفك.

خلع إيفان فيدوروفتش معطفه ورماه على الدكة، ثم تناول كرسياً بيد ترتعش غضباً، فأدناه من المائدة بحركة عنيفة وجلس عليه. وكان سمردياكوف قد استطاع أن يسبقه إلى الجلوس.

سأله إيفان فيدوروفتش بلهجة صارمة وإلحاح:

- قبل كل شيء: هل نحن هنا وحيدان؟ ألا يسمعنا أحد في الجهة الأخرى؟

- لن يسمع أحد شيئاً... إنك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر!

- اسمع يا عزيزي: ماذا أردت أن تقول غامزاً في المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى؟ لماذا قلت لي إنك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذي جرى بيننا أمام المنزل إذا أنا لم أتكلم عن حذقك في اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها؟ ما هي تلك التفاصيل التي أردت أن تشير إليها؟ إلى ماذا أردت أن تلمح؟ أتراك أردت أن تهددني؟ أتراك تريد أن تزعم أنني كنت متواطئاً معك وأنني خائف منك؟

كان إيفان فيدوروفتش يتكلم في سورة الغضب، وكأنه كان يريد أن يبرهن بإلقاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة واللف والدوران، وأنه يحبّ أن يلعب بالورق مكشوفاً على المائدة.

وَمَضَ التماعٌ خبيث في نظرة سمردياكوف، وأخذت عينه اليسرى تطرف، وأسرع يجيب قائلاً (على ما عُهد فيه من تحفظ واعتدال وقصد، وكانت هيئته تشبه أن تقول: «أتريد الحقيقة؟ إذاً سأقولها لك»):

- ان ما كنت أقصده آنذاك وما أردت أن أقوله هو التالي تماماً:

إنك تركت أباك بغير حماية، مع علمك سلفاً بمشروع قتله. لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، ولا أتفوّه بشيء للسلطات، حتى لا يُستنتج من ذلك نتائج سيئة عن مشاعرك، وربما عن أمر آخر أيضاً.

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل، مسيطراً على نفسه كل السيطرة فيما يبدو، ولكن لهجته كانت قد تغيرت، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات وإصرار، وشيء من شر وتحد في الوقت ذاته. وحدّق بوقاحة إلى إيفان فيدوروفتش الذي أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه في الوهلة الأولى.

قال إيفان فيدوروفتش صائحاً:

- ماذا؟ كيف؟ أأنت تملك كل عقلك؟

- ثق أنني أملك عقلي كاملاً.

قال إيفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة:

- ولكن هل كان في وسعي آنذاك أن أعرف بجريمة القتل؟ وماذا تعني بهذه الكلمات: «وربما عن أمر آخرِ أيضاً»؟ هلاّ أجبت أيها الوغد!

كان سمردياكوف صامتاً، مصراً على التفرس في إيفان فيدوروفتش بنظرة وقحة.

زأر إيفان فيدوروفتش يقول له:

- تكلم أيها الوغد العفن! ما الذي تعنيه «بالأمر الآخر»؟

- «الأمر الآخر» الذي أردت الإلماح إليه هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك.

وثب إيفان فيدوروفتش من مكانه، ووجه إلى الخادم لكمة قوية عنيفة في كتفه، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار، وغرق وجهه

بالدموع في لحظة، ودمدم يقول: «ألا تستحي يا سيدي أن تضرب إنساناً ضعيفاً!»، ثم غطى عينيه فجأة بمنديله القذر ذي المربعات الزرقاء، وأخذ يبكي بكاء صامتاً. وانقضت على ذلك دقيقة.

قال له إيفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود إلى الجلوس:

- كفى! كفّ عن البكاء الآن. خيرٌ لك أن لا تفقدني صبري!

أزاح سمردياكوف خرقته عن عينيه. كانت جميع قسمات وجهه المغضّن تعبر الآن عن الإهانة التي أُلحقت به.

- أتخيلت إذاً أيها الوغد أنني كنت أريد قتل أبي، متفقاً مع دمتري؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة:

- لم يكن في وسعي أن أعرف أفكارك حينذاك. لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبر ما في نفسك في هذه النقطة بعينها.

- لتسبر؟ لتسبر ماذا؟

- أردت أن أسبر هذه النقطة بالذات: أأنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التي يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق إيفان فيدوروفتش إثارة خاصة.

صاح يقول له فجأة:

- أنت الذي قتلته!

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة، وقال:

- أنت نفسك تعلم تمام العلم أنني لست القاتل. كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من إكثار الكلام في هذا الموضوع.

عاد إيفان فيدوروفتش يسأله:

- ولكن لماذا، لماذا قامت في ذهنك شبهة كتلك الشبهة عني؟

- هو الخوف وحده كما تعرف جيداً. كنت في ظرف يحملني الخوف فيه على الاشتباه في كل إنسان. لذلك قررت أن أسبر نواياك أنت أيضاً، قائلاً لنفسي: إذا صدق أنك تتمنى ما يتمناه أخوك، فقد سوّي الأمر إذن، وسأهلك أنا في هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً.

- اسمع: إنك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين.

- هذا نفسه ما كنت أقصده أثناء الحديث الذي دار بيننا في المستشفى، ولكنني افترضت أنك فهمت ما أقصد بلا أقوال زائدة، وأنك وأنت الرجل الذكي لا تحب أن تواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة.

- عجيب! ولكن أجبني، أجبني، إنني أصرّ على سماع جوابك: كيف أمكن أن تنبت في نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة المسيئة إليّ؟

- أما أن تقتل أباك بنفسك، فذلك ما لم تكن تستطيعه ولا تريده. وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تمنيت.

هتف إيفان فيدوروفتش متعجباً:

- ويقول هذا الكلام بهدوء، بهدوء... يا للشقي! لأي غرض كان يمكنني أن أتمنى ذلك؟ ما الذي كنت أرجوه من مقتل أبي؟

أجاب سمردياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية:

- لأي غرض؟ ما هذا السؤال؟ هو الميراث طبعاً... كان كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل في أقل تقدير، وربما ورث أكثر من ذلك. ولكن لو تزوج

فيدور بافلوفتش تلك المرأة، أقصد أجرافينا ألكسندروفنا، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف لأن هذه السيدة ليست غبية إطلاقاً، ولما نِلْتُم أنتم الأخوة الثلاثة حتى ولا بضعة روبلات. ولقد كان تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة: كان يكفي أن ترفع تلك المرأة أصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم إلى الكنيسة صاغراً طائعاً.

استطاع إيفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء. وقال له أخيراً:

- طيب. ها أنت ذا ترى أنني لم أثب من مكاني لأضربك، وأنني لم أقتلك بسبب أقوالك هذه. أتمم كلامك: أنت تتصور إذاً أنني تركت لأخي دمتري مهمة ارتكاب الجريمة، وأنني في قرارة نفسي قد عوّلت عليه، أليس كذلك؟

- وكيف لا تعوّل عليه؟ المسألة واضحة: حين يقتل أخوك أباه، فإنه يفقد امتيازات النبالة، ويفقد رتبته وثروته ويُرحّل إلى سيبيريا. وبذلك يؤول إليك وإلى أخيك ألكسي فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه، ويقسّم بينكما هذا النصيب، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً. لا شك أبداً في أنك عوّلت على دمتري فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف!

- عجيب أنني أحتمل أقوالك! اعلم أيها اللئيم أنني لو عوّلت على أحد لعوّلت عليك أنت لا على دمتري! ويميناً لقد أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... إنني أتذكر ذلك الإحساس الذي هجس في قلبي تذكراً واضحاً!

أجاب سمردياكوف ساخراً:

- أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوّل عليّ

كذلك... خطر هذا على بالي لحظة قصيرة... ولكن ما كان لهذا الأمر إلا أن يزيدني اقتناعاً برغبتك في وقوع الجريمة. فما دمت قد قدّرت أنني أبيّت جريمة، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعني إلا أنك تقول لي: «اقتل أبي إذا شئت، فلست أعارض في هذا».

- يا لك من وغد حقير! أهكذا أوّلت سلوكي إذن؟

- السبب هو ذلك السفر إلى تشرماشنيا يا سيدي. فكّر قليلاً: كنت قد قررت أن تسافر إلى موسكو، ورفضت رغم إلحاح أبيك أن تذهب إلى تشرماشنيا: ثم إذا بك تقبل فجأة أن تذهب إلى تشرماشنيا استجابة لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا، فلماذا قبلت السفر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو؟ ما دمت قد غيّرت قرارك بدون سبب مهمّ إلا ما أوحيت به أنا إليك، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً مني أنا.

زأر إيفان فيدوروفتش يقول كازاً أسنانه:

- لا، لا، أحلف لك أن لا...

- كيف لا؟ لقد كان من واجبك، خلافاً لما حدث، أن تسلمني للشرطة فوراً لأُجلد لأنني قلت لك تلك الأقوال لك أنت، ابن فيدرو بافلوفتش! كان من واجبك على الأقل أن تضربني في مكاني! ولكنك بدلاً من ذلك، ومن دون أن تغضب البتة... غيّرت قرارك حالاً واتّبعت النصيحة الغبية التي أسديتها إليك... اتّبعتها بحذافيرها. ثم إن ذلك السفر إلى تشرماشنيا كان سخيفاً، فإنما كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج؟

ظل إيفان فيدوروفتش جالساً، مكفهرّ الوجه، قابضاً كفيه على ركبتيه. وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مرة:

- خسارة حقاً أنني لم أضربك حينذاك. أما أن أسلّمك للشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً: لم يكن في إمكاني أن أتهمك بأي شيء معيّن، ولو قد اتهمتك لما صدقوني. ولكن كان يجب عليّ أن أضربك... وأسفاه، لم يخطر ببالي. نعم كان يجب عليّ أن أضربك. وكان في وسعي أن أهشم وجهك راضياً مسروراً، رغم أن ذلك محظور.

كان سمردياكوف ينظر إلى إيفان فيدوروفتش وقد لاح في وجهه ما يشبه الاستمتاع.

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التي كان يصطنعها في الماضي أثناء مناقشاته عن الإيمان مع جريجوري فاسيلتش حين كان يحاول أن يناكده وأن يشاكسه في مسائل لا هوتيّة واقفاً خلف مائدة فيدور بافلوفتش، قال بتلك اللهجة:

- صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون، وأن الناس قد عدلوا عن هذا في أيامنا هذه. ذلك في الأحوال العادية. أما في الأحوال الاستثنائية فإن الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر، تماماً كما كانوا يفعلون في عهد آدم وحواء. وهذا لا يجري في بلادنا وحدها، بل يجري في العالم بأسره، ويجري حتى في أكمل الجمهوريات، كالجمهورية الفرنسية، وسيظل الأمر كذلك أبد الآبدين. وأنت لم تجرؤ أن تضربني حتى في تلك الحالة الاستثنائية التي نتحدّث عنها.

سأله إيفان وهو يومئ إلى الدفتر الموضوع إلى المائدة:

- ماذا عندك هناك؟ أتتعلم كلمات فرنسية؟

- ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية؟ إنني أريد إتمام تحصيلي، فربما قادتني الظروف إلى أن أعيش ذات يوم، أنا أيضاً، في تلك البلاد السعيدة، بلاد أوروبا.

صاح إيفان يقول، وقد سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً:

- اسمع أيها الشيطان! أنا لا أخشى اتهاماتك، وفي وسعك أن تشهد عليّ كما تشاء. ولئن لم أضربك حتى الموت في هذه اللحظة نفسها، فإن السبب الوحيد الذي يجعلني أمسك عن ذلك هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني، ولست أريد أن أنقذك م العدالة، بل سوف أجرّك إلى المحكمة. سأعرف كيف أكشف عنك القناع، صدِّقني!

- في رأيي إن الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً. ما الذي يمكنك أن تستند إليه لاتهام بريء، ومن ذا الذي يمكن أن يحمل كلامك محمل الجد؟ على أنني أنبّهك وأحذّرك منذ الآن: إذا أنت تصرفت هذا التصرف، فلأقولنّ من جهتي كل شيء، إذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي.

- أتظن أنني أخاف منك؟

- هب المحكمة لم تهتم أي اهتمام بشيء مما قلته لك في هذه اللحظة، ولكن الناس سيصدقون كلامي، فيُطعن من هذا شرفك، وتسوء سمعتك.

سأله إيفان وهو يصرّ بأسنانه:

- هو الأمر نفسه دائماً: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي». أهذا ما تعنيه بتلك العبارة إذن؟ هه؟

- هو بعينه. ستتصرف تصرف رجل ذكي.

نهض إيفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياء وغضباً، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردّ على سمردياكوف، وحتى دون أن يلقي عليه نظرة. وقد أحسن إليه الهواء الطري الذي يشيع في جو السماء. كان القمر يضيء السماء. وكان

إيفان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والإحساسات المضطربة التي تغلي وتجيش في نفسه: «أأمضي أبلّغ عن سمردياكوف فوراً؟ ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله ضدّه؟ ليس هو القاتل على كل حال... بالعكس: هو الآن يتهمني أنا... حقاً، لماذا سافرت إلى تشرماشنيا؟ لأي غرض، لأي هدف؟ نعم نعم... هذا صحيح، هذا واضح، لقد كنت أتوقع شيئاً... إن ذلك الوغد على حق في ما قال...». بهذا كان إيفان يحدث نفسه. وتذكر، ربما للمرة المائة، أنه تجسس على حركات أبيه وسكناته، متسللاً على السلم أثناء الليلة الأخيرة التي قضاها عنده، ولكن هذه الذكرى بلغت من إيلامه على حين فجأة أنه جمد في مكانه كأن طعنةً نفذت في قلبه، وقال يخاطب نفسه: «هذا صحيح، لقد تمنّيت ذلك... لقد توقعته... هذا حق! نعم، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه، كنت أريد وقوعها! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً، أكنت أتمنّاها حقاً أم لا؟... يجب قتل سمردياكوف... إذا لم تسعفني الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف، فإن الحياة لن تستحق مني أن أحياها...». لم يرجع إيفان فيدوروفتش إلى مسكنه، بل اتجه رأساً إلى بيت كاترينا إيفانوفنا التي روّعها ظهوره المباغت: كان زائغ النظرة غريب الهيئة، فإذا رآه الرائي أحسّ أنه قد جُن. قصّ على كاترينا إيفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف، لم يُسقط كلمة واحدة. ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة، وكان لا ينفك يسير في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة مفككة. ومع ذلك جلس آخر الأمر، واضعاً كوعيه على المائدة، جاعلاً رأسه في يديه، وقال هذه العبارة المذهلة:

– إذا صدق أن القاتل ليس دمتري بل سمردياكوف فإنني أكون

عندئذ شريكه في هذه الجريمة... حتماً... لأنني أنا الذي حرَّضته على القتل. الواقع أنني لا أعرف أنا نفسي بعدُ هل دفعته إلى الجريمة أم لا. ولكن إذا كان هو الذي قتل، لا دمتري، فعندئذ أكون أنا القاتل أيضاً.

حين سمعت كاترينا إيفانوفنا هذه الكلمات، نهضت دون أن تقول شيئاً، فاقتربت من مكتبها، ففتحت علبة موضوعة عليه فأخرجت منها ورقة وضعتها أمام إيفان. هذه هي بعينها الوثيقة التي سيقول إيفان فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد أنها تثبت بيقين رياضي أن دمتري هو الذي ارتكب جريمة قتل أبيهما. إنها رسالة كتبها ميتيا إلى كاترينا إيفانوفنا وهو في حالة سكر، مساءَ التقائه بأليوشا في الحقول حين كان أليوشا عائداً إلى الدير بعد المشهد الذي أهانت فيه جروشنكا غريمتها كاترينا إيفانوفنا.

إن ميتيا، بعد أن ترك أليوشا في ذلك اليوم، قد أسرع يذهب إلى جروشنكا. لا ندري هل وجدها في بيتها. ولكنه شوهد تلك الليلة في حانة «العاصمة الكبرى» يسرف في الشراب، حتى إذا أخذ منه السكر مأخذه، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه. هي رسالة ملتهبة مليئة بالهذر، هي سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكران حقاً، تذكّر قليلاً بالخطب التي يلقيها السكارى حين يرجعون إلى منازلهم فيقصون على زوجاتهم أو على أحد من أقرباءهم بحرارة مستعرة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا إهانات خطيرة، وأن الذي أهانهم إنسان حقير، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدِّبون الوقح الذي اعتدى عليهم. ويقولون هذا كله في إطناب شديد، في حالة هياج وبجمل لا ترابط بينها، ويخبطون المائدة بقبضات أيديهم من حين إلى حين، ويسكبون دموع

السكارى. وكانت الورقة التي أُعطيت في الحانة رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة، ملأ ميتيا هوامشها، حتى إن العبارات الأخيرة التي انطلقت تعبر عن عواطفه في إطناب السكارى قد خُطّت عرضاً لا طولاً. وإليكم مضمون تلك الرسالة:

«كاترينا يا قَدَري! سوف أجد المال غداً، وسوف أرد إليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك، يا امرأة شديدة الغضب ووداعاً يا حبي أيضاً! لننته من هذا الأمر! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أوفق، فلك عليّ عهد شرف أن أذهب إلى أبي فأهشّم جمجمته، وأستولي على المال الذي يخبئه تحت وسادته... شريطة أن يكون إيفان غائباً! إنني أقبل أن يُحكم عليّ بالسجن مع الأشغال الشاقة، ولكنني سأرد إليك الثلاثة آلاف روبل. أما أنت، فوداعاً!... إنني أنحني أمامك حتى الأرض، لأن الذي ينحني أمامك إنسان شقي! سامحيني. بل لا... لا تسامحيني! ذلك أسهل، عليّ وعليك! إنني أؤثر السجن على حبك، لأنني أحبّ امرأة أخرى. لقد استطعت أن تعرفيها اليوم، فكيف يمكنك أن تغفري لي بعد هذا؟ سأقتل الرجل الذي سرقني! سأبتعد عنكم جميعاً، سأذهب إلى المشرق حتى لا أراكم بعدئذ قط! أصبحت لا أريد أن أراها هي أيضاً... ما أنت الإنسانة الوحيدة التي عذّبتني. لقد عذّبتني هي كذلك، وداعاً.

حاشية: إنني ألعنك، ومع ذلك أعبدك! أشعر بقلبي يخفق في صدري! ما يزال هناك وتر يهتز لك. أؤثر أن يتحطم هذا القلب. سأقتل نفسي، ولكنني سأقتل ذلك الشيطان الرجيم أولاً. سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل، فأرميها إليك. إن الذي يكتب إليك الآن إنسان

شقيّ، ولكنه ليس سارقاً! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل. المبلغ مخبأ عند ذلك الشيطان الرجيم تحت الوسادة، يلفه شريط وردي اللون. أنا لست لصاً، لأنني سأقتل ذلك الذي نهب أموالي. لا تحتقريني يا كاتيا: ليس دمتري لصاً بل هو قاتل. قتل أباه وضيّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر، وأيضاً حتى يكف عن حبك.

حاشية: أقبّل قدميك. وداعاً.

حاشية أخرى: كاتيا! صلّي واضرعي إلى الله أن يقرضوني المبلغ، فما أضطر إلى أن أسفح دماً. أما إذا لم يقرضوني فسوف يجري الدم! اقتليني!

عبدك وعدوك

د. كارامازوف»

أقنعت قراءة هذه «الوثيقة» إيفان. لقد اتضح له الآن أن القاتل هو أخوه دمتري وليس سمردياكوف. وما دام الخادم بريئاً، فليس عليه هو إيفان، أن يتهم نفسه بشيء. ومنذ تلك اللحظة أصبح إيفان يحمل هذه الرسالة دلالة يقين رياضي، وأصبح لا يساوره أي شك في أن ميتيا هو القاتل. يحسن أن نذكر هنا أنه لم يخطر ببال إيفان في لحظة من اللحظات أن يفترض أن جريمة القتل الذي ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف. ثم إن مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع. خلاصة القول إن هذه الرسالة قد حملت إلى إيفان طمأنينة تامة، فلما أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر إلا باحتقار، حتى إنه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم كله من الغمزات المهينة التي وجهها إليه

سمرדياكوف. وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينساه نسياناً تاماً. ومضى على هذا النحو شهر. لم يسأل عن سمرדياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذلك، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمرדياكوف مريض جداً وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله، وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكي في ذات يوم إنه «سيهوي إلى الجنون»، فحفظ إيفان هذه العبارة. وفي أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ إيفان يحسّ هو نفسه بأنه مريض جداً، وزار الطبيب الذي استقدمته كاترينا إيفانوفنا من موسكو قبل بدء المحاكمة لكي يستشيره. وفي تلك الفترة بعينها إنما كانت علاقاته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر، فهما يتعاملان تعامل عدوّين يحب كل منهما الآخر. كانت رجعات كاترينا إيفانوفنا إلى الهيام الشديد بميتيا، وهي رجعات طارئة لكنها عنيفة قوية، تخرج إيفان عن طوره وتحنقه أشد الحنق. شيء غريب: إن إيفان، إلى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترينا إيفانوفنا حين زارها أليوشا بعيد زيارته ميتيا، لم يسمع كاترينا إيفانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر، تعبّر عن أي شك في أن ميتيا هو القاتل، رغم «رجعاتها» إلى هيامها به من حين إلى حين، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس إيفان. ومن الأمور البارزة أن إيفان، رغم إحساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم، كان يدرك إدراكاً تاماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه «رجعات كاتيا» هذه إلى التولّه به، بل كان سببه أن أخاه قد قتل الأب! كان إيفان يحسّ ويعي ذلك وعياً قوياً، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام، عارضاً عليه خطة للهرب، وهي خطة كان واضحاً أنه أعدَّها منذ مدة طويلة. وإنما قرر إيفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحنق الشديد الذي أثاره في نفسه

قول سمردياكوف، غامزاً، إنه، هو إيفان، يجني نفعاً من اتهام أخيه دمتري بالقتل، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين ألفاً إلى ستين ألفاً. إن الجرح الصغير الذي أصاب قلبه من هذا الكلام الذي قاله سمردياكوف لا يمكن أن يندمل. لذلك قرر أن يضحي وحده بثلاثين ألف روبل ليدبّر هرب ميتيا. وحين عاد إيفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه، أحسّ بحزن رهيب واضطراب فظيع يستوليان عليه: لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحي بثلاثين ألف روبل، وأن يشفي جرح قلبه، لا لهذا فحسب، بل لسبب آخر أيضاً. لقد تساءل: «تُرى ألست أتمنى ذلك لأنني في قرارة نفسي قاتلٌ كأخي سواء بسواء؟». وهذا ألم غامض بعيد، ولكنه لاذع كاوٍ، يستيقظ في قلبه. وكانت كبرياؤه خاصةً هي التي قاست كثيراً خلال هذا الشهر، غير أننا سنعود إلى ذلك فيما بعد.

حين أمسك إيفان جرس بيته بعد أن ترك أليوشا، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب إلى سمردياكوف. إنه حين قرر ذلك إنما خضع لغضب مفاجىء مردّه إلى سبب خاص. ذلك أنه تذكر في تلك اللحظة أن كاترينا إيفانوفنا قد صرخت تقول له أمام أليوشا منذ دقائق إنه هو وحده الذي حاول اقناعها بأن ميتيا هو الجاني. فحين تذكر إيفان هذا الكلام أصيب بذهول شديد: إنه لم يحاول أن يقنعها في يوم من الأيام بأن القاتل هو ميتيا. بالعكس: لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف. وهي، هي التي وضعت أمام عينيه عندئذ «وثيقة» الاتهام تلك التي أرادت أن تبرهن بها على أن الجاني ميتيا. وها هيَ ذى تصرخ له منذ لحظات أنها ذهبت هي نفسها إلى سمردياكوف! متى رأت سمردياكوف إذن؟ إن إيفان لا يعرف عن

ذلك شيئاً. هل معنى هذا أنها لم تكن مقتنعةً بأن ميتيا هو القاتل؟ ما الذي يمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها؟ ما الذي قاله لها على وجه الدقة؟ استولى الحنق على إيفان، واستغرب كيف لم ينتبه إلى تلك الكلمات قبل نصف ساعة، ولماذا لم ينفجر حينذاك؟ وفيما كان على هذه الحال إنما أرخى جرس بيته، وأسرع يمضي إلى سمردياكوف. وقد قال محدثاً نفسه أثناء الطريق: «قد أقتله في هذه المرة!».

– 8 –

ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف

لمّا قطع إيفان نصف الطريق هبّت ريح جافة شديدة تشبه الريح التي هبّت في الصباح. وأخذ يهطل ثلج ناعم كثيف يغطي الأرض دون أن يلتصق بها. فالريح تحمل الثلج وتدور به في الفضاء، وسرعان ما تحوّل ذلك إلى إعصار. إن الحيّ الذي يقيم فيه سمردياكوف من المدينة سيئ الإضاءة، ومصابيح الشوارع فيه قليلة نادرة. فكان إيفان يمشي في الظلام غير عابئ بزوبعة الثلج، متبعاً طريقه على هدى غريزته. كان في رأسه صداع، وكان صدغاه يدندنان، فكان يشعر من ذلك بإحساس أليم. وقد بلغت نبضات عروقه من القوة أنه خيّل إليه أن قبضتي يديه تتشنجان. وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقير الذي تسكنه ماريا كوندراتيفنا التقى إيفان فيدوروفتش فجأة برجل سكران، يلبس قفطاناً مرقعاً، ويسير مترنحاً، ويدمدم شاتماً، ويقطع سبابه من حين إلى حين فيأخذ في الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى:

سافر فانكا إلى بيتر[26]

لكنني لن انتظره!

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل إلى البيت الثاني من الأغنية، فيستأنف شتم أحد الناس، ثم يرتد فجأة إلى لازمته الأبدية.

كان إيفان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بكره عنيف لا شعوري حتى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب حنقه بغتة، فودّ لو يصرع الرجل بضربة يهوي بها على رأسه. وبينما هو كذلك اذ أصبح الاثنان جنباً إلى جنب، وكان الرّجل يترجح في مشيته ويترنح فصدم إيفان صدمة قوية، فما كان إيفان إلا أن دفعه كالمسعور، فهوى السكران على الأرض المتجلدة كتلة واحدةً بعد أن أطلق من صدره أنةً أليمة ثم لبث صامتاً. مال إيفان على الرجل، فرآه راقداً على ظهره مغشياً عليه. فقال في نفسه: «سيتجمد من البرد!»، ثم تابع طريقه.

وفي ممر البيت الصغير الذي يسكنه سمردياكوف، قالت له ماريا كوندراتفنا التي أسرعت تستقبله حاملةً بيدها شمعداناً، قالت له في همس إن بافل فيدوروفتش (أي سمردياكوف) مريض جداً، وإن لم يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً، فإنه لا يبدو مالكاً كل عقله، حتى لقد رفض شرب الشاي الذي قدّم إليه وأمر برفعه.

سألها إيفان فيدوروفتش بلهجة شرسة:

- أهو هائج إذن؟

فقالت ماريا كوندراتيفنا:

- بالعكس: إنه هادئ كل الهدوء، ولكنك تحسن صنعاً إذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه.

فتح إيفان الباب، ودخل غرفة الخادم.

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة، كما في الزيارة الأولى، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث: أُبعدت إحدى الدكتين ووُضعت في مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد، لها مسند من خشب يحاكي خشب الأكاجو، ولقد جُعلت هذه الكنبة سريراً عليه

وسائد نظيفة نسبياً. كان سمردياكوف جالساً على تلك الكنبة مرتدياً ذلك الروب المنزلي الذي كان يرتديه في أثناء الزيارتين السابقتين. وقد دُفعت المائدة نحو الكنبة، فأصبحت الفسحة في الغرفة ضيّقةً للغاية. وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر، غير أن سمردياكوف لم يكن يقرأه، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأي عمل البتة. استقبل إيفان فيدوروفتش بنظرة طويلة صامتة، ولم يظهر عليه أي استغراب لهذه الزيارة. وكانت قسمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة. كان وجهه ناحلاً أصفر، وكانت عيناه غائرتين، وكانت جفناه السفليين مزرقّتين.

قال إيفان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه:

- إنك لتبدو مريضاً حقاً! لن أمكث مدة طويلة، ولن أخلع معطفي. هل من كرسي لي؟

ودار حول المائدة، وتناول كرسياً فدفعه نحو الكنبة وجلس.

قال إيفان مبتدئاً كلامه:

- لماذا تنظر إليّ هكذا وتصمت؟ لقد جئت لألقي عليك سؤالاً واحداً في هذه المرة. ولكنني أحلف لك أنني لن أنصرف قبل أن تجيبني. هل جاءت إليك كاترينا إيفانوفنا؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس في إيفان بهدوء. ثم حرك يده بإشارة تململ على حين فجأة، وأشاح وجهه.

هتف إيفان يسأله:

- ما بك؟

- لا شيء!

- كيف لا شيء؟

- نعم جاءت! فيم يعنيك هذا؟ دعني وشأني!

- لا، لن أدعك. متى جاءت؟ أجب!

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار:

نسيت.

ثم التفت نحو إيفان بحركة مفاجئة، وألقى عليه نظرة مثقلة بكره هو ذلك الكره الشديد نفسه الذي سبق لإيفان أن رآه في عينيه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر.

قال سمردياكوف:

- يبدو أنك مريض أنت نفسك. عجيب! إن خديك خاسفتان، وإن قسمات وجهك منقلبة.

- دعك من صحتي وأجب عن سؤالي.

- ولماذا اصفرّت عيناك؟ لقد اصفر بياض عينيك. لعل ذلك يرجع إلى أنك تتعذب كثيراً؟

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد، ثم أخذ يقهقه صراحةً.

هتف إيفان يقول وقد بلغ به الغضب والحنق كل مَبْلَغ:

- أكرر ما قلته: لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبني.

فقال سمردياكوف بلهجة أليمة:

- لماذا تعذبني؟ ماذا تريد مني؟

- شيطان يأخذك. أنا لست أهتم بك أنت. أجبني فأتركك حالاً.

قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد:

- لن أجيبك!

- ساعرف كيف أجبرك على أن تجيبني. صدقني!

سأله سمردياكوف وهو يحدّق إليه على حين فجأة، معبراً في هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً:

- لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب؟ أبسبب تلك المحاكمة التي تبدأ غداً؟ ولكن لا خوف عليك أنت، اطمئن أخيراً. ارجع إلى منزلك، وارقد هادئ البال، ونم مرتاحاً لا يساورك أي جزع!

- لا أفهم ما تريد أن تقول... ما الذي يمكن أن أخشاه أنا من الغد؟

كذلك قال إيفان مدهوشاً، ثم لم يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً في ظهره.

ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قديمه إلى قمة رأسه، ثم قال له بلهجة بطيئة مليئة بالعتب:

- أ... لا... تف... هم؟ أية لذة يجد الرجل الذكي في تمثيل مهزلة كهذه؟

نظر إليه إيفان صامتاً. إن هذه اللهجة غير المتوقعة، المليئة بتعال غير معهود، التي كلمه بها خادمه القديم، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه. لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه يوماً إلى الآن، حتى في اجتماعيهما السابقين، أن يتحدّث بمثل هذه اللهجة.

وتابع سمردياكوف كلامه:

- أقول لك لا تخش شيئاً، لن أشهد عليك، وليس هناك أدلة ضدك. ما ليديك ترتجفان؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج؟ ارجع إلى منزلك. لست أنت القاتل!

ارتعش إيفان متذكراً كلمات إيليوشا. وتمتم يقول:

- أعرف هذا. لست أنا...

فكرر سمردياكوف يقول:

- تعرف هذا؟

فوثب إيفان وأمسكَ سمردياكوف من كتفه وقال:

- تكلم، قل الحقيقة أيها الحقير! قل كل ما تعرفه! لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أي خوف، واكتفى بأن ألقى على إيفان نظرة مثقلة بكره شديد. ثم انطلق قائلاً بصوت صافر مسعور:

- آ. . . أهكذا؟ اعلم إذاً أنك أنت الذي قتلته.

فتهالك إيفان على كرسيه، وبدا عليه الغرق في خواطره وأفكاره. ثم ابتسم ابتسامة خبيثة.

- أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها؟ بصدد ما قلته لي في المرة الماضية؟

- تماماً. ثم إنك قد فهمتني في المرة الماضية حق الفهم، كما تفهمني اليوم.

- كل ما أفهمه هو أنك مجنون.

- ألم تملّ بعد؟ نحن هنا وحيدان، وليس ثمة شهود. فلماذا هذه المراوغة، لماذا يخادع أحدنا الآخر؟ اللّهم إلا أن تكون ما تزال تنوي أن تلقي التبعة كلها عليّ، عليّ وحدي! ألا تشعر بخجل مني؟ إنك أنت القاتل، إنك أنت القاتل الرئيسي، أما أنا فلم أكن إلا مساعدك، لم أكن إلا خادمك «ليتشاردا»[27] الوفي الأمين. لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وإيحاءاتك.

سأله إيفان وهو يشعر بأنه قد تجمد من شدّة الهَلَع:

- قمت بما قمت به؟ أأنت الذي قتلته إذن؟

أحسّ إيفان بتزلزل نفسي، وسَرَت في جسمه كله رعدات صغيرة باردة. فنظر إليه سمردياكوف عندئذ مدهوشاً بعض الدهشة. لكأن الجزع الصادق الذي أصاب إيفان قد أذهله أخيراً.

دمدم سمردياكوف يسأل إيفان بشيء من الشك وهو ما يزال ينظر إليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة:

- هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً؟

ظل إيفان يتفرس في الخادم، وكأنه فقد النطق. وصار أبكماً وترجّعت في رأسه هذه اللازمة على حين فجأة:

سافر فانكا إلى بيتر

لكنني لن انتظره

ثم تمتم أخيراً:

- إني لأتساءل أأنا في حلم؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لي؟

- لا شبح هنا. لا أحد إلا نحن الاثنين، وثالثاً أيضاً. وهو الآن هنا ذلك الثالث، هو حاضر بيننا حتماً في هذه اللحظة.

- من هو؟ من؟ من هنا؟ عن أي ثالث تتكلم؟

كذلك سأله إيفان فيدوروفتش مذعوراً، وهو ينظر حواليه، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحد في زوايا الغرفة.

قال سمردياكوف:

- الثالث هو الله. إن الله حاضر بيننا الآن. ولكن لا تبحث عنه، لأنك لن تراه.

انفجر إيفان وزأر بجنون:

- كذبت حين زعمت أنك أنت الذي قتلته! أمران لا ثالث لهما: فإما أنك مجنون، وإما أنك تسخر مني كما فعلت في المرة الماضية!

ظل سمردياكوف هادئاً مثلما في السابق. ولم يحفل بغضب إيفان، وإنما كان يتفرس فيه بانتباه واستطلاع. إنه لم يستطع أن يتغلب على شكه وارتيابه، لأنه كان يتصور، حتى في هذه اللحظة، أن إيفان «يعرف كل شيء»، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً، «بغية أن يلقي التبعة كلها عليه، هو سمردياكوف وأن يجبره على قبول هذا الوضع».

وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن:

- انتظر قليلاً.

وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة، وأخذ يشمر سرواله.

ظهرت قدمه في حذاء المنزل، ثم ظهر جورب طويل أبيض. وبدون تعجّل، حلّ حمالة الجورب، وأغطس يده إلى القاع. كان إيفان فيدوروفتش ينظر إليه وهو يفعل ذلك، فإذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة، واذا بذعر متشنج يستولي عليه. وهتف يقول:

- مجنون! لقد جُنّ.

ثم وثب عن مكانه، وتراجع إلى الوراء بحركة بلغت من القوة أن صدم الجدار بظهره، ثم لبث لاصقاً بالجدار، متصلباً كعصا.

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له. لم يضطرب سمردياكوف من ذعر إيفان، واستمر بنبش قاع جوربه، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك. وظفر بهذا الشيء أخيراً، فأخرجه. رأى إيفان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزمة من أوراق. ووضع سمردياكوف الحزمة على المائدة. وقال بصوت خافت:

- هو ذا...

فسأله إيفان الذي كان يرتعش:

- ما هذا؟

فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً:

- انظر فترى.

دنا إيفان من المائدة، وتناول الحزمة، وأخذ يفضها. فإذا هو يسحب أصابعه فجأة، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً.

قال سمردياكوف:

- أصابعك ترتجف يا سيدي!

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل. فظهرت تحت الورقة التي تلف الحزمة، ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل.

وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومئ إلى المبلغ داعياً إيفان:

- المال كله هنا. ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال. لا داعي إلى العد. تفضل باستلامها.

تهاوى إيفان على الكرسي، وقد اصفرّ وجهه اصفراراً شديداً. ثم دمدم يقول بضحكة غريبة:

- روّعتني... بسبب جوربك...

عاد سمردياكوف يسأله:

- هل يُعقل، هل يمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن؟

- كنت أجهل كل شيء. كنت أظن أن دمتري هو القاتل. ثم صاح إيفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه:

- أخي! أخي! آه... رباه!... اسمع: هل قتلته وحدك؟ هل قتلته بمساعدة أخي أم بدون مساعدته؟

- لم يكن لي شريك في الجريمة سواك. أنا إنما قتلت بالتواطؤ معك. أما دمتري فيدوروفتش فهو بريء براءة كاملة.

- طيب، طيب، سنتحدث عني أنا فيما بعد. ما لي أرتجف هكذا؟ لا أستطيع أن أتكلّم.

قال سمردياكوف مدهوشاً:

- كنتَ في الماضي أكثر جرأة حين كنتَ تقول: «كل شيء مباح». وها أنت ذا اليوم مذعوراً أشد الذعر. هل تقبل أن تشرب كأساً من شراب الليمون؟ سآمر لك بكأس فإنه سينعشك جداً. ولكن يجب أولاً إخفاء هذا.

قال سمردياكوف ذلك وهو يومئ إلى حزمة الأوراق المالية من جديد. همّ أن ينهض على نية استدعاء ماريا كونراتيفنا ليأمرها بإعداد شراب الليمون وإحضاره. ولكنه عدل عن ذلك، وحاول أن يبحث عن شيء يمكنه أن يخفي به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة، فأخرج في أول الأمر منديله. وإذ لاحظ أن المنديل وسخ جداً أعاده إلى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذي لاحظه إيفان على المائدة حين دخل، فجعله غطاءً يخفي تحته الحزمة. واستطاع إيفان فيدوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية: «مواعظ أبينا المقدس اسحق السوري[28]».

قال إيفان:

- لا أريد شراب الليمون. سنتحدث عني أنا فيما بعد. اجلس الآن واقصص عليّ: كيف فعلت ذلك؟ قل الحقيقة كلها.

- هلا خلعت معطفك، وإلا شعرت بحرّ شديد ونضح منك العرق.

خلع إيفان فيدوروفتش معطفه بسرعة، كأنه لم يخطر بباله ذلك إلا في تلك اللحظة، ورماه على الدكة دون أن ينهض من مكانه.

- تكلم الآن، أرجوك، تكلم!

كان قد هدأ روعه، فهو ينتظر واثقاً أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة كلها.

بدأ سمردياكوف كلامه وهو ينتهد:

- كيف فعلتُ ذلك؟ الأمر بسيط جداً. استوحيت أقوالك أنت، ف...

قاطعه إيفان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل، إنما بكلمات واضحةً كل الوضوح، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً:

- سنتحدّث عن أقوالي فيما بعد. أما الآن فاشرح لي بالتفصيل كيف فعلت ذلك. حسب الترتيب، ولا تغفل شيئاً. أريد أن تذكر التفاصيل، التفاصيل خاصة لا تسقط منها شيئاً. أنا مصغ إليك[29].

- بعد سفرك سقطت في القبو...

- أسقطت بنوبة صرع صادقة أم متظاهراً؟

- متظاهراً طبعاً. متظاهراً في كل شيء. هبطت سلّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته، ثم استلقيت على الأرض بهدوء. حتى إذا صرت راقداً على الأرض رحت أعول، وظللت أتخبط حتى نقلوني.

- لحظة. إذاً كنت تتظاهر طول الوقت، أليس كذلك؟ وفي المستشفى بعدئذ أيضاً؟

- لا. ففي صباح اليوم التالي، قبل نقلي إلى المستشفى أُصبت بنوبة صرع صادقة، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين. ولبثت يومين كاملين مغشياً عليّ.

- طيب. طيب. أكمل كلامك.

- أرقدوني على مضجع وراء حاجز غرفة جريجوري فاسيلتش. كنت أتوقع ذلك، لأن مارفا أجناتفنا قد اعتادت أن تُرقدني هناك، على مقربة منها، حين أمرض. لقد أحاطتني دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت. وفي الليلة التالية كنت أئن، ولكن أنيناً ضعيفاً، بانتظار دمتري فيدوروفتش.

- كيف؟ هل كنت تنتظر مجيئه إليك في غرفتك؟

- لا... علام يجيء إلى غرفتي؟ كنت أنتظر وصوله إلى الدار. ذلك أنني كنت واثقاً كل الثقة بأنه سيجيء في تلك الليلة. كان لا بد له حتماً، فإنه وقد حُرم من معونتي وانقطعت عنه الأنباء التي أزوده

بها، كان لا بدّ له من أن يتسلل إلى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذلك، ليعرف مَنْ أتى، وليتعرّف على ضوء ذلك.

- فماذا لو لم يجيء؟

- لو لم يجيء لما وقع شيء. لولا أنه جاء لما عزمت أمري.

- طيب، طيب... تكلم بمزيد من الدقة، ولا تتعجل. المهم ألا تغفل شيئاً! ألا تغفل أي تفصيل.

- كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش. ذلك أمر مؤكد. لأنني كنت قد أثرته إثارة شديدة في الأيام الأخيرة... ثم لقد أصبح يعرف الإشارات السرية... فلم يكن يمكنه، وهو فيما هو فيه من شك قوي وحنق مسعور، إلا أن يستعين بهذه الإشارات ليدخل المنزل. كان هذا سيحدث حتماً. لذلك كنت أنتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة.

قاطعه إيفان قائلاً:

- لحظة! لو قتل لاستولى هو على المال. أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو؟ فأي فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة؟ لست أفهم.

- دعك من هذا الكلام! ما كان له أن يعثر أبداً على المال. أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش. ولكن ذلك كان كذباً مني. كان فيدور بافلوفتش يخفي المبلغ قبل ذلك في علبة صغيرة. ولما كنت الإنسان الوحيد في العالم الذي يثق به فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الأيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث، ولا سيما إذا كان سارقاً يتعجّل الهروب. فهناك، وراء الأيقونات، إنما كان المال مخبأ لحظة وقوع الجريمة. أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش، فهو فكرة غبية أفضلُ منها أن يوضع المبلغ في العلبة الصغيرة التي لها مفتاح على الأقل.

لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش. ذلك تفكير أبله. نعود إلى ديمتري: إذن لو قتل دمتري فيدوروتش أباه لما عثر على المال، ولأسرع يهرب وهو يخشى إشارة أيّ ضجّة. هكذا يتصرف القتلة دائماً، والا لضُبط واعتقل. وهكذا فإنني كنت أستطيع في الغد أو حتى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضي آخذ المال من خلف الأيقونات، فأحمله إلى مسكني. وكانت السرقة ستُنسب عندئذ إلى دمتري فيدوروفتش. كان يحقّ لي أن أتوقع ذلك.

- فإذا لم يقتل دمتري أباه، ولم يزد على أن يضربه؟

- إذا لم يقتله، لا أجرؤ على أن آخذ المال طبعاً. هذا بديهي. وتكون خطتي قد أخفقت. على أنني كنت أفترض، فيما أجريته من حسابات، أن دمتري كان سيبلغ من ضربه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط مغشياً عليه. وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال. ثم أوهم فيدور بافلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع دمتري، وأن دمتري قد سطا على المال بعد أن ضربه.

- لحظة أخرى... إنني لا أفهم بوضوح... هل دمتري هو الذي قتل إذن، ثم لم تزد أنت على أن سرقت المال؟

- لا، ليس هو الذي قتل. لقد كان سهلاً عليّ، حتى في تلك اللحظة، أن أزعم أنه هو القاتل... ولكنني لا أريد أن أكذب عليك، لأنني... لأنني أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً البتة حتى في هذه اللحظة، وأنك لم تكن تمثل تمثيلاً لتلقي التّبعة كلّها عليّ، ولتجعلني أقبل هذا الوضع. ومع ذلك فإنك أنت الجاني الأكبر في هذه القضية، لأنك كنت على علم بما كان يتهيأ، وقد كلفتني بأن أقتل أباك، وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث. لهذا أصرّ على أن أؤكد لك جازماً، في هذا المساء، أن القاتل الرئيسي هو

أنت، أنت وحدك! أما أنا فلست إلا معاون قاتل، معاوناً ثانوياً، رغم أن القتل قد تم بيدي. أنت القاتل شرعاً، أنت!...

هتف إيفان أخيراً يقول وقد نفد صبره، ناسياً أنه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه إلى ما بعد:

- كيف أكون أنا القاتل؟ آه... يا رب!... أبسبب سفري إلى تشرماشنيا أيضاً؟ قل لي إذن: لماذا كنت تحرص ذلك الحرص كله على موافقتي إذا كنت تؤوّل سفري وحده على أنه موافقة؟ هل لك أن تشرح لي هذا؟

- حين أثق بأنك موافق، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عند عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل، إذا اشتبهت فيّ السلطات بدلاً من أن تعتقل دمتري فيدوروفتش، أو إذا هي عدّتني شريكاً له في الجريمة، حتى لقد تدافع عني في هذه الحالة. ثم إنك بعد أن تنال نصيبك من الميراث قد تكافئني أثناء حياتك. ألم تنل هذا الميراث بفضلي أنا؟ فلو قد تزوج أبوك أجرافينا ألكسندروفنا، لما آل إليك كوبيكاً واحداً من تلك الثروة كلها!.

دمدم إيفان يقول كازّاً أسنانه:

- ها... كنت تنوي اذن أن تعذبني وتضطهدني طوال حياتي! ولكن ما الذي كان يحدث لو أنني أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر؟

- ماذا كان في وسعك أن تقدم ضدي آنذاك؟ ليس يكفي لاتهامي أن أكون قد حضضتك على السفر إلى تشرماشنيا. هذا كله سخافات على كل حال! هناك أمران لا ثالث لهما: إما أن تسافر بعد الحديث الذي دار بيننا، وإما أن تبقى هنا. فلو بقيت لما حدث شيء البتة، لأنني أفهم عندئذ أنك لا تريد وقوع جريمة قتل، فأمتنع عندئذ عن

الشروع في العمل. أما إذا سافرت فإنك تجعلني أوقن أنك لن تشي بي إلى القضاء وأنك ستغفر لي سرقة الثلاثة آلاف روبل. ومن جهة أخرى، فإنك لم تكن تستطيع ملاحقتي، لأن من الممكن أن أكشف أمام المحكمة عن كل شيء، فلا أذكر أنني سرقت وقتلت - فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة - وإنما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل، وأنني رفضت ذلك. لقد كنت إذاً في حاجة إلى موافقتك بغية أن لا تزعجني بعد ذلك، فما هي الأدلة التي تملكها ضدي؟ أمّا أنا، فإنني أستطيع أن أزعجك في كل لحظة، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة في موت أبيك. ويميناً إن جميع الناس كانوا سيصدقون كلامي، وستسوء سمعتك إلى الأبد، وشرفك كان سيلطخ مدى الحياة.

سأله إيفان غاضباً غضباً شديداً:

- أنت تزعم إذاً أنني أتمنى بحرارة وقوة أن يموت أبي، فهل صحيح أنني تمنيت ذلك؟

أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدق إلى إيفان:

- لا شك إطلاقاً في أنك تمنيت ذلك، ولقد كلفتني ضمناً بارتكاب هذه الجريمة، دون أن تطلب مني هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح.

كان سمردياكوف ضعيفاً جداً، وكان يتكلم بصوت أجشّ متعبٍ، ولكن نوعاً من هوى متأجج سري كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه. كان واضحاً أنه يهدف إلى غاية ما. وقد أحسّ إيفان بذلك.

قال له إيفان آمراً:

- كمّل. أسرد وقائع تلك الليلة.

- ماذا أقصّ أيضاً؟ كنت راقداً على مضجعي، فإذا أنا يتراءى لي

أنني أسمع صوتاً يطلقه أبوك. كان جريجوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات، وسُمع يعول على حين فجأة، ثم ارتدّ كل شيء إلى صمت مطبق. كنت أنتظر في الظلمات راقداً، وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً يكاد ينشق له صدري. لم أطق صبراً، فنهضت أخيراً وخرجت. في اليسار، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة. سرت بضع خطوات أيضاً لأتجسس على أبيك، ولأعرف أهو ميت أم حي. سمعته يضطرب ويتنهد. قلت لنفسي: «إذن ما يزال حياً، لقد أخفَقَت الخطّة!». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً: «هذا أنا، لا تخف!». فأجابني: «لقد جاء، جاء ثم هرب!». كان يقصد دمتري فيدوروفتش. وأضاف يقول: «لقد قتل جريجوري فاسيلتش». سألته هامساً: «أين وقع هذا؟» فأجابني يهمس أيضاً: «هناك، في الركن». قلت له: «انتظر لحظة». واتجهت نحو الركن الذي دلّني عليه، فاكتشفت جريجوري فاسيلتش عند أسفل السور راقداً على الأرض، مضرجاً بالدم، مغشياً عليه. «صحيح إذاً أن دمتري فيدوروفتش قد جاء». هاجمتني هذه الفكرة فوراً، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسي إكمال المهمة وإتمام الأمر، لأن جريجوري فاسيلتش، حتى ولو كان ما يزال حياً، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو في ما هو فيه من إغماء. والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا أجناتفنا فجأة. شعرت شعوراً واضحاً، في تلك اللحظة، بالخطر الذي أتعرض له إذا استيقظت مارفا اجناتفنا، ولكن الإغراء كان أقوى من أن أتراجع، وشعرت باندفاع مسعور يقطّع أنفاسي. عدت إلى النافذة التي كان أبوك واقفاً عندها وقلت له: «جاءت، أجرافينا الكسندروفنا. هي هنا، وتطلب أن تدخل». فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير، وطفق يسألني: «أين؟ أين هي؟». كان لا

يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج، ومع ذلك لم يصدّق بعد تصديقاً تاماً. قلت أجيبه: «هي هناك. إنها تنتظر. هلا فتحت الباب!». كان ينظر إليّ من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة، متسائلاً؟ أيجب عليه أن يصدّقني أم لا، ولكنه تردّد في فتح الباب. قلت في نفسي: «هو الآن خائف مني أنا». أمر غريب مضحك: خطر ببالي في تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالإشارات المتفق عليها إيذاناً بوصول جروشنكا. فعلت ذلك، فإذا به، هو الذي لم يصدّق أقوالي، إذا به يقتنع فجأة بإشاراتي فيسرع بفتح الباب فوراً. فتح الباب، فأردت أن أدخل، ولكنه وقف أمامي يمنعني من العبور ويسألني مرتعشاً: «أين هي؟ أين؟ أين؟». قلت لنفسي: «إذا كان خائفاً مني هذا الخوف، فمعنى ذلك أن الأمور تجري مجرى سيئاً». وفي تلك اللحظة أحسست بساقيّ تخوران إذ تصورت أنه لن يدع لي أن أدخل غرفته، أو أنه سيبدأ بالصراخ، أو أن مارفا أجناتفنا ستجيء مسرعة، أو لا أدري أيضاً. لا أتذكر الآن تذكراً جيداً ما حدث في نفسي عندئذ. لا بد أن وجهي كان قد اصفرّ اصفراراً شديداً. دمدمت أقول: «هي هناك، أمام النافذة، كيف لا تراها؟». قال: «ائت بها إلى هنا، ائت بها إلى هنا». قلت: «لقد خافت. روّعتها الصرخة التي أطلقها جريجوري فاسيلتش. فاختبأت وراء الأشجار. هيّا، نادها أنت من النافذة». ابتعد عن الباب راكضاً، ودنا من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة، وصاح ينادي: «جروشنكا! جروشنكا! أأنت هنا؟». ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عني، وذلك بسبب خوفه. كان يخشاني في تلك اللحظة خشية رهيبة، لذلك لم يبتعد عني قيد أنملة. قلت له وأنا أقترب من النافذة وأميل بنفسي إلى الخارج: «ها هي ذي! وراء

تلك الأشجار. هل رأيتها؟ إنها تبتسم لك. انظر!». صدّقني فجأة، وأخذ يرتعش، لأنه كان مغرماً بها أشد الغرام! عندئذ إنما مال من على النافذة تماماً. لم أضيّع ثانية واحدة، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التي كانت موضوعة على المنضدة، لا شك أنك تتذكرها. انها تزن ثلاثة أرطال تقريباً. رفعتها، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة. فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة. كل ما حدث أنه تهاوى. وضربته مرة ثانية، فمرة ثالثة، وفي المرة الثالثة شعرت أنني حطمت جمجمته. سقط على الأرض منقلباً، مضرجاً بدمه. نظرت إلى نفسي لأرى هل تلطخت، فلاحظت أن ثيابي نظيفة لم ينبجس عليها شيء من الدم. مسحت ضاغطة الورق، وأرجعتها إلى مكانها. ثم اتجهت نحو الأيقونات، فأخرجت المال من الظرف، ورميت الظرف على الأرض، وحرصت على أن أضع جانباً، الشريط الوردي الذي كان يلفّ الظرف. وبعد ذلك نزلت إلى الحديقة وأنا أرتعش ارتعاشاً شديداً، فمضيت رأساً إلى شجرة التفاح المجوّفة الساق، تلك التي تعرفها... كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم. لففت الأوراق المالية بالورقة، ثم غلفت الورقة بالخرقة، ودسست الرزمة في بطن الشجرة الجوفاء. بقيت الرزمة هناك أسبوعين. ولم أخرجها إلا بعد مدة، عقب خروجي من المستشفى. عدت إلى بيتي، فرقدت على مضجعي، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً: «إذا كان جريجوري ميتاً، فستكون العواقب وخيمة أما إذا كان حياً فصحا من إغمائه فسوف يجري كل شيء على خير وجه، لأنه سيشهد بأن دمتري قد جاء فعلاً، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذي قتل وسرق المال». وبينما أنا في هذا القلق وهذا

الاضطراب، أخذت أئن لأوقظ مارفا أجناتفنا بأقصى سرعة. فاستيقظت مارفا أخيراً وهرعت إليّ. ولاحظت فجأة أن جريجوري فاسيلتش غائب، فأسرعت إلى الحديقة وأخذت تعول. ومن تلك اللحظة بدأ هرج ومرج استمر طوال الليلة كلها. أما أنا فشعرت باطمئنان كامل.

هنا توقف سمردياكوف عن الكلام. وكان إيفان يصغي إليه صامتاً كالأموات، لا يتحرك ولا يحوّل عنه بصره لحظة واحدة. وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر إليه إلا نادراً، وإذا نظر ينظر خلسةً. فلما فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً، وأصبح يتنفس تنفساً ثقيلاً، وظهرت على جبينه قطرات عرق. ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر بندم أم لا.

وكان إيفان يفكر، فعاد يقول له:

- لحظة. والباب؟ إذا كان أبي لم يفتح الباب إلا لك وحدك، فكيف رآه جريجوري مفتوحاً قبل ذلك؟ إن جريجوري يؤكد أنه رأى الباب مفتوحاً.

من الملفت للانتباه أن إيفان يلقي الآن اسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء، دون أي اهتياج أو حنق، فلو دخل شخص إلى الغرفة في تلك اللحظة، وألقى من العتبة نظرة على المتحدثين، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً ودياً يدور بين الرجلين على أمور عادية وإن تكن هذه الأمور تعنيهما بعض العناية.

أجاب سمردياكوف يقول مبتسماً ابتسامة فيها مكر وسخرية:

- أما حكاية الباب الذي يَزْعَمُ جريجوري فاسيلتش أنه رآه مفتوحاً، فذلك وهم منه لا أكثر. أؤكد لك أن جريجوري ليس رجلاً، بل هو بغل عنيد. إنه لم ير شيئاً البتة، ولكنه يتخيل أنه رأى

الباب مفتوحاً، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا. من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة في رأسه، لأن هذه الواقعة تدين دمتري فيدوروفتش إدانة حاسمة.

قال إيفان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما:

- اسمع أيضاً... أردت أن ألقي عليك أسئلة أخرى... ولكنني نسيت ما الذي كنت أريد أن أسألك عنه... لقد تاه عقلي تماماً... ها... نعم! اشرح لي هذه النقطة على الأقل: لماذا فضضت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال؟... لقد تراءى لي، أثناء حديثك، أنك قد فعلت ذلك عامداً، وأن ذلك كان أمراً ضرورياً... ولكنني لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة...

- فعلت ذلك للسبب التالي: لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك، مثلي أنا، شخص لعله سبق أن رأى المال، ولعله شهد صرّه أو حتى ساهم في صرّه، فإن ذلك الشخص ما كان ليحتاج إلى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعاً، ذلك أنه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال. لو كان القاتل واحداً من أهل الدار، مثلي أنا، لاكتفى بدسّ الظرف في جيبه دون أن يفضّه، ولولّى هارباً بأقصى سرعة. وليس كذلك شأن أخيك دمتري فيدوروفتش: فلقد كان لا يعلم بوجود هذا الظرف إلا عن طريق السماع، ولم يره بعينيه في يوم من الأيام. فإذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش، كان عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه، ثم كان لا بد أن يلقي الظرف على الأرض متعجلاً، دون أن يتسع وقته للتفكير في أن هذا الظرف يمكن أن

يكون شهادة عليه. إن هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين، فهم لا يفكرون في الأمور ولا يتبصرون بالعواقب. يجب أن لا ننسى أن دمتري فيدوروفتش نبيل المحتد، وأنه لم يسرق في يوم من الأيام حتى ذلك الحين. وإذا قرر أن يسرق في هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة، وإنما هو استردادٌ لمال يخصه شرعاً. كان دمتري فيدوروفتش قد أعلن ذلك في المدينة كلها سلفاً، حتى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضي يسترد حقه من فيدرو بافلوفتش. إنني لم أفصح عن هذا التفكير بصراحة في شهادتي أمام وكيل النيابة، ولكنني جعلته يدركه بإشارات وتلميحات، دون أن يبدو عليّ أنني أفهم أنا نفسي ما أقول، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه إلى هذه الأفكار التي أوحيتها إليه. ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره وافتتانه عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل.

هتف إيفان يقول وقد بلغ من الدهشة أوجها:

– هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله في لحظة الجريمة نفسها؟

ونظر إلى سمردياكوف مرتاعاً من جديد.

– طبعاً لا... ما كان يمكن أن يخطر هذا كله ببالي في لحظة كتلك اللحظة. وإنما رُتّب كل شيء من قبل.

صاح إيفان فيدوروفتش يقول متعجباً:

– إذن... إذاً لقد ساعدك الشيطان نفسه! لا، لا، لست غبياً. بل إنك لأذكى كثيراً مما كنت أظن...

ونهض إيفان ينوي أن يمشي بضع خطوات في الغرفة. كان يشعر بانهيار نفسي شديد. ولكن المائدة كان تسد الطريق، والمساحة الخالية بينها وبين الجدار ضيقة لا تسمح للمرء بأن يمشي فيها على

ما يحب. لذلك اضطر إيفان أن يقتصر على أن يدور في مكانه، ثم عاد فجلس. ولعل عدم تمكنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه، فإذا هو يعود إلى الكلام بلهجة مهتاجة كالتي تكلم بها حين وصوله، قال:

- اسمع أيها الشقي، أيها الإنسان الدنيء الحقير! ألم تفهم أنني إن امتنعت عن قتلك حتى الآن فما ذلك إلا لأستطيع أن أسلمك إلى المحكمة غداً؟ ألا فليشهد الله عليّ (قال ذلك وهو يرفع يده كمن يحلف يميناً)... ربما كنت أنا نفسي جانياً... لعلني كنت أشعر سراً برغبة في... أن يموت أبي... من يدري؟ ولكنني أحلف لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتصور، وأنني لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة على ما يخيّل إليك. لا، لا، لم أحرضك! على كل حال، ليس هذا بالأمر الهام! لسوف أتهم نفسي غداً، أياً كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي، فإنني أقبلها منذ الآن، لا أخشاك. بالعكس: سأؤيد كل ما تقوله. ولكن يجب عليك أن تعترف في الغد أنت أيضاً. هذا واجب يقع على عاتقك. يجب عليك أن تعترف، يجب عليك. سنذهب معاً. تقرّر هذا!

قال إيفان هذه الكلمات بلهجة قوية حازمة، وكان واضحاً في سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه.

قال سمردياكوف، ولكن دون سخرية في هذه المرة، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف:

- أرى أنك مريض، مريض جداً. إن عينيك صفراوان تماماً.

واستأنف إيفان كلامه فقال:

- سنذهب معاً. فإن رفضت، فلا ضير... سأذهب وحدي وأعترف!

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثم قال أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً:

- لن يكون شيء من هذا. لن نذهب إلى المحكمة، ولن تذهب أنت.

هتف إيفان يقول بلهجة عتب:

- أنت لا تفهمني.

- ستستحي من اتهام نفسك هذا الاتهام، ولن يكون لهذا أي فائدة على كل حال، لأنني سأصرّح عندئذ تصريحاً قاطعاً بأنني لم أجر معك أحاديث من هذا النوع في يوم من الأيام، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله اختراعاً بسبب ما أنت فيه من حالة مَرَضيّة (سيصدقون كلامي لما يبدو عليك من مرض)، أو أقول أيضاً إنك قلت ما قلت إشفاقاً على أخيك ورأفة به، مؤثراً اتهام نفسك في سبيل إنقاذه، وإنك ألقيت الذنب عليّ لأنك لم تحسبني في يوم من الأيام إنساناً كسائر البشر، وإنما عاملتني طوال حياتي كما يعامل مخلوق حقير لا قيمة له. فمن ذا الذي سيصدق كلامك بعد هذا؟ فكِّر قليلاً: أين الأدِلّة هل لديك حتى دليل واحد؟

قال إيفان:

- قل لي: أنت أريتني هذا المال الذي كنت تخبئه عندك، لتقنعني بصدق ما رويته لي؟ أليس كذلك؟

فنحّى سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذي كان يغطي حزمة الأوراق المالية، وقال متنهداً:

- خذ المال واحمله معك.

- سأحمله طبعاً! ولكن لماذا ترده إليّ الآن وأنت إنما قتلت لتحصل عليه؟

كذلك سأله إيفان وهو ينظر إليه بدهشة كبيرة.

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم:

- أصبحت لا أريد هذا المال! لقد قدّرت خلال مدة ما أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة في موسكو، أو قل أيضاً أن أسافر إلى الخارج. كان لي هذا الأمل، ولا سيما أنك كنت تقول «إن كل شيء مباح». أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير، وأن أقضي في الأمور على هذا النحو. كنت تقول لي دائماً: «إذا لم يوجد الإله اللانهائي، فالفضيلة إذاً باطل لا جدوى منه ولا داعي إليه». هكذا كنت تفكر أنت، ولقد تقبلت أنا آراءك هذه. استندت إلى أقوالك واعتمدت عليها.

سأله إيفان وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك في هذه الجريمة، أليس كذلك؟

- نعم، مستوحياً آراءك.

- والآن هل عدت إلى الايمان بالله، ما دمت ترد إليّ المال؟

دمدم سمردياكوف يقول:

- لا، أنا لا أؤمن بالله.

- فلماذا ترد إليّ المال إذن؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة مللٍ وسأم من جديد:

- كفى! فيم يهمك هذا؟ أما كنت تقول عندئذ إن كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كله، حتى لتنوي أن تشهد على نفسك؟ على أنك لن تفعل ذلك، لا، لن تشهد على نفسك.

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل. فأجابه إيفان بقوله:

- سترى!

- هذا مستبعد استبعاداً مطلقاً. أنت أذكى من أن تفعل ذلك. أنت تحب المال، أعرف هذا، وأنت تحرص كثيراً على أن يحترمك الناس، لأنك مزهوّ متكبّر. ثم إنك عدا ذلك تتأثر تأثراً شديداً بمفاتن الجنس اللطيف، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد. أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص على أي شيء آخر. ولن تريد أن تفسد حياتك هذا الإفساد بتلطيخ شرفك إلى الأبد أمام المحكمة. أنت تشبه فيدور بافلوفتش. أنت بين سائر أبنائه أكثرهم شبهاً به، لأنك قد ورثت عنه نفسه.

قال إيفان وقد ظهر عليه الإعجاب بملاحظات سمردياكوف، وتدفق الدم إلى وجهه:

- لستَ بالغبي. كنتُ أظنك في الماضي أبله.

ثم أضاف يقول وهو يتفرس في الخادم باستطلاع وفضول:

- أرى أنك تتكلم الآن في جَدّ.

- بسبب زهوك وكبريائك إنما كنت تعدُّني غبياً. خذ المال. هلاّ أخذته!

لمّ إيفان رزم الأوراق المالية الثلاث، ودسّها في جيبه، حتى دون أن يهتم بلفّها. وقال:

- غداً سأُظهِر عليها المحكمة.

- لن يصدّقك أحد، لأنك الآن غني، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت.

نهض إيفان وقال:

- لئن لم أقتلك اليوم، فما ذلك إلا لأنني سأحتاج اليك غداً. تذكر هذا!

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقي على إيفان نظرة غريبة:

- اقتلني إذا شئت، اقتلني في هذه اللحظة...

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم ابتسامة مرة:

- ولكنك لن تجرؤ. إنك لن تجرؤ على شيء بعد اليوم، يا من كنت في الماضي رجلاً جسوراً.

قال إيفان:

- إلى اللقاء.

وتقدم خطوة نحو الباب.

- لحظة!... أرنيه مرة أخيرة، هذا المال...

أخرج إيفان الأوراق المالية من جيبه، وأراه إياها. فتأملها سمردياكوف بضع ثوان، ثم قال وهو يحرك يده تلك الحركة التي تنم عن الملل والسأم:

- طيب. اذهب الآن!

فلما همّ إيفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين فجأة:

- إيفان فيدوروفتش!

فالتفت إيفان وسأله:

- ماذا تريد؟

فقال له الخادم:

- وداعاً!

فأجابه إيفان:

- بل إلى اللقاء، إلى الغد!

وخرج من البيت.

كانت زوبعة الثلج ما تزال تعصف مسعورة. أخذ إيفان يسير بخطى ثابتة، ولكنه أحسّ بعد لحظات أنه يترنّح. فقال لنفسه وهو يبتسم: «هذه لحظة تعب جسدي». واستولى عليه نوع من فرح. كان يحسّ في نفسه ثباتاً لا يتزعزع: هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التي كانت تعذبه منذ زمن طويل. قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسي كبير: «قررت. ولن يتغير قراري». وفي تلك اللحظة صدم شيئاً على الأرض، فكاد يتعثر ويقع. توقف عن السير، فإذا هو يرى الرجل الذي كان قد صرعه قبل وقت قصير، راقداً على الأرض، جامداً على ذلك الوضع نفسه، مغشياً عليه. كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً. رفعه إيفان وحمله على كتفيه. واذ رأى نافذةً مضاءةً في منزل على يمينه، اقترب من النافذة وقرعها، فأجابه صاحب البيت، فعرض عليه إيفان ثلاثة روبلات ليساعده في نقل الرجل إلى أقرب قسم من أقسام الشرطة. قَبِلَ صاحب البيت. سأصرف النظر عن التفاصيل، فلا أذكر إلا أن إيفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً، أن يضع الرجل في مقر الشرطة، واتخذ الإجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور لفحصه. وحسبي أن أشير إلى أن هذ القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت إيفان. ولكن إيفان كان يحسّ برضى عن نفسه. كان فكره يعمل بعنف، رغم أن خواطره مشتتة. قال يحدث نفسه مسروراً: «لولا أن كان قراري في ما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً، لما أنفقت ساعةً كاملةً في الاهتمام بهذا السكران، ولمررت به دون أن أكترث لمصيره، ودون أن أفعل شيئاً في سبيل أن لا يتجلّد من البرد...» ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح: «ولكن كيف أمكن أن أكون قادراً على

تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق. . . ألا ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدّعون أنني بسبيل أن أجن!». حتى إذا وصل إلى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة. فقال لنفسه: «أليس الأفضل أن أذهب إلى وكيل النيابة فوراً فأقصَّ عليه كل شيء؟». ولكنه أبعد هذه الفكرة، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلاً: «غداً، يتم هذا كله». شيء غريب: بينما كان إيفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة، إذا بالفرح الذي كان يملأ نفسه منذ قليل، يتبدد في غمضة عين. وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة بشيء بارد كالجليد يمس قلبه، كأنه تذكر شيئاً مقزِّزاً معذِّباً موجوداً في هذه الغرفة بعينها، في هذه اللحظة نفسها، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن. وترامى على أريكته متعباً مكدوداً. وجاءته الخادمة العجوز بالسماور. فصنع لنفسه شيئاً من الشاي، ولكنه لم يشربه، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده إلى الغد. كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار. كان يشعر بأنه مريض خائر القوى. حاول أن ينام. ولكنه نهض ثانيةً وهو في حالة قلق شديد، وأخذ يمشي في غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس. وخيّل إليه في بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذي، على أن المرض ليس هو الذي كان يهمه ويشغل باله في تلك الساعة. وعاد يجلس، ونظر إلى جميع الجهات كأنه يراقب المكان. وأجال بصره حوله عدة مرات. وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معيّن، وأخذتا تحدقان إلى نقطة بعينها في أقصى الغرفة. وابتسم إيفان. ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً. ولبث جامداً خلال مدة طويلة، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان إلى تلك النقطة نفسها في جهة الكنبة الموضوعة بمحاذاة الحائط أمامه. واضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه.

– 9 –

الشيطان. كابوس إيفان فيدوروفتش

أحسب أنه قد آن لي، رغم أنني لست طبيباً، أن أقدم للقارىء بعض الإيضاحات عن طبيعة مرض إيفان فيدوروفتش، أريد أن أستبق تتمة القصة، وأقول هنا إنه كان في ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حُمّى حارّة. لقد تغلّب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة. وعلى أنني أجهل الطب، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع، بفضل حفزه لإرادته حفزاً شديداً، أن ينحّي، إلى حين، ذلك المرض الذي كان يدمّره، آملا بالطبع أن يقضي عليه نهائيا فيما بعد. كان يعرف أنه مريض، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الآونة في هذه اللحظات الحاسمة القادمة في حياته التي يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه، ليتكلم بحرية، ليتكلم بوضوح، «ليبرر نفسه أمام نفسه». على أنه قد ذهب إلى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة، والذي استدعته كاترينا إيفانوفنا بدافع النزوة وحدها، كما سبق أن قلت من قبل. فبعد أن أصغى الطبيب إلى كلام إيفان، وبعد أن فحصه، انتهى إلى أنه مصاب حتى باضطراب دماغي، ولم يستغرب أيَّ استغراب الاعتراف الذي اعترفه إيفان على مضض. قال الطبيب: «من الممكن

جداً، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغي، من الممكن جداً أن توافيك هلوسات، رغم أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التثبت والتحقق. . . وكيفما كان الحال، فيجب عليك أن تشرع في معالجة نفسك بغير إبطاء، وإلا يُخشى حدوث أسوأ العواقب».
ولكن إيفان فيدوروفتش، حين خرج من عيادة الطبيب، قرر أن لا يلقي إلى هذه النصيحة الحكيمة بالاً، ولا يقيم لها وزناً، ثم أهمل التداوي. قال يحدث نفسه: «ما أزال قادراً على أن أمشي، وما أزال أملك من القوة ما يكفي. ويومَ أنهار وأسقط فليعالجني منهم من يريد؟ وليضعوا بي ما يشاؤون. بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده بإشارة الملل والسأم. جلس إيفان إذن، وكان يدرك هو نفسه في تلك اللحظة أنه في حالة هذيان. كان كما قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قويا إلى شيء موجود على الكنبة قرب الجدار المقابل من الغرفة. ذلك أنه على الكنبة المستندة إلى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يدري إلا الله كيف، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين ولج إيفان فيدوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف. إن هذا الشخص سيد، أو بالأحرى هو نوع من الجنتلمان الروسي، متقدم في السن قليلاً، «qui frisait la cinquantaine» (يناهز الخمسين من العمر) كما يقول الفرنسيون. شعره قاتم طويل كثيف، أشْيَب في بعض المواضع، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة. وهو يرتدي صدرة بنية اللون، رائعة التفصيل، ولكنها عتيقة قليلاً، قد بليت «موضتها». لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين، وما من أحد بين رجال المجتمع الثري يرتدي مثل هذه الثياب منذ سنين. إن القميص والكرافتة الطويلة التي تشبه أن تكون منديلاً، أنيقان أيضاً كل الأناقة، فهما مما يلبسه في العادة

سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية، ولكن القميص يبدو قذراً نوعاً ما إذا أنت أمعنت فيه النظر من قرب. والكرافتة العريضة تبدو مهترئة كذلك. والرجل يرتدي سروالاً ذا مربعات، يناسبه كثيراً، رغم أن لونه فاقع جداً، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته. ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة. خلاصة القول إن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك إلا موارد محدودة. فلا شك أنه ينتمي إلى فئة ملاكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرةً في عهد القنانة. وهو يجيد الآداب الاجتماعية، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقي، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات. غير أن هذا السيد، وقد صار شيئاً بعد شيء إلى فقر سبّبه تبذيره في إبان شبابه، وفاقمه إلغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة، قد تردّى الآن إلى حيث أصبح طفيلياً بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلّى به من طبع دمث وتربية حسنة؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاهاً، شريطة أن يعيّن له مكان متواضع بطبيعة الحال. وإن الطفيليين الذين هم من هذا النوع، الطفيليين الذين يرجعون إلى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون كيف يقصّون حكايات ويروون نوادر، ويجيدون المشاركة في لعبةٍ بالورق، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يُرجون أن يقوموا بمثل ذلك، إن هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين. وقد يكون لهم أولاد، لكن أولادهم يعيشون دائماً في مكانٍ بعيد، تربّيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه

القرابة. وبمضي الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريباً، ويتلقون منهم في أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون.

كان زائر إيفان فيدوروفتش لطيف الهيئة، ان لم نقل محبب الوجه، يشعر المرء أنه يهم في كل لحظة أن يهش ويبش. ولم يكن يحمل ساعة، ولكنه في مقابل ذلك يضع على عينيه نظارةً لها حمالة من صدف، مربوطةً بشريط أسود. وكانت إصبعه الوسطى في يده اليمنى تزدان بخاتم كبير من ذهب، له فص من حجر رخيص. تأمل إيفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة، ورفض أن يبدأ الحديث. كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذي يلتزمه طفيلي هبط من الغرفة المخصصة له في الطابق الثاني ليحتسي الشاي مع ربّ الدار وليسليه بصحبته، حتى إذا رأى ربّ الدار غارقاً في تأملاته معتكر المزاج، أمسك عن الكلام ما لم يبادره رب الدار بالخطاب. ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع في حديث لطيف كيّس حلو متى أتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم، وقال يخاطب إيفان فيدوروفتش:

- اسمع. أعذرني إذا أنا ذكّرتك بهذه النقطة: لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترينا إيفانوفنا له، ولكنك تركته دون أن تطلع على شيء. أغلب الظن أنك نسيت...

هتف إيفان يقول وقد أظلم وجهه:

- صحيح، صحيح، لقد نسيت...

ثم دمدم يقول وكأنه يحدث نفسه:

- لا بأس الآن، سيتم هذا كله غدا.

ثم استأنف يقول في حنق وهو يلتفت إلى زائره:

- أما أنت فاعلم أنني كنت سأستدرك بنفسي هذا النسيان الذي كانت روحي بسببه قلقة معذبة. لماذا تتدخّل أنت في الأمر؟ أتريدني أن أعتقد بأنك أنت الذي ذكّرتني مع أنني تذكرت من تلقاء نفسي؟

قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً:

- لا قيمة لهذا، لك أن تعتقد بما تشاء. ما جدوى الإيمان الذي يتم بقسر وإكراه؟ ثم إن البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الإيمان، ولا سيما البراهين المادية. إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث[30]، بل لأنه كان ظامئا إلى الإيمان قبل ذلك. انظر مثلا إلى أولئك الذين يدّعون الاتصال بالأرواح... أنا من جهتي أحبهم كثيراً... تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين إلى حين. هم يقولون: «ذلك برهان مادي في أقل تقدير، على وجود العالم الآخر». فانظر إلى هذا التفكير: يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية! ثم... هبهم برهنوا على وجود الشيطان، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً؟ في نيتي أن أنتسب إلى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشىء فيها حزباً معارضاً. سأقول لهم: «أنا واقعي، لا مادي». هأ هأ!..

قال إيفان فيدوروفتش وهو ينهض فجأة بقوة:

- اسمع. يخيَّل إليَّ أنني الآن أهذي... أنا أهذي يقيناً... فاكذب ما شاء لك هواك أن تكذب... سيان عندي!.. لن تفلح في إثارة غضبي وغيظي كما فعلت في المرة الماضية. ولكنني أشعر بخجل... لا أدري لماذا... أتمنى أن أمشي في الغرفة... هناك لحظات تغيب فيها عني، فلا أراك ولا أسمع صوتك، تماماً كما في المرة الماضية، ولكنني أحزر دائماً ما ستقوله لي، لأنني أنا، الذي

أنطق بهذه الأقوال، لا أنت! وإني لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت في المرة الماضية فرأيتك في الحلم، أم أنت ظهرت لي في الواقع أثناء اليقظة؟ سأغطس هذه الخرقة في الماء البارد فأضعها على رأسي. فلعلك تختفي عندئذ.

اتجه إيفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة، وتناول فوطة بلّلها بالماء ووضعها على جبينه. وأخذ يمشي بعد ذلك في الغرفة طولاً وعرضاً.

قال الزائر:

- إنه ليسرني حقاً أن نتخاطب الآن بصيغة المفرد من غير كلفة ولا حَرَج.

فأجابه إيفان ضاحكاً:

- ألا إنك لغبي! أتراك تتخيل أنني سأستعمل الآن صيغة الجمع في مخاطبتك؟ أنا في هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج، غير أنني أشعر بأوجاع في صدغيَّ... وأشعر بصداع في رأسي... فأرجوك... لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت في ذلك اليوم. إذا لم يكن في وسعك أن تغيب، فتكلم في أمور فرحة. قصَّ عليَّ نمائم وشائعات. ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً. يا له من كابوس فظيع أن لا أستطيع التخلص من هذا الشخص! ولكنني لا أخشاك. سأنتصر عليك آخر الأمر. لن أُقاد إلى مستشفى المجانين.

- هذا رائع أنا طفيلي؟ حقاً، ذلك هو دوري في هذا العالم. هل أنا في الواقع إلا طفيلي؟ بالمناسبة: لقد شعرت حين أصغيت إلى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب. لكأنك أخذت تعدني شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت في المرة الماضية بعناد شديد وإصرار قوي...

هتف إيفان يقول حانقاً:

- ما عددتك شيئاً واقعاً في لحظة من اللحظات. أنت أكذوبة. إنك مرضي. ما أنت إلا شبح. ولكنني لا أعرف كيف أقضي عليك، وألاحظ أن عليَّ أن أحتمل حضورك زمناً. أنت هلوسة في دماغي المتعب المكدود. أنت تجسّد ذاتي، ولكنك تجسّد جانباً واحداً منها... إنك تمثل من أفكاري وعواطفي أحطها وأغباها. وكان يمكن، من هذه الناحية ولهذا السبب، أن يعنيني أمرك قليلاً، وأن أهتم بك بعض الاهتمام، لو كان في وقتي متسع...

- لحظة... سوف أفضحك إذا سمحت: منذ قليل، قرب مصباح الشارع، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً: «هل علمت هذا منه هو؟ فمن أين علمت أنه يزورني؟». لقد كنت تقصدني أنا إذن. معنى هذا أنك خلال لحظة قصيرة آمنت بوجودي، بأنني موجود فعلاً.

قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة.

- نعم، كانت تلك لحظةً من ضعفٍ طبيعي جداً... ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم. إني لأتساءل أأنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية. فلعلني لم أرك عندئذ إلا في الحلم.

- هلاّ قلت لي لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا منذ قليل؟ إنه فتى لطيف غاية اللطف! وإني لأشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك.

هتف إيفان يقول ضاحكاً:

- لا تذكر اسم أليوشا! كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الوضيع!

- تشتمني وتضحك في آن واحد. تلك علامة حسنة. ثم إني

ألاحظ أنك اليوم أرقّ في معاملتي كثيراً مما كنت في المرة السابقة. إنني أفهم سبب هذا: هو ذلك القرار العظيم النبيل الذي اتخذته.

زأر إيفان في غضب جنوني:

- لا تذكر قراري! حذار أن تذكر ذلك.

- أفهم، أفهم كل الفهم c'est noble, c'est charmant[31] إنك تنوي أن تدافع عن أخيك، وأن تضحي بنفسك في سبيله... c'est chevaleresque[32].

- أسكت والا هويت عليك ركلاً!

- هذا يسعدني من ناحية من النواحي، وبه يتحقق هدفي. إذا كنت تريد أن تركلني فمعناه أنك أصبحتَ تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً. هل يركل أحد شبحاً؟ ولكن دعنا من هذه الأمازيح. اشتمني إذا كان يحلو لك ذلك... سيان عندي... ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى في معاملتي أنا. لقد وصفتني بأنني غبي وبأنني وضيع! فما هذه التعابير! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ.

عاد إيفان يقول ضاحكاً:

- حين أهينك فإنما أهين نفسي. ما أنت إلا أنا... أنت نفسي، ولكن في وجهٍ غير وجهي. أنت لا تفعل طوال الوقت أكثر من أن تعبر عن أفكاري وتفصح عن خواطري في نفس اللحظة التي توافيني فيها هذه الأفكار والخواطر... أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز!

ردّ عليه السيد بكياسة واعتداد:

- إذا كانت الأفكار التي أعبّر عنها هي أفكارك أنت أيضاً، فلا يسعني إلا أن أعتز بهذا التوافق بيننا.

- المؤسف أنك لا تختار من أفكاري إلا أردأها، بل وأغباها على وجه الخصوص. أنت غبي وسوقي. أنت غبي غباء رهيباً في الواقع. لا، لا، لا أطيقك! لا احتمل حضورك ما العمل؟ ما العمل؟

كذلك هتف إيفان حانقاً.

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلي، إلى مسكنة واستعدادٍ لما يجب من تنازلات:

- أما أنا يا صديقي فأحرص على أن أبقى رجلاً مهذباً وأنا أُعرف بذلك. صحيح أنني فقير، ولكن. . . دون أن أزعم أنني أشرف من غيري. . . أستطيع أن أقول إن من المسلّم به في المجتمع عامةً، كبديهية من البديهيات، أنني ملاك سقط. شهد الله أنني لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً. وهبني كنت في الماضي ملاكاً، فإن ذلك يرجع إلى عهد بعيد إلى حد أنني أُعْذَر إذا أنا نسيته. وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عني أنني رجل لائق محترم، ثم أن أعيش كما يمكنني أن أعيش محاولاً أن أسرَّ أقراني البشر. آه. . . إنني لأحب الناس حباً صادقاً، وطالما رُوِّجت في حقي النمائم من هذه الناحية. حين أجد نفسي بينكم وحين أقيم عرضاً عند واحدٍ من أمثالكم، فإن وجودي يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية، وذلك ما يحلو لي أكثر من أي شيء آخر في الأمر كله. ذلك أنني أنا أيضاً مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل، ولهذا أقدر واقعيتكم الأرضية السليمة حق قدرها. إن كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً، وإن كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة، فالهندسة هي الظافرة المنتصرة. أما عندنا!. . أما نحن. . . فإننا نظل نتيه إلى الأبد في معادلات غير محددة. أنا هنا أحلم

وأتنزه. ما أكثر ما أحبّ أن أحلم. ثم إنني متى وُجِدْتُ على الأرض أصبحت أؤمن وأصدّق الأوهام. لا تسخر مني، أرجوك: لشد ما يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام. إنني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا. لقد أصبحت أحبّ الاختلاء إلى الحمّامات العامة، وأصبح يحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والقسس. أن أخفي رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسيداً نهائياً لا عودة عنه) في زوجة تاجر سمينة بدينة تزن مائة كيلوغرام، وأن آخذ أؤمن بكل ما تؤمن به: وسيكون مَثَلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من القلب. سيكون ذلك خاتمة آلامي. وإني لأجد لذةً كبيرة في أن أُداوى كما تداوون. في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري، فذهبت التمس أن أُلقَّح كسائر الناس. لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم. حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة أخوتنا السلافيين المضطهَدين!.. ولكني ألاحظ أنك لا تصغي إلى كلامي.

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت:

– إنك تبدو لي مريضاً جداً، هل تعلم؟ وأنا أعرف أنك ذهبت إلى الطبيب أمس... فماذا قال لك الطبيب؟ كيف حال صحتك؟

فقطع إيفان أسئلته قائلاً:

– أبله!

– أما أنت فذكي جداً. عدتَ إلى الفظاظة ثانية؟ أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك وإنما لأقول أي شيء. لا تجبني إن شئت. لقد انتشر الروماتيزم من جديد...

كرر إيفان يقول:

- أبله!

- أنت تصر على رأيك، ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتيزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم.

- هل يمكن أن يعاني شيطان آلام روماتيزم؟

- لِمَ لا يمكن ذلك، ما دمت أتجسد أحياناً؟ إني أقبل جميع نتائج تجسداتي. «أنا شيطان و sum et nihil humanum a me alienum puto»[33] (لا شيء مما هو إنساني غريبٌ عني).

- كيف؟ ما هذا الذي تقول؟ أنا شيطان sum et nihil humanum... ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله الشيطان!

- يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك عني.

قال إيفان فجأة وقد توقف عن المشي، كأنما دُهش وذُهل:

- ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا! إن هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالي في يوم من الأيام! هذا عجيب مع ذلك...

- C'est du nouveau n'est ce pas؟[34] على أنني سأكون أميناً شريفاً في هذه المرة، فأشرح لك هذا اللغز... أسمع، كثيراً ما يحدث في الأحلام، ولا سيما في الكوابيس - كتلك الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً، أو عن أي سبب آخر - أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً، أن تخطر أمام البصر قطع حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركَّباً معقداً، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط بينها وتشد بعضها إلى بعض فكرة موجّهة، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الإنساني كما تقولون، وبين أحقر السفاسف التافهة، كزرٍّ كُمّ مثلاً. إن القصص التي يعيشها المرء على هذا النحو في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليف تولستوي نفسه لا

يستطيع أن يتخيلها. ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع، وإنما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادي جداً، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحفيين أو قسس... والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقي سؤالاً: لقد صرَّح لي وزير في ذات يوم أن أخصب الأفكار إنما توافيه عادة وهو نائم. ذلك بعينه هو ما يحدث لك في هذه الساعة. مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك، فهذا لا ينفي أنني أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة، لم تخطر ببالك حتى الآن. فأنا لا أردد إذاً أفكارك أنت، ومع ذلك لست إلا كابوسك لا أكثر.

- كذبت! إن هدفك هو أن تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكري. ثم ها أنت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست إلا حلماً.

- اعلم يا صديقي أنني قد اصطنعت اليوم أسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة. سأشرح لك هذا في المستقبل إذا واتت فرصة. لحظة... إلى أين وصلت من حديثي؟ ها... نعم... قلت لك إنني أصبت ببرد. ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض، وإنما حدث هناك أيضاً..

- هناك؟ أين؟ قل لي: هل تنوي أن تمكث عندي زمناً طويلاً أيضاً؟ هلاّ تركتني أخيراً؟

كذلك هتف يقول إيفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس.

وكفَّ عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة، ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً. ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة: لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء.

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة:

- أعصابك مهدودة. تثور عليَّ لأنني أصبت ببرد، مع أن هذا قد حدث لي على نحو طبيعي جداً. كنت قد استعجلت إلى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان سان بطرسبرج. تستقبل شخصيات كثيرة ذات نفوذ، ترى نفسها، إنها لا تقلّ شأناً وعلوّ منزلة عن وزير. كنت مرتدياً إذاً ثياباً رسمية مع كرافتة بيضاء وقفازين. ولكنني كنت في مكان بعيد جداً، فكان عليَّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاءات واسعة الكواكب... المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً... ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل إلى الأرض. كنتُ إذاً - لا تنس هذا - أرتدي ثياباً رسمية مع صدرية مفتوحة جداً. إن الأرواح لا تتجلد من البرد، هذا معروف. غير أن تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة. الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت في طريقي إلى الأرض مرتدياً تلك الثياب. وليتك تعلم ما أشد البرد في تلك الفضاءات، في الأثير، هذا السائل... إنه برد فظيع، برد لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا. الصقيع؟ هه... تصوّر أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر! إن بنات قراكم تخيلن مزحةً شائعة جداً. فحين يشير الترمومتر إلى الثلاثين تحت الصفر، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس، فاذا بلسانه يلتصق فوراً، واذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد. هذا إذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب. أما إذا بلغت مائة وخمسين، فأحسب أنه يكفي أن تقترب الإصبع من الفأس حتى تزول... شريطة أن يكون في الفضاء فأس طبعاً...

سأله إيفان ذاهلاً بلهجة متقززة:

- هل يمكن أن يكون في الفضاء فأس؟

كان إيفان يشد جميع قواه في سبيل أن لا يصدق أنه يهذي، وذلك حتى لا يتردّى إلى الجنون نهائياً.

سأله الزائر مدهوشاً:

- فأس؟

فهتف إيفان يقول فجأة بعناد غاضب:

- نعم، نعم، ما عسى يحدث للفأس هناك؟

- ما عسى يحدث للفأس في الفضاء؟ يا لها من فكرة عجيبة! لو رُميت الفأس إلى مسافة بعيدة جداً عن الأرض، فأظن أنها ستأخذ تدور حول كوكبكم هذا من دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر، كما يحدث لتابع من التوابع، كما يحدث لقمر من الأقمار؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً؛ وسيدوّن جاتسوك ذلك في التقاويم[35]، وهذا كل شيء.

قال إيفان مغتاظاً:

- أنت غبي، غبي غباءً فظيعاً. حاول أن تكذب كذباً ذكياً على الأقل، وإلا كففت عن الاستماع لك. إنك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك، وأن تجعلني بذلك أسلّم بوجودك. ألا فاعلم أنني لا أريد أن أسلّم بهذا، إنني أرفض أن أصدّقه! لن أصدّقه!

- أنا مع ذلك لا أكذب. إن كل ما أقوله حق. من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة في يوم من الأيام. أنت مثلاً تتوقع مني، فيما ألاحظ، أفكاراً خارقة، وربما رائعة. يؤسفني هذا كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أعطي إلا ما أملك...

- دعك من التفلسف أيها الحمار!

- أفتظن إذاً أنني أشتهي أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمي يكاد يكون مشلولاً؟ ألا إني لأتمنى، بدلاً من ذلك، أن أئن وأتوجع! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء: إنهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض، ويشرحونه بأدق التفاصيل... أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه. حتى لقد أتيحت لي فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب، فقال لي فرحاً: «هبك مت من هذا المرض... لسوف يتيح لك ذلك في أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذي أماتك». وانظر بعد ذلك إلى طريقتهم تلك في إرسالك إلى أخصائيين حين يقولون لك: «مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض. بقي عليك الآن أن تذهب إلى الأخصائي فلان أو فلان، فهو الذي سيشفيك». واحسرتاه! إن الطبيب الجيد القديم الذي عرفناه في الزمان الماضي وكان يداوي من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً، تماماً، أؤكد لك!.. لم يبق اليوم إلا الأخصائيون، والصحف ملأى بالإعلانات عنهم. إذا شعرت بآلام في الأنف، أرسلوك إلى باريس، فهناك كما يقولون أخصائي له شهرة في أوروبا كلها، في علاج الأنوف. وتذهب إلى باريس فيفحص الأخصائي أنفك، فيقول لك: «أنا لا أستطيع أن أشفي إلا منخرك الأيمن، لأنني لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر، فهو لا يدخل في دائرة اختصاصي. فعليك بعد اتباع معالجتي أن تذهب إلى فيينا حيث يوجد أخصائي حاذق جداً سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر». ما العمل في هذه الحالة؟ لجأت عندئذ إلى استعمال الأدوية التي تنصح بها النساء العجائز. وصف لي طبيب أن أدلك جسمي بعد الحمام بمزيج من عسل وملح. ذهبت إلى الحمّامات العامة لا لشيء إلا لأستمتع بوجودي مرةً في حجرة

البخار، وهنالك وسَّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يُجْدني نفعاً. فلما يئست كتبت إلى الكونت ماتيئي في ميلانو: فأرسل إليَّ نشرة وقطرة. غفر الله له! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذي ينتجه هوف هو الذي شفاني تقريباً. كنت قد اشتريته عرضاً، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأنني شفيت، حتى لقد اشتهيت أن أرقص. زالت أوجاعي كلها. فحلفت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الإنتاج. كان يدفعني إلى ذلك شعور صادق بالامتنان، ولكن لهذا قصة جميلة جداً! تخيل أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثري... قالوا لي: «إن تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية. ثم إن أحداً لن يصدقك. فالشيطان لا وجود له». ونُصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها. ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد. فقلت لهم: «إن الإيمان بالله هو الذي يمكن أن يعد شيئاً رجعياً في زماننا هذا. أما أنا الشيطان، فإنه مباح تماماً أن أُصدَّق». فأجابوني بقولهم: «إننا نفهمك حق الفهم. فمن ذا الذي لا يؤمن بالشيطان؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذي تلتزمه جريدتنا. اللّهم إلا إن أسبغت على رسالتك طابع الهزل!». قلت لنفسي: «لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة إذا هو جُعل هزلاً». وهكذا لم يكتب لشكري أن يظهر في الصحف. هل تصدق؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبي. إن أنبل عواطفي، كعاطفة الشكران مثلاً، قد حُكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي.

قاطعه إيفان مغتاظاً يقول:

- ها أنت ذا تسترسل في التفلسف من جديد!

- وقانا الله شر التفلسف. أنا لا أتفلسف البتة، وإنما ينبغي أن يجوز للمرء أن يشتكي من حين إلى حين. أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة. لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي. هذا موقف يقفه شاب. اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمَّ شيء. لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع. «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية»[36]. يبدو أنك تعدّني خلستاكوفاً منحطاً، دبّ فيه الهَرَم. مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك كثيراً. إنني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه، لأنه كُتب عليَّ قبل خلق هذا العالم، أن أظل «أنكر» بغير انقطاع، مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الإنكار المنظَّم. «لا مفر. يجب عليك أن تنكر. فبدون إنكار لا يكون نقد، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من «باب النقد». إن الكون لن يكون بغير النقد إلا «تسبيحاً» متصلاً مستمراً. ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على «تسبيح الله» فقط. لا بد لاندفاع البشر إلى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك، وهلم جراً. . .»[37]. على أنني لا أخوض في هذا، فلست أنا من خلقه، ولست مسؤولاً عنه. كل ما هنالك أنني جُعلت كبش فداء، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقدٍ أبدي. على هذا النحو إنما نشأت الحياة الأرضية. إننا نحن أيضاً ندرك هذه المهزلة. وإني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد إلى العدم. فأُجاب: «بل يجب عليك أن تحيا، فمن دونك لن يجري أمر. إذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً، لما حدث في الأرض شيء البتة. من دونك لن يكون ثمة أحداث، وهل عن الأحداث غنى؟». أنا إذاً أقوم بوظيفتي متحاملاً على نفسي، من أجل أن يكون ثمة أحداث، وأُشيع الضلال في هذا العالم بأمرٍ أعلى. والبشر

المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم. وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً، وحياتهم أليمة. إنهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له... هذا صحيح... ولكنهم في مقابل ذلك يحيون... يحيون حياة واقعية، لا وهمية. لأن العذاب هو الحياة. ما عسى تصير إليه الفرحة بالحياة في هذا العالم إذا لم يوجد الألم؟ لن يكون هنالك عندئذ إلا نشيد متصل ولطف لا ينتهي. وذلك شيء نبيل جداً، مقدس جداً، ولكنه باعث على أشدّ الملل وأعمق السأم. وأنا؟ أنا أيضاً أتألم، ومع ذلك لا أحيا. أنا حرف «س» في معادلة غير ذات حدود. أنا شبح، أنا طيف أضاع جميع البدايات والنهايات، أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى إلى نسيان اسمه الحقيقي. أتضحك؟ لا.. أنت لا تضحك... وإنما تغضب من جديد. إنك تغضب دائماً. إنك لا تريد أن تسمع إلا أشياء فيها ذكاء. ولكنني أعود فأقول لك: إنني مستعد لأن أتنازل، راضياً، عن حياتي السماوية فوق الكواكب، وعن جميع امتيازاتي العالية وألقابي الرفيعة، في سبيل أن أستطيع التجسد في نفس زوجة تاجر تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسذاجة وبراءة.

سأله إيفان وهو يبتسم ابتسامة كره:

- هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً؟

- بم أجيبك؟ إذا كنت تلقي عليَّ هذا السؤال جاداً...

صاح إيفان يسأله بعناد حانق:

- هل الله موجود أم هو غير موجود؟

- ها... أنت جاد إذن؟ يا عزيزي إنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. وتلك قولة كبيرة أفلتت مني...

- كيف لا تعرف مع أنك ترى الله بعينيك؟ لا، لا، ليس لك

وجود واقعي، أنت أنا... ما أنت إلا أنا ولا شيء أكثر.. أنت حقارة، أنت ثمرة خيالي أنا!..

- بل قل إن فلسفتي هي فلسفتك. ذلك أصوب. «Je pense donc je suis»[38] تلك هي القضية الوحيدة اليقينية. أما كل ما عداي، أما كل ما حولي، أما جميع تلك العوالم البعيدة، أما الله، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وقائع موجودة بذاتها، أم هي صادرة عن أفكاري، عن تطور تدريجي للأنا، لهذه الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد... جملة القول... ولكني أمسك عن الكلام، أمسك عن الكلام، لأنني أرى أنك تهمُّ أن ترتمي عليَّ لتشبعني ضرباً.

قال إيفان بلهجة فيها ألم:

- خير من هذا الكلام لله أن تروي نادرة فكهة أو نكتة مسلية!

- أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا. والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلي، بل هي إلى الأسطورة أقرب. إنك تأخذ عليَّ امتناعي على التصديق، ويدهشك أن تراني لا أؤمن بما أبصره. فتقول: «تراه بعينيك ولا تؤمن». فاعلم إذاً أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي، وأننا جميعاً، نحن معشر الذين نعيش في المناطق السماوية، تهزنا روح الاضطراب والقلق، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة. حينما كان الأمر مقتصراً على تعليل العالم بالجواهر والذات، والحواس الخمس، والعناصر الأربعة، فقد ظل مقبولاً بعض الشيء. ثم إن الأقدمين كانوا يعرفون الذرات. ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول إنكم قد اكتشفتم الجزيئات الكيماوية، والبروتوبلازما، وما لا أدري أيضاً، طوينا ذيولنا بين سيقاننا، وحدث

في صفوفنا اضطراب شديد، وانتشرت في بيئتنا الخرافات والأوهام، وازدهرت الأقاويل والنمائم. لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر. وأخيراً توالت الوشايات. يجب أن تعلم، في هذه المناسبة، أن عندنا نحن أيضاً «شعبة خاصة»، إن عندنا نحن أيضاً «مخابرات» تجمع بعض «المعلومات»... والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها إلى قروننا الوسطى - أقول قروننا الوسطى نحن، لا قرونكم الوسطى أنتم - وهي أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن، باستثناء زوجات التجار السمينات اللواتي يزنَّ مائة كيلو غراماً، لا زوجات التجار السمينات اللواتي عندكم أنتم، بل اللواتي عندنا نحن. إن كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا. ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة، رغم أن هذا محظور علينا. والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنة: يُقال إنه كان يعيش على أرضكم في ذات زمان فيلسوف «ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والإيمان»[39] ويرفض خاصةً أن يسلِّم بوجود الحياة الآخرة. وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياهب العدم، فإذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة. كانت دهشته من ذلك عظيمة، وأعظمَ منها كان استياؤه. صاح يقول: «لست أريد الحياة الآخرة هذه، لأنها تخالف عقيدتي». فحوكم وحكم عليه بسبب هذه المقولة الطائشة... معذرةً إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليّ... وما هذه إلا أسطورة على كل حال... ما هذه إلا أسطورة على كل حال... حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات، سيراً على الأقدام، مسافة كوادريليون كيلومتر (إن كل شيء يعدُّ الآن بالكيلومترات)، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة، ويُغفر له كل شيء...

قاطعه إيفان سائلاً بانتعاش قوي وحرارة شديدة:

- ما هي أنواع العذاب التي يمكن أن يتحملها الإنسان في الحياة الآخرة، عدا هذا الكوادريليون من الكيلومترات؟

- ما هي أنواع العذاب؟ آه... لا تسأل: في الماضي كان الأمر معقولاً كنا نعرف أنواعاً مختلفة من العذاب. أما الآن فقد انتشرت أكثر العذابات الروحية، «عذاب الضمير»، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت إليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورِقَّة». فمن ذا الذي جنى من هذا النظام فائدة، في رأيك؟ إن الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه. أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا «عذاب الضمير» وليس لهم ضمير؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم! ذلك ما يحدث حين يراد إدخال إصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى. أمر يستحق الرثاء! ألا إن نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا. ولنعد إلى فيلسوفكم الذي حُكم عليه بأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر: إنه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلاً: «أرفض أن أمشي، حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ!». خذ نفس ملحدٍ روسي مثقف، وامزجها بنفس النبي يونس الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه، تخرج من ذلك الحالةُ النفسية لصاحبنا المفكر هذا الذي رقد على الطريق بالعرض مصرّاً معانداً.

- على أي شيء رقد؟

- لا بد أنه كان هنالك شيء رقد عليه. أأصبحت لا تضحك الآن؟

هتف إيفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغي الآن بنهم غير متوقع):

- مرحى لذلك الفكر! مرحى! ألا يزال راقداً على الطريق بالعرض حتى الآن؟

- لا. لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة، ثم عاد ينهض وأخذ يمشي.

صاح إيفان بضحكة عصبية:

- يا له من حمار!

ثم بدا على إيفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً، ثم استأنف كلامه فقال:

- ولكن أليس يستوي، على كل حال، أن يبقى راقداً إلى الأبد وأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك إلى بليون سنة، أليس كذلك؟

- أكثر أكثر! لو كان معي قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة. على كل حال، لا قيمة لهذا، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل. وعند ذلك إنما تبدأ الحكاية.

- انتهى من قطع المسافة؟ كيف هذا؟ من أين جاء ببليون سنة؟

- أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم. والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالي. وهي في كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت في كل اتجاه ثم تحللت وارتدّت إلى عناصرها الأولى، فساد ملكوت المياه من جديد، ثم ظهر مذنّب جديد فشمس جديدة ولّدت بدورها أرضاً. وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل ذاتها. ذلك ضجر قاتل بغير حياء...

- طيب، فماذا حدث حين انتهى من قطع تلك المسافة؟

- لم يحدث أي شيء خارق. فُتحت له أبواب الجنة فدخلها، فما إن انقضت على دخوله ثانيتان - ثانيتان عدّهما والساعة في يده، نعم والساعة في يده، ألحّ على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون في رأيي قد فسدت في جيبه أثناء رحلته) - أقول ما إن انقضت على ذلك ثانيتان حتى هتف قائلاً إن هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكوادريليون كيلومتر فحسب، بل تعدل كوادريليون الكوادريليونات مرفوعة إلى أسّ الكوادريليون أيضاً. الخلاصة أنه قد أخذ يرتل تسبيحته، وبلغ من الغلوّ في التسبيح والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً، قد رفضوا في الآونة الأولى أن يصافحوه، لاعتقادهم بأنه قد بالغ في الانحدار إلى حضيض النزعة المحافظة. تلك هي طبيعة الروس. ولكنني أعود فأكرر لك إن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علاّتها. تلك هي المفاهيم السائدة عندنا اليوم في هذه الشؤون.

هتف إيفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل، كأنه قد تذكر في هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة:

- ضبطتك! إن هذه الحكاية التي ترويها عن الكوادريليون من السنين إنما اخترعتها أنا نفسي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنت في المدرسة الثانوية... تخيلت هذه الحكاية وقصصتها في تلك الآونة على رفيق من رفاقي اسمه كوروفكين. كان ذلك في موسكو.. إن هذه النكتة تبلغ من تميز أفكاري بها أنني ما كان لي أن استمدها من غير أفكاري هذه... ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان... وقد عاودت ذاكرتي الآن على غير شعور مني. فأنا الذي تذكرتها إذن، ولم تقصصها عليّ أنت! إنه ليحدث هكذا أن

تنبجس من النسيان طائفة من الأشياء بغتة عند الإنسان حين يقاد إلى التعذيب أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد في سريره. فما أنت إذاً إلا حلم، ما أنت إلا صورة لفكري وليس لك وجود واقعي.

قال السيد المهذب وهو يضحك مشرق المزاج:

- إنني ألاحظ من جموحك العاطفي في إنكار وجودي أنك تؤمن بي مع ذلك.

- أنا؟ أؤمن بك؟ أبداً... أنا لا أؤمن بك البتة، أنا لا أؤمن بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الإيمان!

- ولكن ربما آمنت بي جزءاً من ألف جزء! إن المقادير الصغيرة في الأدوية التي تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هي الأقوى أثراً. هلاّ اعترفت، هلاّ اعترفت بأنك تؤمن بي، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً!...

هتف إيفان يقول:

- ولا للحظة من اللحظات.

ثم أضاف بعد ذلك بصوت ترقق ترققاً غريباً:

- لكنني أود لو أؤمن بك!

- عظيم، هذا اعتراف له قيمة كبيرة! اعلم أنني طيب القلب وأنني أريد أن أهبّ إلى نجدتك. اسمع: أنا الذي ضبطتك، لا أنت الذي ضبطتني. لقد تعمدت أنا أن أروي لك حكايتك التي كنت قد نسيتها، وإنما فعلت ذلك بغية أن أقودك إلى أن تشك فيّ شكاً نهائياً.

- كاذب! أنت إنما ظهرت لي لتقنعني بوجودك.

- صحيح. ولكن اعلم أن الشكوك والقلق الذي تحدثه هذه

الشكوك، اعلم أن الصراع بين الإيمان وعدم التصديق يمكن أو يورثا الإنسان الذي يملك شعوراً مرهفاً عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها. ولما كنت أعلم أنك تؤمن بي قليلاً، فقد زرعت الشك في نفسك برواية تلك الحكاية لك. فبذلك أقودك من الإيمان إلى الشك ومن الشك إلى الإيمان مرة بعد مرة على التناوب. وحين أفعل ذلك فإنما أهدف إلى غاية، وإلى أن أطبّق هنا منهجاً جديداً: فمتى شككت في وجودي شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لي على أنني لست إلا حلماً وعلى أنني غير موجود في الواقع. ذلك أنني أعرفك. فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفي، وهو في الحقيقة هدف نبيل جداً. فأنا إنما أرمي في الواقع إلى أن تضع في نفسك بذرة إيمان متواضعة فإذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة في المستقبل، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش في حماها حياة ناسك وقديس. والحقيقة أن هذه هي رغبتك الخفية المستترة المكتومة منذ زمن طويل. ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً، فتتغذى بالجراد ساعياً إلى الخلاص في الصحراء.

– أفي سبيل خلاص روحي إنما حمّلت نفسك إذاً هذا العناء كله أيها الوغد؟

– لا بد لي، أنا أيضاً، من أن أقوم بعمل خير من حين إلى حين. ولكنني أرى أنك تغضب، تغضب غضباً يا له من غضب! . . .

– مهرّج! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم الطحالب؟

– ذلك هو عملي الرئيسي يا صديقي العزيز. ما أسهل أن ينسى

أحدنا الكون وعوالمه التي لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً. إن نفساً واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه. لدينا في هذا الشأن جدول أسعار. إن نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة. أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاء، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا، أنا أعرف ذلك... وهم قادرون على أن يسبروا، في لحظة واحدة بعينها، أعماقاً من الشك والإيمان، حتى ليحسب المرء في مثل تلك الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم في الفضاء، على حد تعبير الممثل جوربونوف»[40].

– طيب؟ وفي كل مرة تعود إلى نقطة البداية شاعراً بالخزي. من أنك طويل الأنف كما أتخيّل[41]، أليس كذلك؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ:

– يا صديقي لأن ينصرف المرء بأنف طويل خير في بعض الأحيان من أن ينصرف بغير أنف البتة، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعي. أنا حضرت المشهد، كان رائعاً للغاية (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه إلى عناية أخصائي). هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره: «رُدَّ إليّ أنفي»، فقال له الكاهن الطيب هامساً: «يا بني، إن أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً. فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وإن لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً. لئن شاء حظ قاس أن يحرمك من أنفك، إن في ذلك لميزة واحدة على الأقل، هي أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرّك من طرف أنفك»، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً: «ذلك عزاء هزيل! لسوف

يسرني ويسعدني ويفرحني أن أجرّ كل يوم من طرف أنفي، شريطة أن يكون أنفي في مكانه»، فأجابه الكاهن متنهداً: «يا بني، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات في آن واحد؛ وإن الأمنية التي أفصحت عنها الآن لهي في حد ذاتها معصية لله الذي ما نسيك في هذه الحالة، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرّ كل يوم من طرف أنفك، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة، فإنما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر: إنك إذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك، بالمعنى المجازي...».

صاح إيفان قائلاً:

- ما أغبى هذا الكلام!

- يا صديقي، إنما غايتي الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هي أن أسلّيك وأضحكك. ولكنني أحلف لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتي الذي يمارسه اليسوعيون. إن هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً، كلمة كلمة. وهو حالة وقعت في الآونة الأخيرة وأحدثت لي متاعب جمة وأورثتني هموماً كثيرة. إن ذلك الشاب المسكين الذي حدثتك عنه قد انتحر في تلك الليلة نفسها حين عودته إلى البيت بعد الاعتراف. وقد لبثت بقربه إلى آخر لحظة... أما كراسي الاعتراف لدى اليسوعيين فإنني أعترف إنها تسلية من تسلياتي المفضلة، حين يوافيني ضجر ويلم بي سأم وحزن. وسأقص عليك الآن حالة أخرى يرجع عهدها إلى بضعة أيام خلت. استقبل كاهن يسوعي عجوز على كرسي الاعتراف فتاة شقراء، نورماندية، صبية في العشرين من عمرها، جميلة يفتن جمالها العقل ويخلب اللبّ... أما جسمها فإن اللعاب يسيل حين تراه. جثت على ركبتيها، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان. هتف الكاهن الصارم

يقول: «هل يمكن حقاً، يا ابنتي، أن تكوني قد سقطت من جديد؟ أوه! يا مريم العذراء! ماذا أسمع؟ مع رجل آخر؟ إلى أين تمضين يا بنيتي؟ ألا تستحين؟»، فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في الدموع ندماً وحسرة: آه يا أبتاه! إن ذلك يُحدِثُ له هو لذّة عظيمة، ولا يُحْدِثُ لي أنا إلا ألماً قليلاً»! جواب عظيم، هه؟ ما رأيك؟ لقد دهشت أنا نفسي من هذا الجواب. كانت تلك صيحة الطبيعة... بدا لي ذلك أطهر من البراءة نفسها. غفرت لها خطيئتها فوراً، وبينما كنت أهم أن أنصرف، رأيتني اضطر إلى أن أعود أدراجي: فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء. وكان الكاهن مع ذلك شيخاً صارماً شديد العبوس. لقد سقط في لحظة. لقد ظهر أن الطبيعة هي الأقوى. ما لك تكشر؟ أغضبت من جديد؟ حقاً لقد أصبحت لا أدري ما الذي يجب عليّ أن اخترعه حتى أفرحك...

صاح إيفان يقول بصوت موجع فيه أنين، لأنه كان يحسّ أنه عاجز عن التخلص من هلوسته:

- دعني! إنك تحدث في دماغي جلبة كابوس. إن حضورك يضجرني ضجراً قاتلاً. لقد أصبحت لا أطيق احتمالك. إنني مستعد لأن أعطي كثيراً في سبيل أن أتخلص منك!

- أكرر إن عليك أن تخفف من غلوائك، وأن تعتدل في مطالبك. كفّ عن توقع أفكار «رفيعة عظيمة» مني، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك. الواقع أنك حانق عليّ لأنني لم أمثل أمامك في إطار أكثر مهابة، تحف بي هالة حمراء، وتحيطني بروق، وتصحبني رعود. كنت تود لو تراني بجناحين كبيرين محمرّين بنار جهنم، ولا تغفر لي أنني جئت إليك بثياب متواضعة هذا التواضع. إنك تشعر

بأنك أوذيت، أوذيت في مشاعرك الجمالية الفنية أولاً، وفي كبريائك وعزتك ثانياً: كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة - أليس كذلك؟ - كيف يستقبل مثل هذا الرجل شيطاناً مبتذلاً هذا الابتذال؟ صحيح! أنا لا أنكر ذلك! إن هذه السمة الرومانسية التي طالما ندّد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك. ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيب؟ منذ قليل، حين كنت أتهيأ للمجيء إليك، خطر ببالي أن أرتدي ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أنه خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس»[42]. وكانت هذه الفكرة محببة إلى النفس، ولكنني لم أجرؤ أن أنفذها، فلو قد فعلت لضربتني حتماً لأنني وضعت على صدري وسام «الأسد» و«الشمس» بدلاً من أن أضع «نجمة القطب» «ونجمة الأبرق». وأنت إلى هذا لا تكف عن تذكيري بأنني غبي. يشهد الله مع ذلك أنني لم يخطر ببالي أن أنافسك في الذكاء. حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل إلا الخير[43]. ذلك شأنه هو. أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت في الكون بأسره الوحيد الذي يحب الحقيقة مخلصاً ويصبو إلى الخير صادقاً. لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» إلى السماء، بعد موتها على الصليب، حاملة على صدرها روح لص اليمين المصلوب[44]. وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكروبيين مسبحين بحمد الله، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيين الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها. فيميناً بكل ما أقدّس في هذا العالم، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ إلى جوقة المنشدين مسبحاً بحمد الله أنا أيضاً. كان صدري يرتفع وكانت كلمات الحمد والثناء تندفع إلى شفتي. . . ذلك أنني - اعلم هذا - حساس جداً، وأنني قد

أوتيت عاطفة فنية مشبوبة. ولكن العقل - هذه الملكة اللعينة في طبيعتي - قد صدتني في تلك المرة أيضاً، واضطرتني إلى القصد والاعتدال، فأفلتت مني اللحظة الرائعة، أفلتت مني الفرصة الوحيدة. تساءلت عندئذ: «ما عسى يحدث بعد أن أغني نشيد تمجيد الرب؟ سوف ينطفىء حينذاك كل شيء في هذا العالم، فلا تحدث بعد ذلك أحداث». فبسبب وظائفي وحدها ومن أجل وضعي الاجتماعي وحده إنما خنقت إذاً في نفسي ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة. إن شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد، ولم تترك لي أنا إلا حطة الشر. ولكنني لا أحسد أولئك الذين يعيشون في السهولة واليسر، فما أنا بالطماع. ولكني أتساءل مع ذلك: لماذا كتب عليّ وحدي، من دون سائر مخلوقات الكون، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس، بل وأن احتمل ركلات أرجلهم في بعض الأحيان، لأن عليّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد. أنا أعلم أن في هذا سراً، ولكنهم يأبون أن يظهروني على هذا السر. ربما كانوا يعرفون أنني يوم أعرف السر، سأسبّح أنا أيضاً بحمد الله، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما في هذا العالم من عيوب ضرورية، وسرعان ما ينتصر الرشاد، فيكون ذلك نهاية كل شيء، حتى الجرائد والمجلات، إذ من ذا الذي يخطر بباله عندئذ أن يشترك في الجرائد والمجلات إذا هي أصبحت خاضعة لسلطان العقل والرّشاد. لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة، وأنني بعد أن أقطع ما يجب عليّ أن أقطعه من مسافة تبلغ كوادريليون كيلومتر، سأعرف السرّ الذي يخفونه عني. ولكن إلى أن يتحقق ذلك، سأظل في صف المعارضة، فأقوم بعملي على مضض، وأنهض باعباء مهمتي متألماً أشد الألم: أهلك ألوفاً لأنقذ

واحداً. كم نفس وجب إهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها، من أجل الوصول إلى رجل صالحٍ واحد مثل أيوب، باستخدامي أنا؟ لا... ما ظل السر مكتوماً عني خافياً عليّ، فسيبقى هنالك حقيقتان في نظري: حقيقة السماء التي أجهلها الآن جهلاً تاماً، وحقيقتي أنا. ولا يدري أحد حتى الآن أي الحقيقتين أشرف... ولكنك نمت على ما أرى؟

قال إيفان في أنين وغضب مكظوم:

- وكيف لا أنام؟ إن أغبى ما في طبيعتي من أمور، إن أسخف ما كان في ذهني من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات، تأتي أنت الآن فتقدمها لي كما لو كانت شيئاً جديداً.

- حظي سيئ! كنت آمل أن أفتنك بما في كلامي من جمال أدبي. أحسب مع ذلك أنني أجدت وصف التسبيح الذي غنته الأصوات في السماء. ما رأيك في هذه اللهجة الساخرة التي تقتفي آثار هايني؟ يخيل إليّ أنها تناسبني... ألا ترى ذلك؟

- لا، أنا لم أكن في يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز! كيف أمكن أن تلد نفسي خادماً مثلك؟

- يا صديقي، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة، فتى أحلف لك إنه رائع: هو فيلسوف، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن. وقد ألفّ قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن، عنوانها: «المفتش الأكبر». وفيه وحده إنما كنت أفكّر.

صاح إيفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً:

- أمنعك من الكلام عن «المفتش الأكبر»!.

- و«التحول الجيولوجي»؟ ألا تتذكره؟ تلك قصيدة!

- اسكت وإلا قتلتك!

- تقتلني أنا؟ دعني أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك. فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة إنما جئت. إنني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة. كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء إلى هذه المدينة: «سأجد هنالك أناساً جدداً. إنهم ينوون أن يحطموا كل شيء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية، أي من أكل لحوم البشر! يا لهم من حمقى! لماذا لم يستشيروني؟ لا حاجة إلى التحطيم في رأيي، وإنما يكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الإله. بهذا إنما ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا. ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً. فمتى نبذت الإنسانية الإيمان بالله دفعة واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آت لا ريب فيه، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن)، فإن المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضروري أن نرتد إلى عهد أكل لحوم البشر. وستزول الأخلاق القديمة خاصة، وسيبنى عالم جديد بعد أن يُمْحى الماضي. سوف يتحد البشر ليردوا إلى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة، ولكن في هذا العالم وحده. وسيشعر الإنسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله، لأنه يكون قد أصبح «إلهاً - إنساناً». إن ما سيحققه الإنسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها، بفضل إرادته المتحالفة مع العلم، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي. سيعرف كل إنسان أنه فانٍ، وأنه لن يبعث بعد الموت، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم،

كأنهم آلهة. سيعدل الإنسان يومئذ، من شدة أنفته وكبريائه، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الإنسان أخاه الإنسان حباً مبرأً من المنفعة. لن يرجو أن ينال على حبه مقابلاً في ما بعد. صحيح أن الحب لن يتفتح إلا لحظات قصار، لكن قصره نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف، بينما كان في الماضي يضيع في صبوات غامضة إلى حب أبدي ولو من خلف القبر».. وهلمّ جرا. شيء جميل.

كان إيفان قد سدّ أذنيه بيديه، وأطرق إلى الأرض وهو جالس على الديوان، وأخذ جسمه كله يرتجف.

تابع الصوت كلامه يقول:

- «إن المسألة المطروحة الآن - هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب - هي: هل سيأتي عصر من هذا النوع أم لا؟ فإذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم، فسوف تحل المشكلة، وسوف تنتظم الإنسانية على أسس جديدة. ولكن لما كان من المستحيل، بسبب حماقة البشر، بحكم حماقتهم، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى، فإنه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد، وقد وعى الحقيقة منذ الآن، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه دون أن يعبأ بالمفاهيم البالية أو أن يكترث لها! وبهذا المعنى إنما يمكن أن يقال «إن كل شيء مباح». وهب أن ذلك العصر الجديد لن يأتي في يوم من الأيام، فإنه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للإله، ولا خلود للنفس، فمن المباح إذاً للإنسان الجديد أن يصبح إلهاً إنساناً ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله. وواضح أنه سيستطيع، في دوره الجديد، أن يتحرر فرحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها «الإنسان العبد» في الماضي، وسيكون عليه أن يتحرر هذا

التحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً. فلا قوانين تفرض على إله! لأن الإلٰه على حق دائماً، فأي شيء يفعله هو الصواب، وأي مكان يكون فيه الإله فهو مكانه... وأي مكان أقف فيه أنا... سيكون المكان الأول... كل شيء مباح، وكفى! - هذا كله جميل جداً، ولكنني أتساءل لماذا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يغش وأن يخادع؟ فيم هذا السعي، وهذا التأييد للحقيقة؟ هذا هو إنساننا الروسي المعاصر: إنه في حاجة إلى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش... فإلى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة...

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته وفصاحته. فهو يرفع صوته أكثر فأكثر، وينظر إلى صاحب البيت فاحصاً في مكر ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه، فإن إيفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة، فرمى بها الخطيب البليغ بكلِ ما أوتي من قوة.

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه:

- آ... إن هذا لغباء أخيراً! لقد تذكر محبرة لوثر[45]. هو يدعي أنني لست إلا حلماً، فيقذف الأقداح إلى رأس الخيال الذي ظهر له في هلوسته! لكأنه امرأة حقاً... يا لهذا المنطق ما أغربه!... لقد كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت في الواقع تسمعني وتصغي إليّ...

وفي تلك اللحظة سمعت طرقات ملحة على زجاج النافذة، فنهض إيفان فيدوروفتش عن ديوانه واثباً.

- هل سمعت؟ خير لك أن تفتح، فهو أخوك أليوشا يطرق النافذة حاملاً إليك نبأ لست تتوقعه البتة، نبأ هاماً جداً، صدقني...

هتف إيفان وهو في حالة حمّى شديدة:

- اسكت أيها الدجال! لقد عرفت قبلك أنه أخي أليوشا. وكنت أحسّ أنه سيأتي، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجيء. إنه يحمل إليّ «أنباء»، هذا بديهي.

فافتح إذن، افتح له. إن في الخارج زوبعة ثلج... وهو أخوك إن الجو يبلغ من الرداءة حد أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يَدَعَ كلباً في الخارج.

واستمر الطرق على النافذة. أراد إيفان أن يهرع فيفتح الباب، لكنه أحسّ فجأة كأنه مشلول، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد، وأن يمزق هذه الحبال التي تشده، ولكنه لم يفلح. وأصبحت الطرقات على النافذة أقوى وأصرم. فشعر إيفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه، فنهض منتفضاً، ونظر حواليه حائراً زائغ البصر. كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا، وكانت الكأس التي رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال في مكانها على المائدة. وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته حذو الجدار. ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بإلحاح، فإن الطرقات بدت لإيفان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية.

هتف إيفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة:

- لم يكن ذلك حلماً! لا... لم يكن حلماً... أحلف أنه لم يكن حلماً... انا لم أحلم... ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً.

وفتح فرجة النافذة، وصرخ يقول لأخيه حانقاً:

- أليوشا! ألم أحظر عليك أن تجيء إليّ؟ قل بكلمتين لا ثالث

لهما: ماذا تريد مني؟ أجب. . . ولكن أوجز، هل تسمع؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً:

- شنق سمردياكوف نفسه من ساعة.

فقال له إيفان:

- تعال إلى المدخل.

ومضى يفتح الباب.

- 10 -

«هو الذي قال»

دخل أليوشا، وذكر لإيفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندراتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة، فأبلغته بانتحار سمردياكوف، قالت له: «دخلت إلى غرفته لآخذ السماور، فإذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط»، فلما سألها أليوشا هل أبلغت من يجب إبلاغه، أجابت بأنها لم تحدِّث أحداً في هذا الأمر بعد. قالت: «وإنما أسرعت إليك على الفور، لكي تكون أول من يطلع على الحادث، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق» هذا ما أضافته ماريا كوندراتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة في مهب الريح. وقد صحبها أليوشا بعد ذلك إلى بيتها، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذي وصفته؛ ووجد على المائدة ورقة مكتوباً عليها ما يلي: «أنهيت حياتي بإرادتي حراً، فلا تتهموا أحداً». ترك أليوشا الورقة على المائدة، ومضى فوراً إلى رئيس الشرطة، فأطلعه على الحادث. وختم أليوشا كلامه لأخيه إيفان قائلاً: «ومن هناك جئت إليك رأساً»، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه إلى ملامح وجهه التي أدهشه تعبيرها. ثم هتف يقول له فجأة:

- أخي! لا بد أنك مريض، مريض جداً، جداً! فأنت تنظر إليّ

دون أن يبدو عليك أنك تفهم ما أقوله لك.

فقال له إيفان واجماً مفكراً، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه:

- أحسنت صنعاً إذ جئت. على أنني كنت أعلم أنه شنق نفسه.

- ممن علمت ذلك؟

- لا أدري ممن، ولكنني كنت أعلم. أكنت أعلم أم لا؟ بل كنت أعلم. هو قال لي ذلك، قاله لي منذ لحظة قصيرة.

كان إيفان واقفاً في وسط الغرفة، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً، وهو يحدّق إلى الأرض.

سأله أليوشا وهو ينظر حواليه على غير إرادة منه:

- من هو؟

- اختفى.

قال إيفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة ثم أردف يقول:

- خاف منك، خاف منك، نعم خاف منك أنت يا حمامتي. أنت «كروبي طاهر». دمتري يرى أنك كروبي. كروبي.. رعود أغاني الحماسة التي يغنيها الساروفيون... ما الساروفي؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله في آخر الأمر إلا جزيئة كيميائية بسيطة... هناك برج «الأسد» وبرج «الشمس»، هل تعلم ذلك؟

قاطعه أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر:

- اجلس يا أخي، اجلس على الديوان، أرجوك... أنت تهذي. اضطجع هنا، ضع رأسك على المخدة، هكذا. هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة؟ قد يفيدك هذا.

- ناولني الفوطة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك. لقد ألقيتها عليه منذ قليل.

- ليس على الكرسي فوطة. لا تهتم. سأعرف أين أجد فوطة. هذه فوطة...

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، حيث أبصر، قرب الحوض، فوطة نظيفة لم تمسّ وما تزال مطوية.

نظر إيفان إلى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب. كأن الذاكرة أخذت تعود إليه فجأة.

قال وهو ينهض عن الديوان:

- لحظة. إنني منذ ساعة - أتذكر ذلك - قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد، ثم وضعتها على جبيني، ثم رميتها إلى هناك. فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية؟ لم يكن في غرفتي فوطة أخرى.

سأله أليوشا:

- أتقول إنك وضعت هذه الفوطة على جبينك؟

- نعم، ومشيت في الغرفة منذ ساعة والفوطة على جبيني... لماذا ذابت الشموع؟ كم الساعة الآن؟

- قاربت منتصف الليل.

فصاح إيفان يقول فجأة:

- لا، لا، لا، لم يكن ذلك حلماً! كان هو هناك، كان جالساً هناك، على تلك الكنبة، أمامي. فلما طرقت أنت زجاج النافذة، رميت رأسه بكأس... هو هذا الكأس نفسه... لحظة! في المرة الماضية أيضاً، كنت قد نمت، ولكن الحلم في هذه المرة ليس حلماً. الأمر في هذه المرة كما في المرة الماضية. هل تعلم يا أليوشا أنني أرى الآن أحلاماً؟... ولكنها ليست بالأحلام... أنا يقظ، أنا أمشي وأتكلم وأرى... ومع ذلك فأنا نائم... ولكنه كان

هناك، كان هناك، نعم، على تلك الكنبة. إنه غبي غباء فظيعاً، يا أليوشا، غباء فظيعاً.

كذلك أضاف إيفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة وراح يمشي في الغرفة.

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً:

- من هو الغبي؟ عمّن تتكلم؟

- عن الشيطان! لقد أخذ يتردّد إليّ. جاءني مرتين، مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات. قال لي ليزعجني ويغيظني إنني أغضب لأنه شيطان عادي لا إبليس محمّر الجناحين بنار جهنم، معتاد أن يظهر محاطاً ببروق ساطعة ورعود مدوّية. ولكنه ليس إبليس إذن. لقد كذب عليّ. إنه دجال. هو شيطان عادي تماماً، شيطان حقير، من طبقة دنيئة. إنه يرتاد الحمّامات العامة! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذي لا بد أن يكون طويلاً جداً، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر... ذنب بُنّي أملس... ذنب غير مهيب، كذنب كلب خسيس... أليوشا، أرى أنك متجلد من شدة البرد! لقد مشيت في الثلج مدة طويلة. هل تريد شيئاً من الشاي؟ ما رأيك؟ هل تريد أن آمر بإعداد شيء من الشاي لك؟ الجو بارد جداً، يبلغ من البرودة حدّ أن المرء لا يرضى أن يدع في الخارج كلباً...

أسرع أليوشا إلى الحوض، فبلل الفوطة بالماء البارد، ثم حمل إيفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه، ثم جلس إلى جانبه.

استأنف إيفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر:

- ماذا قلت لي أمس عن ليزا؟ إنها تعجبني، ليزا هذه! أحسب أنني قلت لك سوءاً في حقها. لم أكن صادقاً. إنها تعجبني... أنا

خائف من الغد، خائف على كاتيا قبل كل شيء، وفوق كل شيء. وخائف على المستقبل أيضاً. ستهجرني في الغد هجراً نهائياً، وتركلني بقدميها. هي تتخيل أنني أريد هلاك ميتيا بسبب غيرتي منه! نعم، ذلك ما تتصوره. ولكن لا، هذا خطأ. غداً يكون الصليب، ولكن لن يكون الشنق. لأنني لن أشنق نفسي. هل تعلم يا أليوشا أنني عاجز عن أن أشنق نفسي؟ لعلك تظن أن هذا جبن مني، أليس كذلك؟ ولكن لا، أنا لست جباناً. فلأنني أحبّ الحياة حباً قوياً إنما أعجز عن الانتحار! من أين علمت أن سمردياكوف شنق نفسه؟ آ... نعم... هو الذي قال لي ذلك...

سأله أليوشا:

- أأنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك؟

- طبعاً. كان جالساً هناك، على تلك الكنبة، في زاوية الغرفة. لا شك في أنك طردته. أنت الذي حملته على الهرب قطعاً. لقد غاب في اللحظة التي وصلت فيها أنت. إنني أحبّ وجهك يا أليوشا. هل كنت تعلم أنني أحبّ وجهك؟ أما هو فإنه... أنا يا أليوشا، أنا وحدي. هو كل ما فيّ أنا من دناءة وخسة وحقارة! صحيح أنني «رومانسي»، وقد لاحظ هو ذلك... ولكن هذه نميمة كاذبة. إنه غبي غباء فظيعاً، وبهذا إنما هو قوي. هو ماكر، ماكر كحيوان. كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبي وغيظي. زعم ليحنقني أنني أؤمن به، وبهذه الوسيلة حملني على أن أسمع له وأصغي إليه. لقد خدعني كأنني طفل. ولكنه ذكر لي أيضاً حقائق كثيرة عني، ذكر أشياء ما كان لي أن أعترف بها في يوم من الأيام.

ثم أضاف إيفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجأة كثير من الجد والنجوى:

- هل تعلم يا أليوشا أنني أتمنى كثيراً أن يكون هو في الواقع هو لا أنا؟

قال أليوشا وهو ينظر إلى أخيه في شفقة وعطف:

- لقد أتعبك.

- أرهقني بسخرياته. وما كان أبرعه وأحذقه! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً: الضمير؟ ما هو الضمير؟ هو ثمرة دماغي. لماذا يشعر الإنسان بعذاب الضمير؟ يشعر بعذاب الضمير من قبيل العادة، نتيجة لطريقة في التفكير تكونت في الإنسانية خلال سبعة آلاف سنة، فمتى تحررنا من هذه العادة، أصبحنا آلهة. هو الذي قال ذلك، هو الذي قال ذلك! لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدّق إليه تحديقاً قوياً:

- ألا يمكن أن تكون أنت الذي قلت ذلك؟ أنت بالأحرى؟ دعه الآن، لا تفكر فيه، انسه. فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه، ولا يعودنّ بعد الآن أبداً.

قال إيفان بلهجة المتألم المُهان.

- ليكن ذلك. ولكنه خبيث شرير. لقد ازدراني جهاراً. كان وقحاً، صدقني يا أليوشا. ولكنه افترى عليّ، افترى عليّ في أمور كثيرة. قال: «أنت تنوي أن تقوم بعمل نبيل فاضل! هأ! أنت تنوي أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك..».

قاطعه أليوشا قائلاً:

- قف يا أخي! لست أنت القاتل. هذا خطأ!

- هو الذي قال ذلك، ولا بد أنه على علم به. قال لي: «أنت تنوي أن تقوم بعمل فاضل، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة؛ ذلك ما

يهيجك ويعذبك، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك». هكذا تكلم، وهو يعرف ما يقول. . .

هتف أليوشا يقول بمرارة:

– هذه أقوالك أنت لا أقواله هو. إنك مريض، إنك تهذي وتعذِّب نفسك في هذيانك!

– لا. . . إنه يعرف ما يقول. قال لي مؤكداً: «أنت تصدر عن زهو وخيلاء، تريد أن تمثل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء: أنا القاتل، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروّعة؟ ألا إنكم لكاذبون. إنني أسخر من ذعركم هذا ومن رأيكم!». تلك هي الخواطر التي نسبها إليّ، ثم أضاف يقول: «هل تعرف ماذا تتمنى؟ أنت تتمنى أن يغمروك بالمديح قائلين: هو مجرم، نعم، هو قاتل، ولكنه تحرِّكه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه!». أما هذا يا أليوشا فهو كذب (كذلك هتف إيفان فجأة وقد سطعت عيناه). أنا لا أتمنى أبداً أن يعجب بي بلهاء! لقد كذب في هذا يا أليوشا، كذب في هذا، أحلف لك! وبسبب ذلك إنما قذفته بكأس، فتحطم الكأس على وجهه القذر!

توسل إليه أليوشا قائلاً:

– هدىء من روعك يا أخي، كُفَّ عن الكلام هكذا!

أردف إيفان يقول دون أن يصغي إلى أخيه:

– لا، إنه يجيد التعذيب، إنه قاس شديد العتو. كنت أوجس دائماً الغرض الذي يجيء من أجله. كان يقول: «ليكن! إن الزهو هو الذي يحركك ويدفعك. ولكنك تأمل رغم كل شيء أن يفتضح أمر سمردياكوف، فيرسل إلى السجن، ويبرّأ ميتيا، ولا يُحكم عليك أنت إلا حكماً «أخلاقياً» (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة)، هل

فهمت؟، بينما يُكْبِرُ آخرون عظمة نفسك ونبل روحك. ولكن ها هو ذا سمردياكوف قد مات! لقد شنق نفسه، فمن ذا الذي سيصدقك أمام المحكمة، من ذا الذي سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً؟ ومع ذلك ستذهب إلى المحكمة، وتقف أمام القضاة. لقد قررت ذلك، وستفعل. فلأي هدف تريد أن تذهب إلى المحكمة بعد الآن؟ شيء فظيع يا أليوشا! انني لا أطيق احتمال هذه الأسئلة. من ذا الذي يحق له أن يستجوبني بهذه الطريقة؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد إيفان إلى الواقع:

- أخي، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولي، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه؟.

قال إيفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك:

- لقد قال لي ذلك، بل ظل يكلمني في هذا طوال الوقت إذا شئت أن تعرف الحقيقة، ولم يكلمني إلا في هذا. كان يقول لي: «ويااليتك تؤمن بالفضيلة!... إن أحداً لن يصدقني، ولكن ذلك لا يهمني، فإنما أنا أصدر عن مبدأ. ألا إنك لتسخر من الفضيلة، لأنك خنزير، مثل فيدور بافلوفتش! فعلام ذهابك إلى المحكمة، ما دامت تضحيتك لن تجدي؟... الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدري لماذا تريد أن تذهب إلى المحكمة! آه... إنك لمستعد أن تهب كثيراً في سبيل أن تعرف ذلك. اتظن أن هذا ما قررته؟ إنك لم تقرر شيئاً بعد. ستقضي الليل كله مفكراً متسائلاً أتذهب أم لا تذهب. وإنك لتعلم حق العلم، مهما يكن قرارك، أن الحل النهائي أصبح لا يتوقف عليك. سوف تذهب لأنك لا تجرؤ على أن لا تذهب. أما

لماذا لا تجرؤ، فذلك سؤال أدع لك أنت أن تحزر جوابه. هذا لغز حاول أن تتسلى بحله!» قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف. وصلت أنت، فغاب هو. ولقد وصفني بأنني جبان يا أليوشا اللّغز هو أنني جبان. لقد أضاف قائلاً: «لست من تلك النسور التي تحلّق عالياً في السماء». نعم، أضاف هذه الجملة. وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه. يجب قتله. إن كاتيا تحتقرني. لاحظت أنا ذلك. لاحظت هذا خلال شهر كامل وسوف تحتقرني ليزا أيضاً. «ستذهب إلى المحكمة لتحظى بالإعجاب». هذا كذب دنيء. أنت أيضاً تحتقرني يا أليوشا. سوف أكرهك الآن من جديد. والمسخ أيضاً، إنني أكره المسخ كذلك. لا أريد أن أنقذ المسخ. ألا فليتعفن في السجن! لقد غنى نشيد فرح. أوه! سأذهب، سأذهب غداً. سأمثل أمامهم، وسأبصق في وجوههم جميعاً!

ونهض إيفان فجأة وقد استبدّت به حمّيا شديدة، فنزع الفوطة عن جبينه وطفق يمشي في الغرفة. تذكر أليوشا أقواله: «أنام وأنا أحسّ بأنني يقظان.. أمشي وأتكلم وأرى، وأنا مع ذلك أحلم». ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن. لم يشأ أليوشا أن يترك أخاه. وخطر بباله أن يمضي ليستقدم طبيباً، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن يترك إيفان وحيداً. كان من جهة أخرى لا يدري إلى من يعهد به. وأخيراً أخذ إيفان يفقد الذاكرة. كان ما يزال يتكلم بغير توقف، وكانت أقواله مفككة كل التفكك، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء في النطق بالكلمات. وترنح على حين فجأة، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب، ومضى به نحو السرير، فانقاد إيفان دون مقاومة؛ وبعد أن نضا أليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق، أرقده على السرير، ثم جلس قربه، ولبث ساهراً عليه ساعتين أخريين. نام

المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك، وكان تنفسه منتظماً. فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة ورقد على الديوان دون أن يخلع ثيابه. وقبل أن ينام دعا الله لميتيا وإيفان. لقد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض إيفان: «هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء، هذا قلق صادر عن ضمير قوي!». إن الله الذي كان إيفان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان إيفان، وإن الحقيقة الإلهية تشقّ طريقها على هونٍ إلى قلبه الذي ما يزال عصياً. حدّث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان: «نعم، لقد مات سمردياكوف، ولن يصدّق أحد الشهادة التي سيدلي بها إيفان. ولكنه سيذهب إلى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك». وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال في ذهنه هذا الخاطر، ودمدم يقول أيضاً: «سينتصر الله!». ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة: «إما أن يبعث إيفان بعثاً جديداً بنور الحقيقة، وإما... أن يهوي إلى الكره منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها». وعاد أليوشا يصلي من أجل إيفان.

الباب الثاني عشر

خطأ قضائي

- 1 -

اليوم المشؤوم

غداة الأحداث التي فرغت من وصفتها الآن، افتتحت في الساعة العاشرة من الصباح، جلسة محكمة مقاطعتنا، وبدأ النظر في قضية دمتري كارامازوف.

وإني لأحب أن أقول فوراً بإلحاح إنني أعد نفسي عاجزاً عن أن أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة، وأن أروي جميع الوقائع لا من حيث الكمال والتمام فحسب، بل من حيث التسلسل الزمني أيضاً. وأحسب أنني لو كان عليّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها شرحاً مناسباً، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله، كتاباً أكبر حجماً من هذا الكتاب. لذلك آمل أن يتفضل القارئ فيعذرني إذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التي أثارت اهتمامي شخصياً فبقيت في ذاكرتي لهذا السبب. ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب الأمور الأساسية، وربما أكون قد أسقطت كذلك إسقاطاً كاملاً بعض الملامح والوقائع الهامة والرئيسية... على أنني أعدل الآن عن الاعتذار. فلسوف أفعل ما أقدر عليه، وسوف يدرك القارئ أنني لم أفعل سوى ما استطعت أن أفعل. وإني لأحرص أولاً وقبل الدخول إلى قاعة المحكمة، أن أذكر ما أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر في ذلك النهار. على أن دهشتي هذه قد شاركني فيها

الجميع كما علمت ذلك فيما بعد. وإليكم الأمر: كان من المعلوم طبعاً أن قضية هذه الجريمة قد أثارت اهتمام عدد كبير جداً من البشر، وأن جميع الناس كانوا يتحرقون شوقاً إلى أن يبدأ النظر في هذه القضية، وأن الكثيرين في مجتمعنا كانوا طوال شهرين يكثرون من التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها. وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت في روسيا كلها. إلا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذي أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزّ هزاً عميقاً لا سكان مدينتنا فحسب، بل سكان مناطق أخرى أيضاً. وقد أدركنا هذه الحقيقة في ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة. لقد هرع الفضوليون لا من مركز إقليمنا وحده، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً، وهرعوا حتى من موسكو ومن سان بطرسبرج. كان بينهم أناس من رجال القانون، وشخصيات معروفة مشهورة، ونساء من المجتمع الراقي. وقد اختُطفت تذاكر حضور المحاكمة في طرفة عين. واعتقد القائمون على الأمر، في هذه المناسبة، أن من الواجب، على خلاف ما جرت به العادة، حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة، يُخصّ بها بعض الزائرين من المشاهير وأصحاب الرتب العليا. هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل قط. وكانت النساء كثيرات كثرة خاصة، سواء كنّ من سيدات مجتمعنا المحلي أم كنّ من سيدات الطبقة العليا في مدن أخرى. وأعتقد أن عددهن كان أكثر من نصف الحاضرين. أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا أين يضعونهم لأن جميع البطاقات كانت قد وُزّعت فأُعطيت بعد توسلات أو وُعد بها منذ مدة طويلة.

وقد رأيت بعيني كيف جرى على عجل بناء حاجزٍ مؤقت في آخر القاعة وراء المنصة، فبذلك حُدّد مكان خصّ به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة ولو وقوفاً، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد أكبر من الأشخاص. وهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفاً طوال «مدة المحاكمة» كتفاً إلى كتف. وقد جاءت بعض السيدات، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا، جئن إلى قاعة المحكمة في أبهى حلة وأجمل زينة، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن. وكان يُقرأ في وجوههن فضول قوي شره يشبه أن يكون مرضياً. ومن الخصائص المميزة لهذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة والتي تستحق أن تُذكر أن جميع السيدات تقريباً، أو الكثرة الغالبة منهن على الأقل، كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد، كنّ متحزبات لميتيا، وكن يتمنين أن تبرئه المحكمة. وربما كان السبب الأساسي في هذا ما اشتهر به من أنه شاب يأسر قلوب النساء، ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستتجابهان في سبيله أثناء المحاكمة. فأما أولاهما وهي كاترينا إيفانوفنا، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها بصفة خاصة. كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن تولهها بميتيا تولهاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة. وكانت تُروى عن هذا الموضوع حكايات مذهلة. وكانت كبرياء كاترينا إيفانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (إن كاترينا إيفانوفنا لم تكد تزور أحداً)، وكان الناس يتحدثون عن «صلاتها الأرستقراطية»، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة إذناً بأن تصحب الجاني إلى الأشغال الشاقة، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض. وأما المرأة الثانية،

وهي جروشنكا، منافسة كاترينا إيفانوفنا، فقد كان الناس يتلهفون إلى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن ذلك الاهتمام. وكانت المجابهة التي ستتم بين المرأتين - الفتاة الأرستقراطية المتكبرة و«الهيتائير» - تثير في الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعاً. ثم إن سيدات مدينتنا كنّ يعرفن جروشنكا أكثر مما يعرفن كاترينا إيفانوفنا. لقد رأين مراراً «تلك التي كانت سبب هلاك فيدو بافلوفتش وابنه المسكين، وكان تدهشهن أشدّ الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه البورجوازية الروسية الصغيرة التي هي امرأة عادية جداً، حتى إنها ليست جميلة». خلاصة القول إن التعليقات كانت على قدم وساق. وإني لأعرف من مصادر مطلعة موثوقاً بها أن انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت في مدينتنا بسبب ميتيا. إن عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد تشاجرن في ذلك الوقت مع أزواجهن شجاراً عنيفاً، لاختلاف رأيهن في هذه القضية عن رأي أزواجهن. فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجيء أزواج هاته السيدات إلى المحكمة متحيزين ضدّ المتهم، بل وحاقدين عليه، حتى ليمكننا أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة، على نقيض العنصر النسائي في ذلك الجمهور، كانوا قد تحيزوا ضدّ المتهم، فبعضهم عابس الوجه قاسي النظرة، وبعضهم الآخر، هو الأكثرية الغالبة، كان يظهر الكره والعدوانية بمزيد من الوضوح والصراحة. والحق أن ميتيا، أثناء إقامته في مدينتنا، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال. وكان هنالك، في مقابل ذلك، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح، فهم لا يكترثون بمصير ميتيا، وإنما تهمهم النتيجة التي ستنتهي إليها المحاكمة، ولا يفكرون إلا في الحكم الذي سيصدر، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجاني تمنياً قوياً

صارماً، باستثناء رجال القانون، فقد كان هؤلاء لا يعنيهم الجانب الأخلاقي من القضية، وإنما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها. وقد أثار الجميع وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش. فقد كانت موهبته الخطابية معروفة ومشهورة في كل مكان، وقد سبق أن ترافع في الأقاليم مراراً في قضايا كان لها دويّ عظيم. وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت في روسيا كلها، وكان الناس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً. وكانت تُروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة. كان يقال مثلاً إن وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه، وأن بينهما عداوةً يرجع تاريخها إلى أول عهدهما بالوظيفة، إلى الفترة التي كان فيها ايبوليت كيريلوفتش المندفع، وهو بمدينة سان بطرسبرج، يشعر دائماً بجراح في كبريائه لأن كفاءاته لم تقدَّر حق قدرها. ولقد ردّت إليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً، في ما يقال، حتى لقد كان يحلم في أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته التي انطفأ بريقها ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه هماً وغماً. على أن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير هذه الخشية كلها. إن وكيل النيابة في مدينتنا لا ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل لقد كان، على نقيض ذلك تماماً، من أولئك الرجال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيداً من الالتهاب على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم. يحسن أن نضيف إلى ذلك أن ايبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة كما كان شديد التأثر إلى درجة المرض. كان يضع نفسه كلها في بعض القضايا، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيره الشخصي

وتتوقف ثروته على النتيجة التي ستنتهي إليها الدعوى. وكان الناس في الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه، التي جلبت له شهرة إن لم تكن واسعة كثيراً فهي أكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله في محكمتنا. وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا. وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين في هذه النقطة. فلقد كان وكيل النيابة في مدينتنا يملك طبيعة وشخصية أقرب إلى الجد كثيراً مما كان يتخيل الناس عندنا عامة. ولكن هذا الرجل الذي يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح في اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق في أول عهده بالمهنة، فامتد هذا الخطأ، الذي ارتكبه منذ البدء، على حياته كلها.

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه إنه مثقف وإنساني، وإنه كان يعرف مهنته ويجيدها، ويشارك في آراء العصر المتقدمة المتطورة. إنه قوي الشعور بنفسه، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته، فإن أكبر طموح يهزّه هو أن يُعرف عنه أنه رجل تقدمي. وكانت له صلات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة. وقد اهتم اهتماماً قوياً بقضية كارامازوف، كما أدركنا ذلك فيما بعد، ولكنه لم ينظر إلى هذه القضية إلا من زاوية عامة تماماً، فهو يرى فيها، على وجه الخصوص، ثمرةً من ثمرات ظروفنا الاجتماعية، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية، وظاهرة عليه أن يحكم عليها وأن يصنّفها تصنيفاً مناسباً. أما الجانب الشخصي من القضية، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدراما، وأما المصير الفردي للأشخاص الرئيسيين فيها، وعلى رأسهم المتهم، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيراً، ولا ينظر إليها إلا من أفق مجرد.

وربما كان ذلك مطلوباً ومستحسناً في مركزه ووضعه.

غصّت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل. إنها أحسن قاعة في مدينتنا: فسيحة وواسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً. على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة، قد وضعت منضدة ووضع صَفّان من المقاعد للمحلّفين. وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه. وعلى منضدة أخرى وسط القاعة، غير بعيد عن المنصة، جُمعت أدلة الاتهام، فمن بينها الثوب الأبيض الذي كان يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله في منزله وكان ملطخاً بالدم، ومدقّ هاون النّحاس المشؤوم، وهو السلاح الذي يُعتقد أنه استعمل في ارتكاب الجريمة، وقميص ميتيا الذي كان على أحد كمّيه بقع دماء، وصدرته الملطخة بدم كثير من خلف، في موضع الجيب الذي دسّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً، ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر، ومن بينها أيضاً المسدس الذي كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار، وقد جرّده منه تريفون بوريستش خلسةً في قرية موكرويه، والظرف الذي كان قد ضمّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنكا، وعليه كتابة بخط المجني عليه، والشريط الوردي الدقيق الذي رُبط به ذلك الظرف، وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن. وعلى مسافة من هناك، في قرارة القاعة، يبدأ المكان المخصص للجمهور. غير أن عدداً من المقاعد قد صُفّ أمام المنّصة، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا في القاعة بعد إدلائهم بشهاداتهم. دخل أعضاء المحكمة في الساعة العاشرة. إنهم رئيس، وعضو المحكمة، وقاضي صلح شرفي. وطبيعي أن وكيل النيابة ظهر في الوقت نفسه تقريباً. الرئيس رجل قوي البنية متورد

اللون، قامته أقصر من متوسط قامة الرجال، في الخمسين من عمره، له وجه محتقن، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً في بعض المواضع وقُصّ قصيراً. وهو يتوشح بشريط طويل لوسام نسيت اسمه الآن. أما وكيل النيابة فقد بدا لي - كما بدا للجميع - شاحباً في ذلك اليوم شحوباً خاصاً، كان لون وجهه يبدو ضارباً إلى زرقة بل وإلى خضرة، وكأنه قد نحل فجأة في ليلة واحدة، لأنني كنت قد رأيته أمس الأول معافى تماماً.

بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلّفين. . . ولكنني ألاحظ أنه يستحيل عليّ أن أستمر في سرد الوقائع سرداً مفصلاً هذا التفصيل كله، لأن هناك أموراً لم أحسن سماعها، وأموراً أخرى لم أنتبه إليها انتباهاً كافياً، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتي اختفاءً تاماً منذ ذلك الحين. ثم إنني - و تلك هي الصعوبة الكبرى - لا يتوفر لي الزمان والمكان الكافيان لأن أقصّ هنا كل ما جرى في أثناء ذلك اليوم، وهذا ما سبق أن قلته. ولكنني أعلم أن عدد المحلّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين، أعني وكيل النيابة والمحامي، كان ضئيلاً جداً. وقد احتفظت ذاكرتي من جهة أخرى بتشكيل هيئة المحلّفين الاثني عشر: كانت تضم أربعة موظفين من مدينتنا، وتاجرين وستة فلاحين وبورجوازيين صغار من البلدة. وإني لأتذكر أن الناس في مجتمعنا الصغير، ولا سيما السيدات، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بمدة طويلة، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال: «كيف يمكن أن يُعهد بالفصل في مثل هذه القضية ذات الطابع المعقد والسيكولوجي والدقيق إلى بضعة موظفين مغمورين وإلى بضعة فلاحين؟ ما الذي يستطيع أن يفهمه من هذه القضية

موظف، ناهيك عن فلاح؟». والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين في هيئة المحلّفين كانوا أناساً صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية، وكانوا جميعاً متقدمين في السن، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم. وكانوا مجهولين في مجتمع مدينتنا، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة، حياة مغمورة، وأنهم قد كان لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع. ولا بد أنهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين إلى حين. وطبيعي أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً في يوم من الأيام. صحيح أن اثنين من المحلّفين، وهما تاجران، قد كان في هيئتهما شيء من مهابة، ولكنهما ظلا صامتين صمتاً غريباً، ولبثا جامدين لا يحركان ساكناً. فأما أحدهما فكان حليقاً وكان يرتدي ثياباً على الطراز الألماني، وأما الثاني، وهو ذو لحية شائبة، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علّق به وسام. وأما الفلاحون والبرجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلّفين، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم. إن البرجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم. كان اثنان من هؤلاء البرجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتو بريجونيفسك يلبسون ثياباً على الزي الألماني، وكان هذا يضفي على هيئتهم، فيما يبدو، مزيداً من الوساخة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيراً من زملائهم الأربعة. فمن الطبيعي إذاً أن يكون أشخاص كثيرون، أنا واحد منهم، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلّفين: «ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين؟». ومع ذلك بدا لنا في تعابير وجوههم

جميعاً شيء من سلطة، وشيء يشبه أن يكون تهديداً. لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين.

وأخيراً طلب الرئيس النظر في قضية قتل الموظف المتقاعد فيدور بافلوفتش كارامازوف - وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التي استعملها عندئذ. وأمر الحاجب بإدخال المتهم فظهر ميتيا في القاعة، فإذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها. لا أدري ما الذي دار في خواطر الحضور، ولكنني أستطيع أن أقول إن المتهم قد أحدث في نفسي شعوراً سيئاً كل السوء. والأمر الذي ساءني منه خاصة هو إفراطه في أناقة هندامه. لقد ظهر أمام المحكمة يومئذ ببدلة جديدة مفرطة في التأنق. وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى على هذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد، لدى خياطه بموسكو الذي كان يحتفظ بمقاسه. وكان المتهم يلبس فقازين أسودين جديدين كل الجدة، مصنوعين من جلد ناعم، وقميصاً أنيقاً. وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة، ناظراً إلى أمام بجمود غريب، جلس في مكانه بكثير من الثقة. وفي الوقت نفسه، ظهر محاميه، فيتوكوفتش الشهير، فإذا بهمهمة مستخفية تطوف في أرجاء القاعة من أولها إلى آخرها. إن هذا المحامي اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر، له ساقان طويلتان نحيلتان، وأصابع طويلة للغاية وشاحبة ونحيلة، وشعر قصير قد صفّف بتواضع. وشفتاه الرقيقتان تلتويان في بعض اللحظات، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن سخرية أم هما تبتسمان. وكان يبدو في نحو الأربعين من عمره. ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير، ولكنهما متقاربتان إحداهما من الأخرى تقارباً شديداً، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما إلا العظمة الحادة من أنفه

الدقيق الطويل، لولا عيناه هاتان، لكان يمكن أن يعدّ وجهه لطيفاً محبباً. الخلاصة إن سحنته كان فيها شيء من سحنة عصفور، وهي بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر. وكان يرتدي الردنجوت مع كرافتة بيضاء إنني أتذكر تذكراً واضحاً الأسئلة الأولى التي ألقاها الرئيس على ميتيا، وهي تتناول اسمه، ورتبته، وما إلى ذلك. وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بحدة، ولكن بصوت قوي غير متوقع حتى إن الرئيس هزّ رأسه ونظر إليه في دهشة. وبعد ذلك قُرِئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين إلى الإدلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء. وكانت القائمة طويلة جداً. واتضح أن أربعة من الشهود غائبون، وهم: ميوسوف الذي كان قد سافر إلى باريس، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدي، والسيدة خوخلاكوفا، والمالك ماكسيموف، وكلاهما معذور بسبب المرض، وأخيراً سمردياكوف الذي مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُرّرت وفاته بشهادة من الشرطة قُدّمت إلى المحكمة. وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات في القاعة. ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد. ولكن الشيء الذي أذهل الناس خاصةً هو أن ميتيا قد انفجر صائحاً على حين فجأة: أنه ما إن علم بالنهاية التي انتهى إليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوّى في القاعة كلها:

- كان كلباً فمات ميتة كلب!

أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ، وأن رئيس المحكمة قد وجّه إليه إنذاراً وهدّده باتخاذ إجراءات صارمة في حقه إذا هو كرر فعلته هذه. وقد كرر ميتيا لمحاميه، عدة مرات، بصوت هامس، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً، ولكن دون أن يبدو عليه أنه نادم على ما فعل:

- لن أعيدها، أعدك بذلك! لقد افلتت مني!... لن أعيدها!

بديهي أن هذا الحادث الطارئ لم يخدم ميتيا في ذهن المحلفين وفي ذهن الجمهور. فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف في هذه الفعلة عن طبعه وقدّم نفسه بنفسه. وفي هذا الجو السيئ إنما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام. كان القرار مقتضباً رغم اشتماله على وقائع القضية واقتصر على عرض الأسباب الداعية إلى الاتهام، الباعثة على الإدانة، الخ. وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً في نفسي أيضاً. كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلي بيّن رنان. فانبعثت صورة الدراما في أذهان الحضور مرةً أخرى على نحو يأسر اللب، كأنما انصبت عليها أضواء ساطعة من عدة جهات. وإني لأذكر أنه ما إن فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوي نافذ:

- المتهم... هل تعترف بارتكابك هذه الجريمة؟

فنهض ميتيا من مكانه فجأة، وصاح يقول بحرارة لم تكن متوقعة أيضاً وبنبرة لوعة:

- أعترف بارتكابي جرائم السكر والفجور، في الكسل والعربدة. ولقد كنت أنوي أن أُصلح أمري وأصبح إلى الأبد إنساناً شريفاً، في اللحظة التي حطمني فيها القدر! ولكنني بريء من مقتل العجوز، عدوي وأبي! أنا لم أسرقه، لا، لا!... لم أفعل ذلك، ولا كان لي أن أفعل ذلك: إن دمتري كارامازوف وغد شقيّ ولكنه ليس لصاً!

أطلق دمتري هذه الصيحات ثم عاد يجلس وهو يرتعش بكل جسمه. فاتجه إليه الرئيس من جديد يطلب منه بإيجاز ولكن بإلحاح صارم أن يقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي تُلقى عليه، دون أن يندفع في خطب وصيحات طويلة لا فائدة منها. وبعد ذلك أمر

الرئيس بسماع أقوال الشهود. فأُدخل الشهود ليحلفوا اليمين، فرأيتهم عندئذ جميعاً. على أن أخوي المتهم قد أعفوا من هذا الإجراء وسُمِحَ لهما أن يدليا بشهادتيهما دون قسم. وبعد النصائح والمواعظ التي قالها الرئيس وقالها كاهن، أخرج الشهود، وعُزل بعضهم عن بعض. ثم بدأ المناداة عليهم واحداً بعد واحد.

– 2 –

شهود خطرون

لا أدري هل وزّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفاع إلى فئتين متميزتين، ولا أدري ما هو الترتيب الذي اتبعه في استدعائهم. أغلب الظن أنه اتخذ الإجراءات الضرورية. ولكنني أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا إلى الإدلاء بأقوالهم أول من دُعِي. أعود فأكرر أنني لا أنوي أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة. ثم إن عرضاً يبلغ ذلك المبلغ من التَمام والكمال سيكون زيادة لا داعي إليها، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود في ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامي تلخيصه وإيضاحه في آن واحد، وذلك في مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع في آخر المناقشات. وقد سجلتُ هذين الخطابين الرائعين، وأخذت منهما أجزاء برمتها سأعرضها حين يجيء الأوان. وسأذكر كذلك حادثاً وقع أثناء المحاكمة على غير توقع، وقع في البداية وكان له تأثير كبير على نهايتها الرهيبة المشؤومة. أما الآن فسأقتصر على الإشارة إلى وجه خاص من وجوه هذه «القضية» تكشّف دفعة واحدة وخطف أبصار الجميع، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخرى. لقد بدا منذ الوهلة الأولى أنه ليس هناك تكافؤ بين الاتهام والدفاع، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيداً

من التجمع والتركز شيئاً بعد شيء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً مزيداً من البروز. ثم إن جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة، وأنه لا مجال لأي شك، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعي إليها، وأنها لن تجري إلا من باب التقيد بالشكليات، إذ كان واضحاً أن المتهم هو الجاني، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا شك فيه ولا سبيل إلى إنكاره، وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئه هذا المتهم المشوِّق، أحسب أن هاته السيدات كنّ مقتنعات جميعاً، دون استثناء، اقتناعاً مطلقاً بأن المتهم هو القاتل. وأكثر من ذلك أنهن كنّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل إثارة للمشاعر، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثراً وأقل بهاءً. ومن الأمور العجيبة أن هاته السيدات جميعاً قد ظللن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سيُبرّأ: «صحيح أنه هو الجاني، ولكنه سيُبرّأ باسم الإنسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن»، الخ، الخ. وعلى هذا الأمل إنما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت إلى حضور المحاكمة، وكنّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات. أما الرجال فكان يهمّهم، خاصةً، الصراع بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير. كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذي سيعمد إليه المحامي الموهوب ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدماً، وما الذي سيتوصل إلى الظفر به من هذه البيضة الفاسدة. لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته وإشاراته بانتباه شديد. ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته، إلى أن حان أوان المرافعة. وكان أهل الخبرة والتجربة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه

ورتب في ذهنه شيئاً ما، وأنه يسعى إلى هدف معيّن، ولكن يكاد يستحيل عليهم أن يعرفوا ما هو ذلك الهدف. وفي أثناء ذلك كانت ثقته وغروره واضحين يخطفان البصر. يضاف إلى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التي قضاها في مدينتنا، وهي لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام، لأن يدرس القضية دراسة عميقة، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها. وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام في اللحظة المناسبة، وكيف استطاع خاصةً أن يدمّر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التي أدلوا بها. على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب في الدرجة الأولى، حباً بالفن، وشغفاً بالمهنة، حتى لا يُغفل أي حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية. ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوّل على جني أي فائدة ذات بال من تلك «التشهيرات»، وأنه لا بد أن يكون عارفاً بهذا أكثر من أي إنسان آخر، فلعله كان يدَّخر فكرة من الأفكار، لعله كان يخبئ سلاحاً خفياً آخر، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد، ولكنه سيخرجها فجأة في اللحظة المناسبة. وبانتظار ذلك كان يبدو شاعراً بقوّته، وكان يجد لذّة في التلاعب بالشهود. ومَن يراه كان يحسّ أنه يتسلّى. من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور جريجوري فاسيلتش، خادم فيدور بافلوفتش، الذي أدلى بشهادة خطيرة في موضوع «الباب المفتوح» المطل على الحديقة، أمسك المحامي بتلابيبه إن صح التعبير، منذ أتيح له أن يلقي عليه بعض الأسئلة، يحسن أن نذكر هنا أن جريجوري مثل أمام المحكمة من دون أن يضطرب ومن دون أن يبدو عليه أي تهيب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذي يصغي إليه. كان هادئ المظهر، بل كان فيه شيء من مهابة ووقار،

وقد أدلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك الثقة التي يخاطب بها امرأته مارفا أجناتفنا حين يجري بينه وبينها أحاديث، ولكن باحترام وتوقير. كان يبدو أن إرباكه مستحيل. سأله وكيل النيابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التي تحياها أسرة كارامازوف، فرسم جريجوري لهذه الحياة صورة حية جداً. وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد إنسان ساذج أمين غير متحيز. فإنه مع ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عادلاً نحو ميتيا، وأنه «لم يحسن تنشئة أولاده». وحين تحدث عن سني طفولة ميتيا ذكر أن الطفل «كان سيأكله القمل لولا أن عُني هو به»، وأضاف إلى ذلك أنه «ما كان ينبغي للأب أن يحرم ابنه من حقه في ميراث أمه». فلما سأله وكيل النيابة عن الوقائع التي تسمح له بأن يقول إن فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب، عجز جريجوري عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع)، ولكنه أصرّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن «ميتيا كان من حقه فعلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات». أحبّ أن أضيف أن هذا السؤال - أعني السؤال عن الغبن الذي لحق ميتيا - قد طرحه وكيل النيابة بإلحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الإيضاحات حول هذا الموضوع، ولم يستثن من هؤلاء الشهود إيليوشا وإيفان فيدوروفتش، ومع ذلك لم يستطع أحد من الشهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة في هذه النقطة. لقد أجمعت آراثهم جميعاً، على أن الغبن واقع، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يجيء ببرهان قاطع. وحين وصف جريجوري المشهد الذي جرى في غرفة الطعام لحظة اقتحمها دمتري وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد، ترسب في النفوس من سرده لهذه الوقائع انطباع كئيب،

لا سيَّما وأن الخادم العجوز كان يتكلم بهدوء، لا يسترسل في عبارات لا فائدة منها، وإنما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده، فكان بذلك بليغاً كل البلاغة من دون أن يقصد إلى البلاغة. أما فيما يتعلق بالإهانة التي ناله بها ميتيا حين لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة آنذاك فقد قال جريجوري إنه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وإنه غفر له هذه الإساءة منذ مدة طويلة. ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف، رسم إشارة صليب أولاً، ثم قال إن الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا، لكنه كان غبياً، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله، وأخذ عليه خاصةً أنه كان كافراً، دون أن ينسى أن يقول إن فيدور بافلوفتش وابنه الأكبر هما اللذان لقّناه الكفر وفي مقابل ذلك ألحّ بشيء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أميناً، وروى كيف أن هذا الخادم حين عثر بالأوراق المالية التي أضاعها مولاه في فناء المنزل، لم يخطر بباله أن يستولي عليها، وإنما ردّها إلى فيدور بافلوفتش الذي كافأه على أمانته بروبل ذهبي، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة. وأكد جريجوري من جهة أخرى، بعناد لا سبيل إلى زحزحته عنه، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً. هذا وقد طرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل عليّ أن آتي على ذكرها كلها.

وأخيراً جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد فسأل قبل كل شيء، عن الظرف الذي «يُزعم» أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل «لشخص ما»: «هل رأيت هذا الظرف بعينيك، أنت الذي تعيش في صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها، وكنت قريباً منه ذلك القرب كله؟». فأجابه جريجوري بأنه لم يرَ ذلك الظرف، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ «إلى اللحظة التي أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه». وقد ألقى فيتوكوفتش هذا

السؤال عن الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يجيبوا عن هذه النقطة، وألحّ في ذلك إلحاحاً كإلحاح وكيل النيابة في السؤال عن اقتسام الميراث. فأجاب جميع الشهود، في هذه المرة أيضاً، واحداً بعد واحد، بأنهم لم يروا الظرف، وإن يكن كثيرون قد سمعوا عنه. وقد لوحظ منذ البداية أن المحامي يلح على هذه النقطة ويقيم لها وزناً غظيماً، ويرى أن لها شأناً خطيراً.

قال فيتوكوفتش فجأة على نحو غير متوقع:

- أحبّ الآن أن ألقي عليك سؤالاً . . . إذا سمحت. هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم، أو إن شئت عن تركيب ذلك المنقوع الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام، كما يظهر من التحقيق الأوَّلي، في تدليك ظهرك، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة؟

نظر جريجوري إلى المحامي نظرةً بلهاء، وصمت بضع ثوان، ثم قال:

- يدخل في تركيبه نبات القويسة.

- لا شيء إلا نبات القويسة؟ ألا تذكر شيئاً آخر؟

- ويدخل فيه نبات لسان الحَمَل أيضاً.

- وربما قليل من الفلفل؟

- وفيه فلفل كذلك.

- عظيم. وهذه النباتات كلها نُقعت في فودكا، أليس كذلك؟

- نعم، في كحول.

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة.

- عظيم، عظيم، في كحول، وبعد أن دلّكت ظهرك شربت ما بقي في الزجاجة من هذا السائل مع صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصّها إلا زوجتك، أليس كذلك؟

- نعم شربته.

- هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل؟ كم شربت، مثلاً؟ كأساً واحداً أم ربما كأسين؟

- كوباً ملآن تقريباً.

- هه؟ كوباً كاملاً؟ أم كوباً ونصف مثلاً؟

صمت جريجوري كأنما يبدو أنه فهم شيئاً ما.

قال المحامي:

- كوب ونصف من كحول صاف. هذا لا بأس به أبداً، ما رأيك؟ إن الإنسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب، بل أن يرى كذلك «أبواب الجنة» كلها مفتوحة.

ظل جريجوري صامتاً. وسُمعت في القاعة ضحكات صغيرة مكظومة من جديد. فاضطرب الرئيس.

عاد فيتوكوفتش يسأل بإلحاح وهو يحدّق إلى فريسته:

- أما كنت نعسان حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحاً؟

- كنت واقفاً على قدمي.

- هذا لا ينفي أن تكون نعسان (مزيد من الضحكات المكظومة في القاعة). هل كان في وسعك عندئذ أن تجيب في تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم، كأن يسألك مثلاً في أي سنة نحن؟

- لا أدري!

- طيب... في أية سنة من العصر المسيحي نحن الآن؟ هل تعرف؟

بدت الحيرة على جريجوري الذي كان لا يحوّل بصره عن

جلاده. ومن الغريب أنه كان يبدو أنه يجهل فعلاً في أي سنة نحن.

– هل تستطيع أن تقول لي ما عدد أصابع يديك؟

فقال جريجوري فجأة بصوت قوي واضح:

– أنا امرؤ تعودت أن أطيع، فإذا حلا لمن هم أعلى مني مقاماً أن يسخروا مني، فمن واجبي أن أتحمل ذلك.

بدا على فيتوكوفتش شيء من الغيظ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل فطلب من المحامي أن يلقي أسئلة تتعلق بالدعوى تعلقاً مباشراً. فلما سمع المحامي طلب الرئاسة انحنى بوقار، وأعلن أنه ليس لديه أسئلة أخرى. واضح أن شكاً خفيفاً قد زُرع الآن في أذهان الجمهور وفي أذهان المحلفين، إنه شك بقيمة شهادة يدلي بها رجل يمكن أن «يرى أبواب الجنة» بتأثير دواء، عدا أنه يجهل السنة التي نحن فيها من العصر المسيحي. في وسعنا أن نقول إذاً إن المحامي قد حقق هدفه على كل حال. ولكن قبل أن ينصرف جريجوري وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه إلى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة، فصاح ميتيا يقول بصوت قوي:

– باستثناء ما قاله عن الباب، فإن كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذني من القمل، وأنا أشكر له ذلك. ولقد غفر لي اللطمات، فأنا أشكر له ذلك أيضاً. إن هذا العجوز كان رجلاً شريفاً أميناً صادقاً طوال حياته، وكان وفياً لأبي وفاء سبعمائة كلب.

قال الرئيس بلهجة قاسية:

– أيها المتهم!... عليك أن تراقب ألفاظك.

وقال جريجوري متذكراً بدوره:

– أنا لست كلباً.

- فهتف ميتيا يقول:

- إذاً أنا الكلب، أنا. إذا كان إهانةً أن يكون المرء كلباً فإنني أصف نفسي بهذه الصفة، وأطلب منه الصفح والعفو. لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه. ومع ايزورب أيضاً.

فتدخل الرئيس قائلاً بصرامة:

- أي ايزوب تعني؟ عمّن تتكلم؟

- أتكلم عن بييرو... أبي... أبي... فيدور بافلوفتش.

فأنّب الرئيس ميتيا وقرّعه، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن، وقال له:

- إنك تسيء إلى نفسك بنفسك في أذهان قضاتك. وبتلك البراعة نفسها عرف المحامي كيف يعبث بالشاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام، والذي كان وكيل النيابة يعوّل عليه كثيراً. لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء، وأنه مطلع على الأمور اطلاعاً غريباً، وأنه زار الجميع، وأنه رأى كل شيء، وتحدث مع كل واحد، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور بافلوفتش كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً. صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل، لم يكن قد سمع شيئاً عن هذا الأمر، هو أيضاً، إلا من ميتيا. ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في حانة «العاصمة الكبرى» وصفاً دقيقاً، ونقل أقواله وذكر إشاراته وحركاته، وروى حادثته مع النقيب سنيجيريف. أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض المال تصفيةً لحساب الميراث، فلم يستطع حتى راكيتين نفسه أن يذكر شيئاً دقيقاً واضحاً، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار: «من ذا الذي يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً في حق الآخر، وأنّى

للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما في ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً البتة!». لقد صوّر راكيتين الدراما التي أدت إلى الجريمة على أنها ثمرة الأخلاق المتخلفة لنظام القنانة، وثمرة الفوضى التي تسيطر على روسيا التي تفتقر إلى أنظمة لا غنى لها عنها وتعاني من ذلك. خلاصة القول إنه سُمح لراكيتين أن يعبّر عن بعض الأفكار. وبمناسبة هذه الدعوة إنما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة. كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوي أن ينشر مقالاً عن القضية في الصحف، حتى لقد أورد في مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التي يعبر عنها ذلك المقال، فكان إذاً مطلعاً على مضمون المقال. كانت الصورة التي رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يتولد منها شعور يعزز «الاتهام» تعزيزاً قوياً. ونستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن العرض الذي قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأي وحرية التفكير، وبما أكده من نُبل العواطف وسمو المشاعر. حتى لقد سُمعت في القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة، وعن روسيا الشقية التي تطغى عليها الفوضى. ولكن راكيتين، الذي لم يكن إلا شاباً على كل حال، لم يستطع أن يتجنب خراقةً سرعان ما استغلها المحامي استغلالاً يدل على مقدرة فائقة في انتهاز الفرص المناسبة. لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشنكا، فإذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى إليه، إذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجرافينا ألكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف»، فسرعان ما استولى المحامي على هذه

العبارة الشقية التي زلّ بها لسان راكيتين والتي أصبح راكيتين مستعداً بعد ذلك لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يسحبها. وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامي قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور.

حين جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد، قال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة بل والاحترام:

- اسمح لي أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيباً عنوانه «سيرة الأب السعيد الشيخ زوسيما»، وهو كتيب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة إلى صاحب العظمة سيادة البطرك؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخراً بكثير من الاهتمام.

تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزى:

- أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر، وإنما نشرت بعد ذلك دون علمي.

- ها. . . عظيم!! إن مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر إلى أية ظاهرة اجتماعية. وقد قُيّض لكتيبك الممتاز، بفضل حماية صاحب العظمة البطرك، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة. . . ولكنني أحبّ من جهتي، دون أن أكون مسرفاً في الفضول، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: لقد ذكرت منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (يلاحظ القارئ أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة جروشنكا هو سفيتلوفا. ولقد سمعت هذا الاسم في هذه المناسبة لأول مرة).

هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً:

- لا يمكن أن أؤاخَذَ على معرفتي بجميع من أعرف من الناس... أنا شاب... ومن ذا الذي يتحمل تبعة جميع ما يعرض له من لقاءات؟

فهتف فيتوكوفتش هو أيضاً يقول متظاهراً بالخجل حريصاً على المبادرة إلى الاعتذار:

- طبعاً، طبعاً، مفهوم! أنا أفهم هذا حق الفهم. إنه لمن الطبيعي جداً أن تجتذبك، كما تجتذب أيّ إنسان آخر غيرك، متعة امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل في بيتها زهرة شبان المدينة... ولكنني... أريد أن توضح لي نقطة واحدة: نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شهرين، بكثير من الإلحاح، أن تتعرف إلى ألكسي فيدوروفتش، أصغر الأخوة كارامازوف، وأنها رجتك أن تجيئها به، وأن تجيئها به مرتدياً ثوب الرهبان الذي يرتديه، وقد وعدتك إذا أنت أفلحت في أن تجيئها به، وعدتك بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلاً. ونحن نعلم أنك لبيت طلبها، وأن الزيارة تمت في تلك السهرة نفسها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى. لقد قدت ألكسي فيدوروفتش إلى بيت السيدة سفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذي وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلاً، هل هذا كله صحيح؟ ذلك ما أحبّ أن توضحه لنا الآن.

- كانت تلك مزحة لا أكثر... ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر... وقد أخذت المبلغ من باب المزاح والعَبَث... وعلى نية ردّه إليها بعد ذلك...

- إذاً أخذت المبلغ؟ ولكنك لم تردّه حتى الآن... أم تُراك رددته؟

تمتم راكيتين يقول:

- هذه سفاسف. وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع... طبيعي أنني سأرد هذا المال.

همّ الرئيس أن يتدخّل في تلك اللحظة، ولكن المحامي أسرع يعلن أنه لم يبق لديه سؤال آخر يلقيه على راكيتين. وانصرف راكيتين منكسراً إلى حد ما. لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بأنه إنسان نبيل النفس، فساداً لا صلاح له بعده... وكان فيتوكوفتش الذي لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له: «انظروا إلى شهود الاتهام هؤلاء، ما قيمتهم!» وإني لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً في هذه المناسبة أيضاً. فإنه وقد أحنقته اللهجة التي تكلم بها راكيتين عن جروشنكا، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب: «برنار»، وحين اتجه الرئيس، بعد استجواب راكيتين، إلى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد أبداءها، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل:

- لقد اقترض مني مالاً عدة مرات وأنا رهن التحقيق. هذا برنار حقير، لا يؤمن بالله، وقد ضلّل صاحب العظمة البطرك وغرّر به!

طبيعي أن ميتيا قد أُمِرَ من جديد بالتزام النظام، واجتناب الألفاظ النابية، ولكن السيد راكيتين كان قد أُجهز عليه. ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالي، وهو النقيب سنيجيريف، أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين، ولكن لسبب آخر. لقد جاء سنيجيريف إلى المحكمة مشعث الثياب وسخ الهيئة موحّل الحذاءين، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران سكراً تاماً، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم «تقرير الخبير». فلما سئل عن الإهانة التي ألحقها به ميتيا رفض بإصرار عنيد أن يجيب. وقال:

- سامحه الله. إن صغيري إيليوشا لا يريد هذا. سينصفني الله في الآخرة.
- من الذي لا يريد؟ من يمنعك من الكلام؟
- إيليوشا، ابني الصغير: «بابا حبيبي بابا ما أكثر ما أَذلّك!».
هكذا كلمني قرب الصخرة. وهو الآن يموت.

قال النقيب ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً على حين فجأة، وسجد أمام قدمي الرئيس. فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين.

واستمر المحامي يستعمل جميع أساليب فنه، واستمر الناس يدهشون مزيداً من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها. هكذا أحدثت الشهادة التي أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً في أول الأمر، وكانت هذه الشهادة تدين ميتيا طبعاً. من ذلك خاصة أنه حسب، قرشاً قرشاً، النفقات التي أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى إلى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر، فبيّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل، «أو ما يقارب من ذلك. ما أكثر ما رمى للغجريات من مال! أما فلاحونا المقمّلون فإنه لم يكتف بنفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبيكاً بل كان يوزّع عليهم أوراقاً مالية لا تقل الواحدة منها عن خمسة وعشرين روبلاً! ناهيكم عما سُرق منه في تلك الليلة!! ومن يسرق لا يترك يده فكيف يمكن أن تمسك به إذا كنت أنت نفسك تتلف المال إتلافاً وتبدده تبديداً. إن الناس عندنا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان. والبنات! بنات قريتنا! إنه لم ينسهن! لقد اغتنين منذ ذلك الحين، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة؟». الخلاصة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات، وبدا أنه يجري حساباً

دقيقاً. وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق إلا ألفاً وخمسمائة روبل، وأنه خاط باقي المبلغ في كيس صغير، مردوداً مرفوضاً. «رأيت الثلاثة آلاف روبل بعينيّ، ما أنا بمن يُخدع في مثل هذه الأمور!» كذلك كان يصيح تريفون بوريستش، وكان واضحاً أنه إنما يفعل ذلك حباً بإرضاء السلطات. ولكن حين جاء دور المحامي لإلقاء الأسئلة على الشاهد، اكتفى المحامي بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن في شهادة صاحب الفندق، قال: إن الحوذي تيموثي وفلاحاً اسمه آكين قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو في حالة سكر، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها لِتريفون بوريستش الذي كافأ كلاً منهما بروبل، «فهل أرجعت المائة روبل هذه إلى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها؟ أجب!». فحاول تريفون بوريستش أن يتملص من الجواب، ولكنه بعد سؤال الفلاحَيْن اللذين عثرا بالورقة المالية، اضطر أن يعترف بالواقعة، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية إلى دمتري فيدوروفتش فوراً، وأنه فعل ذلك «بدافع الأمانة والشرف، ولكنه كان قد بلغ منه السكر كل مبلغ حينذاك، فمن الجائز أن يكون قد نسي أن المال أعيد إليه في حينه». ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل إلى حين مثول الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على أرض الدهليز أصلاً، فإن ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت إلى ميتيا الثمل، أصبح مطعوناً فيه. هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعاً قوياً.

وكذلك كان شأن «البانَيْن البولنديين». لقد أظهرا في البداية كبرياءً وغروراً، وأكدا بصوت قوي أنهما «خدما التاج»[46] بأمانة وإخلاص وأن «البان ميتيا» عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً

لشرفهما، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ في يديه بأعينهما. وقد استعمل البان موزيالوفيتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية في جمله، فلما لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته في نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية. ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه: فرغم أن تريفون بوريستش، الذي استدعي إلى القاعة مرة أخرى، قد حاول الإنكار، فإنه اضطر أخيراً أن يعترف بأن البان فروبلفسكي قد استبدل بورق اللعب الذي أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسةً، وأن البان موزيالوفيتش قد غشّ في اللعب أثناء استلامه دور «البنك». وقد جاءت أقوال كالجاموف الذي أدلى بشهادته بعد ذلك، جاءت مؤيدةً لصحة هذه «التفاصيل»، فخرج البانان البولندیان مرتبكين مجللين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور.

وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين. فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية، فانصرفوا وهم في حالة يرثى لها. وقد أعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامي هذه، ولكنهم كانوا يتساءلون ما الذي يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية، ذلك لأنهم - أكرر هذا - كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام قوي قوة لا تقاوم وأن الأدلّة تتكاثر ويتراكم بعضها فوق بعض وتزداد مأساوية وتصاعداً. ومع ذلك كان الناس يدركون، من ملاحظة الثقة البادية في هيئة «الساحر الكبير»، أنه كان هادئاً مطمئناً، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق. ليس عبثاً أن يزعج «مثل هذا الاستاذ» نفسه بالمجيء إلى بلدتنا من سان بطرسبرج، فما هو حتماً بالرجل الذي يرجع خائباً دون ثمرة يجنيها.

- 3 -

الفحص الطبي الشرعي ورطل من بندق

كذلك فإن الفحص الطبي الشرعي لم ينفع المتهم كثيراً، وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيراً عليه، في ما يبدو، كما ظهر ذلك فيما بعد. وإنما عمد إلى استخدامه بسبب إلحاح كاترينا إيفانوفنا التي استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو. كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدام الفحص الطبي الشرعي شيئاً، حتى لقد يجني بعض النفع إذا واتت الظروف. على أن الفحص الطبي الشرعي هذا قد صحبته مشاهد مضحكة جداً، وذلك بسبب اختلاف الأطباء في الرأي. كان الأطباء الذين عيّنوا خبراء للإدلاء بآرائهم في هذه القضية هم أولاً الأخصائي الشهير الذي استُقدم من موسكو، ثم طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكي. على أن هذين الطبيبين الآخيرين قد مَثلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضاً، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك. فأما الخبير الأول الذي استدعي للإدلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشوبه. إنه عجوز في السبعين من عمره، أشيب أصلع، مربوع القامة قوي البنية، كان الناس في مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً. كان صاحب ذمة وضمير، طيب القلب عالي الأخلاق، ويبدو أنه كان من ملة الهيرنهوتر أو من «الإخوان المورافيين»[47] إذا لم يخطئ

ظني. وهو يقيم في مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة. وكان رجلاً إنسانياً كريماً، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً، ويعودهم في أكواخهم ويترك لهم مالاً لشراء الأدوية. ولكنه كان في الوقت نفسه عنيداً عناد بغل. كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأي قام في ذهنه. ومهما يكن من أمر، فلقد كان جميع الناس يعلمون أن الأخصائي الشهير الآتي من موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي قضاها في مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن في كفاءات الدكتور هرتسنوبه الطبية طعناً بالغاً جارحاً. ورغم أن هذا الأخصائي قد تقاضى خمسة وعشرين روبلاً على الأقل عن كل كشف طبي أجراه، فما كان أكثر الذين ابتهجوا في مدينتنا لقدومه، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير ضانين بالمال. وطبيعي أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتور هرتسنشتوبه قبل ذلك، فكان الأخصائي الشهير ينتقد المعالجة التي وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً، حتى لقد صار آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين إليه بهذه السؤال: «هيه! أليس الدكتور هرتسنشوبه هو الذي صيّرك إلى هذا الحال؟ قه قه قه!...» وقد علم الدكتور هرتسنشتوبه طبعاً بما كان يقوله عنه هذا الطبيب الأخصائي. وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد واحد كخبراء! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعةً واحدة أن «المتهم لا يملك كامل قواه العقلية، وأن هذا يُرى من أول نظرة». وحين بسط آراءه في هذا الموضوع (وهي آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول إن الشذوذ النفسي الذي يعاني منه المتهم يتجلى لا في طائفة كبيرة من الأعمال التي سبق أن ارتكبها فحسب، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً - وهذا أهم - في سلوكه في

جلسة المحاكمة هذه نفسها. فلما طُلب إلى الدكتور هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن، أجاب الطبيب العجوز قائلاً بالسذاجة المعهودة فيه إن المتهم حين دخل القاعة «كان يمشي مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها، فهو يسير قدماً لا يلوي على شيء، كما يسير جندي، وهو يحدِّق بعينيه تحديقاً ثابتاً لا ينظر يمنة ولا يسرة، مع أن الشيء الطبيعي السوي بالنسبة إليه هو أن ينظر يسرة، حيث توجد النساء، من الحضور، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حباً عظيماً، فلا بد أن يقيم وزناً لما عسى أن يكون رأى السيدات فيه حينذاك». وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة خاصة به. يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغة الروسية بانطلاق وتدفق، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شيء ألماني لا أدري ما هو، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة، لأنه تعوّد طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقاناً كاملاً، وأن روسيته «خير من روسية الروس أنفسهم». وكان يحب كثيراً أن يستشهد بالأمثال الروسية، وكان يؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث - عن شرور في أغلب الظن - أن ينسى ألفاظاً هي أكثر الألفاظ استعمالاً، ألفاظاً يعرفها حتماً، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة. على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضاً. وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك، يأخذ يحركِ يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت، وما من أحد يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدي إلى اللفظة الضائعة.

أثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال إنه كان عليه أن ينظر إلى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة، أثارت في

جمهور النساء دمدمات ضاحكة. كانت النساء جميعاً يحببن عجوزنا جداً. وكنّ يعرفن أنه - على كونه عازباً - قد عاش طوال حياته عفيفاً طاهراً، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية، ولذلك بدت ملاحظته هذه التي لم تكن تتوقع منه، بدت لجميع الناس مثيرة للدهشة والاستغراب.

وجاء دور سؤال الأخصائي القادم من موسكو، فصرّح بلهجة قاطعة وإلحاح أن حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سوية، بل هي «غير سوية إلى أقصى حد». وتكلم في إسهاب وتفقه عن حالة «الخلل العصبي»، وعن مرض «المانيا»، وبَرْهن بالاستناد إلى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة خلل عصبي، فإذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعراً بما يفعل، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير إرادة تقريباً، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضي الذي كان قد سيطر عليه واستبد به. كذلك قال الأخصائي شارحاً. ثم أضاف يقول: على أن المريض كان مصاباً، عدا الخلل العصبي، بداء «المانيا»، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدي به إلى الجنون الكامل (ملاحظة: إنني أنقل هنا بلغتي أنا، أقوال ذلك الطبيب الأخصائي في الأمراض العقلية الذي استعمل عندئذ لغة متخصصة فيها كثير من التفقه). وتابع الطبيب كلامه فقال: «لقد كان يتصرف في جميع الأحوال تصرفاً يخالف العقل والمنطق. لن أقول شيئاً عما لم أره بنفسي، أعني الجريمة وتلك الدراما كلها، ولكن يجب عليّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته، أمس الأول، أثناء حديث جرى بيني وبينه، كان فيها جمود غريب ليس له تفسير. يضاف إلى هذا أنه كان يضحك بدون أي سبب يدعو إلى الضحك. وقد لاحظت لديه حنقاً مستمراً

غير مفهوم، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل «برنار»، «ايطيقا»، وغير ذلك من ألفاظ لا محل لها «إطلاقاً». على أن أبرز شيء يتميز به مرض «المانيا» لدى المتهم، في نظر الطبيب، هو أن المتهم كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التي يعتقد أن أباه حرمه منها، وإلا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع، بينما يتكلم عن إخفاقات أخرى أو إهانات أخرى تحمّلها أثناء حياته دون أي اضطراب ظاهر. هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه كلما ذكرت هذه الثلاثة آلاف روبل. رغم أنه، على ما يشهد به الشهود، لا يعد متهافتاً على المنفعة ولا يعد طمّاعاً». ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتماً كلامه: «أما عن رأي زميلي العالم الذي يذهب إلى أن المتهم كان ينبغي له عند دخوله القاعة أن ينظر جهة السيدات، فإنني أعتقد أن من واجبي أن أؤكد، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الملاحظة الفكهة، إن هذه الملاحظة خطأ فاحش. فإنني على موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن المتهم ما كان ينبغي له أن ينظر إلى أمام، أثناء دخوله قاعة المحكمة التي سيتقرر فيها مصيره، وعلى موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن فعلة المتهم هذه يجب أن تعد عرضاً من أعراض حالته العقلية المختلة، أقول إنني من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً إلى جهة السيدات، بل أن ينظر يمنةً إلى جهة محاميه باحثاً عنه في تلك اللحظة بعينه، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامي». أعرب الطبيب الأخصائي عن رأيه هذا بلهجة قاطعة لا تُرد. غير أن الخلاف المضحك الذي قام بين الطبيبين الخبيرين إنما وصل إلى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور

الدكتور فارفنسكي الذي سئل عن رأيه آخر من سئل من الأطباء، فأخذ يدلي بآرائه ويقدم شروحه. قال هذا الطبيب إن المتهم هو، الآن كما كان في الماضي على السواء، في حالة طبيعية تماماً، سليم كل السلامة، ولئن كان قبل اعتقاله في حالة عصبية، وكان مضطرباً اضطراباً شديداً، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً، كالغيرة، والغضب، والإسراف المستمر في الشراب وما إلى ذلك. فهذه الحالة العصبية ليس فيها أي شيء من «الخلل العصبي» الذي جيء على ذكره، أما فيما يتعلق بالمسألة التي أثيرت حول الجهة التي كان ينبغي للمتهم أن ينظر إليها لحظة دخوله القاعة، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم «بحسب رأيه المتواضع» أن ينظر إلى أمام، كما فعل تماماً، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره، كانوا قبالته في تلك اللحظة. «وهو، إذ نظر إلى أمام فعلاً، فقد برهن على أنه في حالة نفسية سليمة بريئة من المرض». بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب رأيه «المتواضع».

فصرخ ميتيا من مكانه يقول:

- مرحى يا حكيم! هكذا تماماً! هذا صحيح.

وأُسكت ميتيا طبعاً، ولكن رأي الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً في أعضاء المحكمة وفي جمهرة الحضور على السواء، لأن جميع الناس في مدينتنا قد انحازوا إلى رأيه، كما ظهر ذلك فيما بعد. على أن الدكتور هرتسنشتوبه، حين استُجوب كشاهد، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة. إن الدكتور هرتسنشتوبه، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل، قدّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً،

ولكنه أضاف يقولِ وكأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة:

- ومع ذلك فإن هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل، لأنه كان في طفولته طيب القلب، وبعد طفولته أيضاً، أنا أعرف هذا. على أن المثل الروسي يقول: «حسن أن يكون المرء ذا عقل، ولكن أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد...».

- تريد أن تقول إن عقل حسن وعقلان أحسن.

كذلك تدخل وكيل النيابة نافد الصبر وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز في بطء الكلام وجرّ الألفاظ دون أن يعبأ بأثر ذلك في مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الإصغاء إليه حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة، يستعملها بطريقة مليئة بالابتهاج والرضى عن النفس. وكان إلى ذلك يهوى التندر.

استأنف الطبيب العجوز كلامه فقال معانداً:

- نعم، ذلك هو ما قلته.. عقل واحد حسن وعقلان أحسن بكثير. ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر، فمضى عقله هو.. مضى ي.. مضى يعمل ماذا؟... نسيت الكلمة... الكلمة التي تعبّر عما مضى يعمله عقله. نسيت تلك الكلمة (كذلك ردّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آ... نعم... تذكرت... مضى عقله «شباتسرين».

- تقصد «يتنزّه»؟

- نعم يتنزّه. ذلك ما قلته أيضاً. مضى عقله يتنزّه، فوصل إلى مكان عميق حيث أضاع نفسه. ولكنه كان فتى نبيلاً حساساً... أوه... إنني أتذكر يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجري في

فناء المنزل حافي القدمين لا يكاد يمسك سرواله إلا زر واحد.

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق. فارتعش فيتوكوفتش إذ أوجس مواتاة الفرصة الحسنة. وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد.

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال:

- نعم، نعم، كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت... كان عمري... نعم... كان عمري خمسة وثلاثين عاماً. وكنت قد استقررت في هذه المدينة منذ فترة قصيرة. لقد أشفقت على الصبي وتساءلت لماذا لا أشتري له رطلاً من... نعم، رطلاً من... ولكن رطلاً مماذا؟ نسيت الكلمة... ما اسم ذلك النوع؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيراً... هوه! كيف نسيت؟... كيف نسيت؟... (وحرّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد)... هو ينبت على الأشجار، على الشجيرات فيقطف ويوزّع على الجميع...

- تفاح؟

- أوه! لا، لا! رطلاً، قلت رطلاً. التفاح يباع بالدّسته لا بالرطل... هو وافر جداً، وهو صغير... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق...

- بندق؟

- نعم، بندق، ذلك بعينه ما قلته أنا...

كذلك وصل الطبيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئاً كل الهدوء، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة، فتابع يقول:

- جئت الصبي برطل من البندق، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشيء منه قبل ذلك. رفعت إصبعي وقلت له:

«اسمع أيها الصبي الصغير العزيز، Gott der Vater. . . » فضحك وردَّد: «Gott der Vater Gott der Sohn»[48] (باسم الإلٰه الأب، باسم الإلٰه الابن) ثم ردَّد ضاحكاً مزقزقاً من جديد «Gott der Sohn: Gott der heilige Geist» - وراح يضحك ويردد عدة مرات «Gott der heilige Geist. ثم انصرفت. ومررت قرب الصبي غداة اليوم التالي. فصرخ يقول: يا عم! «Gott der Vater Gott der Sohn» ولكنه نسي Gott der heilige Geist[49] فذكرته بها، ورثيت لحاله وأشفقت عليه من جديد. ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أره بعد ذلك. وانقضت ثلاثة وعشرون عاماً. وفيما أنا في عيادتي ذات صباح، وكان شعري قد ابيضَّ، إذا بي أرى شاباً مزهر الوجه زاهي المحيا يدخل عليَّ. ما كان لي أن أعرف من هو هذا الشاب. وها هو ذا يرفع إصبعه ويقول ضاحكاً: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدُس» (بالألمانية في الأصل).

لقد وصلت إلى هذه المدينة منذ قليل، وأحب أن أشكر لك رطل البندق الذي أهديته إليَّ في الماضي. ما كان أحد قد أهدى إليَّ شيئاً منه قبلئذٍ. أنت وحدك أهديتني رطلاً من بندق». تذكرت عندئذ شبابي الغابر السعيد، وتذكرت الصبي الصغير الذي كان يجري في فناء الدار حافي القدمين. وتأثر قلبي فقلت له: «أنت شاب نبيل النفس كريم القلب، لأنك لم تنسَ رطل البندق الذي جئتك به في طفولتك». وقبَّلته، وباركته باكياً. فكان يضحك، ويبكي أيضاً. إن الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء. ولكنه بكى، أنا متأكد من ذلك، رأيته يبكي. والآن واحسرتاه! هو ذا.

صاح ميتيا من مكانه يقول:

- والآن أبكي أيها الألماني! نعم أبكي أيها الإنسان الطيب!

مهما يكن من أمر، فإن هذه القصة الصغيرة قد أحدثت في الحضور أثراً طيباً. غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترينا إيفانوفنا والتي سأتحدث عنها بعد قليل، هي التي خدمت قضية ميتيا خاصة. وفي وسعنا أن نقول على وجه العموم إن الحظ أخذ يبتسم فعلاً لميتيا منذ بدأ توافد شهود الدفاع الذين استدعاهم المحامي، الأمر الذي لم يكن يتوقعه المحامي نفسه، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر. على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترينا إيفانوفنا. وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعةً يبدو أنها يمكن أن تكون برهاناً وضعياً يفيد ميتيا، ويدمِّر نقطة من أهم النقاط التي يرتكز عليها الاتهام.

- 4 -

الحظ يبتسم لميتيا

تغيّر الحظ كأنما بمصادفة، من دون أن يكون أليوشا قد سعى إلى هذه النتيجة. لم يُحلَّف أليوشا اليمين. وإني لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الأولى من شهادته. ولعل القارىء يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته إلى قاعة المحكمة. تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البائس من عاطفة حارة قد تدفق في أقواله. قال في الجواب عن سؤال ألقي عليه إن أخاه إن يكن عنيفاً شديد الاندفاع في أهوائه، فإنه في الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخي جوّاد قادر على التضحية حين تجب التضحية ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروشنكا، وتنافسه مع أبيه، قد جعلاه في الأيام الأخيرة صعب المراس، ووضعاه في حالة لا تطاق وفي مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديداً من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع في المال، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولَّدت في نفس ميتيا شيئاً يشبه أن يكون مسّاً، فهو دائب التفكير فيها، وهو يعدها جزءاً من ميراثه الذي حرمه أبوه منه زوراً واختلاساً، وهو على كونه زاهداً

في الربح قليل الاهتمام بالمنفعة، لا يستطيع أن يتكلم في أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبدّ به حنق شديد وغضب ملتهب. أما التنافس الذي أشار إليه وكيل النيابة بين «المرأتين»، أي بين جروشنكا وكاترينا إيفانوفنا، فقد تكلم عنه أليوشا متهرباً متملصاً، بل رفض حتى أن يجيب عن سؤال أو سؤالين.

سأله وكيل النيابة:

- ألم يذكر لك أخوك، على الأقل، أنه كان ينوي أن يقتل أباه؟

ثم أضاف:

- تستطيع الامتناع عن الإجابة إذا كنت تؤثر الامتناع.

قال أليوشا:

- لم يقل لي ذلك على نحو مباشر.

- أقاله إذاً على نحو غير مباشر؟ كيف قاله؟

- حدَّثني عن الكره الذي يحمله لأبينا، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمسك نفسه عن قتله... ذات يوم... في لحظة اندفاع شديد... في لحظة تقزز لا سبيل إلى التغلّب عليه...

- هل صدَّقته حين سمعته يقول هذا الكلام؟

- أخشى أن أقول إنني صدقته. ولكنني كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه في اللحظة الحاسمة، وقد أنقذته فعلاً لأنه ليس هو الذي قتل أبي.

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوي ترجَّع إلى آخر القاعة.

انتفض وكيل النيابة كحصان في ساحة القتال سمع صوت النفير؛ وقال:

- اطمئن إلى أنني أثق ثقة تامة بصدق اقتناعك، دون أن أنسبه

إلى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب. وقد اطلعنا من التحقيق الأولي على نظرتك الخاصة إلى الأحداث المفجعة التي جرت في أسرتك؛ ولكنني لا أكتمك أن رأيك يبدو لنا غريباً إلى أبعد حدود الغرابة، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التي جمعها الاتهام. ذلك هو السبب في أنني أرى من واجبي أن أطلب إليك ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذي تبني عليه رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك بريء، وحين تسند هذه الجريمة إلى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو مباشر في التحقيق التمهيدي.

قال أليوشا بصوت هادىء عذب:

- في التحقيق التمهيدي، اقتصرتُ على الإجابة عن الأسئلة التي أُلقيت عليَّ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسي.

- ولكنك أسميته، أليس كذلك؟

- ذكرتهُ مستنداً إلى أقوال أخي دمتري. فقد ذُكر لي، قبل ذلك الاستجواب، ما حدث عند اعتقال أخي، وقيل لي إن أخي اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك. إنني مقتنع اقتناعاً كاملاً ببراءة أخي. وإذا لم يكن هو القاتل، فقد لا يكون القاتل إلا...

- إلا سمردياكوف؟ لماذا سمردياكوف بالذات؟ وما الذي يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك؟

- لا أملك إلا أن أصدقه... أصدّقه... أنا أعلم أنه لن يكذبني بحال من الأحوال. ثم إنني رأيت في عينيه أنه كان يقول الحقيقة.

- في عينيه فقط؟ أليس لديك براهين أخرى؟

- ليست لديَّ براهين أخرى.

- وبالنسبة إلى اتهام سمردياكوف، أليس عندك من البراهين أيضاً إلا أقوال أخيك وتعبير وجهه؟

- لا، ليس لديَّ براهين أخرى.

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار في استجواب أليوشا. وقد أثارت أجوبة أليوشا كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور. كان الناس في مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة وكان هناك أشخاص سمعوا شيئاً، وأشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور، قد ألقوا في روع الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجاني. فإذا بكل شيء يتبدد الآن. إن أليوشا لم يأت بأي عنصر حاسم، ولم يجىء إلا باقتناع معنوي وهو أمر طبيعي عند شقيق المتهم.

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد. بدأ المحامي بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله، وهل أفضى إليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة؟

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال، إذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما في تلك اللحظة نفسها وقال:

- إنني أتذكر الآن شيئاً كنت قد نسيته تماماً، ولم يكن واضحاً لي آنذاك، أما الآن...

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش، كأن فكرة مفاجئة قد ومضت في ذهنه، كيف أن أخاه، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة في المساء، قد لطم صدره عدة مرات، قد لطم «أعلى صدره» عدة مرات، مردداً بإلحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه؛ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا، في هذا الموضع، على الصدر... ومضى أليوشا يقول: «ظننتُ عندما لطم صدره على ذلك النحو أنه كان يشير إلى قلبه. قدَّرت أنه كان يرى أن قلبه يملك من

القوة ما يكفيه لاتقاء عارٍ رهيب يهدده، عارٍ لا يجرؤ أن يعترف لي به. أعترف أنني افترضت أنه كان يلمَح إلى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل والخزي من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف. ولكنني أتذكر الآن أنه إنما كان يشير إلى شيء ما على صدره، حتى إنني خطر ببالي في تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه، فإنما يوجد القلب تحت ذلك، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب؛ كان يلطم هنا، تحت العنق، ويظل يشير إلى ذلك الموضع نفسه دائماً. لقد بدت لي أفكاري غبية حينذاك فلم أعبأ بها، ولكنني أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لي إلى الكيس الصغير الذي خاطه على الألف وخمسمائة روبل؟...».

صاح ميتيا من مكانه يقول:

- هو ذاك تماماً! لقد حزرتَ يا أليوشا. هو ذاك كنتُ ألطم الكيس الصغير في تلك اللحظة.

اندفع فيتوكوفتش في لهفة يهدىء ميتيا متوسلاً إليه أن يسكن ويطمئن؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع إلى شهادته متشبثاً بها تشبثاً قوياً. تحمّس أليوشا لذكراه هذه، فعرض فكرته بحرارة، قائلاً إن العار الذي حدّثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل، أي نصف المبلغ الذي يدين به لكاترينا إيفانوفنا، ورغم أن في وسعه أن يردَّ إليها هذا الجزء من دَيْنها عليه، قد آثر أن لا يرد المبلغ، وذلك ليستخدمه في غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنكا متى وافقت جروشنكا على أن تتبعه.

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة:

- نعم نعم، هو ذاك، هو ذاك. لقد ذكر لي أخي في ذلك

المساء أن في وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار، نعم من نصفه، نصفه، لقد قال لي ذلك (ردّد أليوشا كلمة نصفه مراراً). ولكن ضعف إرادته يمنعه من الإقدام... كان يعلم مقدما أنه لن يستطيع الإقدام، أنه لا يملك القوة اللازمة لذلك!

سأله فيتوكوفتش بنهم:

- أنت تتذكر تذكراً واضحاً جلياً أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً؟

- أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جلياً، لأنني تساءلت عندئذ: «لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالي مع أن القلب يقع تحت هذا الموضع؟». وأتذكر أن هذا التساؤل بدا لي غبياً... أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جداً. كان هذا خاطراً خاطفاً وَمَض في ذهني ومضاً. وبسبب ذلك التساؤل إنما تذكرت الآن هذه الواقعة. وإني لأتساءل كيف لم يخطر على بالي ذلك، كيف أمكن أن أنساها حتى الآن! واضح أنه كان يشير عندئذ إلى الكيس الصغير برهاناً على أن في وسعه أن يردَّ الألف وخمسمائة روبل، ولكنه لن يفعل، وبعد ذلك، حين قُبض عليه في موكرويه، صرخ يقول - أنا أعلم هذا فقد ذُكر لي - صرخ يقول إنه يرى أن أكبر عار في حياته هو - رغم أنه كان يملك القدرة - أن يردَّ إلى كاترينا إيفانوفنا نصف دينها (نعم، ذكر كلمة النصف)، فلا يكون في نظرها بعد ذلك لصاً، لم يعزم أمره على ردِّ المبلغ، مؤثراً أن يُعدَّ لصاً على أن يتنازل عن المال. ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا الدَيْن! أوه! ما أشدَّ ما كان يعذبه!

بهذا ختم أليوشا كلامه.

وقد تدخل وكيل النيابة طبعاً، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانية وألحَّ مراراً كثيرة على أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو

مشيراً إلى شيء موجود على صدره حين لطم صدره. لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضباً؟

هتف أليوشا يقول:

- لا، لا، إنه لم يضرب صدره بقبضة يده. وإنما كان يشير إلى الموضع بأصابعه، بأصابعه، وكان يريني الموضع، هنا، فوق، عالياً جداً... كيف أمكن أن أنسى هذا، ولا أتذكره حتى هذه اللحظة؟

عندئذ سأل الرئيس ميتيا هل لديه ملاحظات يبديها في أمر هذه الشهادة، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، وأنه قد أشار بيده إلى الألف وخمسمائة روبل التي كان يحملها معلقةً في صدره، تحت الرقبة بقليل. وصرَّح بأن هذا كان في نظره هو العار. وهتف يقول: «ذلك عار لا يخطر ببالي أن أنكره، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي! كان في إمكاني أن أردَّ المال، ولكنني لم أفعل، آثرت أن تعدّني لصاً، ولم أرجع المال. وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردَّ المال. صدق أليوشا. شكراً يا أليوشا!».

هنا انتهى استجواب أليوشا. إن أهمَّ وأبلغ عنصر في شهادة أليوشا هو أنه اكتُشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو برهاناً ضئيلاً. ولو شبه برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمائة روبل التي يضمها. فمن المحتمل إذاً أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء التحقيق الأوّلي حين صرَّح، في موكرويه، أن هذه الألف وخمسمائة روبل «هي له».

شعر أليوشا بسعادة. ومضى يجلس في المكان الذي دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال، ولبث بضع دقائق يدمدم بصوت خافت: «كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسي؟ ما أغرب أن لا أتذكرها إلا الآن!».

ودُعيت كاترينا إيفانوفنا إلى الإدلاء بشهادتها بعد أليوشا. فلما ظهرت في القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوي. فالسيدات وجّهن نحوها نظراتهنّ، والرجال اضطربوا في أماكنهم؛ ونهض بعضهم ليحسنوا النظر إليها. وقد رُوي فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه في تلك اللحظة فجأة وشحب «شحوباً شديداً». تقدمت كاترينا إيفانوفنا، متشحة كلها بالسواد، إلى المكان الذي دُلَّت عليه بتواضع وبما يشبه الخجل. ظلت قسمات وجهها هادئة ساكنة فلا شيء يشير إلى أنها مضطربة. غير أن عزيمةً لا تنثني كانت تسطع في عينيها الداكنتين المهيبتين. وقد أكَّد أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جمالاً خاصاً في تلك اللحظة. كانت تتكلم بصوت خافت، ولكنه واضح متميز، فكان الناس يسمعونها في آخر القاعة. وكانت تتحدث هادئة، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة. استجوبها الرئيس بكثير من الحرص وأظهر لها كثيراً من التبجيل، كأنه كان يخشى أن يمس «أوتاراً أخرى»، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة. ولكن كاترينا إيفانوفنا أسرعت تؤكد بقوةٍ، منذ البداية، جواباً على سؤال أُلقي عليها، أنها كانت خطيبة المتهم «إلى اللحظة التي هجرني فيها من تلقاء نفسه». كذلك أضافت تقول بصوت خافت. فلما سُئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت إلى ميتيا أن يرسلها إلى قريباتها بالبريد، أجابت بحزم وثبات قائلة: «أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فوراً. لقد أدركت أنه كان في حاجة ماسة إلى المال... في ذلك الأوان... فأعطيته تلك الثلاثة آلاف روبل ورجوته أن يرسلها في غضون شهر إذا شاء. ولقد أخطأ إذاً حين عذَّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا الدين...».

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التي أُلقيت عليها، وجميع

الأجوبة التي أجابت عليها، وإنما سأقتصر على إجمال الأمور الأساسية في شهادتها. واصلت كاترينا إيفانوفنا كلامها فقالت:

- كنت مقتنعةً اقتناعاً جازماً بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه. أنا لم يساورني أي شك في نزاهته وأمانته يوماً... بل في أمانته البالغة... في شؤون المال... لقد كان واثقاً ثقة مطلقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل، وقد حدثني في ذلك مراراً وتكراراً. كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات، وكنت مقتنعةً وما أزال أن أباه قد حرمه من حقه. على أنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه. بحضوري على الأقل لم يقل شيئاً. إنني لم أسمعه يهدِّد ويتوعّد. ولو قد جاءني في تلك الآونة إذاً لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مديناً بها لي. ولكنه لم يعد إليَّ منذ ذلك الحين... ورأيتني أنا نفسي... في وضع... لا يمكّنني من أن أبادر إلى استدعائه.

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوَّت في صوتها عندئذ نبرة قوية:

- ثم إنني ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضوع هذا الدين. فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغاً أكبر كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم أنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ في ذلك الحين أنني سأصبح في يوم من الأيام قادرة على أن أردَّه إليه...

قالت كاترينا إيفانوفنا ذلك وقد ظهرت في صوتها نبرة تحدٍّ. وفي تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

قال فيتوكوفتش بحذر المحامي، وهو يوجس فوراً الفائدة التي سيجنيها من هذه الشهادة:

- لم يحدث ذلك في هذه المدينة، إذا صدق فهمي، وإنما حدث في بداية علاقتكما، أليس كذلك؟ (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلي: رغم أن المحامي قد استدعي من سان بطرسبرج بمبادرة كاترينا إيفانوفنا تقريباً، فلقد كان يجهل كل شيء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التي أعطاها ميتيا للمرأة الشابة في المدينة الأخرى، وكان يجهل كل شيء عن «التحية الساجدة» التي حيَّاها بها عندئذ. إن كاترينا إيفانوفنا لم تحدث المحامي عن هذا الأمر وأخفته عنه. وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً. ولكن من الممكن أن نقدِّر مع ذلك أنها كانت هي نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن تلك الواقعة أم لا؟ وكانت تنتظر نوعاً من الإلهام).

لا، لن أستطيع في يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر! لقد بدأت كاترينا إيفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شيء، كشفت عن جميع التفاصيل التي أفضى بها ميتيا إلى أخيه أليوشا بصدد «التحية الساجدة» والأسباب والدوافع التي قادت خطاها، والحالة التي كان عليها أبوها، ومجيئها إلى بيت ميتيا. ولكنها في مقابل ذلك، لم تذكر أن ميتيا كان قد عرض على أختها أن «ترسل إليه كاترينا إيفانوفنا لتأخذ المال». لم تقل عن هذا كلمة واحدة. وصمتت عن سلوك ميتيا حينها. ولكنها لم تخجل أن تؤكد أنها هي التي هرعت من تلقاء نفسها إلى بيت ضابط شاب آملةً لا أدري ماذا... للحصول منه على مال. كانت تلك لحظات رهيبة. شعرتُ ببرد يسري في ظهري وأخذت أرتعش وأنا أصغي إلى كلام كاترينا إيفانوفنا. وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شرباً. كان في وضع هذه المرأة الشابة شيء لا عهد لأحد بمثله من قبل، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من

امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسلط والازدراء، أن تدلي بشهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة، تضحيةً وفداءً. ولماذا تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل من تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل إنقاذ رجلٍ خانها وأهانها، في سبيل أن تساهم في إنقاذه على قدر طاقتها الضعيفة، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر في نفوس الناس تأثيراً حسناً! وذلك ما حدث فعلاً: فإن الصورةَ التي رسمتها، صورةَ ضابط يهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها - أي كل ما تبقى له من ثروة - يهبها لفتاة بريئة ثم ينحني لها احتراماً إلى درجة السجود، أقول إن هذه الصورة قد أعجبت الجميع وفتنتهم ولكنْ... عَصَر الألم قلبي! أحسست عندئذ أنها بذلك تعرِّض نفسها للأقاويل والنمائم، وأن تخرّصات كثيرة ستقال في حقّها (وذلك ما حدث!). فقد أخذ أهل مدينتنا يومئون في أحاديثهم بعد ذلك، وهم يبتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة، إلى أن القصة التي روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة تماماً، ولا سيما في الموضع الذي يتضمن أن الضابط تركها تنصرف «مكتفياً - فيما ادعت - بأن حيَّاها ساجداً». فأغلب الظن أنها «أسقطت» هنا جزءاً مما جرى. وقالت السيدات المحترمات في مجتمع مدينتنا: «هبها لم تُسقط من القصة شيئاً، هبها قالت الحقيقة كلها كاملةً، فإن هذا لا يمنع من التساؤل: هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك، ولو لإنقاذ أبيها؟». كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن كاترينا إيفانوفنا، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة، لم تتنبأ أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس في حقها؟ لا شك في أنها تنبأت بذلك حتماً، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء! وطبيعي أن هذه الشكوك المسيئة لم تولد

إلا فيما بعد. أما أثناء إدلاء كاترينا إيفانوفنا بشهادتها فإن جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوي حاد. فأعضاء المحكمة أصغوا إلى كلام كاترينا إيفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون. ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بإلقاء أي سؤال في هذا الشأن. وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها انحناء شديداً. أوه! كان المحامي على وشك أن ينتصر! إن هذه الشهادة رصيد كبير له: هل يتصور عقل أن الرجل الذي وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها، في وثبة كريمة من قبله، يمكن أن يقتل أباه، ليلاً، في سبيل أن يجرّده من ثلاث آلاف روبل؟ إن في سلوك كهذا السلوك لتناقضاً لا سبيل إلى فهمه. وأحسَّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة في أقل تقدير. لقد اكتست «القضية» وجهاً جديداً، وظهر ميتيا على حين فجأة إنساناً محبباً. أما عن سلوكه هو أثناء إدلاء كاترينا إيفانوفنا بأقوالها فقد قالوا إنه نهض من مكانه مرة أو مرتين ثم هوى على الاريكة من جديد وغطى وجهه بيديه وحين انتهت من الإدلاء بشهادتها هتف يسألها بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه:

- كاتيا، لماذا سببت هلاكي؟

ثم أخذ ينتحب انتحاباً قوياً جداً، لكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه، وصاح يقول:

- الآن ضعت!

ثم سكن جامداً، كازاً أسنانه، ومصالباً ذراعيه على صدره. وطُلب من كاترينا إيفانوفنا أن تبقى في القاعة، فجلست على الكرسي الذي عُيِّن لها. كانت شاحبة اللون غاضة طرفها. وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل

جسمها، كأن بها حمّى. واستُدعي الشاهد التالي، جروشنكا. إنني أقترب هنا من لحظة الكارثة التي سقطت على ميتيا فجأة، وكانت سبب ضياعه فعلاً، فيما يبدو. وأنا من جهتي مقتنع بأنه لولا ذلك الحادث الذي وقع - وذلك رأي يشاركني فيه الجميع، ويشاركني فيه رجال القانون خاصةً - لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفِّفة على الأقل. سأعود إلى ذكر هذا الحادث بعد قليل، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشنكا أولاً.

لقد دخلت جروشنكا، متشحة كلها هي أيضاً بالسواد، واضعةً شالها الأسود الرائع على كتفيها. تقدمت إلى المكان الذي يقف فيه الشاهد ماشيةً مشيتها الصامتة الرقيقة الهادئة، مع شيء من ذلك الاهتزاز الذي نراه أحياناً في النساء البدينات بعض البدانة، محدِّقة إلى الرئيس تحديقاً ثابتاً، لا تنظر يمنةً ولا يسرة. في رأيي أنها كانت في تلك اللحظة جميلة جداً، ولم تكن شاحبة اللون البتة، كما زعمت، فيما بعد، السيدات اللواتي شهدن جلسة المحاكمة. وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلّص يعبّر عن خبث وشر. ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول التي كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التوّاق إلى الفضيحة. إن لجروشنكا شخصية أبية، ذات شَمَم وكبرياء، فهي لا تطيق الاحتقار. إنها من الناس الذين ما إن يشعروا بالاحتقار من جانب أحد ما، حتى يشتعلوا غيظا وظمأ إلى الرد. وإن فيها كذلك وجلاً مع شعور خفي بالخزي من هذا الوجل في الوقت نفسه، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلّم بصوت واحد أثناء إدلائها بشهادتها، وإنما تكلّمت بغضب تارة، وباحتقار تارة أخرى، مصطنعةً في الحالتين لهجة خشنة قاسية؛ ثم إذا هي بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتِ

صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقي اللوم على نفسها. كانت في بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط في هوة ولا يبالي العواقب. وكأنها تقول لنفسها: «ليكن ما يكون! ليحدث ما يحدث! فسأقولها». . . وفيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش صرَّحت تقول بلهجة قاطعة: «هذه كلها سفاسف! هل ذنبي أنا أنه تعلّق بي؟» ثم ما انقضت على ذلك دقيقة واحدة حتى أخذت تقول: «أنا الآثمة، أنا المسؤولة عن كل شيء. لقد عبثت بهما كليهما - عبثت بالعجوز وعبثت بهذا - فدفعتهما بذلك دفعاً إلى الكارثة. الذنب ذنبي أنا في كل ما حدث». ولما ذُكر اسم سامسونوف، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة: «ليس لأحد أن يتدخل في هذا. إنه الرجل المحسن إليَّ. لقد انتشلني من هوة البؤس حين طردني أهلي». فذكَّرها الرئيس، ولكن بلهجة مهذبة جداً، بأن عليها أن تقتصر على الإجابة على الأسئلة التي تلقى عليها دون الخوض في تفاصيل لا داعي إليها. فاحمرت جروشنكا، والتمعت عيناها.

صرحت جروشنكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه، وإنما هي سمعت من ذلك «الشرير» أن فيدور بافلوفتش أعدّه لها وفيه ثلاثة آلاف روبل، ثم أضافت تقول:

- على أن هذه كلها سخافات، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد، وما كان لي أن أذهب إليه بحال من الأحوال، هذا مؤكد. . .

سألها وكيل النيابة:

- من هذا الذي وصفته بأنه «شرير»؟

فأجابت:

- هو ذلك الخادم، هو ذلك السمردياكوف الذي قتل مولاه، ثم شنق نفسه أمس.

طبيعي أنها سئلت فوراً عن الأساس الذي تبني عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح، ولكن اتضح أنها هي أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة. قالت:

- ديمترى فيدوروفتش نفسه هو الذي قال لي ذلك وليس عليكم إلا أن تصدِّقوه!

ثم أضافت تقول وهي ترتعد كرهاً وحقداً، ويختلج في صوتها شرٌّ وخبث:

- إن تلك المرأة هي التي ضيعته، هذه هي الحقيقة كلها! إنها هي سبب كل شيء، هي وحدها! ذلك واضح!

سئلت جروشنكا من جديد أن تعيِّن الشخص الذي تعنيه بكلامها، فقالت:

- أعني الآنسة، أعني هذه الكاترينا إيفانوفنا الحاضرة هنا! لقد دعتني إلى منزلها، وقدمت لي شوكولاته، آملةً أن تغريني وأن تفتنني. ليس فيها حياء، هذه المرأة...

تدخل الرئيس ليوقفها عن هذا الكلام، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها. ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلي من الغيرة، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي إلى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب...

وتدخل وكيل النيابة فقال:

- حين قُبض على المتهم في موكرويه، فإن الناس منذ هرعت مسرعةً من الغرفة المجاورة، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلةً إنك أنتِ سبب كل شيء وإنك تريدين أن تصحبيه إلى السجن. فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنةً منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه؟

فأجابت جروشنكا قائلة:

- لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك. كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه، فأدركت أن الذنب ذنبي، وأنه إنما قتل أباه بسببي، ولكن حين أكَّد لي أنه بريء، صدقته فوراً، وما زلت أصدقه، وسأظل أصدِّقه إلى الأبد، لأنه ليس بالرجل الذي يكذب.

وجاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

أذكر أنه أشار عندئذ، بين أمور أخرى، إلى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته اياه، وهو خمسة وعشرون روبلاً، مكافأةً له على أنه أتاها بألكسي فيدوروفتش كارامازوف إلى منزلها. فقالت جروشنكا وهي تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار:

- لا عجب أن أخذ المبلغ. لقد كان يجيء إليَّ دائماً ليستعطيني بعض المال، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالى ثلاثين روبلاً في الشهر ينفقها على تسلياته الخاصة، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له.

سألها فيتوكوفتش، غير عابىء بالرئيس الذي أخذ يتحرك ويضطرب:

- ما هو السبب الذي جعلك سخيةً ذلك السخاء كله مع السيد راكيتين؟

- السبب بسيط، هو أن راكيتين ابن خالتي. أمي وأمه اختان. وقد رجاني أن لا أقول هنا كلمةً واحدة عن هذه القرابة، اذ يبدو أنه يشعر بعارٍ كبير من كونه يمت إليَّ بقرابة!.

بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودُهشوا منها، لأنها كانت مجهولةً في مدينتنا حتى ذلك الحين، وكانت مجهولةً حتى في

الدير. وكان ميتيا نفسه لا يعرفها. وقد ادّعى بعضهم أن راكيتين قد احمرّ احمراراً شديداً على كرسيه حينذاك. وكانت جروشنكا قد علمت، قبل دخولها إلى القاعة، أن راكيتين أدلى بشهادة تسيء إلى ميتيا، فأغضبها ذلك وأحنقها. وها هو ذا الخطاب الجميل الذي كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً في كلام نبيل، ثائراً على نظام القنانة، منتقداً ما يسيطر على روسيا من فوضى، ها هو ذا الخطاب يتحطم تحطماً لا قيام له بعده، فلا يبقى منه في أذهان الحضور أي أثر. وغبط فيتوكوفتش نفسه: لقد أسعفته السماء. ولم يطل استجواب جروشنكا كثيراً على وجه الإجمال، لا سيما وأنها لم تكن تحمل معلومات جديدة كثيرة. وقد تركت شهادتها في النفوس أثراً هو إلى السوء أقرب منه إلى الاستحسان. وتابعتها مئات نظرات الاحتقار حين انتهت من الإدلاء بشهادتها. فمضت تجلس في القاعة بعيداً عن كاترينا إيفانوفنا. وفي أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً كأنه متجمّد، وكان غاضاً بصره، مطرقاً بعينيه إلى الأرض.

واستدعي الشاهد التالي: إيفان فيدوروفتش.

- 5 -

كارثة مباغتة

أحسب أن من المفيد أن أذكر أن إيفان كان قد استُدعي مرةً قبل أليوشا. غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباغتة، وأنه مستعد للمثول متى طُلب منه أن يمثل بعد أن تتحسن حالته. ولم ينتبه أحد إلى هذا الأمر، ولم يعلم به أحد إلا فيما بعد. ولم يكن الحضور، على كل حال، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماماً كبيراً، فإن الأشخاص الرئيسيين في هذه الدراما، ولا سيما المرأتين المتنافستين، كانت قد سُمعت أقوالهم، فارتوى فضول الناس بذلك إلى حين. حتى لقد لوحظ شيء من التعب أصاب الجمهور. وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتي بأشياء جديدة كثيرة، لأن الأمور الأساسية قد قيلت. وكان الوقت يمضي. اقترب إيفان بخطى بطيئة بطأً غريباً، دون أن ينظر إلى أحد، غاضاً بصره مطرقاً إلى الأرض، كأنه يبذل جهوداً شاقة في سبيل أن يجمع شتات أفكاره. كان ملبسه سليماً لا مأخذ عليه، ولكن تعابير وجهه قد أحدثت، في نفسي أنا على الأقل، أثراً أليماً: كان وجهه يبدو بلون التراب كأنه وجه إنسان يُحتضر. وكانت نظرته تائهة مضطربة.

رفع عينيه، وأجال بصره في القاعة ببطء. انتفض أليوشا، وأنَّ أنةً صغيرة. إنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً، رغم أن أحداً لم يكد ينتبه إليه.

بدأ الرئيس بأن قال له إنه لن يُحلِّف اليمين، وأن في وسعه أن يتكلم أو أن يسكت على ما يُحِبّ، وإنما ينبغي له أن يشهد بما يمليه الضمير بالطبع، الخ. فكان إيفان يصغي محدقاً إليه بنظرة غامضة مبهمة. غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً بعد شيء، فما إن فرغ الرئيس الذي كان يراقبه مدهوشاً، ما إن فرغ من كلامه، حتى انفجر إيفان ضاحكاً مقهقهاً، وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان:

- وماذا أيضاً؟

خيَّم على القاعة صمت مطبق، وأحسّ الناس بأن دراما ستقع. واضطرب الرئيس. وسأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب:

- أتراك ما تزال مريضاً؟

فأجابه إيفان بصوت هادئ فيه احترام وتوقير:

- اطمئن يا صاحب السعادة، فإنني بخير تماماً، وإنني قادر على أن أذكر لكم أشياء هامّة وشيقة.

فعاد الرئيس يسأله وهو ما زال في شك من أمره:

- أعندك أشياء ذات أهمية خاصة تريد أن تنقلها إلينا؟

فخفض إيفان فيدوروفتش عينيه، وانتظر بضع ثوان، ثم رفع رأسه وأجاب في تردد:

- لا . . . لا شيء، ليس عندي شيء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة، فكان يجيب عنها على مضض، مقتضباً اقتضاباً مخلاً، متضايقاً تضايقاً ما ينفك يزداد. ولكن إجاباته كانت

متزنة معقولة. وأعلن مراراً أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه. من ذلك أنه قال إنه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمتري. وأضاف يقول: «وكان ذلك لا يهمني على كل حال». واعترف بأنه سمع المتهم يهدِّد بقتل أبيه. أما الظرف الذي كان يضم المال فإنما علم بوجوده من سمردياكوف.

وصاح إيفان يقول وقد اعتراه الإرهاق:

- لا جديد... ليس لديَّ شيء خاص أقوله لكم.

وبدأ الرئيس يتكلم فقال:

- أنا أرى أنك مريض، وأدرك مشاعرك...

ثم اتجه إلى وكيل النيابة والمحامي يدعوهما إلى استجواب الشاهد إذا كانا يريان في ذلك فائدة.

فإذا بإيفان فيدوروفتش يتضرع على حين فجأة قائلاً بصوت منطفىء:

- اسمح لي بالانصراف يا صاحب السعادة، فإنني أشعر بضعف شديد.

وما إن قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، واتجه نحو باب الخروج. ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر في شيء ما، وابتسم صامتاً، وعاد إلى حيث كان من مكان الشهود، وقال:

- أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التي كانت... كما تعلمون... تقول: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». كانوا قد جاؤوها بثوب الزفاف ليقودوها إلى الهيكل، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية.

قاطعه الرئيس قائلاً بلهجة صارمة:

- ما الذي تريد أن تخلص إليه من هذا الكلام؟

فأجاب إيفان فيدوروفتش وهو يسلّ من جيبه رزمة الأوراق المالية فجأة:

- ما الذي أريد أن أخلص إليه؟ إليك ما الذي أريد أن أخلص إليه... إن هذا المال هو الذي كان موجوداً في هذا الظرف (وأومأ إلى المائدة التي جُمعت عليها وثائق الاتهام)، والذي بسببه قُتل أبي. أين تريدون أن أضعه؟ يا سيدي حاجب المحكمة، انقل هذا المال إلى من يجب نقله إليه.

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومدَّها إلى الرئيس.

سأله الرئيس مدهوشاً:

- كيف وُجد هذا المال معك؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً؟...

- أخذته أمس من سمردياكوف، من القاتل. زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة. إنه هو الذي قتل أبي. ليس أخي القاتل. سمردياكوف هو الذي قتل، وأنا الذي حرضته على ذلك ودفعته إليه. من ذا الذي لا يتمنّى موت أبيه؟

صاح الرئيس يقول على غير إرادة منه:

- أأنت تملك عقلك كاملاً؟

- المصيبة كلها هي أنني أملك عقلي كاملاً... وهو عقل خسيس من جهة أخرى، لا يقل خسة عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء... (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور).

وأضاف يقول معبراً عن احتقار مبغض كاره:

- هم جميعاً قتلوا آباءهم، ثم يتظاهرون بالهول والروع! إنهم

يمثِّلون، يضحك بعضهم على بعض... كاذبون! إنهم جميعاً يتمنون موت آبائهم. وحش يفترس وحشاً آخر. إذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين... إنهم في حاجة إلى مشهد يتسلون بالنظر إليه! «خبزاً وعُروضاً!»[50] ولست أنا خيراً منهم على كل حال. هل عندكم ماء؟ اسقوني ماء ناشدتكم الله!

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه.

أسرع الحاجب يقترب منه. ووثب أليوشا من مكانه صائحاً:

- إنه مريض، لا تصدِّقوه، إنه مصاب بنوبة حمى عصبية!

وانتصبت كاترينا إيفانوفنا واقفةً وقد جمَّدها الخوف، وحدَّقت إلى إيفان فيدوروفتش. ونهض ميتيا أيضاً، فتأمل أخاه وهو يبتسم ابتسامة أليمة بينما كان يصغي إليه في نهم وشراهة.

واستأنف إيفان كلامه فقال:

- اطمئنوا. ما أنا بمجنون. أنا قاتل فحسب.

ثم أضاف يقول لا يدري أحد لماذا:

- ليس يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً.

وضحك مقهقهاً ساخراً.

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً اضطراباً واضحاً؛ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون. كان فيتوكوفتش يصغي بانتباه شديد. وصمت الجمهور ينتظر متجمداً. وبدا على الرئيس فجأة أنه ثاب إلى نفسه واسترد ثبات جنانه، فقال:

- أيها الشاهد. إن أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة في هذا المكان. هدئ روعك إذا استطعت، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً... قل لنا ما هي الأدلة التي تقيم عليها مثل هذا الاعتراف... إذا كنت لا تهذي فحسب!

- ليس عندي شهود. إن ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل إليكم اعترافه من السماء... في ظرف. وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف. يكفي هذا الظرف. لا، ليس عندي شهود.

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة:

- اللّهم إلا شاهداً واحداً.

- من هو هذا الشاهد؟

- إن له ذيلاً يا صاحب السعادة، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا. «الشيطان لا وجود له أبداً».

وواصل إيفان كلامه، دون أن يضحك في هذه المرة، وإنما هو يصطنع لهجه المسارَّة والنجوى:

- لا تلقوا إليه بالاً، إنه شيطان تعيس حقير. لا شك في أنه مختبئ بمكان ما هنا، ربما تحت مائدة وثائق الإثبات. أين عساه يختبئ إن لم يختبئ هناك. اسمعوا، أصغوا إليَّ: لقد قلت له إنني لن أستطيع أن أسكت، وكان هو لا ينفك يحدثني عن ذلك التحول الجيولوجي... سخافات! هيه هيا، فكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا سراحه... لقد غنّى نشيده لأنه كان فرح القلب! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانكا المسافر إلى بيتر! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كوادريليون من الكوادريليونات في سبيل ثانيتين من فرح! أوه! إنكم لا تعرفونني! ما أغبى هذا كله! خذوني أنا بدلاً عنه! لا بد أنني جئت لأمرٍ ما... لماذا، لماذا كل هذا الغباء؟...

وأجال إيفان على القاعة نظرة بطيئة، وهو واجم الفكر. اضطرب جميع الناس. اندفع أليوشا نحو أخيه، ولكن الحاجب كان قد أمسك إيفان من ذراعه.

صرخ إيفان وهو يتفرّس في الحاجب:

- ما هذا أيضاً؟

ثم قبض على كتفيه فجأة، ورماه على أرض القاعة. هرع الحرس وسيطروا على إيفان. فأطلق عندئذ من صدره عويلاً حاداً، وظل يعول هذا العويل راشقاً عبارات مفككة، بينما كان يُقاد إلى خارج القاعة.

نشب اضطراب شديد، وقامت بلبلة كبرى. لا أتذكر جميع التفاصيل، لأنني كنت أنا نفسي منفعلاً أشد الانفعال في تلك اللحظة، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة، لكنني أعلم أنه حين عاد النظام إلى نصابه، قُرّع الحاجب تقريعاً قاسياً، رغم أنه أفاض في الشرح قائلاً إن الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض، وأن الطبيب الذي فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى. وأضاف الحاجب يقول: ثم إنه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له. هذا إلى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلي بشهادته، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما كلف الأمر.

ولم يكن الانفعال الذي أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً، حين حدث حادث أليم آخر. لقد أصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية، فأخذت تنشج نشيجاً قوياً، وتطلق صرخات حادة ولكنها رفضت أن تنصرف، وظلت تتخبط ضارعةً متوسلة أن لا يبعدوها. ثم صرخت تقول للرئيس فجأة:

- عندي تصريح آخر أريد أن أفضي به. يجب عليَّ أن أذكر الحقيقة فوراً... فوراً! إليكم هذه الورقة، إنها رسالة... خذوها فاقرأوها، بسرعة! هي رسالة أرسلها إليَّ هذا الإنسان الأشوه، هذا،

نعم، هذا (وأومأت إلى ميتيا). إنه هو الذي قتل أباه، سترون، لقد ذكر لي ذلك كتابةً. كتب إليّ أنه سيقتل أباه! أما الآخر فهو مريض، مريض، إنه مصاب بحمى عصبية! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض.

كانت تصرخ وهي نهب اضطراب شديد. تناول الحاجب الرسالة ومدَّها إلى الرئيس. وتهاوت كاترينا إيفانوفنا على كرسيها وهي تغطي وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجي صامت. وكانت تحاول مع ذلك أن تخنق نشيجها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة. إن الورقة التي تناولها الحاجب من كاترينا إيفانوفنا هي بعينها الرسالة التي كتبها ميتيا في «العاصمة الكبرى»، والتي كان يصفها إيفان فيدوروفتش بأنها برهان رياضي على الجريمة. واحسرتاه! لقد عُدَّت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضي فعلاً، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على الأقل. أعود فأقول: لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شيء تفصيلاً، وما تزال ذكرياتي إلى الآن تختلط في شعورٍ بفوضى شاملة. لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحلفين على تلك الرسالة فوراً. لا أدري. ولكنني أتذكر أن كاترينا إيفانوفنا قد أعيد استجوابها. سألها الرئيس في رفق ولطف أهي تشعر بأنها هادئة هدوءاً كافياً لتستطيع الإجابة، فهتفت تقول بقوة:

- أنا مستعدة، مستعدة كل الاستعداد.

وأضافت وهي تخشى خشية رهيبة، فيما يبدو، أن يرفضوا الاستماع إليها:

- أنا قادرة على الإجابة كل القدرة، كل القدرة!

سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها إليها. فقالت:

- وصلتني عشية وقوع الجريمة، وقد كتبها هو من الحانة في اليوم السابق. أي قبل ارتكابه الجريمة بيومين. انظروا: إن هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هي نوع من فاتورة حساب - كذلك صاحت تقول لاهثة - كان يكرهني في تلك الآونة، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة... ولأنه كان مديناً لي بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً... أوه! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل، فإليكم كيف جرت الأمور. أرجوكم أن تستمعوا إليَّ، أتضرع إليكم أن تستمعوا إليَّ: قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء إليَّ في ذات صباح. كنت أعلم أنه في حاجة إلى مال، وكنت لا أجهل سرَّ حاجته إلى المال. كان يريد، نعم، كان يريد أن يغري هذه المخلوقة وأن يرحل بها. وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خانني وأنه يفكر في تركي. وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسي. أعطيته ذلك المبلغ بحجة أنني أريد منه ان يرسله إلى أختي في موسكو. وحين سلمته المال أعلنت له، وعيني في عينيه، أنه يستطيع أن يرسله «ولو بعد شهر» إذا كان ذلك يناسبه، فكيف، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له: «أأنت في حاجة إلى المال لكي تخونني مع تلك المخلوقة؟ إذاً خذ هذا المال، إنني أعطيك إياه من تلقاء نفسي. خذه، إذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال مني». كنت أريد أن أُخجله. فماذا تظنون أنه فعل؟ لقد أخذ المال، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك في ليلة واحدة، هنالك، مع هذه المخلوقة. وقد فهم مع

ذلك، فهم في تلك اللحظة أنني كنت على علم بكل شيء. صدقوني أنه فهم أنني كنت أريد أن أمتحنه حين عهدت إليه بهذا المال، وأنني كنت أحبّ أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف حدّ أن يأخذ مني هذا المال. كنت أحدِّق إلى عينيه، وكان يحدِّق إلى عيني هو أيضاً، لأنه كان يفهمني حق الفهم، وكان يفهم كل شيء. ورغم ذلك أخذ المال، أخذه ومضى به.

زأر ميتيا يقول فجأة:

- هذه هي الحقيقة بعينها يا كاتيا! كنت أحدِّق إلى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار. ومع ذلك أخذت المال! احتقريني. أنا الشقي، احتقروني جميعاً! إنني أستحق هذا الاحتقار!

هتف الرئيس يخاطبه:

- يا متهم! إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فلأخرجنك من القاعة.

وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية:

- كان يعذبه هذا المبلغ. كان يريد أن يردَّه إليَّ، هذا صحيح، كان يحرص على أن يردَّه، ولكنه كان في حاجة إلى مال من أجل هذه المخلوقة. لذلك قرر أن يقتل أباه، ولكنه لم يردَّ إليَّ ديني، وإنما ذهب مع هذه المرأة إلى تلك القرية، فتم القبض عليه هناك. لقد بدَّد في تلك القرية، مرةً أخرى، المال الذي سرقه من أبيه بعد أن قتله. وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب إليَّ الرسالة. كتبها وهو سكران، أدركتُ ذلك فوراً. وكتبها عن خبث وشر، لعلمه علمَ اليقين بأنني لن أُطلع عليها أحداً، ولو ارتكب هذه الجريمة، والا لما كتبها. كان يعرف أنني لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه. هلاّ قرأتم الرسالة! اقرأوا بمزيد من الإمعان، أرجوكم، لتعلموا أنه قد وصف في هذه الرسالة كل شيء سلفاً، ذكر كيف

سيتدبر الأمر ليقتل أباه، وذكر أين يوجد المال، ذكر ذلك كله سلفاً. وأحب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى عباراته خاصةً، راجيةً أن تقفوا عندها وهي عبارة: «شريطة أن يكون إيفان غائباً». هل رأيتم؟ لقد قتل عن سابق تصوّر وتصميم، وفكّر في جميع التفاصيل. كذلك قالت كاترينا إيفانوفنا بخبث وشر وسوء، كأنما لتؤثر في عقول القضاء تأثيراً أقوى وأضمن - واضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشؤومة دراسة دقيقة، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر قلب - ولولا أنه كان عندئذ في حالة سكر لما كتب إليَّ بهذه الطريقة. انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفاً كل شيء، بنفس التفاصيل التي نفذ بها القتل فيما بعد. الخطة كلها!

هكذا كانت تصيح غضبى؛ وواضح أنها كانت لا تبالي في تلك اللحظة بعواقب شهادتها. ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهي ترتعش استياءً: «أيجب عليَّ أن أقرأ هذه الرسالة في جلسة المحاكمة؟». أما وأنها عزمت أمرها، فإنها لا تأسف الآن على شيء، ولا تبالي شيئاً. أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ، فتركت في نفوس الجميع انطباعاً مذهلاً.

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة فصاح ميتيا يقول:

- هي رسالتي، نعم، رسالتي! وما كنت لأكتبها لولا السكر! . . يا كاتيا، إن كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة. ولكنني أحلف لك، أحلف لك على أنني، حتى حين كرهتك، كنت لا أزال أحبك. أما أنت فلا! . . .

قال ميتيا ذلك، وتهالك على كرسيه وهو يلوي يديه كرباً ويأساً.

وتناوب وكيل النيابة والمحامي إلقاء الأسئلة على كاترينا إيفانوفنا، ملحّين خاصةً على الأسباب «التي دفعتها إلى أن تسكت في بداية شهادتها عن وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن، وأن تدلي بتصريحات تختلف في لهجتها وروحها عن أقوالها الآن».
فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً:

- صحيح، نعم، كذبتُ منذ قليل. كذبت عن عمد وقصد على خلاف ما توجبه أمانتي ويوجبه ضميري. ولكنني أردت أن أنقذه في تلك اللحظة، لأنه كان يكرهني ويحتقرني. أوه! كان يحتقرني احتقاراً فظيعاً؛ واعلموا أنه كان يحتقرني دائماً! احتقرني منذ اللحظة التي انحنيت فيها أمامه ساجدةً في سبيل ذلك المال. رأيتُ ذلك... أحسست به فوراً، ولكنني لبثت زمناً طويلاً أتردد في تصديقه. كم من مرة قرأت في عينيه أنه يقول لي: «مع ذلك، أنت التي جئت إليَّ في الماضي». آه... إنه لم يفهمني، إنه لم يفهم شيئاً من سلوكي في يوم من الأيام، إنه لم يدرك سبب مجيئي إليه، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلا أحقر الدوافع وأدنأ البواعث. لقد حكم عليَّ من خلال نفسه هو.

وأضافت كاترينا إيفانوفنا تقول وهي تصرّ بأسنانها غضباً، لأنها كانت في حالة اندفاع شديد:

- ظن أن جميع الناس مثله. ولم يخطر بباله أن يتزوجني بعد ذلك إلا لأنني ورثت ثروة. ذلك هو السبب، ذلك هو السبب! لقد قدَّرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقي! آه... هذا شيطان رجيم. ظن أنني سأظل طول حياتي أرتعش أمامه خجلاً من أنني ذهبت إليه في الماضي، وأنه سيستطيع أن يحتقرني لهذا وأن يتسلط عليَّ. ذلك هو السبب في أنه أراد أن يتزوجني، ذلك هو السبب! هذا ما

حدث، أؤكد لكم أن هذا ما حدث! حاولت أن آخذه بالحب، بحبٍ لا نهاية له، حتى لقد كنت مستعدةً لأن أغفر له خيانته. ولكنه لم يفهم شيئاً، لم يفهم شيئاً البتة، البتة! وهل هو قادر على أن يفهم أي شيء؟ هذا مخلوق أشوه! وصلتني منه هذه الرسالة في ذلك الصباح، جاؤوني بها من الحانة، بينما كنت في ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شيء، حتى خيانته!

حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدِّئاها طبعاً. وإني لعلى يقين من أنهم جميعاً كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال، ومن الاستماع إلى مثل هذه الاعترافات. أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها: «نحن نفهم ما تعانين من ألم، وثقي أننا نشاطرك هذا الألم» الخ. ولكن هذا لا ينفي أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت في حالة قريبة من الهستيريا، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها. ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح - وهذا ما يتجلى في كثير من الأحيان، ولو على نحو عابر، في لحظات التوتر النفسي الشديد الذي من هذا النوع - كيف أن إيفان فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التي حاصرته واستبدت به، وهي أن عليه أن ينقذ أخاه، «هذا الشيطان، هذا القاتل».

وهتفت تقول:

- كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ. وكان يريد أن يخفّف من ذنب أخيه قائلاً لي إنه كان هو نفسه لا يحب أباه، وإنه ربما كان يتمنى موته. آه... هذا إنسان ذو ضمير حي ووجدان رفيع! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير. قال لي كل شيء، كل شيء إطلاقاً! كان يجيء إليَّ كل يوم فيتحدث إليَّ حديثه مع صديقته

الوحيدة! ولي الشرف بأن أكون صديقته الوحيدة! - هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدي والتمعت عيناها - لقد ذهب إلى سمردياكوف مرتين. وفي ذات يوم جاء إليَّ فقال لي: «إذا لم يكن القاتل أخي بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، كانت قد أُطلقت بين الناس)، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً، لأن سمردياكوف كان يعلم أنني لا أحبّ أبي وأنني أتمنى موته». وعندئذ إنما أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها. فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل، فإذا بهذه الفكرة تحطّم نفسه أخيراً. لم يطق أن يتصور أن يكون أخاه قاتل أبيه! وقد لاحظت، منذ أسبوع، أن ذلك أمرضه فعلاً. كان يتفق له في الأيام الأخيرة أن يأخذ يهذي أثناء زياراته لي. وأدركت أنه في الطريق إلى الجنون. كان يهذي وهو يسير، وقد شوهد هائماً على وجهه محدّثاً نفسه في شوارع مدينتنا. وحين فحصه، أمس الأول، تلبيةً لطلبي، الطبيبُ الأخصائي الذي وفد إلى مدينتنا، قال لي إنه على وشك أن يُصاب بالحمّى العصبية. ذلك كله بسببه، بسبب هذا الشيطان الرجيم! وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر، فأحدث هذا النبأ في نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله... وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم، بسبب رغبته في إنقاذ هذا الشيطان الرجيم!

أوه! أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلي باعترافات من هذا النوع إلا مرةً واحدة طوال حياته، في اللحظات التي تسبق الموت، حين يصعد مثلاً درجات المشنقة. لقد كانت كاتيا في حالة من هذا النوع نفسه، هي حالة تتفق وطبعها على كل حال. إنها في الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التي هرعت في

الماضي إلى بيت الضابط الفاسق إنقاذاً لأبيها، إنها كاتيا تلك نفسها التي ارتضت منذ قليل أن تضحي على رؤوس الأشهاد بحيائها وخفرها، وهي العفيفة الأبية الطاهرة ذات الكبرياء، فقصت قصة «السلوك النبيل الذي سلكه ميتيا»، لا لشيء إلا أن تخفف المصير الذي ينتظره بعض التخفيف. وهي بهذه الطريقة نفسها، وعلى هذا النحو نفسه، إنما تضحي بنفسها الآن، ولكن في سبيل رجل آخر، في سبيل رجلٍ لعلها أدركت لأول مرة في تلك اللحظة مدى ما تضمر له من حبّ. تضحي بنفسها في سبيله مخافة أن يكون قد أساء إلى شرفه وإلى سمعته حين قال إنه هو القاتل لقد بدا لها فجأةً أنه بشهادته قد ضيَّع نفسه، فهي تضحّي بنفسها لتنقذه هو، لتنقذ اسمه وسمعته! على أن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه: هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها؟ لا، لا، لا... إنها لم تندد به عامدةً حين صرخت تقول إنه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التي حيته بها في الماضي! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة، لقد كانت مقتنعة، ربما منذ حيّته بتلك التحية، أن ميتيا، هذا الطفل البسيط الطيب الذي كان يحبها حب العبادة في ذلك الأوان، قد احتقرها وسخر منها واستهزأ بها. وهي ما تعلقت به ذلك التعلق، ولا أحبته ذلك الحب الهستيري المصطنع المغالي إلا من قبيل الكبرياء وحدها. إن ذلك الحب، الذي نشأ عن زهو جريح، كان أقرب إلى الانتقام منه إلى الحب. وربما كان يمكن أن تستحيل هذه العاطفة المجلوبة إلى حب حقيقي ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال، ولكن ميتيا أساء إليها بخيانته إساءة عميقة، وأهانها إهانةً بالغة، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتغطرسة أن تغفر له. وحلَّت ساعة الانتقام فجأة، على

نحو لم تكن تتوقعه هي نفسها، فإذا بالأحقاد التي تراكمت في قلب المرأة المهانة تراكماً أليماً هذه المدة الطويلة كلها، إذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة على حين بغتة. إن كاتيا تخون ميتيا الآن، ولكنها تخون نفسها أيضاً! وطبيعي أن التوتر العصبي قد زال منذ أفصحت عما يعتلج في قلبها فأخذ يستولي عليها الشعور بالخزي والعار. لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة، فتهاوت على مقعدها وهي تنشج وتئن. فاضطروا إلى نقلها من القاعة. وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها:

- ميتيا! إن هذه الأفعى قد ضيّعتك!

وأضافت تقول وهي ترتعش غضباً وتتجه بكلامها إلى أعضاء المحكمة:

- ها هي ذي الآن تظهر على حقيقتها!

وبأمرٍ من رئيس المحكمة، أُمسكت جروشنكا واقتيدت إلى خارج القاعة. كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا. فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها. فأمسكوه وسيطروا عليه.

افترض أن سيداتنا اللواتي جئن إلى جلسة المحاكمة كمشاهدات، قد أرضاهن ما رأين: فقد كان مشهداً حافلاً يستحق العناء. وأتذكر أن الطبيب الأخصائي الوافد من موسكو قد ظهر في تلك اللحظة. يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لإسعاف إيفان فيدوروفتش. قال الطبيب للمحكمة إن إيفان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات الحمّى العصبية، وإن من الواجب صرفه فوراً. وجواباً عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامي، صرَّح بأن المريض قد جاء يستشيره في أمر مرضه منذ يومين، وبأنه

قد تنبأ له بنوبة حمّى عصبية وشيكة، ولكن إيفان فيدوروفتش رفض أن يُعالَج. قال الطبيب راوياً: «لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً. واعترف لي هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له، فهو يرى في الشارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد، ويزوره الشيطان مساء كل يوم». وانصرف طبيب الأمراض العقلية الشهير بعد أن فرغ من الإدلاء بشهادته. وضُمَّت الرسالة التي قدمتها كاترينا إيفانوفنا، ضُمَّت إلى وثائق الإثبات. وتشاور أعضاء المحكمة، فقرروا أن يواصلوا مناقشة الشهود. ودُوِّنت الشهادتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعني أقوال كاترينا إيفانوفنا وإيفان فيدوروفتش) في محاضر المحاكمة.

أحسب أنه لا داعي إلى سرد تتمة مناقشة الشهود. فإن أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأتِ بشيء جديد، ولم تزد على تكرار ما عرفه القارىء حتى الآن، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية. وأقول مرة أخرى: إن جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التي سأعرض لها حالاً. وحسبي أن أشير هنا إلى أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول الكارثة، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدراما وخطابي الاتهام والدفاع بقلوب يحرقها نفاد الصبر. وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترينا إيفانوفنا قد أذهلته. أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. حتى إذا انتهت مناقشة الشهود رُفعت الجلسة نحو ساعة. وأعلن الرئيس أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة. وأظن أن الساعة كانت هي الثامنة تماماً من المساء حين بدأ ايبوليت كيريلوفتش القاء مطالعته.

– 6 –

مرافعة النيابة - تقييمات

حين بدأ ايبوليت كيريلوفتش إلقاء مرافعته كان يرتعش ارتعاشة عصبية، والعرق البارد ينضح على جبينه وصدغيه، وهو يشعر بحُمّى وبارتعاد، مرةً بعد مرة. بهذا وصف هو نفسه، فيما بعد، الحالة التي كان عليها حينذاك. كان يرى أن المرافعة «أفضل إنتاجه» وتاجاً يتوِّج حياته في آخر عهده بمهنته، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته. وقد مات ايبوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر، من سلٍ خبيث لم يمهله طويلاً، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغني قبل موتها، إذا صدق أنه أوجس ذلك حقاً. لقد وضع في هذه المرافعة كل قلبه، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه، وأنه يهتم هو أيضاً «بالمشكلات الحادة»، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين ايبوليت كيريلوفتش على فهمها. وقد فتن الناس بصدقه خاصة: كان ايبوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجاني، فكان لا يتهمه ويطالب بإنزال «العقاب» في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب، وإنما كان كذلك مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بما يقول، وكان مشبعاً بعاطفة «إنقاذ المجتمع». إن النساء من جمهور المشاهدين،

وهنَّ يعادين بمشاعرهن ايبوليت كيريلوفتش، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن. ولقد بدأ وكيل النيابة إلقاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى شيئاً فشيئاً، ثم يدوِّي في القاعة كلها إلى نهايته. ومع ذلك أوشك ايبوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين فرغ من إلقاء الخطاب. بدأ وكيل النيابة مرافعته هكذا:

«سادتي المحلفين! إن القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في روسيا كلها. ولكن فيما نُدهش وفيما نُروَّع؟ هل من حقنا أن نُدهش وأن نُروَّع؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل؟ ألا إن أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت لا تهز نفوسنا! ذلك هو بلاؤنا! وأن هذا التعود على الشر هو ما ينبغي أن نحزن له، لا هذه أو تلك من الجرائم التي يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين. فما هي أسباب قلة اكتراثنا، ما هي أسباب عدم انفعالنا إزاء جرائم من هذا النوع، جرائم هي في حقيقة الأمر علامات شرٍّ مستطير تنذر بمستقبل مظلم؟ هل ترجع تلك الأسباب إلى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف، هل ترجع إلى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً في مجتمعنا هذا الذي ما يزال فتياً ثم هو قد شاخ قبل الأوان؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا إلى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت، اللّهم إلا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة ومعذِّبة، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن، ينبغي بل ويجب عليه أن يعانيها. إن صحافتنا التي ما تزال في بداياتها، والتي تُظهر شيئاً من التهيب في بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية

خدمات كبيرة فلولاها لما استطعنا أن نعرف بصورة مستفيضة كل ما يعيث في بلادنا فساداً وانحلالاً من جميع الأهواء وفساد الأخلاق مما تطلعنا عليه في صفحاتها كل يوم، وبذلك لا تقتصر معرفةُ الواقع المرير على الذين يحضرون في قاعات المحاكم الجديدة العلنية التي منحنا إياها في عهد القيصر الحالي[51] والتي يُعدّ نشر وقائعها من حسنات النظام الحالي. وإنما تتعداهم إلى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا نقرأ كل يوم في هذه الصحف؟ وا أسفاه! إننا نقرأ في هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التي ننظر فيها اليوم، ولا تعد هذه القضية بالقياس إليها إلا حادثاً تافهاً مبذولاً. وأخطر ما في الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية، قضايانا الروسية، يدل على نوع من سقوط جماعي عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعاً، بلاء رسخ في أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً، فأصبحت محاربته أمراً شاقاً عسيراً فها هو ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية[52] في بداية حياته وبداية مهنته. ها هو ذا لا يتردد، في ذات يوم، عن ذبح خادمة موظف بسيط كان قد قدَّم له خدمة، وعن ذبح هذا الموظف بوضاعة، ودون أن يحسّ بشيء من عذاب الضمير، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرَّره له اعترافاً منه بدينه عليه؛ ثم هو ينتهز الفرصة، فيسطو على ما يجده في منزل القتيل من مال، قائلاً لنفسه: «سينفعني هذا المال في استمراري على معاشرة المجتمع الراقي، وسيسهِّل ارتقائي في وظيفتي تبعاً لذلك»؛ حتى إذا فرغ من الإجهاز على ضحيتيه، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة، وانصرف. وإليكم مثالاً آخر: شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته. ها هو ذا يقتل في الطريق كما يفعل قاطع طُرُق، يقتل أمَّ رئيسه المحسن إليه؛

ومن أجل أن يطمئن شركاءه في الجريمة، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته في ارتكاب الجريمة، يقول لهم: «إن هذه المرأة تحبني كابنها، لهذا ستتبع نصائحي دون أن تتخذ أي احتياط من الاحتياطات». صحيح أن هذا إنسان شاذ. ولكنني لا أجرؤ أن أقول إنه حالة مفردة في هذا العصر الذي نعيش فيه. وهناك آخرون قد لا يقتلون، ولكن نفوسهم تجيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التي تجيش بها نفس ذلك المجرم، وهم خالون من الشرف خلوَّه هو منهم، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون: «ما هو الشرف؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة؟».

قد تقولون عني إنني متشائم تشاؤماً هو أقرب إلى المرض، واشهِّر بالناس تشهيراً خبيثاً، وأغالي في وصف الشر الذي ألاحظه مغالاة هاذية! آه... كم أتمنى يا رب السماء أن تكونوا محقين، إذاً لكنت أول من يسعد. لكم أن لا تصدقوني إذا شئتم، ولكم أن تعدوا قلقي هذا وخوفي هذا مرضاً، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم: إذا لم يكن في أقوالي إلا عُشر أو عشر معشار من صدق، فذلك وحده رهيب! هل فكرتم، أيها السادة، في العدد المروِّع من الشباب الذين ينتحرون في بلادنا؟ إنهم يقتلون أنفسهم بلا كلام، دون أن يتساءلوا، كما فعل هاملت، عمَّا سيصيرون إليه بعد الموت. لكأن مشكلة النفس الإنسانية، لكأن مشكلة المصير الذي ينتظرنا في الحياة الآخرة، أصبحت غريبة عن عقولهم، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمن طويل. وانظروا، بعد، إلى فساد أخلاقنا وتحلّل عاداتنا الذي يتجلّى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا. إن فيدور بافلوفتش، الشقيَّ المجنيَّ عليه في هذه القضية، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً إذا قيس بأولئك الفاسقين

الماجنين، ولقد عرفناه جميعاً، «وكان واحداً منا»... قد يجيء يوم تعكف فيه عقول متفوّقة، في بلادنا وفي البلاد الأخرى، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسي، لأن الموضوع يستحق عناء الدرس طبعاً. ولكن هذه الدراسة ستتم في المستقبل، حين يهدأ البال ويطمئن العقل، حين تصبح ضروب المآسي التي يعاني منها عصرنا ذكرى لا أكثر، فيكون من الممكن عندئذ أن تُدْرَسَ دراسةً فيها من الإنصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلي في هذا الأوان؛ نحن الآن مروَّعون، أو نحن نتظاهر بأننا مروعون، مع تلذذنا بمشهد الجريمة، لأننا نحب الإحساسات القوية الشاذة العنيفة التي توقظ نفوسنا من الخدر وتهزّ ما تعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار؛ أو قولوا أيضاً إننا أشبه بأطفال صغار. نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا، وندفن وجوهنا في الوسادة إلى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة، عازمين على أن ننساها فوراً بالمسرات واللعب. ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة مأخذ الجد، وعلى أن نفكر فيما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا. لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم، أو لنحاول أن نفهم، على الأقل ما يجري في مجتمعنا. إن كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب[53]، قد شبَّه روسيا، في خاتمة كتابه الرائع، بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعاً نحو غاية مجهولة، فهتف يخاطبها قائلاً: «أيتها الترويكا، يا طائراً سريعاً، من ذا الذي أوجدك؟» وأضاف يقول في اندفاعة كبرياء وعجب وزهو: إن الشعوب لتتنحى باحترام من طريق الترويكا الجبارة. ليكن، أيها السادة! لنسلم بأن الشعوب تتنحى باحترام أو بدون احترام. ولكنني أعتقد، في رأيي المتواضع، أن الفنان العبقري إنما استعمل هذه

الصورة وهو في حالة اندفاع مثالي طفولي يُغفر له، أو لعله لجأ إلى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد؛ إذ لو شُدَّ إلى هذه الترويكا أبطالُ روايته نفسها، أمثال سوباكيفتش ونوزدرويوف وتشيتشيكوف، فهل تعلمون إلى أين يمكن أن تقودنا الترويكا بهذه الخيول أياً كان الحوذى الذي يقودها؟ وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد غابر لا تُضارع خيول هذا الزمان. وقد رأينا بعدها كثيراً. . . ».

هنا قطع مرافعة ايبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور - لقد طرب الجمهور مما في صورة الترويكا هذه من ليبرالية. ولكن التصفيق الذي انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن «يهدد بإخلاء القاعة»، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية. غير أن ايبوليت كيريلوفتش قد تشجّع. إنه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً في حياته. لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الإصغاء إليه، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن يُسْمِعَ صوته إلى روسيا كلها! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال:

«ما الذي تمثله في الواقع أسرة كارامازوف هذه التي اكتسبت في بلادنا، بين عشية وضحاها، شهرةً سوداء هذا السواد كله؟ قد تظنون أنني أبالغ، ولكنني أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر؛ صحيح أنها تعكسها مصغَّرة تصغيراً مكروسكوبياً، كما «تعكس الشمسَ قطرةُ ماء»، ولكننا نجد فيها قبساتٍ ذات دلالة. انظروا أولاً إلى ذلك العجوز الشقي، ذلك الفاسق الجريء، ذلك «الأب» الذي لقي مصيراً حزيناً تعيساً. لقد بدأ حياته طفيلياً مسكيناً رغم نبالة محتده وأتاح له زواج موفق لم

يكن يأمله، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به. لم يكن الرجل في ذلك الحين إلا غشاشاً ضيّق المدى ومهرّجاً يتملق الأقوياء، ولكنه يملك مزايا ذكاء لا تُجحد. وهو قبل كل شيء مراب. وتنقضي السنون، فيربو رأس ماله، ويأخذ يرفع رأسه شيئاً بعد شيء. وتختفي المذلة والاستكانة وتزول الزلفى والمداهنة، ولا يبقى من الرجل إلا إنسان فاجر عاهر، إنسان شرير خبيث ساخر. غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً لا رجعة لها بعده، وأصبح ظمؤه إلى اللذة ظمأً جارفاً لا حدود له، وغدا لا يرى في الوجود إلا المباهج والمتع والملذات؛ وبهذه الروح إنما نشّأ أولاده، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فإنه لم يعبأ بها ولم يكترث لها. إنه لا يبالي بأبنائه، بل يتركهم في الفناء الخلفي من منزله، ويعد نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه. ثم ينسى وجودهم آخر الأمر نسياناً تاماً. إن قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تتلخص في قول القائل: «من بعدي الطوفان» إن نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع، في عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع، ولسان حاله يقول: «ألا فليهلك المجتمع كله، شريطة أن أكون أنا بخير». ولقد كان بخير فعلاً، فهو راض عن مصيره، مغتبط بما ناله، يتمنى بحرارة أن يعيش على هذا النحو عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى. وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه؛ وبالمال الذي آل إلى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردّه إليه، يحاول أن ينتزع من الأبن عشيقته. لا، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامي اللامع الذي وفد إلينا من سان بطرسبرج! سأقول الحقيقة بنفسي، لأنني أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب في نفس ابنه. ولكن كفانا ما قلناه عن

ذلك العجوز، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً. ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا. أتقولون إنني أهين المجتمع إذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين؟ واأسفاه! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه، في عصرنا هذا، إلا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه، بينما هم في الواقع يشاطرونه آراءه! لنسلِّم جدلاً بأنني متشائم. لقد اتفقنا على أن تعذروني هذه المرة. فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقونني، ولكنني سأعبِّر عن آرائي تعبيراً حراً، وسأقول كل ما أعتقد به في قرارة نفسي. لكم أن لا تصدقوني. ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى في نفوسكم مهما يكن من أمر.

لننتقل الآن إلى أبناء ذلك العجوز، ذلك الأب الذي هو رب أسرة: إن واحداً منهم يجلس الآن أمامكم في قفص الاتهام. وسأتحدث عنه، فيما بعد، حديثاً أطول. أما الآخران، فسأوجز الكلام عليهما. إن أكبرهما هو واحد من شبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتازة وذكاءً عظيماً، ولكنه لا يؤمن بشيء، لأنه كان قد نبذ وجحد أموراً كثيرة قبل ذلك، كأبيه تماماً. إننا نعرفه جميعاً: لقد استُقبل استقبالاً حاراً في مجتمعنا، وكان لا يخفي آراءه. بالعكس: كان يجاهر بها، وذلك يجيز لي أن أتكلم عنه اليوم بشيء من الصراحة، فأحلّله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف. لقد انتحر بالأمس، في الطرف الأقصى من المدينة، رجلٌ شقي ضعيف العقل مريض، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعي لفيدور بافلوفتش. أقصد سمردياكوف. لقد روى لي ذلك المسكين، أثناء التحقيق الأولي، وهو يبكي بكاءً متشنّجاً، كيف أن هذا الشاب

كارامازوف، أعني إيفان فيدوروفتش، قد روَّعه بإباحية تفكيره. كان يقول له: «كل شيء مباح، كل شيء مشروع، كل ما قد يشتهيه الإنسان في هذا العالم حلال، وما ينبغي أن يحرَّم شيء بعد الآن». ذلك ما كان يعلِّمه إياه. ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار، وإن يكن من الجائز أيضاً أن يكون مرضه، وهو مرض الصرع، قد أثرّ في حالته العقلية كذلك، وأن تكون الدراما الرهيبة المروِّعة التي وقعت بالمنزل قد أسهمت في اختلال عقله. ومع ذلك فإن هذا الأبله قد ساق في يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن أن يفاخر بمثلها رجل أذكى منه، ولذلك أرى أنه من المفيد أن أذكرها هنا. لقد أفضى إليَّ بقوله: «بين جميع أبناء فيدور بافلوفتش، لا شك أن الذي يشبهه في طبعه أكثر من الآخرين، هو إيفان فيدوروفتش». أريد أن أختم، بهذه الملاحظة، التحليل السيكولوجي الذي عرضته لكم، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الإلحاح. ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب في فجر حياته. لقد رأينا في هذه القاعة، منذ اليوم، أن القوة التي لا سبيل إلى مغالبتها، أعني قوة الحقيقة، ما تزال تؤكد نفسها في قلب هذا الفتى، وأن عواطف التعلق العائلي لم يخنقها الكفر بالدين ولا قضى عليها الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان إلى الوراثة أكثر مما يرجعان إلى تفكيره الخاص.

وانظروا بعد ذلك إلى أصغر هؤلاء الأبناء. إن هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقيّاً يحاول، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التي تدفع إلى الانحلال والتي أخذ بها أخوه، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه «أسس روح الشّعب»، أو ما يطلق عليه في أيامنا هذه، في صفوف بعض الأوساط المثقفة من مجتمعنا، هذا الاسم الذي فيه

شيء من الادعاء. وها هو قد تعلّق بدير، وكاد يرتدي مسوح الراهب. يخيَّل إليَّ أنه لا بد أن يكون قد أحس، ربما على غير شعور منه، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسي منهما الآن، في بلادنا الشقية، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروِّعهم ما يشيع في مجتمعنا من استهتار واستخفاف، وتحلل من الأخلاق. وإذ كان هؤلاء الأشخاص يعزون الشر كله إلى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق، فإنهم يرجعون، كما يُقال، إلى «تراب الوطن»، ويسارعون إلى الاحتماء بذراعي الأرض الأم التي أرضعتهم، مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روَّعهم رؤى أشباح، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير. وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم، هرباً من منظر الأهوال التي تروِّعهم. إنني، من جهتي، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق الطيب الموهوب. وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وميله إلى الأفكار الشعبية، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان، إلى صوفيّة ضبابيّة وغيبية مظلمة في مجال الأخلاق، وإلى تعصب قومي أعمى على صعيد السياسة. فهذان ضلالان هما في نظري أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقي المبكر الذي ولَّدته في أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثّلها».

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد، على ذكر التعصب القومي والغيبية. وواضح أن ايبوليت كيريلوفتش قد استرسل في هذا الكلام المستفيض بدافع الفصاحة، وأن ملاحظاته لم تكن تمتّ بصلة قريبة إلى القضية. ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً، ولكن هذا الرجل المصدوم الخانق قد أراد أن يفصح عمَّا بنفسه مرةً واحدة في

حياته على الأقل. وقد قيل فيما بعد إنه إنما انقاد في تحليله النفسي لإيفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شيء من حقد لأن إيفان فيدوروفتش كان قد أحرجه وأربكه مرة أو مرتين في الأحاديث التي كانت تدور في صالونات المجتمع، فلم ينس ايبوليت كيريلوفتش ذلك، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل. ولست أدري مدى صحة هذا الاستنتاج. مهما يكن من أمر، فإن هذا الجزء من خطابه لم يكن إلا استهلالاً، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب. واصل وكيل النيابة إلقاء خطابه فقال:

«أعود الآن إلى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة إنكم ترونه أمامكم جالساً في قفص الاتهام، وأمام أبصاركم تخطر حياته كلها، أعماله وسلوكه: لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء. إنه يمثِّل، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية، إنه يمثل روسيا على حالتها الطبيعية إن صح التعبير، ولكن لا روسيا كلها من حسن الحظ، لا روسيا كلها والحمد لله! ولكننا نجد روسيا فيه، نشم رائحتها المألوفة، نحزر حضورها! نعم، نحن أناس على حالة الطبيعة، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً. نحب الثقافة ونعجب بشيللر، ولكننا نعربد في الحانات ونجد لذةً في جرِّ رفاق السكر من لحاهم. صحيح أننا نعرف كيف نكون أخياراً طيبين وكراماً أسخياء في المناسبات، ولكن ذلك لا يحدث لنا إلا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا. نحن نحب الأفكار النبيلة، ونلتهب حماسةً لها، نعم، نلتهب حماسةً لها، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء بغير جهد نبذله، وأن لا تكلّفنا شيئاً، خاصةً أن لا تكلفنا شيئاً. نحن لا نريد أن نبذل في سبيلها شيئاً، نحن نكره أن نكون مضطرين إلى العطاء. ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ، نحب الأخذ في جميع

الميادين. لسان حالنا يقول: اعطونا، اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا نرضى بأقل من ذلك)، ولا تعارضوا رغباتنا في شيء، تروا عندئذ كيف نستطيع أن نكون لطافاً محببين؛ ما نحن بالطمّاعين النهمين طبعاً، ولكننا نريد أن تعطونا مالاً، أن تعطونا مالاً كثيراً، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال: وسوف ترون عندئذ كيف نستطيع، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس، أن نبدّده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم ولهو مسعور. فإذا شاء سوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال، أظهرنا ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت حاجتنا إليه. ولكنني ألاحظ أنني أستبق الأمور. فلنعمد إلى عرض الأشياء مرتبة منظمة. هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه، «فيتسكع في الفناء الخلفي حافي القدمين»، على حد تعبير مواطننا المحترم المحبب، الذي يرجع إلى أصل أجنبي واأسفاه! أعود فأقول: إنني لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم. سوف أكون المتهم له والمحامي عنه في آن واحد. ذلك أننا بشر نحن أيضاً، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من بصمات على الطبع. ويكبر الصبي، فيصبح مراهقاً، ثم يصبح شاباً، ويخدم في الجيش ضابطاً. وفي أعقاب أعمال عنف قام بها، وعلى أثر استفزاز إلى مبارزة، نُفي إلى مدينة صغيرة نائية، تقع قرب حدود وطننا الغني الواسع. وهناك واصل حياته العسكرية، واسترسل في إفراطه طبعاً، فهو يلهو ويقصف ويعبث. ولا بد له من المال، لا بد له من المال قبل كل شيء. لذلك قرر، بعد مناقشات طويلة ومجادلات كثيرة، أن يتساهل مع أبيه، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً. لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً

بتوقيعه هو رسالة يصرِّح فيها أنه يتنازل عن باقي الميراث، وأنه يعد استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه في أمر هذا الميراث. وفي تلك الفترة يلتقي بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة. أوه! اعفوني من الدخول في التفاصيل، فقد سمعتم هذه القصة هنا! إن المسألة مسألة شرف ومروءة، مسألة تضحية، فلا يسعني إلا أن أسكت باحترام وإجلال. إن الصورة التي رُسمت لكم عن شاب هو إنسان طائش منحلّ ولكنه يعرف كيف ينحني أمام نفس نبيلة صادقة، أمام مثل أعلى كريم رفيع، إن هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها جميعاً. ولكنكم قد اطلعتم بعد ذلك بلحظات، في هذه القاعة نفسها، على نحو لم يكن يتوقعه أحد، اطلعتم على الوجه الآخر من هذه الصورة. سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض، وسأعدل عن تحليل الأسباب التي دفعت الشاهدة إلى تغيير موقفها. وهي أسباب موجودة حتماً. لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها، وهي تبكي من آلام طال كظمها، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذي قامت به، العمل الذي ربما كان فيه طيش وعدم تبصر، ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال. ففي منزل هذا الشاب، في منزل خطيبها، إنما رأت هذه الفتاة، لأول مرة، تلك النظرة التي تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية، تلك النظرة التي لم تطق هذه الفتاة خاصة أن تحتملها. وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شيء، حتى الخيانة)، تعمَّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهي تُفهمه بوضوح، وربما بوضوح مفرط، أنها إنما تعطيه هذا المال لتتيح له أن يمضي في خيانته إلى نهايتها. وكانت نظرتها الفاحصة تسأله: «هيه! أتقبل المال أم لا؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف؟» وقد قرأ هو نظرتها، وأدرك ما يخفيه تفكيرها، أدركه

إدراكاً تاماً (ألم يعترف في هذا المكان نفسه، أمامكم، أنه أدركه؟) ولكنه قَبِلَ الثلاثة آلاف روبل دون تردد، وأنفقها خلال يومين على لهوه في حبه الجديد. فماذا نصدق؟ هل الحقيقة قائمة في الصورة الأولى التي رُسمت لنا عنه هل الحقيقة قائمة في أسطورة تلك الاندفاعة النبيلة الكريمة التي حملت الضابط الشاب على أن يضحي بآخر ما يملك، وعلى أن ينحني أمام الفضيلة؛ أم الحقيقة قائمة في الوجه الآخر من تلك الصورة، الذي يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز؟ إنه ليحدث في الحياة عادةً أن توجد الحقيقة في الوسط، حين يكون هناك عنصران متناقضان. ولكن الأمر ليس كذلك في الحالة التي ننظر فيها الآن. وإنما أغلب الظن أن الشاب كان صادق النبل في المرة الاولى بقدر ما كان صادق الخسة والحطة في المرة الثانية. فاذا سألتموني: لماذا؟ قلت لأننا إزاء طبائع عريضة هي طبائع آل كارامازوف - وذلك ما أريد أن أخلص إليه - أعني أننا إزاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة، وعلى ان يرنوا بأبصارهم إلى الهوَّتين كلتيهما في آن واحد، الهوَّة العليا التي تحلّق فيها أنبل المثل والهوة السفلى التي تغوض فيها أحقر المخازي وأدنأ أنواع السقوط. تذكروا تلك الفكرة اللامعة التي عبَّر عنها، منذ قليل، السيد راكيتين، هذا الشاب الذي أوتي موهبة الملاحظة العميقة، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب، وذلك حين قال: «إن هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج إلى الإحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها إلى أرفع النُّبْل». ألا إن هذا لصادق كل الصدق: إن هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التي يقتضيها طبعهم بغير انقطاع. لا بد لنا من هوَّتين اثنتين أيها السادة، هوَّتين نستطيع أن نرنو إليهما معاً في آن واحد، وإلا شعرنا بالشقاء وعدم

الرضى، لأن حياتنا يعوزها الامتلاء عندئذ. نحن عريضون، عريضون عرض أمنا الطيبة روسيا؛ نحن نستطيع أن نضم في أنفسنا كل شيء، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء! بالمناسبة، أيها السادة المحلّفون لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل، فاسمحوا لي أن أستبق الأمور قليلاً. هل في وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم، الذي وصفت لكم طبعه، قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه الذي أخذ فيه المال من خطيبته - لقاء مَذَلَّةٍ لا مَذَلَّةَ بعدها، وخزي لا يضارعه خزي - هل في وسعكم أن تتصورا أنه قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك في عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال، رغم الإغراءات التي لا حصر لها والحاجات التي لا سبيل إلى مغالبتها، رغم هذه الإغراءات وهذه الحاجات التي تحفل بها حياته؟ كيف يمكنه أن لا يمسّ هذه الذخيرة لا أثناء إفراطه في الشراب في الحانات، ولا في اللحظة التي قام فيها بمساع لا يعلمها إلا الله في سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التي يريد أن يبعدها عن ما يريده منها أبوه، غريمه ومنافسه؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفضّ الكيس، ولو لم يكن له من هدف إلا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام إغراءات أبيه الذي يغار هو منه، وأن يبقى إلى جانبها حارساً يقظاً بانتظار اللحظة التي تقول له فيها أخيراً «أنا لك»، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها إلى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة. ولكن لا، إنه يأبى أن يمسّ حرزه؛ وما حجّته في ذلك؟ إن الباعث الأول الذي ذكره، كما قلنا منذ قليل، هو رغبته في أن يدخر هذا المال للحظة التي ستقول له فيها: «انا لك، فخذني إلى حيث تشاء»، فيكون في وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك

المال. ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس إلى الحجة الثانية، وذلك باعتراف المتهم نفسه. كان المتهم يحدث نفسه قائلاً: «ما ظللت أحمل هذا المال، فإنني أكون شقياً ولكنني لا أكون لصاً، لأنني أكون قادراً في كل لحظة على أن أذهب إلى خطيبتي التي أهنتها، وأن أضع أمامها نصف المبلغ، وأن أقول لها: انظري! لقد أتلفت نصف مالك في اللّهو والقصف، مبرهناً على أنني ضعيف مخلٌ بما تقتضيه الأخلاق، وعلى أنني وغد إن شئت (إنني استعمل تعابير المتهم نفسها)، ولكني، مهما أكن وغداً، لست بسارق! فلو كنت سارقاً لما رددت إليك النصف الذي بقي لي من مالك وإنما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول». يا لهذا التعليل لسلوكه ما أشد غرابته! إن هذا الرجل العنيف، ولكن الضعيف، إن هذا الرجل الذي عجز عن مقاومة إغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلطخ شرفه ذلك التلطيخ كله، يجد في نفسه على حين فجأة قوةً راقية تمكنه من أن يعلّق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمسّ هذا المبلغ في لحظة من اللحظات! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم؟ إنني لا أتردد في رفض هذا التعليل؛ وسأجيز لنفسي أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف، في رأيي، ديمترى كارامازوف الحقيقي، إذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره. إنه في سبيل أن يُسِرّ المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً، كان سيفضّ الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل، مثلاً، في أول الأمر، قائلاً لنفسه عندئذ: «علام أدَّخر نصف المبلغ تماماً، أي ألفاً وخمسمائة روبل؟ يكفي أن أرد اليها ألفاً واربعمائة، فالأمران واحد» لأنه سيظل قادراً على أن يقول لها: - «أنا وغد ولكنني لست لصاً، فها أنذا أرد إليك ألفاً وأربعمائة روبل، على حين أن اللص يأخذ

المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً». وبعد مدة من الوقت، يفضّ الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة، فمائة رابعة، وهكذا دواليكم؛ فما ينقضي الشهر إلا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمائة روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلاً لنفسه: «يكفي أن أردَّ إليها مائة روبل، أليس الأمران سيان؟» - «أنا وغد، ولكنني لست لصاً. لقد أتلفت في اللّهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل، ولكنني أرد إليك مائة روبل رغم كل شيء، وما كان اللص أن يرد إليك شيئاً». وفي النهاية، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة، كان سيهتف قائلاً: «علام أرد إليها مائة روبل؟ فلأنفقها كما أنفقت غيرها!». ذلك هو التصرف الذي كان سيتصرفه ديمترى فيدوروفتش الحقيقي، الذي نعرفه. على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع تناقضاً مطلقاً. إن في وسع المرء أن يتخيل كل شيء إلا هذا. ولكننا سنعود إلى هذا الأمر فيما بعد».

وبعد أن عرض ايبوليت كيريلوفتش، بالترتيب، كل ما تبيَّن من التحقيق الأولي فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الابن وأبيه، وبعد أن أشار مرة أخرى إلى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أي شيء يجيز لنا أن نقطع برأي حاسم وأن نجيب إجابة شافية على سؤالنا أي الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث، انتقل ايبوليت كيريلوفتش إلى الكلام عن الحالة النفسية التي كان عليها ميتيا حين غدا اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه في لحظة من اللحظات، فجاء في هذه المناسبة على ذكر تقرير الطبيب الشرعي.

لمحة تاريخية

«يريد تقرير الطب الشرعي أن يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض «المانيا». أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه: فلو كان لا يملك عقله كاملاً، لكان من الممكن أن يتصرف تصرفاً أقرب إلى الذكاء. أما أن يكون مصاباً بمرض «المانيا»، فذلك أمر أسلِّم به، ولكن مرض «المانيا» عنده لا ينصب إلا على نقطة واحدة هي تلك التي أشار إليها تقرير الطب الشرعي، أعني الفكرة التي رسخت في ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل على ما يزعم. ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحنق الذي يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل، أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن لدى المتهم استعداداً للجنون. إنني، من جهتي أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذي يقول إن المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية، وأنه طبيعي سليم من الناحية السيكولوجية ولكنه منفعل حانق حاقد. تلك هي عقدة القضية: ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من غضب متصل وحنق مستمر. إن هناك سبباً آخر كان يثير غضبه، وهو سبب خاص: إنه الغيرة!».

أفاض ايبوليت كيريلوفتش بعد ذلك في الكلام على الهوى المشؤوم الذي شدَّ المتهم إلى جروشنكا؛ وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذي ذهب فيه المتهم إلى «تلك المرأة الشابة»، على نية أن «يضربها»- على حد تعبيره - فإذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها. قال وكيل النيابة: «تلك كانت بداية هذا الحب. وفي ذلك الأوان نفسه إنما ألقى العجوز، أبو المتهم عينيه على هذه المخلوقة. يا للمصادفة العجيبة المشؤومة! لقد اشتعل القلبان حباً في آن واحد. في ساعة واحدة تقريباً، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة. وكان الهوى الذي ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف. ولدينا اعترافات هذه المرأة الشابة نفسها، إذ قالت: «لقد ضحكت على الرجلين كليهما». نعم. لقد اشتهت فجأة أن تضحك عليهما كليهما. لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها على حين فجأة، فإذا بالرجلين يزحفان وراءها آخر الأمر. فالعجوز الذي كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً إلا المال، أعدَّ لها ظرفاً فيه ثلاث آلاف روبل يهديها لها متى ارتضت أن تمنّ عليه بزيارة في منزله، بزيارة لا أكثر؛ ثم وصل به الهيام إلى درجة أن يُعلن أنه مستعد أن يلقي على قدميها اسمه وثروته متى قبلت أن تصبح زوجته الشرعية. إن أمامنا شهادات واضحة جداً في هذا الموضوع. أما المتهم فإن المأساة التي صار إليها وضعُه واضحة لنا مبسوطة أمامنا. وهي «لعبة» هذه الإنسانة مع ذلك. إن المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً، لأنه لم يعرف أملاً، أعني لم يعرف أملاً حقيقياً، إلا في آخر لحظة، حين جثا أمام المرأة التي سببت له تلك الآلام كلها ومدَّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه، غريمه ومنافسه. وقد

قبض عليه في تلك اللحظة نفسها، فلما رأت أنه يعتقل، استولت عليها ندامة صادقة، فهتفت تقول: «اسجنوني معه، أريد أن أتبعه، لأنني أنا التي أوردته موارد الهلاك، لأنني أنا المذنبة!»، إن السيد راكيتين، الشاب الذي يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذي تحدثت معه منذ قليل، قد تولّى تحليل خفايا هذه القضية، ووصف طبع بطلتنا في بضع جمل موجزة، فقال: «خيبة الآمال وتبدد الأوهام في ميعة الصبا؛ والمعاناة من كذب البشر في سن مبكرة؛ ثم السقوط؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها؛ وأخيراً البؤس ولعنات أسرة محترمة، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعده إلى هذا اليوم محسناً إليها. هكذا تجمَّع الغضب من وقت مبكر في قلبها الشاب الذي لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة. فنشأ عن ذلك طبع رديء، وميل إلى كنز المال، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام». إن هذا التحليل النفسي يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما في آن واحد، بدافع النزوة وحدها، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما إلى الدمار. وفي أثناء ذلك الشهر المليء بحب لا يعرف الأمل، وبسقوط أخلاقي، وبالخيانة للخطيبة، وبالاستيلاء على مبلغ اؤتمن عليه وليس له، في أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف، عدا هذا، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذاباً قاسياً؛ وممن كانت غيرته؟ من أبيه نفسه! وأخطر ما في الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التي تولّه بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذي كان ابنه يعده حقاً آل إليه من ميراث أمه، ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه. نعم، إنني لأعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه! حتى ليمكن أن يتصور المرء أن

يُصاب الشاب من ذلك بمرض «المانيا». فليست المسألة مسألة مالٍ في الواقع، وإنما هي مسألة أن هذا المال نفسه يُستخدم في تحطيم سعادته باستهتار مقزز يثير الحنق والغيظ!».

بعد ذلك وصف ايبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة. قال:

- كان في أول الأمر يذم ويقدح في الحانات، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئاً غير أن يذم ويقدح. إنه يحب صحبة الناس، ويحلو له أن يفضي، إلى جميع من يلقاهم، حتى بأشد أفكاره خطراً وإيذاءً، متوقِّعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يستمعون إلى بوجهه أن يظهروا له عطفهم عليه ومودّتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره كان يفترض، لا يدري أحد لماذا، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه، وأن يؤيدوه تأييداً كاملاً، فلا يعارضوه في شيء، وإلا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الحانة (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع النقيب سنيجيريف). وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر إلى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة، وأن ديمترى كارامازوف، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عُقد في الدير، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا، وصوَّر ذلك المشهد الكريه الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يومَ اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه العنف) ثم تابع وكيل النيابة كلامه: لست أمضي إلى حد الادعاء أن المتهم كان، قبل وقوع مشهد العنف هذا، قد فكر في الجريمة

ملياً، وعزم عزماً جازماً قاطعاً على ارتكابها. ولكنني أقول إن فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعياً، وهذا ما تثبته الوقائع، وأقوال الشهود واعترافاته هو نفسه. إنني أعترف لكم، يا سادتي المحلَّفين، أنني ظللت حتى هذا اليوم أتردد في اتهام الرجل بأنه ارتكب، عن سابق إصرار وتصميم، جريمة القتل هذه التي كان يحسّ بأنه مدفوع إليها. صحيح أنني كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً في أن يقدم في المستقبل على إنهاء القضية بهذه الخاتمة الفاجعة، ولكنني كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر في هذا الحل إلا أنه احتمال قد يتحقق، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه، وطريقة بعينها. وقد زالت اليوم ترddاتي هذه حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التي قدمتها الآنسة فرخوفتسيفا إلى المحكمة. لقد سمعتم يا سادتي كيف صاحت تقول: «هذه خطة قتل!» بهذا وصفت تلك الرسالة المشؤومة التي كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو في حالة سكر. والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة، وعلى أن الجريمة قد ارتُكبت عن سابق إصرار وتصميم. لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثماني وأربعين ساعة، أنه إذا لم يستطع أن يحصل على المال في الغد، فليقتلن أباه ليستولي على المبلغ المخبأ تحت الوسادة في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، «شريطة أن يكون إيفان غائباً». هل سمعتم؟ «شريطة أن يكون إيفان غائباً». كان إذاً في تلك اللحظة قد عيَّن جميع تفاصيل التنفيذ، ووزن جميع الاحتمالات. ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذي ورد وصفه في الرسالة! إن الإصرار والتصميم واضحان: لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة. المتهم نفسه أعلن

هذا، كتبه بخط يده وذيَّله بتوقيعه. ولم ينكر المتهم توقيعه. فإذا قيل إنه كان في تلك اللحظة سكران، قلت إن ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً. بالعكس: لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكَّر فيه ملياً وهو في حالة الصحو. فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر، لما كشف عن نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر. وقد يقال أيضاً: فلماذا أعلن عن نياته قبل ذلك جهاراً في الحانات؟ إن الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق إصرار وتصميم حقاً، يصمتون في العادة ويخفون ما عقدوا العزم عليه! هذا صحيح، ولكن المتهم لم يكن يصيح ذلك الصياح إلا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر، وإنما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل إلى القتل. ولقد أصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر إلا قليلاً. وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة، بعد أن سكر في حانة «العاصمة الكبرى»، بدا صامتاً على غير عادته، ولم يلعب البلياردو، وظل منتحياً لا يقترب من أحد، ولا يخاطب أحداً، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجاري. ثم إنه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً، لأنه كان يستحيل عليه أن يضبط نفسه. صحيح أن المتهم، حين عزم عزماً حاسماً على ارتكاب الجريمة، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادة عليه بعد تنفيذ خطته، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يسترد الأقوال التي أفلتت من لسانه. وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين، فما يزال يعوِّل على الحظ. لقد كان يتكل على نجمه يا سادتي! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة في سبيل أن يؤخر اللحظة المشؤومة، آملاً أن يتجنب هذا الحل

الدموي. كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به: «سأحاول في الغد أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف يسيل الدم». هنا أيضاً يبوح وهو في حالة السكر بما كان قد انتواه وهو في حالة الصحو، وسوف يتصرف في حالة الصحو هذا التصرف نفسه الذي وصفه في رسالته!

عرض ايبوليت كيريلوفتش بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التي قام بها ميتيا في سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة. روى مساعيه لدى سامسونوف، والرحلة التي قادته إلى لياجافي، مستشهداً على ذلك بوقائع مستمدة من ملف القضية.

- عاد إلى المدينة أخيراً وقد انهدت قواه، وأرهقه التهكم عليه، وأنهكه الجوع، وباع ساعته ليدفع للحوذي أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمائة روبل، في زعمه، هذا في زعمه!)، ومزقته الغيرة لأنه ترك محبوبته التي تشعل نار قلبه، ويخشى أن تذهب أثناء غيابه إلى فيدور بافلوفتش... عاد إلى المدينة أخيراً. الحمد لله! لم تذهب حبيبته إلى فيدور بافلوفتش. وها هو ذا يوصلها بنفسه إلى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف. تلك سمة سيكولوجية خاصةٌ تتميز بها هذه القضية). ثم يسارع إلى المرابطة في مرصده خلف الحديقة. وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التي أصابت سمردياكوف، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر. الساحة إذاً خالية. وهو يعرف «الإشارات السرية». أليس في هذا إغراءٌ قوي له؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شيء، ويذهب إلى خوخلاكوفا، السيدة الجليلة التي تقيم في مدينتنا إلى حين، والتي نحمل لها جميعاً هنا أعمق الاحترام. إن هذه السيدة تشفق عليه وترثي لحاله وتهتم بمصيره منذ زمن، فها هي ذي تسدي إليه نصيحة حكيمة

عاقلة، وهي أن يعدل عن هذا الحب المخزي، وأن ينقطع عن هذا التسكع في الحانات وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه في هذه الترهات الباطلة، فيسافر إلى سيبيريا، إلى مناجم الذهب. وقالت له: «هنالك ستجد فرصة للقوى والطاقات التي تفور وتغلي في نفسك، وهنالك ستجد فَرَجاً لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات».

وبعد أن قصَّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث وحين وصل إلى اللحظة التي علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف، وصف الغضب الذي استولى على المسكين، والغيرة التي تأججت نيرانها في قلبه حين تصوّر أن هذه المرأة قد كذبت عليه، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش. واعتقد ايبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا إلى الدور الذي لعبته المصادفة، فقال:

- لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له إن حبيبته موجودة في موكرويه مع «الصديق القديم المشروع»، لما حدث شيء البتة. ولكن الخادمة، وقد ماتت من الخوف، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً، فما ذلك إلا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة في الحال. ولكن لاحظوا هذه النقطة: إن المتهم، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسي. فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر؟ ما دام قد فكر في ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل، فمن الطبيعي أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً. لذلك أدرك عفو الخاطر أن هذا المدق يفي بالغرض ويحقق الهدف. معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشؤوم على غير شعور أو على غير إرادة منه. وها هو ذا

الآن في حديقة أبيه: الساحة خالية، لا شهود، لا شيء إلا الليل العميق، والظلمات، والغيرة. وتصوّرَ أنها هناك، قرب غريمه، مع منافسه، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزئ به. استولت هذه الفكرة على المتهم. ليس الأمر في هذه المرة أمر شكوك وشبهات، ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال، واأسفاه. قال لنفسه: «الخيانة واضحة!» هي هنا، هنا، في هذه الغرفة التي يرى نافذتها مضاءة... إنها مختبئة وراء الستائر. ويتسلل المسكين نحو النافذة... هل تريدون منه أن يكتفي بأن يلقي على الغرفة نظرة احترام، ثم يهدأ على الفور، وينصرف في تعقل وحكمة، تجنباً لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع في عمل خَطِرٍ مجافٍ للأخلاق؟ ذلك هو، مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التي كان عليها في تلك الدقيقة! إننا نعرف الحالة النفسية التي كان عليها، نعرفها من وقائع ثابتة، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالإشارات التي يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب، فيدخل إلى البيت!.

حين جاء ايبوليت كيريلوفتش على ذكر الإشارات السرية، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلاً، وأن يقطع، إلى حين، عرضَه للأدلة التي تدين المتهم، وأن يندفع في تحليلات تتناول شخص سمردياكوف. كان واضحاً أنه إنما يريد أن يقضي على ذلك الافتراض الذي يذهب إلى أن سمردياكوف قد يكون هو الجاني، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالاً نهائياً. لم يهمل وكيل النيابة أي أمر من الأمور التفصيلية. وأدرك الجميع أنه، وإن كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً.

– 8 –

مقالة عن سمردياكوف

بدأ ايبوليت كيريلوفتش كلامه عن سمردياكوف بهذا السؤال: «أولاً، كيف نشأ هذا الاتهام؟» ثم قال «إن أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه لحظة القبض عليه، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام، واقعة؟ بل ولا ظلَّ واقعة يستطيع إنسان أوتي ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة. وبعد المتهم، لم يعبر عن هذا الاتهام إلا ثلاثة أشخاص هم: أخَوَا المتهم والسيدة سفيتلوفا. ولكن إيفان فيدوروفتش لم يفصح عن شكوكه وشبهاته حول هذا الموضوع إلا في هذه الجلسة، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحُمّى عصبية لا شك فيها. أما خلال الشهرين الماضيين، فقد ظل مقتنعاً، كما نعلم ذلك، بأن أخاه هو الجاني، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة. وإن لنا عودة إلى تصريحاته على كل حال. ثم لقد أكد لنا الأخ الصغير من أخوي المتهم، أكد لنا منذ قليل أنه لا يملك أي دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجاني؛ وإنما هو يبني اتهامه على هذيان المتهم، وعلى «تعبير وجهه». نعم أيها السادة، إن هذا الشاهد قد قدَّم لنا هذا الدليل مرتين! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب من هذا الكلام أيضاً قالت: «ما عليكم إلا أن

تصدقوا المتهم، فليس هو بالرجل الذي يكذب!». تلك هي جميع الأدلة المادية التي أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن، وقد قدمها إلينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمهم كثيراً. ومع ذلك، أيها السادة، فإن الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر، رغم كل ما في ذلك من غرابة، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل.

وهنا اعتقد ايبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمردياكوف، الذي «أنهى حياته أثناء نوبة جنون»، فصوَّره على أنه امرؤ ضعيف العقل، يملك مبادىء ثقافة مشوشة، ولكن المفاهيم الفلسفية التي تتجاوز حدود ذكائه قد هزَّت عقله، كما أن بعض الآراء الحديثة في الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روَّعت قلبه. وقد تعلَّم هذه النظريات، على الصعيد العملي، من الحياة الفاسقة التي يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذي ربما كان أباه أيضاً، وتعلَّمها على الصعيد النظري من الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين إيفان فيدوروفتش، الابن الأوسط من أبناء مولاه. كان إيفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين إلى حين بسبب الملل أو من قبيل التفكه والتندر، ومن قبيل الضحك على هذا المسكين في أغلب الظنّ، وذلك حين لا يكون لديه شيء آخر يسرِّي به عن نفسه.

وواصل ايبوليت كيريلوفتش كلامه قائلاً:

- لقد وصف لي هو نفسه الحالة النفسية التي كان عليها طوال الأيام الأخيرة التي قضاها في منزل مولاه. وأيَّد ذلك أشخاص آخرون: أيَّده المتهم نفسه خاصةً، وأيَّده أخو المتهم، بل وأيده جريجوري أيضاً، أي أيده جميع أولئك الذين يعرفونه عن كثب. ثم

إن سمردياكوف، الذي هدَّه مرض الصرع، «كان جباناً كدجاجة». لقد أسرَّ إلينا المتهم في لحظة لم يكن يتصور فيها، بعدُ ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من ضرر له، أسرَّ إلينا قوله: «كان يرتمي على قدميَّ ويقبلهما»، وقال لنا في يوم آخر، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه: «هو دجاجة مصابة بداء الصرع». ومع ذلك فإن هذا الرجل الضعيف هو الذي يتخذه المتهم نجياً له يفضي إليه بأسراره (وذلك ما اعترف هو به)، ويبلغ من ترويعه حدّ أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً ومخبراً، فلما ارتضى أن يكون مخبراً، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود الظرف المودع فيه المال، وعلَّمه في الوقت نفسه الإشارات التي سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل. وهل كان في وسعه أن لا يطلعه عليها؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفاً، رغم أن جلاَّده كان قد قُبض عليه في ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتصَّ منه، قال لنا: «لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلني، رأيت بعينيَّ أنه سيقتلني لو كتمتها عنه. كان لا ينفكّ يشتبه فيَّ ويشك في صدقي؛ فكنت حين يروِّعني ويرهبني، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار التي أعرفها، لأدفع عن نفسي غضبه، مبرهناً له على براءتي وصدقي، منقذاً بذلك حياتي». تلك هي الألفاظ التي استعملها المسكين في كلامه بنصها، وقد دوَّنتها. «كنت إذا أخذ يصرخ، ارتمي جاثياً على ركبتيَّ أمامه». وكان الخادم المسكين، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة، قد حظي بثقة مولاه الذي أيقن من صدقه وأمانته يوم ردَّ إليه الأوراق النقدية الضائعة. ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان مولاه هذا الذي كان يحبه ويرى أنه محسن إليه منعم عليه. إن أطباء الأمراض العقلية البارزين

يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء الصرع ميالون إلى اتهام أنفسهم بغير انقطاع، وأنهم يقاسون عذاباً شديداً من شعورهم بأنهم «مذنبون» في حق أحد أو في حق شيء، وأن تبكيت الضمير يرهقهم إرهاقاً مضنياً دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك في كثير من الأحيان، وأنهم يضخّمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع في وهمهم أنهم ارتكبوها. فما بالكم بإنسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالإرهاب. يضاف إلى ذلك أن سمردياكوف كان يحسّ سلفاً أن الأحوال التي يرى تطورها في منزل مولاه قد تؤدي إلى بلاء عظيم وشر مستطير. فحين أراد الابن الأكبر من أبناء فيدور بافلوفتش إيفان فيدوروفتش أن يسافر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة، تضرّع إليه سمردياكوف أن يبقى، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التي تساوره، واكتفى بالتلميح إليها إلماحاً، ولكن إيفان لم يفهم منه. يجب أن نلاحظ أن وجود إيفان فيدوروفتش في المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له، كأنه كان على يقين أن شيئاً لن يحدث ما بقي إيفان حاضراً. تذكروا ما كتبه ديمترى كارامازوف في «رسالة السكر» التي بعث بها إلى كاترينا إيفانوفنا: «شريطة أن يكون إيفان غائباً». كان حضور إيفان إذاً ضمانة لاستتباب الأحوال وطمأنينة البال في نظر الجميع. ولكنه سافر. فما إن انقضت على رحيله ساعة واحدة، حتى انتابت سمردياكوف نوبة صرع. وذلك أمر مفهوم معقول. يجب أن لا ننسى أن سمردياكوف كان، خلال الأيام الماضية، وقد هدَّه الخوف وأضناه نوع من اليأس النفسي، كان يحسّ بدنوّ نوبة من نوبات الصرع هذه التي سبق أن انتابته مراراً في ساعات التوتر العصبي والانهيار

النفسي. صحيح أنه من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا مقدماً بوشوك حدوثها. ما إن ابتعدت عربة إيفان فيدوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف إلى القبو لشأن من شؤون الخدمة. وكان في تلك اللحظة يرزخ تحت وطأة الشعور بالعزلة والهُجران، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعاً، وكان يتساءل وهو يهبط السلَّم: «هل ستوافيني نوبة؟ ما عسى يحدث لو سقطت الآن؟». وبسبب هذه الحالة النفسية، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذي ألقاه على نفسه، إنما حدث له على حين فجأة تقلّص في الحلق هو ذلك التقلص الذي يسبق موافاة النوبة دائماً، ثم إذا هو يتدحرج إلى القبو مغشياً عليه. إن هذا الحادث الطبيعي تماماً، قد ولَّد شكوكاً وشبهات، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيَّتة، وادّعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً. فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح. غير أن هناك سؤالاً ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو: ما عسى يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم؟ ما عسى يكون الحساب الذي أجراه، وما عسى يكون الغرض الذي سعى إلى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها؟ لنترك الطب جانباً. فإنه يقال إن الطب يمكن أن يخطئ، وكثيراً ما يؤدي إلى ضلال الرأي وفساد الحكم، وإن الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض صادق ومرض مصطنع. لنسلم بأن هذا صحيح. ولكنني أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال: ما هي الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت إليه انتباه جميع من في المنزل

سلفاً بنوبة صرع يفتعلها؟ لاحظوا، يا سادتي المحلفين، أنه كان في منزل فيدور بافلوفتش، ليلةَ حدوث الدراما خمسة أشخاص لا أكثر: فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه. ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل، وأما الثاني فهو خادمه جريجورى، ولكن جريجورى أوشك أن يكون قتيلاً هو نفسه؛ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى، الخادمة مارفا اجناتفنا، ولكن من المضحك أن نتخيل أن تكون هي التي قتلت مولاها. لم يبق هنالك إذاً إلا شخصان، هما المتهم وسمردياكوف. ولما كان المتهم يدّعي أنه بريء، فلا يمكن إذاً أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد إلا سمردياكوف. ليسَ هناك حل آخر، إذ يستحيل اكتشاف شخصٍ يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين. على هذا النحو إنماً نشأ إذاً ذلك الاتهام «البارع» الرهيب لأبله مسكين هو ذلك الشقي الذي انتحر بالأمس. لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا إليه اتهامهم! ولو كانوا يملكون ولو ظلَّ شبهة تسمح باتهام شخص سادس، لاستحى المتهم نفسه - وأنا من هذا على يقين - أن ينسب الجريمة إلى سمردياكوف، ولوجّه التهمة عندئذ إلى ذلك الشخص السادس. إن الاشتباه في سمردياكوف سخف محض!.

ولكن دعونا من السيكولوجيا أيها السادة، ودعونا من الطب، ودعونا حتى من المنطق، ولنقتصر على النظر في الوقائع وحدها، وفي الظروف المادية. لنترك للوقائع أن تتكلم. لنفرض أن سمردياكوف قد قتل، ولنتساءل كيف قتل؟ أقتل وحده، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم. لننظر في الافتراض الأول، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده. من البديهي أنه إذا كان قد قتل، ففي سبيل أن يجني نفعاً ما، ولما كان لا يجيش في نفسه أي باعث من

البواعث التي يمكن أن تحض المتهم على القتل، كالكره والغيرة وما إلى ذلك، فإن سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة إلا بدافع الطمع في المال طبعاً، وذلك ليستولي على تلك الثلاثة آلاف روبل التي رأى مولاه يودعها في ظرف؛ حتى إذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضي إلى شخص آخر - إلى شخص يعنيه الأمر كثيراً، أعني إلى المتهم - بجميع التفاصيل المتصلة بالمال، وبالإشارات السرية وبالمكان الذي خُبّئ فيه الظرف، وبالكتابة التي كتبت على الظرف، وبالطريقة التي تسمح بدخول منزل رب الدار. أفقال هذا الكلام ليفضح نفسه؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولي عليه ويحرمه منه؟ رب قائل يقول إنه إنما تكلم من شدة خوفه! عجيب! هل يقبل رجلٌ لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها، جريئة هذه الجرأة كلها، أن يفضي - عن خوف! - بمعلومات لا يعرفها أحد في العالم سواه، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد إذا هو كتمها؟ لا، لا، إن الرجل مهما يكن شديد الخوف، ما كان له أن يبوح لأحد، بعد أن عقد النيّة على ارتكاب مثل هذه الجريمة، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والإشارات، ولو فعل ذلك لكان يشي بنفسه سلفاً. إن هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر، أن يكذب وأن يخترع ويلفّق إذا هو أُجبر على الكلام، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا! ولو لم يذكر شيئاً عن المال، ثم قتل واستولى على الظرف لنفسه، لما خطر ببال أحد في العالم - أكرر هذا - أن يتهمه بالقتل، طمعاً في المال، لأن أحداً غيره في العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ، ولا رأى هذا المبلغ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً في المنزل. وإذا اتُّهم الرجل بعد ذلك بالقتل، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه إلى

ارتكاب الجريمة. ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أي سبب يمكن أن يحضّه على القتل، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبّه ويُكْرِمه بمحض ثقته، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله، ولكان آخر من يمكن أن تُوجَّه نحوه الشكوك، ولفكّر الناس عندئذ في اتهام ذلك الذي تجيش في نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها في كل مكان، ولم يكتمها عن أحد، بل كان يصارح بها أول قادم، أي لاتهم الناس عندئذ ابن المجني عليه، أعني ديمترى فيدوروفتش. أفلا يكون هذا في مصلحة القاتل سمردياكوف؟ فما قولكم إذا كان دمتري هذا نفسه هو بعينه الشخص الذي أفضى إليه سمردياكوف، بعد أن عقد النية على القتل، بالمعلومات التي تتصل بالمال والظرف والإشارات السرية؟ يا للمنطق الواضح!

ويجيء يوم ارتكاب الجريمة. سمردياكوف يتدحرج إلى أرض الكهف متظاهراً بنوبة صرع. ولكن ما هو هدفه من ذلك؟ أيكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجورى، الذي كان قد قرر أن يداوي مرضه، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها إلى وقت آخر، ليتولى بنفسه حراسة المنزل، إذ يلاحظ أن المنزل أصبح بغير حراسة؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذي يخشى أن يداهمه ولا يكتم خشيته هذه، أن يبادر رب الدار إلى مزيد من الحذر والاحتياط والتيقظ؟ أكثر من ذلك: هل كان سمردياكوف يستهدف، من التظاهر بنوبة الصرع، أن يُنقل من المطبخ الذي كان ينام فيه عادةً والذي كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد، أن يُنقل إلى الطرف الآخر من المبنى الملحق، إلى غرفة جريجورى ليُمدَّد هناك صريعاً وراء

حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوز وامرأته إلا ثلاث خطوات، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافته نوبة من نوبات الصرع، بأمرٍ من رب الدار ومن مارفا أجناتفنا الرحيمة الشفوق، حتى إذا أُضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل، ليحسن تمثيل دوره، فإذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك ما حدث فعلاً، بشهادة جريجورى وامرأته)؟ أيكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله، قد تخيل هذه التمثيلية كلها، ليتسنى له أن ينهض فيمضي يقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر؟

رب معترض يقول لي إن سمردياكوف إنما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه، وإنه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالظرف والإشارات السرية، ليغري المتهم بأن يجيء فيتولّى القتل بنفسه، حتى إذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان الدار، نهض سمردياكوف، نعم، نهض فمضى... مضى يفعل ماذا؟ مضى ليقتل مولاه مرةً أخرى، وليسرق مرة أخرى المال الذي سبقه إليه المتهم وذهب به. أتضحكون أيها السادة؟ اني لأعترف لكم بأنني أشعر أنا نفسي بالخجل حين أراني مضطراً إلى النظر في افتراضات من هذا النوع. ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذي يقدمه لنا المتهم. فتصوروا وتأملوا! إن المتهم يدّعي أن سمردياكوف قد قام بقتل مولاه وبسلبه ماله، في الوقت الذي كان هو فيه يغادر المنزل بعد أن جندل جريجورى وأحدث ضجة. لن أطيل الكلام على هذا التساؤل: كيف تسنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل هذا التنبؤ، وأن يحسب حساباً دقيقاً أن الابن العنيف المندفع الخارج عن

القانون سيجيء لا لغرضٍ آخر غير أن يلقي من خلال النافذة نظرة احترام، وأنه على علمه بالإشارات السرية سينصرف في الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف؟ أيها السادة، إنني أسألكم جاداً: في أي لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة؟ دلُّوني على تلك اللحظة، وإلا لا يمكن النظر في هذا الافتراض أساساً.

قد يقال: لعل نوبة الصرع كانت صادقة غير مصطنعة، ولعل المريض صحا من غيبوبته فجأة، فسمع صراخاً فخرج. وماذا بعد ذلك؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة قائلاً: «آ. . . عندي فكرة! سأمضي أقتل مولاي!». ولكنْ أنَّى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه؟ إنني أتوقف عن الاسترسال في مثل هذا الكلام، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً. . .

وقد يقول نفر ممن أوتوا فكراً مرهفاً: ربما كان هذا كله صحيحاً، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة، فارتكباها معاً واقتسما المال؟

ذلك في الواقع افتراض له وزنه، افتراض يستند إلى قرائن قوية جداً تؤكده، كما سترون: أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده، بينما الثاني يستريح متظاهراً بنوبة صرع، لا لشيء إلا أن يجعل جميع من في المنزل في يقظة، وأن يثير القلق في نفس مولاه وفي نفس جريجورى! ألا إنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التي دفعت الشريكين إلى تخيل خطة حمقاء إلى هذا الحد! وقد يقول بعضهم إن مشاركة سمردياكوف في الجريمة لم تكن مشاركة فعَّالة، وإنما كانت مشاركة سلبية لعله قَبِلَها على مضض، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه في ارتكاب الجريمة، وذلك من شدة ما شعر به من خوف، وما كان

يقاسيه من إرهاب صاحبه له؛ وإذ أدرك مع ذلك أنه سيتّهم بأنه سهّل مقتل مولاه لأنه لم ينبّه ولم يسارع إلى الدفاع عنه، فلعله توسّل إلى ديمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له: «اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل، فذلك أمر لا شأن لي به». ولكن لو صحّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبّه المنزل كله حتماً، ولما قبل ديمترى كارامازوف الذي لا بد أن يتنبأ بذلك، لما قبل تدبيراً من هذا النوع. ومع ذلك فلنسلم بأن ديمترى قد ارتضى هذا التدبير. سوف ينتج عن ذلك في هذه الحالة أن ديمترى كارامازوف يكون هو القاتل، هو المحرِّض والفاعل في آن واحد، أما سمردياكوف فلا يكون إلا شريكاً مستتراً، بل إنه يكون أقلَّ من شريك، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم إرادته من شدة الخوف؛ ولن يفوت المحكمة عندئذ أن تحدّد درجة مسؤولية كل من الرجلين. ولكن ما الذي رأيناه بالفعل؟ رأينا المتهم، ما إن قُبض عليه، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف، واتهمه بأنه وحده الفاعل. إنه لم يش به شريكاً له في الجرم، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل. صاح يقول: «هو القاتل، هو وحده القاتل، هو الذي قتل وسرق!. الجريمة من صنع يديه وحده!» فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن. وانظروا أيضاً إلى الخطر الذي يعرِّض له ديمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف: إنه هو القاتل الرئيسي، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة في الأمر إلا نصيب ضئيل وحصة تافهة، فما هو إلا شاهد لم يحرِّك ساكناً، ولبث راقداً على حصيرته وراء الحاجز، فحين يلقي ديمترى كاراكازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل، فإنما يعرِّض نفسه

عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر إلى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها. كان سمردياكوف سيروي عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً، ولكنه لم يتولَّ هو تنفيذ القتل، وإنما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه في ما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل. ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة في الجريمة نصيب ضئيل، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه، إذا هو عوقب، أخفَّ كثيراً من العقاب الذي ستنزله المحكمة في الفاعل الرئيسي الذي يحاول أن يلقي الجرم كله على عاتقه. فلو كان الأمر كذلك، إذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع إلى الاعتراف بكل شيء. ولكننا لم نر شيئاً من هذا. إن سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم، رغم أن القاتل قد اتهمه اتهاماً قاطعاً صريحاً، وكان يسمِّيه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذي ارتكب الجريمة. وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه هو الذي زوَّد المتهم بالمعلومات التي تتعلق بالمبلغ، وبالإشارات السرية، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً. فهل كان يمكن أن يكشف لقاضي التحقيق عن هذه الحقائق كلها، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه، لو كان شريكه في الجرم فعلاً؟ ألا إنه لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها. ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً. ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف إلا إنسان بريء، إنسان لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك في الجريمة. وأمس شنق هذا الرجل نفسه وهو في حالة انهيار مرضي مرده إلى داء الصرع

وإلى الكارثة التي ألمت بذويه؛ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص: «أنهيت حياتي بإرادتي حراً، فلا تتهموا أحداً». فلماذا لم يضف إلى ذلك قوله: «أنا القاتل، لا كارامازوف»؟ إنه لم يضف هذا الكلام. أيكون عنده من شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفي لدفعه إلى قتل نفسه، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفي لدفعه إلى تبرئة بريء؟ دعونا من هذا الكلام أيها السادة.

وإليكم الآن شيئاً آخر: لقد أُتي إلى هذه المحكمة منذ قريب بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل على زعم أن هذا المبلغ هو الذي كان مودعاً في الظرف الموجود الآن على منضدة أدلة الاتهام، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف ولكن المشهد الأليم الذي جرى هنا منذ قليل، ما يزال ماثلاً في أذهانكم، يا سادتي المحلفين. لن أذكر تفاصيل هذا المشهد، وسأكتفي بأن أسوق بعض الملاحظات في هذا الصدد وهي ملاحظات تافهة، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تُهمل؛ فأقول أولاً: إن المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردَّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير. (فلولا عذاب الضمير لما ردَّ المال). وبالأمس إذاً إنما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لإيفان كارامازوف لأول مرة، كما ذكر لنا إيفان كارامازوف ذلك في شهادته، وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن. ولكن إذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته، فإنني أعود فأسأل: لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر في حقه غداً حكم فظيع؟ إن المال وحده لا ينهض دليلاً على شيء. من ذلك مثلاً أنني علمت منذ أسبوع، بطريق المصادفة وحدها، كما علم ذلك شخصان آخران

حاضران في هذه القاعة أن إيفان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة في المائة، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل فيكون المجموع عشرة آلاف روبل. وإذا كنت أذكر هذا فإنني لا أذكره إلا لأبيِّن أن أي إنسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة، وأن إبراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذي كان مودعاً في درج معين أو في ظرف معيَّن. ثم إنني أتساءل أخيراً: لماذا لم يبادر إيفان كارامازوف، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقي على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة، أقول لماذا لم يبادر إلى القيام بعملٍ من الأعمال على الفور، لماذا لم يبادر إلى إبلاغ القضاء في الحال؟ لماذا أرجأ تصريحه إلى الصباح؟ لماذا؟ أحسب أنني أحزر: مريض منذ ثمانية أيام، إنه وهو يعاني من هلوسات ويرى أشباحاً وتهجس في نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل، إنه وهو في عشية نوبة من نوبات حُمّى عصبيّة رأيتم كيف صرعته منذ قليل، أنه وهو في تلك الحال قد علم فجأة بأن سمردياكوف مات، فإذا هو يفكر التفكير التالي: «لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه. أما أخي فسوف أنقذه. وعندي مال: سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته». قد تقولون لي إن في هذا مجافاةً للشرف والأمانة، وإن من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت، وإن من الواجب على المرء أن لا يفتري ولو لإنقاذ أخيه. إنني أسلِّم بهذا. ولكن لعل إيفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب، متخيلاً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو، لأن عقله قد اختلّ اختلالاً نهائياً حين علم بغتةً بنبأ موت

ذلك الخادم. لقد شهدتم المشهد الذي جرى هنا، فرأيتم الحالة التي كان عليها الشاهد. كان واقفاً على قدميه وكان يتكلم، ولكن أين كان عقله؟ وبعد الأقوال التي أوردها هذا الرجل المريض، قُدِّمت إلينا وثيقة هي رسالة كتبها المتهم قبل وقوع الجريمة بيومين، وأرسلها إلى الآنسة فرخوفتسيفا، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة. فهل من الضروري بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن في التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذي جاء وصفه في هذه الرسالة تماماً، فلا يمكن أن يكون الجاني إلا ذلك الذي كتب الرسالة. نعم، يا سادتي المحلفين «تمت الجريمة حسب المكتوب!». إن المتهم لم يترك نافذة أبيه لائذاً بالفرار في احترام ووجل، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته موجودة مع أبيه. هذا أمر غير معقول ويجافي الحقيقة. وإنما الواقع أنه دخل البيت، ونفذ خطته إلى النهاية. جائزٌ أن يكون قد قتل وهو في حالة اهتياج شديد وحنق مباغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت. جائز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحة بالمدق النحاسي، ثم أدرك بعد ذلك، حين فتش جميع أركان الغرفة، أن تلك المرأة لم تكن هناك. ولكنه لم ينس، بعد أن نفذ جريمة القتل، لم ينس أن يدس يده تحت الوسادة، فيستلّ الظرف الذي يحتوي على المال، ذلك الظرف الممزق الذي يوجد الآن على منضدة أدلة الاتهام. وأنا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم إلى أمر هو في نظري من الأمور الهامة جداً. لو كان الجاني مجرماً ذا خبرة، لو كان قاتلاً يهدف إلى سرقة مال، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة، قرب الجثة، حيث عُثر عليه

فيما بعد؟ إذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بغية السطو على المال، أفما كان يكتفي سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف من دون أن يخطر على باله أن يفضّه، لأنه موقن من أن المال مودع فيه، فقد رأى مولاه يضع المال في الظرف ويغلق الظرف على المال؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قائلاً لنفسه: متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة. إنني لأسألكم يا سادتي المحلَّفين: هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذي تكشف عنه وقائع القضية؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة؟ لا، إن هذا التصرف لا يمكن أن يكون إلا تصرف قاتل خارج عن طوره، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً، قاتل لم يكن هدفه السّرقة ولا سبق له أن سرق قبل ذلك في يوم من الأيام، قاتل لا يتصرف حتى في تلك اللحظة، حين دس يده في السرير ليستلّ المال، تصرف سارق يسطو على غنيمة، وإنما يتصرف تصرفَ رجل يسترد مالاً كان قد سُلب منه؛ وتلك هي في الواقع أفكار دمتري كارامازوف في هذا الشأن، وهي أفكار كادت تصير في ذهنه إلى هوس يحاصره ولا يبارحه. لذلك فإنه حين أمسك الظرف الذي لم يسبق أن رآه قبل ذلك، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً، ثم وضع المال في جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير في أنه يخلّف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض. ذلك كله من فعل كارامازوف، لا من فعل سمردياكوف، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر! ويهرب دمتري كارامازوف، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذي لحق به فأمسكه، وكان سيقبض عليه، فإذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجندلاً بضربة من

المدق؛ وعندئذ يغرّ المتهم من على السياج، ويميل على العجوز. هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف؟ ذلك ما يدعيه، تخيلوا!... إنه يَزْعَمُ أنه مال على الخادم العجوز شفقةً ورأفة، ليرى هل في وسعه أن يسعفه وينجده! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً؟ لا، وإنما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذي عرف جريمته ما يزال حياً؟ إن كل باعث آخر، وكل عاطفة أخرى، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما في مثل تلك اللحظة. لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى، وأنه مسح رأسه بمنديله، فلما أيقن أن الخادم قد مات، مضى ينصرف كمجنون ملطخاً بالدماء، ليركض مرة أخرى إلى منزل حبيبته. كيف لم يخطر بباله في تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيُشتبه به؟ إن المتهم يصرِّح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه إلى الدم الذي كان ملطخاً به. إن في وسعنا أن نصدِّق كلامه في هذه النقطة. ذلك جائز جداً، وذلك ما يحدث للمجرمين في مثل تلك اللحظات على وجه العموم. إنهم يجرون حسابات شيطانية في بعض الأمور، ثم هم ينسون التفكير في أمور أخرى نسياناً تاماً. ثم إن سؤالاً واحداً كان يشغل باله في تلك اللحظة، فهو لا يفكر إلا في ذلك السؤال: أين هي؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون. وهرع إلى منزلها، فعلم هنالك بنبأ لم يدر في خلده ولا كان في حسبانه، نبأ هز نفسه هزاً قوياً عنيفاً. وهو: أنها سافرت إلى موكرويه، وأنها مع «صديقها القديم الذي لا يُجحد».

- 9 -

سيكولوجيا مندفعة

عربة الترويكا تعدو

خاتمة مرافعة النيابة

واضح أن ايبوليت كيريلوفتش قد اختار لخطابه منهجاً في العرض هو المنهج التاريخي الصارم الذي يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين أن يلتزموا أطراً ذات حدود دقيقة في سبيل ان يضبطوا سيل اندفاعهم العارم. فلما وصل إلى هذه النقطة من خطابه، أفاض في الكلام على الحبيب الأول الذي «لا يُجحد»، فساق في هذا الموضوع أفكاراً شائقة. قال إن كارامازوف، الذي يشعر بغيرة كاسرة من الجميع، قد أمّحى فجأة وزال أمام هذا الحبيب «القديم الذي لا يُجحد»؛ وذلك أمر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وأنه لم يكد يفكر قبل الآن في الخطر الجديد الذي كان يهدده به هذا الغريم الذي لم يكن في حسبانه. كان يتصور هذا الخطر بعيداً، فإن رجلاً مثل كارامازوف لا يعيش إلا في اللحظة الحاضرة. ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التي عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت في ذهنه صورة وهم من الأوهام أو خيال من الأخيلة لا يمت إلى الواقع بِصِلة. ولكن ها هو ذا يدرك الآن، محطّم القلب،

أن هذه المرأة إن أخفت عنه حتى ذلك الحين أمر وصول هذا الرجل في القريب، وإن كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة، فما ذلك إلا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً في حياتها بالفعل، ولأنه يمثّل في الواقع كل آمال روحها، وأشواق قلبها. فلما أدرك هذه الحقيقة أذعن واستسلم. «ليس في وسعي، يا سادتي المحلفين، أن أغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذي كان يبدو عاجزاً عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن. لقد استولت على نفسه فجأة حاجةٌ قوية إلى الحقيقة، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقّها في أن تحب كما يشاء لها هواها حرةً طليقة، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفي سبيلها ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيَّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض: «ما أنا بالنسبة إليها بعد اليوم، ما الذي أستطيع ان أهبه الآن لهذه الإنسانة التي أحبها وأعبدها أكثر من أي شيء في العالم؟ ما أنا في نظرها بالقياس إلى الصديق «القديم الذي لا يُنسى والذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل إليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة في حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً؟». نعم، ما الذي يستطيع أن يقدمه إليها في هذه الساعة، ما الذي يمكنه أن يهبه لها الآن؟ لقد أدرك كارامازوف ذلك كله، أدرك أن جريمته قد سدَّت أمامه جميع سبل الحياة، وأنه ليس بعد اليوم إلاّ قاتلاً سينزل فيه العقاب، وأنه أصبح لا ينتمي إلى عالم الأحياء. أرهقته هذه الفكرة ودمَّرته. وفي تلك اللحظة إنما تصور، على حين فجأة، مشروعاً لا بد أن يكون بالنسبة إلى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس. ذلك المخرج هو الانتحار. فها هو ذا يهرع

إلى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه؛ وفيما هو في الشارع، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها صبغ يديه بدم أبيه منذ قليل. ذلك أنه أصبح الآن في حاجة إلى المال أكثر من أي وقت مضى: إن كارامازوف سيموت، إن كارامازوف سينتحر، وينبغي أن يتذكر الناس هذا المشهد! ليس عبثاً أننا شعراء، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها. «إليها، إليها... ويجب أن أراها... وبعد ذلك... سأحتفل احتفالاً لم يُر له مثيل من قبل، احتفالاً يظل يتحدث الناس عنه زمناً طويلاً بعدي. وفي وسط الصرخات الوحشية، والأغاني الغجرية، والرقصات المحمومة، سأرفع كأسي، فأشرب نخب السعادة الجديدة التي ستنعم بها المرأة المعبودة. وبعد ذلك، فوراً بعد ذلك، أهشم دماغي فأسقط على قدميها مكفِّراً عن ذنوبي وآثامي! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف، وسترى كم كنت أحبها، وسترثي عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه»! . إن في هذا المشروع الذي عزم المتهم على تنفيذه غير قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية، وإن فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف. وإن فيه شيئاً آخر، شيئاً آخر يا سادتي القضاة، شيئاً كان يصرخ في أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه، ألا وهو ضميره، يا سادتي القضاة، ضميره الذي أدانه وحكم عليه، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسراً! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حداً لكل شيء، فهو الحل الوحيد، ولا حلَّ سواه. أما عما سيحدث بعد ذلك، فإنني لا أدري هل تساءل كارامازوف في ذلك الأوان عمّا سيصير إليه. لا أدري هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر في حياته الآخرة كما فعل هاملت. لا يا سادتي القضاة، هم عندهم أمثال هاملت؛ أما

نحن فليس في بلادنا حتى الآن إلا أمثال كارامازوف!».

وبعد ذلك وصف ايبوليت كيريلوفتش ما أعدَّه ميتيا بالتفصيل، وصف زيارته للموظف برخوتين، ومروره بمتجر البقالة، ومناقشاته مع أصحاب العربات؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته وإشاراته وحركاته، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود. فكان للّوحة التي رسمها تأثيراً كبيراً في الحضور، وقد خطف تكامل الوقائع التي سردها الانتباه وأسر العقول خاصةً، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذي كان يتخبط طائش العقل ولا يراعي نفسه هو الجاني فعلاً. وتابع ايبوليت كيريلوفتش كلامه فقال: «أصبح المتهم في غير حاجة إلى الحذر والتروي، لذلك اتفق له مرتين أو ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شيء، فكان يُلمِّح إلى جريمته بدون انقطاع، ولكنه لم يمض إلى حد التحدث عنها صراحةً (هنا ذكَّر النيابة بشهادات الشهود)؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذي وهو في طريقه إلى موكرويه: «هل تعرف أنك تُقلُّ في عربتك قاتلاً؟». ومع ذلك كان لا يملك أن يمضي في اعترافاته إلى آخرها. فإنما المهم أن يصل أولاً إلى موكرويه وأن يكمل القصيدة. ولكن إليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك: لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى، منذ أن وصل إلى قرية موكرويه، لاحظ أولاً ثم أدرك إدراكاً واضحاً بعد ذلك أن منافسه الذي كان يظن أنه «لا يُنسى»، ليس بالمنافس الذي «لا يُنسى» حقاً، وأن الحبيبة لا تريد ولا تقبل منه، هو ميتيا، أن يهنئها بالسعادة الجديدة. على أنكم تعرفون الوقائع يا سادتي المحلَّفين، تعرفونها من نتائج التحقيق. لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً. وعندئذ، عندئذ يا سادتي، إنما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات قلبه، مرحلة هي أفظع المراحل التي عرفها والتي

سيعرفها أيضاً. آه يا سادتي القضاة! ألا إننا لنستطيع أن نؤكد أن الطبيعة المُساء إليها والقلب الآثم ينزلان عقاباً أشد هولاً من العقاب الذي تنزله فيه عدالتنا الأرضية ذلك هو عذاب القلب والروح. بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذي يمكن أن توقعه العدالة الإنسانية يخفف العقاب الذي توقعه الطبيعة، وهو في هذه الأحوال ضروري لنفس المجرم، لأنه السبيل الوحيد إلى نجاة روحه من اليأس. ليس في وسعنا أن نتخيل أنواع الهول وضروب العذاب التي لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها وقاسى منها حين علم أن هذه المرأة تحبه، وأنها تعدل في سبيله عن صديقها «القديم الذي لا يُنسى»، وأنها تدعوه هو، هو ميتيا، إلى أن يبدأ معها حياة جديدة، وأنها تَعِده هو، هو ميتيا، بالسعادة؛ وذلك في اللحظة التي كان فيها كل شيء في نظره قد انتهى، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأي أمل، ولا أن يتشبث بأي رجاء. أحبّ في هذه المناسبة أن أثبت واقعةً أحسب أنها هامة جداً لفهم الوضع الذي كان عليه المتهم في تلك اللحظات: إن تلك المرأة التي كان يحبها ويشتهيها شهوة جياشة عارمة، كانت قد ظلت إلى آخر دقيقة، إلى حين القبض عليه، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها. ورُبَّ سائل سأل: لماذا لم ينتحر إذن، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسي مسدسه؟ الجواب على هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجئ في إرضاء هذا الهوى لم يلبثا أن صدّاه عن تنفيذ ما عقد النية عليه. إنه وهو في سكرة اللّهو والقصف قد التصق بحبيبته التي كانت تشاركه لهوه وقصفه، والتي كانت تبدو له في تلك اللحظات أجمل وأروع وأفتن وأحق بالحب والعبادة منها في أي وقت مضى، فهو لا يحوّل عنها بصره، وهو لا ينفك يزداد إعجاباً بها وذوباناً فيها. حتى إن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ

الشديد إلى الحب قد خنقا في نفسه، أول الأمر، لا الخوف من الاعتقال فحسب، بل عذاب الضمير أيضاً. ولكنهما لم يخنقاهما إلا لحظات قصارا أيها السادة، لحظات، لحظات لا أكثر! إنني أتخيل الحالة النفسية التي كان عليها المتهم وقد استبدَّت به عناصر ثلاثة: أولها أبخرة الخمرة التي صعدت إلى رأسه وضوضاء الرقصات والأغاني التي تدوي في أذنيه وهذه المرأة التي تخضب وجهها بالحمرة من أثر الشراب وأخذت تغني وترقص سكرى هي أيضاً. وكانت تبتسم له ابتساماً فتاناً؛ وثانيها أملٌ في أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة، أو أنها ليست وشيكة على الأقل، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة، وأنه لن يُقبض عليه قبل طلوع الفجر، وأن أمامه إذاً بضع ساعات وهذه الساعات إنما هي سعادة كبيرة عظيمة! وثالثها أن في وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة. إنني أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذي يقاد إلى الميدان الذي سيُشنق فيه، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين: «ما يزال هناك شارع، شارع طويل طويل سأجتازه»، ثم تنعطف العربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذي نصبت فيه المشنقة الرهيبة إلا في نهايته... يُخيل إليَّ أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر، في بداية هذه الرحلة، أنه ما تزال أمامه أبدية حياة. ولكن المنازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة، والرجل يقول لنفسه: «ما هذا بشيء، ما يزال المنعطف بعيداً»، ويظل يتفرس، رابط الجأش، في ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث، والذين تحدق أبصارهم إليه. إنه يتصور عندئذ أنه شبيه

بجميع هؤلاء الخلق، وأنه ما يزال ينتمي إلى عالم الأحياء. وها هي ذي العربة تنعطف إلى الشارع الآخر. اوه! ما هذا بشيء، ما هذا بشيء، فما يزال هناك هذا الشارع كله. وتخطر المنازل واحداً بعد آخر، ولكنه يظل يردد: «ما يزال هناك منازل كثيرة»، ويستمر على ذلك حتى النهاية، حتى لحظة الوصول إلى الميدان المحتوم المشؤوم. تلك هي في رأيي الحالة النفسية التي كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات. كان يقول لنفسه: «لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة، وفي وسعي أن أهتدي إلى تعليل ما. أوه! سوف أهتدي إلى تعليل ما. أوه! سوف اهتدي في أثناء هذا الوقت إلى خطة دفاع. إلى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسي... أما الآن، أما الآن، فما أجملها وما أروعها!». صحيح أنه كان مضطرباً مهموماً، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذي جاء به، وإخفائه في مكان ما - ذلك أنني لا أستطيع أن أفسّر بغير هذا كيف أمكن أن يخفي نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التي استلها من تحت وسادة أبيه. كان قد جاء قبل ذلك إلى موكرويه، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبي الكبير القديم، يعرفه حق معرفته، يعرف جميع أركانه وزواياه، طاف في أروقته، وتجول في حجراته. إنني أفترض أنه في ذلك المنزل إنما خبأ نصف المال قبل أن يُقبض عليه بلحظات، دسَّه في شق من الشقوق أو تحت وتد من الأوتاد، في زاوية مظلمة، أو بين القرميد، لا أدري؟ فإذا سألتموني ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ وإخفائه، قلت إن الهدف واضح. فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة إلى لحظة، وهو لم يفكر بعد في وسائل حماية نفسه منها، وليس في وقته متسع للتفكير في ذلك، ما دام رأسه يضج هذا الضجيج

كله، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق إنما كان يدفعه نحو الحبيبة! ولكن المرء يحتاج إلى المال في جميع الظروف. ومن ملك شيئاً من مال، فقد ظل في هذا العالم شيئاً مذكوراً. رب قائل يقول إن مثل هذا الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك الساعة. ولكنني أسألكم: ألم يقل لنا المتهم نفسه إنه منذ شهر، في ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل، فإن هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها؛ حتى ليمكن أن نذهب إلى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ في كيس (كيس لم يوجد في يوم من الأيام على كل حال)، إنما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه، أعني لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ في موكرويه، قبل ساعتين، وخبأه من باب الاحتياط إلى الفجر، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه، خاضعاً في ذلك لوحي مباغت وإلهام مفاجىء. تذكروا الهوَّتين، يا سادتي القضاة، تذكروا الهوَّتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد معاً! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجوداً فيه، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أُخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم. مهما يكن من أمر، فلقد كان المتهم قربَ هذه المرأة، جاثياً على ركبتيه أمامها، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه، كانت هي مستلقية على السرير، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاؤوا للقبض عليه. لم يكن قد هيأ بعد شيئاً يجيب به عن أسئلتهم. لقد داهموه على غير توقع منه.

وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضاته الذين سيقررون مصيره. سادتي المحلَّفين، اننا، أثناء ممارسة وظيفتنا نمر بلحظات يعترينا فيها، على حين فجأة، خوف ووجل أمام التهم وأمام المصير الذي ينتظره؛ وهي اللحظات التي نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزي الذي يستولي عليه حين يدرك أن كل شيء قد ضاع، ولكنه يظل يناضل، ويظل يحاول أن يقاومنا. إن غريزة البقاء تستيقظ في نفسه عندئذ قويةً قوةً هائلة، فإذا هو وقد تسلطت عليه رغبة محمومة في الإفلات منا، يتفرس فينا بنظرة نافذة، نظرة مستفهمة أليمة في آن واحد، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول في خواطرنا، متسائلاً ما هي الجهة التي سنأتيه منها؛ وسرعان ما تقوم في ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها ترو أو تبصّر. إن هذه اللحظات التي يُذَلّ فيها الإنسان، وهذه الشدائد التي تقاسي منها النفس، وهذه الرغبة البهيمية في الإفلات من العقاب، إن هذا كله يبعث منظرُه أشدَّ الألم، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضي التحقيق. لقد شهدنا هذا المنظر حين ألقي القبض على كارامازوف، بدا في أول الأمر مصعوقاً، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته، وأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر. قال: «سفحت دماً! أستحق هذا المصير!» ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه، فماذا يقول، بماذا يجيب؟ هو لا يعرف بعدُ ماذا يقول لأنه لم يهيئ شيئاً، فلجأ في أول الأمر إلى إنكارات قاطعة هاتفاً: «أنا لم أقتل أبي!». كان ذلك هو المتراس الوحيد الذي أقامه ارتجالاً ليحتمي به، وفي نيته أن يقيم متاريس أخرى. وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التي لم

يكن فيها شيء من التروي والتبصر، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعد نفسه مسؤولاً إلا عن موت الخادم جريجورى. قال: «صحيح أنني سفحت دمه هو، ولكن من الذي قتل أبي، من الذي قتله أيها السادة؟ من ذا الذي قتله إذن، ما دمت لست أنا القاتل؟» هل سمعتم: إنه يلقي علينا نحن هذا السؤال، نحن الذين إنما جئنا لنلقي هذا السؤال نفسه عليه! لاحظوا هذه الطريقة التي يعمد إليها في استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً: «ما دمت لست أنا القاتل»، انظروا إلى هذا المكر البهيمي، وإلى هذه السذاجة أيضاً، وإلى هذا التسرّع الذي يدل على نفاد الصّبر والذي هو شيء من طبيعة رجل مثله! لست أنا القاتل، وإني لأحظر عليهم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها. ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (إنه يتعجل، يتعجل تعجلاً رهيباً): «كنت أريد أن أقتله أيها السادة، كان في نيتي ذلك، ولكن لست أنا الذي قتلته، لست أنا المسؤول عن مقتله!». هو يسلِّم لنا بأنه كان ينوي أن يقتله، فكأنه يقول لنا: انظروا كم أنا صادق، فعليكم أن تصدِّقوني متى أكدت لكم أنني لم أقتل. إن المجرمين يبرهنون في لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل. وفي تلك اللحظة نفسها سُئل، كأنما بمصادفة، وكأن الأمر عادي طبيعي إلى أبعد الحدود: «أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟». فعمد إلى طريقة هي بعينها الطريقة التي تنبأنا بها: غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيئة نفسه بغتةً بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لإعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لإلقاء التهمة على سمردياكوف؛ فبادر يندفع إلى الطرف الأقصى الآخر، خاضعاً في ذلك لقوانين الطبيعة، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن

أن يكون القاتل، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل. ولكن لا تصدِّقوه، فما كان هذا إلا حيلة ومكراً ودهاء: إنه لم يعدل أبداً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه. بالعكس: سوف يقدِّم سمردياكوف متى آن الأوان، وهل يوجد إلا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمِّله الجريمة؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر. قد يُخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام. سوف ينتظر الفرصة المؤاتية ليصيح قائلاً: «انظروا! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر مما دافعتم أنتم عنه؟ ولكنني قد اقتنعت الآن بأنه هو الذي قتل، وأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون مرتكب هذه الجريمةَ!» أما في تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الإنكار القاطع والنفي الجازم، متظاهراً بكثير من الغيظ والحنق. ومع ذلك فإن نفاد الصبر وشدة الغضب قد أوحيا إليه بتفسير لسلوكه هو بين جميع التفاسير الممكنة أقلها حذقاً وبراعة وأبعدها عن المعقول، فأخذ يروي لنا كيف أنه اقتصر - في زعمه - على أنه نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام. يجب أن لا ننسىَ خاصةً أن المتهم لم يكن على علم في تلك اللحظة بخطورة الأقوال التي وردت في شهادة جريجورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته. وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة، فأحنقه هذا الإجراء، ولكنه شجعه في الوقت نفسه، فلم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً، ولم نجد إلا ألفاً وخمسمائة روبل. وواضح أنه في أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والإنكار المقهور إنما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس. لا شك في أنه كان هو نفسه يحسّ بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول، ولا شك في أنه كان يُعمل فكره

جاهداً من أجل أن يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً، دون أن يدري ما الذي يجب عليه أن يتخيله حتى ينشئ رواية يصدقها العقل. ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين في مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير إجابته، وأن يقودوه بذلك إلى الكشف عمّا يضمره من حساب مع كل ما يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال، ومع كل ما يحتويه من تناقضات. ولا يمكن إجبار المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح إلا إذا أطلع بغتةً، بما يشبه المصادفة العابرة، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع إذاً أن يستعد لها. وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة... كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة... ألا وهي شهادة الخادم جريجوري الذي صرَّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذي هرب منه القاتل مفتوحاً. كان المتهم قد نسي نسياناً تاماً أن يفكر في ذلك الباب، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجوري قد رآه. فلما فاجأناه بهذه الواقعة، كان لها فيه أثر فظيع، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا: «سمردياكوف هو الذي قتل! إنه سمردياكوف!». هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة، وفضح خطة دفاعه الأساسية، ولكنه أسلمنا ذلك في صورة هي أبعد الصور عن المعقول والمحتمل، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل إلا بعد أن جندل المتهم جريجوري وولّى هارباً. فلما قلنا له بعد ذلك إن جريجوري رأى الباب مفتوحاً قبل أن يهوي على الأرض مضرجاً بدمائه وأنه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يئن ويتوجع وراء الحاجز، حين قلنا له ذلك صُعق فعلاً. إن زميلي المحترم الذكي نيكولاي بارفينوفتش قد روى لي بعد

ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم، وتأثر تأثراً شديداً حتى كادت تفيض عيناه بالدموع. وفي تلك اللحظة إنما سارع المتهم، إصلاحاً للموقف، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ: «طيب... إليكم الآن هذه الرواية فاقبلوها!». سبق أن ذكرت لكم رأيي في هذه القصة يا سادتي المحلَّفين، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعدًّ اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر، لماذا أعد اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسيراً من التفسيرات التي كان يمكن اختلاقها في حالة من هذا النوع. ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور شيئاً أبعد عن المعقول وأنأى عن الاحتمال من هذه القصة الملفقة. إن في وسعنا في هذه النقطة أن نربك قصَّاصنا المرتجل الواثق من نفسه، وأن نفضح كذبه وندمِّر حجته، بأن نجابهه ببعض التفاصيل، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير إرادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة زائدة لا قيمة لها، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً، فإن وقتهم لا يتسع للاهتمام بهذه السفاسف، وإنما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملة... ولكن ها هم أولاء يجابَهون بتلك التفاصيل الشقية! وعندئذ إنما نستطيع أن نضبطهم. ألقينا على المتهم هذا السؤال: «من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير، ومن الذي خاطه لك؟» فأجابنا: «خطته بنفسي». فألححنا نسأله: «والقماش، من أين جئت به؟» فشعر المتهم باستياء وضيق، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به. ولقد كان عندئذ صادقاً كل الصدق، نعم كل الصدق. فلا تعذِّبوه. إنهم جميعاً على هذه الشاكلة، هؤلاء المجرمون! قال: «انتزعت قطعة قماش من قميصي». قلنا:

«عظيم. إذاً سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذي تنقصه قطعة». إنكم لتدركون يا سادتي المحلَّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه في حقيبته أو في درج من الأدراج لو كان له وجود حقاً)، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله. ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله. واستأنف كلامه يقول: «لست اتذكر جيداً. أظن أنني لم أنتزع قطعة القماش من قميص، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذي أسكن فيه». سألناه: «أية طاقية؟» فأجاب: «طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها، هي متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية». قلنا: «هل ذكرياتك دقيقة؟» قال: «لا، ليست دقيقة!»، وأخذ يغضب ويثور علينا. ألا إنني لأسألكم: كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر؟ إن التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود إلى ذاكرة المرء في أشقى ساعات الحياة، في لحظة الإعدام مثلاً، فإذا بالمحكوم عليه، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك، يتذكر السطح الأخضر من منزل أبصره أثناء الطريق، أو يتذكر غراباً أسود رآه واقفاً على صليب، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة إلى الأبد. ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممض حين كان ممسكاً بالإبرة وهو يرتعش خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبساً بالفعل؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يختبىء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة)... على أنني أتساءل، يا سادتي المحلَّفين، لماذا أذكر لكم هذا كله، لماذا اذكر لكم جميع هذه التفاصيل، وجميع هذه الترهات!

بهذا هتف ايبوليت كيريلوفتش على حين فجأة، ثم واصل كلامه:

- إنني مضطر إلى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة. إنه خلال هذين الشهرين الماضيين، منذ تلك الليلة التي حملت إليه ذلك الشؤم كله، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول، ولم يستطع أن يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة إلى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب. هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها، وإنما يجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده. والحق أننا لا نتمنى إلا أن نصدقه، والحق أننا نحب كثيراً أن نثق به وأن نركن إلى كلامه ولو على عهد الشرف وحده. فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشون إلى دماء البشر؟ ألا فاعطونا واقعة واحدة، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم، فنفرح بذلك أشد الفرح، ونغتبط له أشد الاغتباط. ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس، لا بد لنا من عنصر واقعي، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل إن المتهم حين ضرب صدره إنما كان يدل على الكيس المخبأ فيه، إنما كان يشير إلى هذا الكيس، وذلك في ظلمة الليل أيضاً! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع إلى الاعتراف ببراءة المتهم. ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا في هذه الساعة، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التي تدين المتهم، ولسنا نملك إلا أن نظهركم عليها.

هنا وصل ايبوليت كيريلوفتش إلى خاتمة مطالعته. كان يرتجف عندئذ من الحمى، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح، دم الأب الذي قتله ابنه «بدافع حقير هو الطمع في المال»؛ وألحَّ

إلحاحاً شديداً على أن الأدلة القاطعة التي تدين المتهم متوافرة توافراً تاماً لا يدع مجالاً لشك أو تردد. وختم كلامه قائلاً: «أياً كان الكلام الذي سيقوله لكم بعدي وكيلُ المتهم، المحامي المعروف بموهبته (لم يملك ايبوليت كيريلوفتش إلا أن يضيف هذه الكلمات) الذي ستترجع في هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم، فلا تنسوا يا سادتي المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس. تذكروا أن رسالتكم هي أن تدافعوا عن الحقيقة، وأنّ مهمتكم هي أن تحموا وطننا المقدس روسيا، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية! نعم يا سادتي المحلفين، إنكم تمثلون الآن روسيا كلها، تمثلون روسيا التي تشخص بأبصارها إليكم في هذه الساعة حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها وتتشجع حميتها، أو أن يخيب ظنها ويخور عزمها. فلا تعذبوا روسيا، لا تخيبوا رجاءها، لأن الترويكا الجامحة التي تحمل مصائرنا القومية تعدو عدواً سريعاً وربما هوت بهذه المصائر إلى الضياع والهلاك. إن العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم إلى الخيول الهائجة، منذ زمن طويل، ضارعين مبتهلين أن يوقف اندفاعها العنيف العارم. وإذا كانت الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكا الطائشة، فربما كانت لا تتنحى الآن من باب الاحترام، كما أراد الشاعر أن يقول، وإنما هي تتنحى من قبيل الخوف والذعر، ولتلاحظوا ذلك، من قبيل الخوف والذعر، وربما من باب الاشمئزاز والتقزز أيضاً. . . ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى على كل حال وماذا لو أنها كفت في يوم من الأيام عن الخوف منها، فإذا هي تنتصب سداً منيعاً أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل صيانةً لنفسها، وإنقاذاً للحضارة والثقافة. إن أصواتاً قلقة قد

ارتفعت منذ الآن في أوروبا، ووصلت إلى مسامعنا. إن احتجاجات قد أخذت تنطلق في البلاد الأخرى. فلا تغروا بنا أعداءنا، ولا تزيدوا كرههم لنا وحقدهم علينا بإصدار حكم يسوّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه!...».

جملة القول إن ايبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع بلاغته، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً، فكان الأثر الذي أحدثه في نفوس الحضور كبيراً جداً. فلما انتهى من إلقاء مرافعته أسرع يخرج إلى الغرفة المجاورة، وكاد يُغمى عليه كما سبق أن ذكرت. ولم يصفق الجمهور، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور قد شعروا بالارتياح والرضى. وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً بطبيعة الحال، ولكنهن قد تذوقن، هنَّ أيضاً، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغته، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن، فهنَّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية، لأنهن يعوّلن كثيراً على فيتوكوفتش، فإنه «سيتكلم أخيراً، وسينتصر لا محالة!».
واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا: كان قد أصغى إلى مرافعة النيابة صامتاً، متشنج اليدين، كازَّ الأسنان، خافض البصر. وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه، ويصيخ بسمعه. وهذا ما حدث خاصةً حين جاء ذكر جروشنكا. فحين أورد وكيل النيابة رأي راكيتين فيها، ارتسمت على شفتي ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة، وقال بصوت مسموع: «هؤلاء اناس من أمثال برنار!». وحين روى ايبوليت كيريلوفتش كيف استجوب المتهم وعذبه في موكرويه، رفع ميتيا رأسه من جديد، وبدا عليه أنه يصغي بانتباه شديد. وفي لحظة من اللحظات، كاد يثب عن مكانه، على نية أن يقول شيئاً ما بطبيعة الحال، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً. وقد أثارت

خاتمة المرافعة التي ألقاها وكيل النيابة، ولا سيما حديثه عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه، أثارت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك في مجتمعنا، ولم ينس الناس أن يسخروا من ايبوليت كيريلوفتش، فكانوا يقولون: «إنه لم يستطع مقاومة الإغراء الذي يحضه على الزهو بنفسه والإعجاب بمقدرته».

ورُفعت الجلسة، ولكنها لم تُرفع إلا مدة قصيرة جداً، ربع ساعة أو عشرون دقيقة في أكثر تقدير، سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة إليكم بعض ما حفظته منها:

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه:

- خطاب جاد كل الجد، خطير كل الخطورة!

فأجابه آخر:

- أسرف في السيكولوجيا مع ذلك!

- ولكن ما قاله هو الحقيقة، هو الحقيقة بعينها خالصة!

- نعم هو حجة في هذا الميدان.

- أجْمَلَ النتائج وعرض تاريخ المتَّهَم.

وتدخل ثالث فقال:

- وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً، في بداية مرافعته، هل تتذكرون؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيدور بافلوفتش.

- وفي نهاية المرافعة كذلك. ولكنه كذب!

- ثم لقد تضمنت مرافعته فقرات كثيرة غامضة.

- انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة.

- كان ظالماً، ظالماً جداً.

- لا أرى هذا الرأي، كان بارعاً. طال انتظاره، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً! هيه!

- إنني أتساءل عما سيقوله المحامي.

وفي جماعة أخرى، دار الحديث التالي:

- أخطأ حين نال من هذا المحامي الآتي من سان بطرسبرج: «حتى يؤثر في عواطفكم». لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة.

- نعم، لقد أخطأه التوفيق هنا!

- أسرف في التعجل.

- هو رجل عصبي.

- نحن نضحك، نحن، أما بالنسبة إلى المتهم فليس في كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك.

- أي والله. مسكين ميتيا!

- وددت لو أعرف ما سيقوله المحامي!

وفي جماعة ثالثة جرى هذا الحوار:

- من هي تلك السيدة السمينة الجالسة في الركن، الواضعة على عينيها نظارة صغيرة؟

- هي زوجة جنرال. إنها مطلقة. أنا أعرفها.

- آ... لهذا تضع نظارة.

- هي هول من الأهوال.

- أما أنا فأرى أنها مثيرة.

- على مقربة منها، بعد كرسيَّيْن، توجد صغيرة شقراء، تلك أجمل.

- لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة في موكرويه، ألا ترون هذا الرأي؟

- لا أنكر أنهم كانوا بارعين. لم يستطع وكيل النيابة مقاومة

الإغراء الذي يحضّه على سرد هذه الأمور مرة أخرى. لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مراراً قبل الآن، في بيوت بعض الأصدقاء!

- لا حيلة له في دفع هذا الإغراء. غلبه حب الظهور على أمره.

- هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون! هه!...

- وهو إلى ذلك سريع التأذي. وقد أسرف في اصطناع أساليب البلاغة، وكانت عباراته مفرطة في الطول.

- ثم لقد حاول أن يخيفنا، حاول أن يروِّعنا باستمرار. هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا؟ «إن عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت، أما نحن فليس عندنا بعدُ إلا أمثال كارامازوف!» تلك براعة منه.

- أراد أن يتملق الليبراليين. إنه يخاف منهم.

- ويخاف من المحامي.

- حتماً! إني لأتساءل ما الذي سيقوله السيد فيتوكوفتش.

- مهما يتكلم فلن يتنصر على فلاحينا!

- أتظن ذلك؟

في جماعة رابعة جرى هذا الحديث:

- أحببت كثيراً تلك الفقرة التي تكلم فيها عن الترويكا، الفقرة التي تكلم فيها عن الأمم الأخرى.

- لقد قال الحقيقة بعينها - هل تتذكر؟ - حين أكَّد أن الشعوب الأخرى لن تنتظر طويلاً ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر!

- لماذا؟

- ظهرت بوادر ذلك منذ الآن. ففي الأسبوع الماضي قام أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي، فقدم سؤالاً إلى الوزارة عن العدميين، وسأل: أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجي وردِّه إلى الصواب

من أجل تأديبه. إلى هذا إنما ألمح ايبوليت كيريلوفتش. أنا أعرف ذلك. لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام.

- إن أيديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشيء.

- كيف؟

- الأمر بسيط. يكفي أن نغلق ميناء كورنشتات، وأن ننقطع عن إمدادهم بالقمح. فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ؟

- من أين؟ أنسيت إذاً أمريكا؟ إن عندهم الآن قمحاً، في أمريكا!

- غير صحيح!

ولكن جرس رئيس المحكمة دوًى رنينه، فأسرع الجميع إلى أماكنهم. وتقدم فيتوكوفتش لإلقاء مرافعته.

– 10 –

مرافعة الدفاع

سلاح ذو حدين

خيَّم على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التي نطق بها الخطيب الشهير. وكانت جميع الأبصار متجهة إليه منصبّة عليه. بدأ مرافعته بدون جمل طنانة، ومضى إلى هدفه رأساً، ببساطة تامة مقنعة ليس فيها شيء من ادعاء أو غرور. خلا كلامه من كل ما يمكن أن يدلّ على رغبة في الفصاحة وميل إلى البلاغة، أو إيثار للألفاظ الرنانة التي تهدف إلى التأثير في العواطف. لكأنه رجل يتحدث في حلقة ضيقة من الأصدقاء. وكان له صوت جميل قوي محبَّب ينم جرسه عن الصدق وطيب السريرة وحسن النية. غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع إلى مستوى الخطابة التي تؤثر في السامعين تأثيراً قوياً حقاً، وأن «يهزَّ أوتار القلوب هزاً عنيفاً لا يجاريه فيه أحد». لعله كان يتحدث بلغة تقل سلامةً عن لغة ايبوليت كيريلوفتش، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة، وهو أميل منه إلى الوضوح وأقرب إلى الدقة. ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات فيه: لقد كان يحني ظهره دائماً، ولا سيما في بداية مرافعته، لا كما يحني المرء ظهره في التحية، وإنما هو يحني ظهره كمن يندفع نحو سامعيه. وأكثر من

هذا أنه كان لا يحني إلا نصف ظهره الطويل الذي كان يبدو كأنه مزود بمفصّلة في وسطه تتيح له أن ينثني زاويةً تكاد تكون قائمة.

وقد تكلم في بداية خطابه على نحو مبعثر مشتت، دون أن يلاحظ السامع وجود خيطٍ ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض، وإنما هو ينتقل من واقعة إلى أخرى بما يشبه المصادفة، غير أنه قد أخرج من ذلك في النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط. وفي وسعنا أن نقسم مرافعته قسمين: فأما القسم الأول فهو يشتمل على نقد ودحض للاتهام، وكان في بعض مواضعه لاذع السخرية كاوي التهكم. وأما القسم الثاني فقد غيَّر فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه فجأة، فاذا هو يرتقي دفعةً واحدةً إلى نبرة مؤثرة تهزّ أوتار القلب. وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة، فأخذت ترتعش حماسة جياشة. وقد عمد المحامي إلى مواجهة القضية رأساً، فأعلن قبل كل شيء أنه وإن كان يمارس المحاماة عادةً في سان بطرسبرج فقد اتفق له مراراً أن ذهب إلى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسُّها. وأضاف يقول شارحاً:

- وهذا ما حدث لي أيضاً في القضية التي يُنظر فيها الآن. فإنني منذ قرأت أولى المقالات التي نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهي ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم. على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذي همني في أول الأمر. لقد رأيت عندئذ، رغم أن الملاحظات التي من هذا النوع كثيرة في ممارسة القضاء، رأيت أن الأمور التي تشهد ببراءة المتهم لم تكن في أية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها في هذه القضية، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التي تبلغها في هذه القضية، فيما يخيّل

إليَّ. وربما كان ينبغي لي أن أحتفظ بهذه الآراء إلى آخر المرافعة، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع، ولكنني أؤثر أن أعبّر عما يجول في فكري منذ البداية، لأن من عيوبي أنني أمضي إلى هدفي رأساً، غيرَ مبالٍ بما يكون لكلامي من تأثير، وغيرَ مكترث بما يجب على المحامي في مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله إلى نفوس السامعين. وقد أكون في هذا متهوراً غير متروٍ، ولكنني مخلص صادق على كل حال. إليكم الفكرة التي أريد أن أعبِّر عنها: إننا نرى، من جهة أولى، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجاني، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التي تُتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأي تفنيد جدي! وقد عزَّز هذا الشعورَ في نفسي كلُّ ما قاله الناس أو نشرته الصحف عن هذه القضية. ثم ها أنذا أتلقى من أهل المتهم، على حين فجأة، دعوة إلى تولي الدفاع عنه. فقبلت على الفور، حتى إذا وصلت إلى هذه المدينة، صار اقتناعي إلى يقين. فمن أجل أن أفنِّد تلك القرائن المتراكمة التي تميل إلى إدانة المتهم، ومن أجل أن أكشف عن بطلانها واستحالتها، ومن أجل أن أُظهر ضعف كل عنصر من عناصر الاتهام على حدة، إنما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم.

بهذه الكلمات استهل المحامي مرافعته، ثم أضاف:

- سادتي المحلَّفين، أنا امرؤ جاء من مدينة أخرى لا يحمل أفكاراً مبيتة، ولا أثَر في مشاعره تحيز. إن هذا المتهم الذي يتصف بطبع عنيف جامح لم يسيء إليَّ في الماضي كما لعله أساء في هذه المدينة إلى عدد من الأشخاص إساءات تفسِّر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير من الناس من شعور العداء. إنني اعترف طبعاً بأن الرأي

العام ليس ثائراً عليه من غير سبب: فإن المتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه. ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي، وكان يُدلَّل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدَر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً.

(ملاحظة: أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خُنقت، ولكن جميع الناس لاحظوها، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى تحلو جلسته. إن زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة، وهي سيدة فاضلة إلى أبعد الحدود، ولكنها غريبة الطبع قليلاً، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً، ولا سيما في الأمور التي ليس لها كبير شأن. على أن ميتيا لم يزرهما إلا لماماً.

تابع المحامي كلامه فقال:

- ولكنني أستطيع أن أؤكد مع ذلك أن موكِّلي العاثر الحظ قد خلَّف أثراً سيئاً في نفس خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالإنصاف والعدل. إنني لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على إساءة الظن فيه وإساءة الحكم عليه، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة. إن مخالفة الشعور الأخلاقي، ومجافاة الحس الجمالي خاصة، أمران لا يُغْتَفَران. لقد سمعنا في المرافعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم؛ وقد حاولت النيابة خاصةً، في سبيل أن تُفهمنا جوهر القضية، أن تطلّ بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنّه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء أو سوء الظن. على أن هناك، في مثل هذه الحالات، أموراً أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء

للمتهم من عاطفة سيئة، أو ما قد يتخذه منه من موقف معادٍ عن عمد وقصد. ذلك ما يحدث خاصةً حين ننقاد لنوعٍ من العبث الفني، لنوعٍ من الحاجة إلى الخلق الشعري إن صح التعبير، لنوع من الرغبة في إنشاء رواية وتأليف قصة، وهذا أمر مفهوم معقول حين تكون العناية الإلهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية. إنني وأنا في سان سان بطرسبرج بينما كنت أستعد للمجيء إلى هذه المدينة قد نُبِّهت - وما كنت أجهل ذلك على كل حال - أنني سأواجه في هذه القاعة خصماً أوتي إحساساً سيكولوجياً خارقاً مرهفاً عميقاً، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة في هذا الميدان قدراً من السمعة والمجد لدى الأوساط التي ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة. ولكن السيكولوجيا، يا سادتي، سلاح ذو حدين، مهما تكن عميقة. (هنا سُمعت في الجمهور ضحكات صغيرة). إنني لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لي هذا التشبيه العامي، فأنا أمرؤ لا أملك ما يملكه غيري من جمال البيان وقوة البلاغة. لآخذ مثالاً هو أول مثال يعرض لنا في مرافعة النيابة. إن المتهم، حين هرب في جوف الليل من خلال الحديقة، تسلق السور، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذي تشبث بساقه. وعاد يثب إلى الحديقة بعد ذلك من جديد، فقضى قرب العجوز الذي جندله خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف أهو قد قتله أم لا. إن النيابة ترفض رفضاً قاطعاً أن تسلِّم، بحال من الأحوال، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكّد أنه قد شغل بجريجورى شفقةً عليه ورأفةً به. يقول خصمي: «لا، إن هذه العاطفة لا محل لها في مثل هذه الحالة، ولا يمكن أن تكون طبيعية، فإنما قفز المتهم إلى الحديقة من جديد لا لسبب إلا أن يتأكد من أن الشاهد الوحيد قد مات،

فكأنه حين فعل ذلك قد وقَّع اعترافاً بجريمته، فما كان ليحضه على ذلك أي باعث آخر أو أي عاطفة أخرى، حين عاد يثب إلى الحديقة». إنني أسلم بأن هذا الكلام هو من السيكولوجيا. ولكن ألا فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة، فنرى أن النتائج التي نصل إليها عندئذ لا تقل إقناعاً عن النتائج التي وصلت إليها النيابة. إن القاتل الذي وثب إلى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات، كان قد ترك، منذ لحظات، في غرفة أبيه الذي قتله، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابة نفسه بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل. فلو أن المتهم قد أخذ هذا الظرف، إذاً لما خطر ببال أحد أنه كان هناك ظرف، لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال، ولما استطاع أحد أن ينسب إلى المتهم فعل السرقة. ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة. فمن جهة أولى إذن، نرى رجلاً طاش صوابه وذهب عقله، واستحوذ عليه الخوف فهرب تاركاً في أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترد على حين فجأة كل صحو ذهنه وحضور بديهته، ويبرهن على أنه يحسب للأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء، ويمضي إلى أقصى آماد النأي عن العاطفة الإنسانية. لنسلِّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، لنسلِّم بأن كل رهافة السيكولوجيا إنما تكمن هنا: رُبَّ فرد واحد بعينه يملك في بعض الظروف طبيعة دموية وبصراً حاداً كنسر من نسور القفقاس، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى هلوعاً كخلدٍ مروَّعٍ بائس. ولكن إذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدَّ الوثوب مرة أخرى إلى أسفل السور بعد ارتكابنا

جريمة قتل، لا لهدف إلا أن نتأكد من أن الشاهد الذي قد يشهد علينا مات، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه إلينا شهود آخرون في أغلب الظن؟ لماذا نبلل منديلنا بالدم الذي يسيل من رأس الضحية، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا؟ ألم يكن من الأفضل لنا، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب، أن نبادر بعد الوثوب عن السور إلى الحديقة من جديد، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوي بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهمّ وتخلصنا من هذا الخوف! وإليكم تناقضاً آخر: أأثب إلى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج، ثم أترك على ممر في الحديقة دليلاً قاطعاً عليَّ هو ذلك المدق الذي أخذته من عند امرأتين يمكن أن تعرفاه وأن تشهدا بأنني الذي أخذته من عندهما؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق في الممر نسياناً أو أنه سقط منها سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب. لا، فإنما نحن رمينا ذلك السلاح رمياً عامدين، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذي كان راقداً فيه جريجوري. فإذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك، قلنا فإنما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلاً هو خادم عجوز. فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذي استعملناه في ارتكاب هذا الذنب، ألقيناه بعيداً عنا. ذلك هو التفسير الوحيد الممكن. وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع. ولكن إذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز، فإن معنى هذا أننا لم نقتل أبانا. فلو قد ارتكبنا

جريمة قتل الأب، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كل الاختلاف، ولما فكرنا عندئذ إلا في نجاتنا نحن وفي خلاصنا نحن، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة. ذلك أمر بديهي لا سبيل إلى المماراة فيه. بالعكس: كنا سنجهز عندئذ على الضحية، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة!... ولئن شعرنا بالشفقة، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيِّرة في تلك اللحظة، فما ذلك إلا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير. إن هذا من السيكولوجيا أيضاً، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف. وإنما تعمدت، يا سادتي المحلَّفين، أن أعمد أنا أيضاً إلى استدلالات سيكولوجية، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن في وسع المرء أن يخلص من أمثال هذه التحليلات إلى ما يشاء الخلوص إليه من نتائج، وأن يستخرج منها ما يحبّ له هواه أن يستخرجه من أحكام. والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات، ويتوقف على الشخص الذي يقوم بهذه التحليلات. إن السيكولوجيا، يا سادتي، يمكن أن تغري أحرص الناس على الجد، وأكثرهم تمسكاً بالإنصاف، بإنشاء روايات وتأليف قصص، وذلك على غير إرادة منهم. وطبيعي يا سادتي أن ما قلته الآن لا يتناول إلا بعض مبالغات التحليل السيكولوجي، وبعض إساءات استعماله.

هنا سُمعت ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامي من وكيل النيابة. ولكنني لن أنقل كل المرافعة التي ألقاها المحامي، وإنما أقتصر على مقتطفات منها هي أهم ما ورد فيها.

– 11 –

لم يكن ثمة مال، لا ولا سرقة

لقد لفت انتباه الجميع في خطاب المحامي أنه كان ينفي نفياً تاماً وجود هذه الثلاثة آلاف روبل المشؤومة وبالتالي إمكانية سرقتها.

استأنف المحامي كلامه فقال:

– سادتي المحلّفين، إن في هذه القضية أمراً خاصاً يخطف انتباه كل إنسان غير متحيّز. هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلي بالسرقة مع انتفاء أي دليل قاطع على أن هناك مالاً قد سُرق. يُقال إن مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى، ولكن ما من أحدٍ يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود. فكروا قليلاً: من الذي أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل، من الذي رآها؟ لا أحد إلا الخادم سمردياكوف الذي زعم أن هذا المال كان مودعاً في ظرف عليه الكتابة التي جرى الحديث عنها. وهذا الخادم سمردياكوف هو الذي نقل أيضاً هذا النبأ، قبل وقوع الكارثة، إلى المتهم والى أخيه إيفان فيدوروفتش، كما تحدث عنه كذلك إلى السيدة سفيتلوفا. غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم. وما من أحد رآه إلا سمردياكوف على ما زعم. ولكن لا بد أن نلقي على أنفسنا عندئذ هذا السؤال: لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً في ما قال، فمتى

رأى هذا المبلغ آخر مرة؟ لنتخيل مثلاً أن مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه في صندوقة دون أن يبلغ الخادم ذلك. لاحظوا أن أقوال سمردياكوف تذهب إلى أن المال كان مخبأ في السرير تحت الفراش. فلا بد إذاً أن يكون المتهم قد نبش السرير. فهل رأيتم السرير منبوشاً؟ كلا... وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق. فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعّد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً، بل كيف يمكن أن يكون قد دسّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوّث المفارش النظيفة، التي وُضعت على السرير في ذلك المساء خصيصاً؟ رب سائل يسأل: فما قولك بالظرف الملقى على الأرض؟ ألا فلنتكلم إذاً عن هذا الظرف قليلاً. لقد دُهشت بعض الدهشة منذ قليل حين سمعت السيد وكيل النيابة، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه، في مرافعته اللامعة الموهوبة، أنه هو نفسه - نعم هو نفسه أيها السادة - يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل: «لولا وجود ذلك الظرف، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه، إذاً لما خطر ببال أحد في العالم شيء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه، ولما أمكن أن يُنسب إلى المتهم أنه سرق». معنى ذلك أن هذه القطعة من الورق الممزق، مع العبارة المكتوبة عليها، هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة. فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت، ولما كنا على يقين من وجود المال. فهل يمكن حقاً أن نزعم أن هذه المزقة من الورق الملقاة على الأرض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة؟ قد يُعترض على هذا بأن «سمردياكوف قد رأى المال في الظرف»،

ولكننا نسأل عندئذ: متى، متى رأى هذا الظرف آخر مرة؟ ذلك هو السؤال الذي ألقيه عليكم. لقد تحدثت في هذا الأمر مع سمردياكوف، فذكر لي أنه رآه قبل حدوث الدراما بيومين. فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة، حين كان وحده في الغرفة منتظراً حبيبته وهو في حالة هستيرية نافدة الصبر، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه، قائلاً لنفسه: «اذا كان المال مودعاً في الظرف فقد يراودها شك، أما إذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل، فسوف تقتنع رأساً، وسوف يسيل لعابها طمعاً!». ها هو ذا إذاً يمزق الظرف ويخرج المال، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب الدار الذي لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه. هل هناك حقاً، أيها السادة المحلفون، افتراض أقرب إلى المعقول وأدنى إلى الجواز من هذا الافتراض الذي صورته لكم؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً؟ ولكن إذا جرت الأمور على هذا النحو، أو على نحو قريب من ذلك، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها: فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال. إذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك. وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض إلا لأنه قد أُفرِغ من المال، أفرغه منه صاحبه نفسه. رُبّ سائل يسأل الآن: «ولكن إذا صح هذا، إذا صح أن فيدور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف، فأين صار هذا المال؟ إننا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل». إن جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عُثر عليه في صندوق القتيل، وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في

صباح يوم الحادثة، أو قبل ذلك بيوم، ليتصرف فيه تصرفاً آخر، كأن يدفعه لأحد أو يرسله إلى أحد، وثالثاً أن من الجائز أن يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد، فغيّر خطة عمله تغييراً كاملاً، دون أن يُطلع سمردياكوف على ذلك. فإذا كان هناك أيسر إمكان لتفسير الأمور على هذا النحو، ففيم هذا الإصرار كله وهذا الاستمرار كله على تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق، وأنه سرق بعد أن قتل؟ ألا إن هذا لرواية مؤلفة تأليفاً! حين يَزْعَمُ أحد أن شيئاً ما قد سُرق، فإنما ينبغي له، على الأقل، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً. أما في هذه القضية فإن الشيء المسروق لم يره أحد. لقد حدث في سان بطرسبرج، منذ وقت قصير، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً، في الثامنة عشرة من عمره، يعمل بائعاً متجولاً، قد داهم دكان صراف في وضح النهار، متسلحاً ببلطة، فقتل الصراف بجرأة قصوى، وسطا على ألف وخمسمائة روبل، قبض عليه بعد بضع ساعات، فعثر على المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه إلا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها. هذا إلى أن أجير الصراف، حين عاد إلى الدكان بعد وقوع الجريمة، استطاع أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب، وإنما ذكر للشرطة أيضاً ممّ يتألف ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها، وعدد الدنانير الذهبية التي حملها القاتل. وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها. يُضاف إلى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة، فقال إنه قتل وسرق. ذلك يا سادتي المحلّفين ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة. ها هنا لا مجال للشك: فالمال أمامي، أراه وألمسه، ويستحيل عليّ أن أزعم أنه لم يوجد. فهل الأمر على هذا النحو في القضية الراهنة؟

والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت، مسألة مصير إنسان! قد يقول قائل: «طيب... ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها، وأنه بعثر المال يمنةً ويسرةً، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمائة روبل. فمن أين أتى بهذا المال؟» ولكنني أقول إن هذه الواقعة، وهي أنه لم يعثر معه إلا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود أن يُكتشف النصف الثاني من المبلغ الذي يُزعم أن المتهم قد سرقه، أقول إن هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعاً في ظرف. إن التدقيق في أجزاء الزمن الذي قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الزمن حساباً دقيقاً) قد أوضح وبيّن أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب إلى بيته بعد أن خرج راكضاً من عند الخادمتين ليمضي إلى منزل الموظف برخوتين، وأنه لم يذهب إلى أي مكان آخر، وأنه عدا ذلك كان في صحبة أشخاص آخرين طول الوقت، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد اقتطع جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها في مكان ما بالمدينة. وهذه الاعتبارات بعينها هي التي حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أُخفي في مكان ما أو في شق من الشقوق في قرية موكرويه. لماذا لا نقول إنه مخبأ في أقبية قصر أودولف؟[54] أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً في الواقع؟ لاحظوا يا سادتي المحلّفين أنه متى سقط هذا الفرض، أعني متى سقط الفرض الذي يذهب إلى أن المتهم قد خبأ المال في موكرويه، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً، وإلا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثَبُتَ أن المتهم لم يدخل إلى أي مكان؟ أبالاستناد إلى روايات ينشئها الخيال على هذا النحو؟ يجوز لنا أن ندمّر مصير

إنسان؟ فإذا قيل لي إن المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصدر الألف وخمسمائة روبل التي عُثر عليها معه، وإنه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة، قلت: من يدري؟ إن المتهم قد قدم لنا، من جهته، تفسيراً واضحاً قوياً لمصدر ذلك المبلغ، وما أحسب إلا أنكم تسمحون لي، يا سادتي المحلّفين، بأن أنادي قائلاً إنه لا يمكن أن يكون هناك، ولا يتصور العقل أن يكون هناك، أقوال أقرب إلى الصحة وأدنى إلى الاحتمال من الأقوال التي أدلى بها المتهم حول هذه النقطة، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية. لقد حلا للاتهام في القصة التي ألّفها أن يتخيل أن رجلاً ضعيف الإرادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل تقدمها إليه خطيبته في ظروف مخزية إلى ذلك الحد، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكّنه من أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه في صدره، وهبه فعل ذلك فإنه ما كان ليستطيع إلا أن يفتح الكيس كل يومين فيستلّ منه مائة روبل بعد مائة روبل، إلى أن يتلف المبلغ كله في غضون شهر. ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة، كما تتذكرون، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد. فماذا إذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صوّرت قصتكم هذه التي حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم؟ ألا إن البلاء هو أنكم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع! رب معترض يقول إن هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد مرةً واحدةً في موكرويه، قبل وقوع المأساة بشهر، كل الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من السيدة فرخوفتسيفا، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود؟ إن درجة الثقة التي يستحقون أن نوليهم إياها قد اتضحت لنا اتضاحاً

كافياً أثناء المناقشات. ثم إن قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هي في الواقع حين نراها في يد غيرنا. يضاف إلى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يَعُدّ المبلغ نفسه، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ إلا على أساس رؤية العين. ألم يمض الشاهد ماكسيموف إلى حد ادعاء انه رأى في يدي المتهم عشرين ألف روبل؟ هكذا ترون، يا سادتي المحلّفين، إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين، فاسمحوا لي لذلك أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها.

قبل وقوع المأساة بشهر، عهدت السيدة فرخوفتسيفا إلى المتهم بثلاثة آلاف روبل، وكلفته أن يرسلها بالبريد. إنني لأتساءل مع ذلك هل صحيح أن هذا المال قد سُلّم إليه على النحو المذل المخزي الذي وُصف لنا منذ قليل؟ إن الشهادة الأولى التي أدلت بها فخوفتسيفا كانت مختلفة عن هذا، كانت مختلفة عن هذا اختلافاً كبيراً. أما شهادتها الثانية فلم تكن إلا خليطاً مشوشاً مضطرباً من صرخات غضب وانتقام، وإلا انفجاراً لكره طال أمد كبته. ويكفي أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً في تصريحاته الأولى حتى نشكّ في صدق التصريحات الأخرى التي أدلى بها بعد ذلك. إن وكيل النيابة «لم يشأ ولم يجرؤ» - وتلك كلماته نفسها - أن يمسّ هذا الجانب من المأساة. ليكن له ذلك، وها أنذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا. غير أنني أسمح لنفسي مع ذلك بإبداء هذه الملاحظة: حين نرى إنسانة طاهرة فاضلة مثل السيدة فرخوفتسيفا التي نحترمها جميعاً أكبر الاحترام، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيّع المتهم، فإنه يكون واضحاً عندئذ أن شهادتها لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية. فهل حرام علينا والحالة

هذه أن نتصور أن امرأة تجيش في نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر، هل حرام علينا أن نتصور أن هذه المرأة قد بالغت في كثير من الأمور، وضخّمت كثيراً من الأشياء؟ إن من الممكن خاصة أن تكون قد ضخّمت طابع الذل وصفة الخزي والعار في تقديمها المال إلى خطيبها. وإني لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدّم إلى المتهم بطريقة تغري بقبوله، لا سيما بالنسبة إلى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا. ويجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم كان ينتظر أن يستلم من أبيه في القريب مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذي يدين أبوه له بها تصفية لحساب الميراث. صحيح أن ذلك كان منه طيشاً وتسرعاً، ولكن الخفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيردّ إليه هذا المبلغ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد إلى السيدة فرخوفتسيفا المال الذي عهدت إليه به وائتمنته عليه، فيسدّد دينها عليه ويبرئ ذمته تجاهها. ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع، في ذلك اليوم نفسه، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً، فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك «لا يتفق وطبع المتهم، وأن المتهم ما كان له أن يشعر بمثل هذه العواطف». ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين إن لأمثال كارامازوف طبيعة عريضة، ألم تتكلموا هنا عن الهوّتين اللتين يمكن أن يتأملها في آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف؟ ألا إن كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لإمكانياته في الاتجاهين كليهما، إنه رجل الهوّتين الذي إذا انقاد لفرحة إتلاف المال واستسلم لظمأ الابتهاج واللّهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف. ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً:

إنه الحب الذي اشتعل في نفسه، وكان يحتاج من أجله إلى المال احتياجاً أشد من احتياجه إليه في سبيل اللّهو والقصف مع حبيبته. فيومَ تقول له حبيبته: «أنا لك. إنني لا أريد فيدور بافلوفتش»، سيرحل معها، وسيكون عندئذ في حاجة إلى مال. وذلك أخطر شأناً من القصف واللّهو، ما في ذلك ريب. إن رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن إلا أن يدرك هذا. وذلك بعينه هو ماكان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير إلى مرض، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه في لحظة من اللحظات. فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادّخره من باب الاحتياط؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيدور بافلوفتش لا يرد للمتهم الثلاثة آلاف روبل. والأدهى من ذلك أن المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتش ينوي أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لإغواء حبيبته، لإغوائها بماله هو. فقال لنفسه عندئذ: «إن لم يردّ إليّ فيدور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعدني كاترينا إيفانوفنا لصاً». عندئذ وُلدت في ذهنه تلك الفكرة، وهي أن يمضي في يوم من الأيام بالألف وخمسمائة روبل التي ما يزال يحملها في عنقه، أن يمضي بها إلى فرخوفتسيفا فيقول لها: «أنا وغد ولكنني لست لصاً». أصبح هنالك إذاً سببان يدفعانه إلى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل، وإلى المحافظة عليها محافظة شديدة وإلى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه وإلى أن لا يفض الكيس ليستلّ مائة روبل بعد مائة روبل. لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف؟ لا يا سادتي! إن هذا المتهم يملك الإحساس بالشرف، قد يكون في إحساسه بالشرف شيء من المبالغة والبعد عن طريق الصواب، وقد يظهر هذا الإحساس في بعض الأحيان مقلوباً، ولكنه يحسّ بالشرف إحساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى

والاندفاع، ولقد برهن على هذا! ويتعقد الأمر مع ذلك، فمشاعر الغيرة هذه تبلغ أوجها، وهذان سؤالان، سؤالان قديمان، ما يزالان يلحان على نفسه المضطربة إلحاحاً شديداً، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم: «سأرد إلى كاترينا إيفانوفنا مالها، ولكن من أين أجيء بعد ذلك بما سأحتاج إليه من مال لأرحل مع جروشنكا؟». ولعل السبب في أن سلوكه كان طوال هذه الفترة فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع، لعل السبب في هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة، وأنه لم يفلح في السيطرة على ألمه، وتفاقمت الخواطر التي كانت تثيرها هذه المسائل في ذهنه، تفاقمت حتى أودت به إلى اليأس. وأوفد أخاه الصغير إلى أبيه يرجوه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل، ولكنه داهم المنزل دون أن ينتظر جواباً، وانتهى به الأمر إلى ضرب العجوز على مرأى من شهود. وبعد ذلك فَقَدَ أي أمل في الحصول على هذا المبلغ، لأنه أيقن أن أباه سيرفض حتماً إعطاءه المال، حقداً عليه وانتقاماً منه. وفي ذلك اليوم نفسه، حين التقى بأخيه في المساء، لطم صدره، لطم أعلى صدره، في الموضع الذي يوجد فيه الكيس، وحلف أن في إمكانه أن لا يصبح وغداً حقيراً، ولكنه سيصبح كذلك، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الإمكان، لافتقاده القوة النفسية التي تتيح له ذلك. إني لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسي كارامازوف وأن يركن إلى شهادته التي أدلى بها بريئاً تلك البراءة كلها، صادقاً ذلك الصدق كله، عفوياً تلك العفوية كلها، والتي هي من جهة أخرى معقولة محتملة إلى أبعد الحدود؟ ولماذا يُراد لي، في مقابل ذلك، أن أُقسَر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خُبئ في شق خفي من الشقوق أو في قبو من أقبية قصر

أودولف؟ وفي ذلك المساء نفسه، بعد حديثه مع أخيه، كتب المتهم تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة التي هي أقوى قرينة ضده، وأكبر دليل عليه، والتي هي الأساس الرئيسي لاتهامه بالسرقة. «سأمضي ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف أقتل أبي، وسوف أستولي على المال المخبأ تحت الفراش في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، شريطة أن يكون إيفان غائباً». هذه خطة قتل. فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه، أليس كذلك؟ «لقد تصرف المتهم وفقاً لما جاء في الرسالة» بهذا صاح السيد وكيل النيابة. ولكني أقول أولاً إن هذه الرسالة قد كتبت في حالة سكر، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير، وأقول ثانياً إن المتهم لا يتكلم في هذه الرسالة عن الظرف إلا اعتماداً على أقوال سمردياكوف، لأنه لم ير الظرف بنفسه، وأقول ثالثاً إن هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً، ولكن ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش، هل وجد فيه المال، بل أكان لهذا المال وجود؟ تذكروا أن المتهم لم يهرع إلى منزل أبيه بغرض الحصول على هذا المال، تذكروا هذا أيها السادة! وإنما هو تسلل إلى الحديقة كالمجنون، لا ليسرق، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة، تلك المرأة التي يحبها حب العبادة، فهو إذاً لم يذهب إلى منزل أبيه لينفذ الخطة الموصوفة في الرسالة، إنه لم يذهب إلى منزل أبيه لارتكاب سرقة مدبرة، وإنما هو أسرع إلى هناك بغير تدبير ولا تفكير، وقد استبدّت به نوبة غيرة مسحورة. يقول: «ولكن هذا لا ينفي أنه قتل أباه بعد ذلك، واستولى على المال». هنا أسألكم أخيراً: «هل قتل؟ هل قتل حقاً؟» إنني أرفض تهمة السرقة مستنكراً

مستهجناً: فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين لا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة: تلك بديهية من البديهات. ولكن هل قتل المتهم، هل قتل دون أن يسرق؟ هل جريمة القتل ثابتة؟ ألسنا، هنا أيضاً، بصدد رواية مؤلفة؟

— 12 —

لا ولا كان قتل

معذرة، يا سادتي المحلّفين، ولكن الأمر يتوقف عليه مصير إنسان، فيحسُنُ بالمرء أن يلتزم جانب الحكمة والحذر والتروي. لقد سمعتم السيد وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه، في أن ينسب إلى المتهم جريمة قتل عن سابق اصرار وتصميم. وأنه ظل يتردد في ذلك حتى اللحظة التي قُدّمت فيها إلى المحكمة تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة «السكرى» التي كتبها سكران. «لقد تصرف المتهم وفقاً لما جاء في الرسالة». ولكنني أعود فأقول مكرراً إن المتهم قد تسلل إلى الحديقة ليعثر على تلك المرأة، وليس له من هدف إلا أن يعرف أين هي. تلك واقعة ثابتة لا سبيل إلى إنكارها. فلو قد وجدها في منزلها لما ذهب إلى دار أبيه، ولظلّ إلى جانب تلك المرأة، ولما نفّذ ما أعلن عنه في رسالته. لقد هرع إلى منزل أبيه بحركة مباغتة لم يكن يتوقعها، ولعله كان في تلك اللحظة قد نسي الرسالة التي كتبها وهو سكران. رب قائل يقول: «ولكنه أخذ مدقّ الهاون، أليس كذلك؟» ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التي اتُّخذ هذا المدق الشقي ذريعة لها وحجة، وكيف أُريد إقناعنا بأن المتهم لا بد أن يكون قد عدّ هذا المدق سلاحاً،

وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمة قتل الخ. إن فكرة بسيطة جداً تحضرني في هذه المناسبة: تُرى ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على رف فرآه المتهم فتناوله، وإنما كان مودعاً في خزانة مثلاً؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم، ولانصرف المتهم عندئذ خالي اليدين، لا يملك سلاحاً، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً. فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدّ ذلك المدق دليلاً على سابق إصرار وتصميم، وبرهاناً على نية التزود بسلاح؟ رب قائل يقول: طيب... ولكن المتهم قد صرح يقول هو نفسه، في الحانات، إنه سيقتل أباه، ومع ذلك فإنه قبل الحادث بيومين، في المساء الذي كتب فيه رسالة السكران تلك، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً في إحدى الحانات مع بائع من باعة المتاجر: «لأن كارامازوف كان لا يستطيع إلا أن يتشاجر مع أحد». وأقول في الردّ على هذه الحجة إن رجلاً فكر في ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقترفها وفق خطة مرسومة سلفاً، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد، ولو مع بائع، بل ولا كان له أن يدخل إلى إحدى الحانات أصلاً، لأن الرجل الذي يفكر في اقتراف جريمة من هذا النوع، إنما ينشد الهدوء والعزلة ويحاول أن لا يلاحظه أحد، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد، وكأنه يتمنى في قرارة نفسه أن يقول للناس: «انسوا وجودي، إذا أمكن ذلك»، لا عن حساب وتدبير، بل بغريزته وحدها. إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتي المحلّفين، وإنا لنحسن استعمالها نحن أيضاً. أما التهديدات التي أطلقها في الحانات طوال تلك الفترة فما هي إلا زعيق شبيه بزعيق الأطفال، وما هي إلا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يتشاجرون فيأخذون يعولون قائلين:

«لأصرعنك، لأقتلنك!»، ولكنهم لا يفعلون شيئاً. وأما تلك الرسالة المشؤومة فليست إلا صرخة سكر وغضب هي أيضاً، ليست إلا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة: «لأقتلنكم، يميناً لأقتلنكم جيمعاً!». فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل، فيم الإصرار على رفض هذا التعليل؟ إن هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة، أفليس الأَوْلى أن توصف بأنها كلام مضحك؟ نعم إنها كلام مضحك، ولكنهم لا يريدون لها إلا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة، لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفي يده سلاح، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك، فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لما جاء في الرسالة، فلا يمكن إذاً أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً، ولا يمكن إلا أن تكون دليلاً قاطعاً، وحمدوا الله على أنهم وصلوا إلى النقطة الحاسمة فقالوا: «أما وأنه كان في الحديقة فقد قَتَل». إن هذه الكلمات الصغيرة الثلاث «أما وأنه كان» هي في الواقع جوهر الأساس الذي تقوم عليه القضية ويستند إليه الاتهام. «كان في الحديقة، فهو إذن. . . ؟». ماذا لو أسقطنا كلمة إذاً هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان في الحديقة؟ ألا إنني لأسلّم بأن توافق الوقائع في هذه القضية واجتماعها هما أمران بالغا الدلالة. ولكن هلاّ حمّلتم أنفسكم عناء تحميص كل واقعة من هذه الوقائع في ذاتها على حدة، دون أن تهتموا بتوافقها؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال إنه انصرف عن نافذة أبيه؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهكم الذي استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم في هذا الموضوع فأشار إلى مشاعر الاحترام «وعواطف التقوى والفضيلة» التي اجتاحت نفس

القاتل على حين فجأة. أي عجب في أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، أي أن يكون المتهم قد استيقظت في نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترام بالضرورة، ولكنها مشاعر تقوى وفضيلة. لماذا يكون هذا مستحيلاً؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق: «لا بد أن تكون أمي قد تشفعت لي في تلك اللحظة». فالمتهم قد هرب إذاً منذ أدرك أن سفيتلوفا ليست في صحبة أبيه. فإن ردّت النيابة على هذا قائلة: «ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة»، قلت لم لا؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالإشارات المتفق عليها. ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه في تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن سفيتلوفا ليست في المنزل. لماذا هذا الإصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله؟ إن الواقع يشتمل في كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤية. رُبَّ معترض يقول: «طيب، ولكن هذا لا ينفي أن جريجوري قد رأى الباب مفتوحاً، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل، وعلى أنه إذاً قد قتل». ها نحن أولاء وصلنا إلى حكاية الباب هذه، يا سادتي المحلّفين. تعلمون يا سادتي المحلّفين أن هناك شخصاً واحداً يَزْعَمُ أنه رأى الباب مفتوحاً، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ في حالة خاصة، كان في حالة... ولكن لا داعي إلى الإلحاح... لنسلّم جدلاً، إذا كنتم تحرصون على ذلك، بأنِ الباب كان مفتوحاً، وبأن المتهم قد كذب في هذه النقطة أثناء التحقيق، يدفعه إلى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه، وهو أمر مفهوم في مثل وضعه. لنسلم جدلاً بأنه دخل البيت، نعم، لنسلّم جدلاً بذلك.

فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل؟ إن من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت، وطاف بالغرف راكضاً، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً. فلما ثبت له بعد ذلك أن سفيتلوفا ليست في الدار ولّى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه. ولئن قفز إلى الحديقة بعد ذلك بدقائق فمال على جريجوري الذي صرعه في لحظة غضب شديد، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على إغراء قتل أبيه، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراءة. إن وكيل النيابة قد وصف لنا، ببلاغة مظلمة قاتمة، الحالة النفسية التي لا بد أنها كانت حالة المتهم في موكرويه، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له، ويناديانه إلى حياة جديدة بينما كان محظوراً عليه أن يحب، لأنه خلّف وراءه جثة أبيه الدامية، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذي لا مناص منه. ولكن وكيل النيابة قد سلّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم في قلب المتهم، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية، فقال: «هذه حالة تشبه السكر، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد إلى ساحة الإعدام، فيحدث نفسه قائلاً إن الطريق ما يزال طويلاً، الخ». ولكنني أتوجه إلى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال: ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعةٌ تبلغ من قلة الإحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع، بعد أن سفك دم أبيه، أن يفكر في الحب وأن يبني خططاً ماكرة للدفاع عن نفسه؟ كلا ثم كلا! إني لأحلف بأغلظ الأيمان على أن المتهم، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه، وحين رآها تناديه إلى حياة جديدة وهانئة، كان لا بد أن يشعر برغبة في الانتحار لا تغالب ولا تقاوم، وكان سينتحر حتماً، لو أن

ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه! إنني أعرف المتهم: إن ما ينسبه إليه جانب الاتهام من قسوة القلب وقلة الإحساس يناقض طبيعته. لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً، هذا محقق! وإذا كان لم ينتحر فلأن «أمه قد تشفّعت له» فلم يسفح دم أبيه، وإذ ظل يتعذب طوال تلك الليلة في موكرويه، وإذ ظل يلوم نفسه ويؤاخذها، فإن ذلك لم يكن إلا بسبب جريجوري الذي كان المتهم قد صرعه، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك العجوز إلى الحياة، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه، وأن ينجو هو نفسه من العقاب. لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو؟ ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم يكذب؟ رُبَّ سائل يسأل: «وجثة الأب؟ إذا كان المتهم قد هرب من دون أن يقتل فمن ذا الذي قتل إذاً فيدور بافلوفتش؟»

أعود فأقول: إن كل المنطق الذي يستند إليه الاتهام هو هذا. من ذا الذي قتل، إذا لم يكن المتهم هو القاتل؟... يُقال لنا: إنه من المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر. فهل هذا صحيح يا سادتي المحلّفين؟ لقد سمعنا وكيل النيابة يحصي جميع من كانوا في المنزل ليلة وقوع الجريمة. إنهم خمسة أشخاص، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً: المجني عليه، وجريجوري، وامرأته. لم يبق إذاً إلا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف. وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة: لئن عمد المتهم إلى تسمية سمردياكوف قاتلاً، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يستطيع أن يشي به، فلو كان هنا شخص سادس بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل، إذاً لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف محمرّ الوجه خجلاً بدافع الخجل، ولمضى يتهم ذلك

الشخص السادس على الفور. ولكن ما الذي يمنعني يا سادتي المحلّفين من أن أقلب هذا الدليل؟ هناك شخصان لا ثالث لهما: المتهم وسمردياكوف. أفلا يجوز لي أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلي إلا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون إليه التهمة؟ ولكن لئن تجدوا شخصاً آخر توجهون إليه الاتهام فما ذلك إلا لأنكم قد تحيّزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدةً، فاستبعدتم كل شبهة حوله، ورفضتم كل شك فيه.

صحيح أن أحداً لم يسمّ سمردياكوف قاتلاً، إلا المتهم وأخويه وسفيتلوفا. غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه. إن شائعات غامضة تجري عنه، إن أسئلة وشبهات تساور الأنفس وتستحيل إلى توقع عام وانتظار شامل. ثم إن هناك وقائع تشهد عليه رغم غموض دلالتها: من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التي وافته في يوم وقوع الكارثة نفسه، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه - لا أدري لماذا - أن يهتم اهتماماً كبيراً بالإلحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها. ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد. ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التي لم يكن يتوقعها أحد أيضاً، أعني شهادة أخ المتهم، إيفان فيدوروفتش، الذي ظل إلى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل، فإذا هو يجيء اليوم إلى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً إن سمردياكوف هو القاتل! صحيح أنني أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها في حالة الشاهد النفسية. فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن إيفان كارامازوف مريض، وأنه مصاب بنوبة حمّى عصبية، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو في حالة هذيان في سبيل أن ينقذ أخاه بإلقاء الجريمة على عاتق رجل مات. ولكن هذا لا ينفي أن

اسم سمردياكوف قد ذُكر في هذه المناسبة مرة جديدة، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون ألغازاً، فكأن هناك، يا سادتي المحلّفين، أشياء لم تُذكر إلى آخرها بخصوص هذا الرجل، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه لم تكتمل بعد، ولعلها تكتمل في ما بعد. ولكن ما ينبغي أن نستبق الأمور. لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات، ففي وسعي، ما دمنا الآن في انتظار ذلك، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التي صوّرها لنا وكيل النيابة بكثير من البراعة والرهافة والموهبة. إنني على إعجابي بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن في رسم تلك اللوحة النفسية، لا أستطيع أن اشاطره رأيه في هذا الرجل مشاطرة تامة. لقد ذهبت إلى سمردياكوف، رأيته وتحدثت معه، فترك في نفسي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة. صحيح أن صحته كانت ضعيفة ولكن طبيعته ليست ضعيفة كما وصفها لنا الادعاء. إنني لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الهلوع الذي تكلم عنه السيد وكيل النيابة بإلحاح شديد. أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة. بالعكس: لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً، وإن تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة، كما لاحظت فيه ذكاءً قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة. في رأيي إن السيد وكيل النيابة قد تسرّع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل. لقد خلّف سمردياكوف في نفسي شعوراً واضحاً كل الوضوح: تركته مقتنعاً بأنه إنسان تفيض نفسه شراً وخبثاً، وحقداً وحسداً، وغروراً وميلاً إلى الانتقام. لقد جمعت بعض المعلومات عنه: كان يكره أصله، ويحمرّ خجلاً منه، ويكزّ أسنانه غضباً حين يذّكر أنه ابن امرأة «نتنة». وكان يسيء معاملة

الخادم جريجوري وامرأته اللذين أحسنا إليه وأنعما عليه في سني طفولته. وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها، وكان حلمه أن يسافر إلى فرنسا وأن يصبح فرنسياً. وكثيراً ما كان يقول إنه يحتاج إلى مالٍ من أجل أن يرحل. وأعتقد أنه كان لا يحب إلا نفسه، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً. كان يعد نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءين لامعين. وإذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعي لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً)، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع ابناء مولاه الشرعيين قد أورثه حقداً: كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا، وكان هو لايتمتع بأية مزية. كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم، أما هو فلم يكن إلا طباخاً. لقد أسرّ إليّ أنه ساعد فيدور بافلوفتش في إيداع المال في الظرف. والهدف الذي نُذر له هذا المبلغ - وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه في تحقيق أغراضه - لا بد أن يكون قد أثار في نفسه غيظاً شديداً. ثم إنه رأى ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً)، وأنتم تعلمون، يا سادتي، أنه ما ينبغي لنا أن نلألئ مبلغاً ضخماً أمام عيني إنسان حسود مغرور، وكانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة في يدي شخص واحد. فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة الزاهية من الأوراق النقدية قد أحدثت في نفس هذا الرجل شعوراً مَرَضياً دون أن يترتب على ذلك شيء في بداية الأمر. إن السيد وكيل النيابة الذي نعجب بموهبته كل الإعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التي يمكن اللجوء إليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل، وقد ألحّ خاصةً على هذا السؤال: لأي سبب كان يمكن أن يصطنع

سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً وكذباً؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة إلى ذلك التظاهر، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً، ومن الجائز أن تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً. ومن الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب إلى وعيه. صحيح أنه لا يكون قد شفي عندئذ من مرضه، ولكن كان لا بد أن يعود إليه شعوره عاجلاً أو آجلاً، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع. إن الادعاء يسأل: في أي لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل؟ الحق أن الجواب عن هذا السؤال يسير جداً، فما أسهل أن تعيّن تلك اللحظة. فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب إلى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط، فإن نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق)، في تلك اللحظة نفسها التي تشبث فيها العجوز جريجوري بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معولاً بصوت حاد ملءَ حنجرته: «يا قاتل أبيه!». فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التي دوّت في صمت الليل المظلم قد أيقظت سمردياكوف من نومه فلما نهض اتجه على غير شعور منه، وبدون أية نية معينة، إلى الجهة التي جاءت منها الصرخة وكانت أفكاره ما تزال مبهمة، وكان خياله ما يزال وسنان. ولكن ها هو ذا يصل إلى الحديقة، وها هو ذا يقترب من النافذة المضاءة، فإذا هو يعلم بالنبأ الرهيب من فم مولاه نفسه، الذي اغتبط لرؤيته طبعاً، وإذا بفكرة الجريمة تنبت في رأسه فجأة. لقد أطلعه مولاه المذعور على ما جرى. وها هي ذي الفكرة التي نبتت في رأسه المريض المشوش تظهر إلى النور واضحة المعالم بينة الحدود. إنها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق لا يرحم: وهي

أن يقتل العجوز ويستولي على الثلاثة آلاف روبل، ثم يلقي الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل! من ذا الذي يمكن أن يُشتبه فيه الآن، من ذا الذي يمكن أن يُتّهم، غير هذا الابن الذي تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات؟ من الجائز إذاً أن تكون قد استبدَّت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة إلى السطو على المال، وظمأ شديد إلى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب. ألا إننا لنعرفها، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التي تشبّ فجأة في نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة في معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور في خلدهم أنهم سيقتلون. من الجائز إذاً أن يكون سمردياكوف قد دخل إلى غرفة مولاه، ونفّذ خطته. فإذا سألتموني ما هو السلاح الذي استعمله في القتل، قلت إنه من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه في الحديقة، واذا سألتموني ما هو الهدف الذي قتل من أجله قلت إنه تلك الثلاثة آلاف روبل التي يمكنها أن تؤمن مستقبله! لا، لا، إنني لا أناقض نفسي: فمن الجائز أن يكون المال موجوداً. ومن يدري؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذي كان يعرف المخبأ الذي أخفى فيه مولاه المال. رُبَّ معترض يقول: «والظرف؟ الظرف الممزق الملقى على أرض الغرفة؟» فأجيب قائلاً: إن السيد وكيل النيابة قد أورد في موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة، وهي أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة إلا لصّ يقوم بفعل السرقة عرضاً، وليس له خبرة سابقة أي لا يمكن أن يتركه إلا لص مثل كارامازوف، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو

الفاعل. سادتي المحلّفين، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدي هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندي مألوف لي. تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذي يمكن أن يسلكه كارامازوف في ما يتصل بهذا الظرف، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لي، منذ يومين، شخص ليس إلا سمردياكوف نفسه. وعدا ذلك، فإن وضعه في تلك اللحظة قد خطف انتباهي، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنّعة كاذبة، وأنه إنما كان في حقيقة الأمر يسبقني فيوحي إليّ بهذه الفكرة بغية أن تتجسّد في نفسي بعد ذلك، فأستخرج منها النتائج التي يريد أن يبثها بهذه الطريقة في ذهني. أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لقّن قاضي التحقيق هذه الفكرة أيضاً؟ أفلا يمكن أن يكون قد أنبتها عمداً في فكر السيد وكيل النيابة الذي يمتاز بمواهب عظيمة؟ رب قائل يقول: ولكن العجوز زوجة جريجوري قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاث خطوات من سريرها طوال الليل! لست أنكر أنها سمعت أنينه، ولكن هذه الحجة من أوهى الحجج. عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض. وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح في الواقع إلا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً. إن أمثال هذه الأخطاء طبيعية: هذا إنسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أُوقِظَ من نومه، ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً، وتنقضي على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات، فإذا بأنين جديد ينطلق، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما في المرة السابقة، وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثاً لا أكثر. ولكن صاحبنا، حين يستيقظ في الصباح، سيشكو

من أن أتيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل. ولا بد أن يحسّ هذا الإحساس حتماً، لأنه لن يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التي كان أثناءها نائماً، ولن يحتفظ إلا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة. لذلك سيتخيل أنه أوقظ إيقاظاً متصلاً غير منقطع. وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً: «ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التي كتبها قبل موته؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفي لحمله على الانتحار، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفي لحمله على الاعتراف؟» هنا أستوقفكم لأقول: إن الضمير يتضمن الندم. ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأي ندم حين انتحر، ولعله لم يختر هذا النموذج إلا يأساً وقنوطاً. إن الندم واليأس شيئأن اثنان يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف. فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما، وحين ينتحر سمردياكوف فإنه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته. سادتي المحلّفين، إياكم والخطأ القضائي! هل في هذا التأويل الذي أضعه بين أيديكم شيء يخالف العقل ويجافي الاحتمال؟ دلّوني على خطأ واحد في ما عرضته لكم، دلوني على استحالة واحدة، أو بطلان واحد! ولكن إذا كان هذا الافتراض الذي بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال، ولو على ظل إمكان أو جواز، كان عليكم أن تمتنعوا عن إصدار حكم يدين المتهم. فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة! ألا إنني لأحلف لكم بكل ما أقدسه في هذا العالم على أنني، من جهتي، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذي وصفت. وإني لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجاني عن طوري حين تراودني هذه الفكرة التي تلاحقني وتطاردني بغير انقطاع، وهي أنه

ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التي جمعها الادعاء قرينةٌ واحدة يمكن أن تعدّ واضحة، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض. إن اجتماع هذه القرائن بعضها إلى بعض هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون سبباً في هلاك إنسان شقيّ. أنا أعلم أن اجتماع هذه القرائن رهيب: ذلك الدم السائل من يدي المتهم، ذلك القميص الملوث بالدم، تلك الصرخة التي دوّت في ظلام الليل قائلة: «يا قاتل أبيه!»، وسقوط الرجل الذي أطلق تلك الصرخة، سقوطه على الفور مهشّم الجمجمة، ثم جميع تلك الشهادات والأقوال، وجميع تلك الحركات والصيحات... آه... إن ذلك كله يمكن أن يؤثر في الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأ... ولكن لا في عقولكم أنتم يا سادتي المحلّفين، لا في عقولكم أنتم، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو. تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها، وأنكم قد أُعطيتم حق العقد والحل. وعلى قدر السلطة إنما تكون المسؤولية! إنني لا أتراجع عن حرف واحدٍ مما قلته، ولكن فلنسلم جدلاً، خلال دقيقة، بالرأي الذي يذهب إليه الادعاء حين يَزْعَمُ أن موكلي قد غمس يديه بدم أبيه. أكرر أن هذا افتراض، ذلك أنني لا أشك لحظة واحدة في براءة موكلي. ولكنني أتنازل هذا التنازل، فأسلّم جدلاً بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب، ألا فاسمعوا إذاً ما أحبّ أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض. إنني أحرص على أن معركة تنشب الآن في هذه النقطة، إنني أحسّ وأقدّر أن معركة تنشب الآن في نفوسكم وعقولكم... سادتي المحلّفين، اغفروا لي هذا الدخول الذي لا حقّ لي فيه، إلى مشاعركم الصميمة. فقد آليت على نفسي لابقينّ مخلصاً وصادقاً إلى النهاية. نعم، يا سادتي المحلّفين، لنكن جميعاً مخلصين صادقين!...

هنا قطع مرافعة الدفاع تصفيق متصل. ذلك أن المحامي قد نطق هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً، وأن ما سيعبّر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً. ولكن رئيس المحكمة ما إن سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً «بإخلاء القاعة» إذا «تكرر شيء من هذا مرة أخرى!». فعاد الجميع إلى الصمت، واستأنف فيتوكفتش مرافعته بصوت تغيرت نبرته على حين فجأة وأصبح نافذاً يختلف اختلاف التعارض والتناقض عن اللهجة التي تحدث بها حتى ذلك الحين.

- 13 -

الزاني بالفكرة

ليس اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشؤوم الذي يدين موكلي. لا يا سادتي المحلّفين، وإنما تدينه في الواقع جثة أبيه! فلو كانت جريمة القتل هذه جريمة عادية، لترددتم كثيراً أمام هذه الوقائع التي تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولامحتملة متى مُحّصت كل واحدة منها على حدة بدلاً من النظر اليها في مجموعها، ولتراجعتم أمام ضعف وافتقاد الأدلّة والبراهين ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة، أو لرفضتم على الأقل أن تدمّروا مصير إنسان بسبب ما قام في الأذهان من رأي سيئ فيه، وهو رأي يستحقه في الحقيقة واأسفاه! ولكن الجريمة ليست جريمة عادية. وإنما هي جريمة قتل ابن لأبيه! فهذا الظرف يؤثر في النفوس والعقول غير المتحيزة تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفي على أتفه الأدلة وأوهن القرائن خطورة خارقة، فالضمائر لا يقلقها عندئذٍ غياب البرهان القاطع على أن المتهم هو الجاني. هل يخطر ببال أحد أن يبرّئ مجرماً من هذا النوع؟ ان الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن أن يُبرّأ. كيف يرتكب جريمةً كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً؟ تلك فكرة تثير النفوس. هذا ما يحسه كل إنسان في قرارة نفسه، على غير إرادة منه تقريباً. نعم، إنه لشيء رهيب أن نسفك دم

أب، دم إنسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه، دم رجل لم يدخر في سبيلنا وسعاً، وكان في طفولتنا يتألم إذا مرضنا، ولم يفكر طوال حياته إلا في سعادتنا، ولم يغتذ طوال حياته إلا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب، فذلك يا سادتي شيء لا يتصوره العقل، ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع جريمة كهذه الجريمة. ما الأب يا سادتي المحلّفين؟ ما الأب الحق؟ ماذا تحمل هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا، ماهي الدلالة الهائلة التي تختفي في اسم الأب؟ لقد وصفنا منذ هنيهة، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقي، ما كان فيدور بافلوفتش كارامازوف وهو الضحيّة في هذه القضية التي تشغلنا وتدمي قلوبنا ينطبق عليه هذا المثل الأعلى الذي رسخ في أعماق نفوسنا عن الأبوة. ذلك شقاء. إن بين الآباء من هم كارثة. فلننظر في هذه المسألة من قرب، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شيء، يا سادتي المحلّفين، فإن القرار الذي ينتظره الناس منكم قرار بالغ الخطورة. يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذي استعمله رجل القضاء اللامع الذي استمعتم إلى خطابه منذ قليل. على أن خصمي المحترم (ولقد كان خصماً لي حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول إنه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم، وإنه لن يتكل في أمر الدفاع عنه على المحامي الوافد من سان بطرسبرج، وإنه سينهض بمهمتَيْ المدعي والمدافع في آن واحد. لقد نادى بذلك عدة مرات. ولكنه نسي أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة

وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور الامتنان بسبب رطل من بندق أهداه إليه رجل كان هو الإنسان الوحيد الذي دلله في منزل أبيه. وفي مقابل ذلك لم يكن في وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافي القدمين «في الفناء الخلفي من المنزل، مرتدياً سروالاً لا يمسكه إلا زر واحد»، كما ذكر لكم الدكتور هرتسننشتوبه الطبيب الشهم الرحيم. إني لأسألكم يا سادتي المحلّفين هل من اللازم حقاً أن نتوقّف طويلاً عند الكلام عن هذه «الكارثة» الأبويّة، وأن نلحّ على أمور يعرفها جميع الناس؟ أيّ استقبال لقيه موكلي حين جاء إلى هذه المدينة ليزور أباه؟ لماذا، نعم لماذا هذا الإصرار العنيد على تصوير موكلي في صورة رجل عديم الإحساس، أناني الطبع، شاذ الخلقة؟ هو عنيف مندفع، هو متوحش صخّاب، وبسبب هذا إنما نحكم عليه اليوم. ولكن من المسؤول عن مصيره، وعلى من يقع الذنب إذا هو رُبّي تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه؟ هل تولى أحد في يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله، بأن يكشف له عن جمال العلم؟ هل مال عليه أحد في حب وحنان أثناء سني طفولته؟ لقد شبّ موكلي في رعاية الله وحده، شبّ كحيوان متوحش. لعله كان ظامئاً إلى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك، الأشباح المقيتة التي ملأت أيام طفولته والتي كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة في سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه ويحتضن أباه بذراعيه. ولكن ما الذي حدث؟ جدث أن تلقاه بالسخريات المستهترة والتهكّم عجوزٌ شكاك ريّاب، يجادله في مال الميراث. ولا بد أن الشاب قد

شهد كل يوم محادثات كان المتوفى يعرض فيها فلسفته في الحياة وهي فلسفة تثير في نفسه التقزز وكان العجوز يبسطها وهو يشرب أقداحاً من الكونياك. وزاد الطين بلّة في آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته، وهو ابنه، مستعملاً في ذلك مالاً يعده الابن ماله. آه، يا سادتي المحلّفين، ذلك كله رهيب قاسٍ إلى أبعد الحدود. وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام والعاطفة نحوه، وكان لا يتردد عن التشهير به في المجتمع، والإساءة إليه بالنمائم والوشايات، وشراء سندات ديونه لايداعه بالسجن! سادتي المحلّفين، إن الرجال الذين هم من طينة موكلي، إن هؤلاء الرجال الذين يدُلُّ ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً إلى أبعد حدود الرقة، ولكنهم لا يظهرون ذلك. لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه! إن السيد وكيل النيابة الذي أُعجب بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله إلى شيللر وحبه للأمور «الرفيعة». ولو كنت في مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت عن الاستهزاء بما يجيش في نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية. إن النفوس التي من هذا النوع - واسمحوا لي ياسادتي أن أدافع عن امثال هذه النفوس التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق!- أقول إن النفوس التي من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى إلى الحنان والجمال والعدالة، كأنما تبحث بذلك عن نقيض عنفها وقسوتها. قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية، ولكنها مع ذلك عارمة قوية. إن هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب، قادرون على الحب إلى درجة الألم، قادرون

على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً إلى أقصى حدود الروحية والسمو. لا، لا، لا تضحكوا يا سادتي! فذلك ما يحدث، دائماً على وجه التقريب، لدى الطبائع التي تشبه طبيعة هذا الرجل، والبلاء كله في هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون فيها بعض الأحيان عنيفة فظة، وما يخطف بصر الناس فيها هو ما يُلاحظ من ظاهر سلوكها، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد. ومع ذلك فإن أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة، فإذا بالرجل الذي كان يُظَنّ أنه عديم الاحساس، وأنه فظ غليظ، إذا هو يحاول أن يجدد نفسه قرب إنسان نبيل طاهر متمنياً إصلاح حاله بالاتصال به، آملاً أن يصبح إنسانا أفضل وأكثر شرفاً وسمواً وطيبةً هو أيضاً. «الجمال والسُّمُوّ»... آه... فيمَ الاستهزاء بهاتين الكلمتين؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجيز لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع السيدة فرخوفتسيفا. ولكن يجب أن يباح لي مع ذلك أن أشير إلى هذه القصة إشارة سريعة مقتضبة. إن ما سمعناه في هذه القاعة لم يكن شهادة شاهد، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنّ جنونها! لا، ما هي بالتي كان يحق لها أن تتهم موكلي بالخيانة، لأنها هي التي خانته في الواقع! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً، إذاً لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة. لا تصدقوها يا سادتي. ليس موكلي بالرجل الذي وصفته فرخوفتسيفا بأنه «شيطان رجيم». إن المصلوب الذي كان يحب بني الإنسان قد هتف يقول وهو يصعد التل الذي نصب عليه الصليب: «أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه. فلن يهلك واحد من الخراف»[55] ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً إنسانية! لقد سألت منذ هنيهة: ما الأب؟ وهتفت أقول: هذه

كلمة كبيرة، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب إلى غير حد. ولكن يحسن بالمرء أن يكون صادقاً أميناً في ما يقول يا سادتي المحلّفين، ولهذا سأسمح لنفسي أن أسمي الأشياء بأسمائها فأقول: إن رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق في أن يسمى أباً، لأنه غير جدير بهذا الاسم. إن حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً حين لا يسوّغه خُلُق الأب. إن مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل. ما كان للحب أن يقوم على العدم، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم. إن الرسول بولس الذي كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول: «وأنتم أيها الآباء لا تغيظو أولادكم»[56]. إنني أبيح لنفسي أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأنني أفكر في موكلي فحسب، وإنما أنا أستشهد بها متجهاً إلى جميع الآباء. مَنْ الذي وهب لي حق أن أعظّمهم بما يقع على عاتقهم من واجب؟ لا أحد! ولكنني أقول أناديهم بصفتي إنساناً ومواطناً! إن إقامتنا على هذه الأرض قصيرة، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة. فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه الدقيقة التي تجمعنا في مكان واحد، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيّرة طيبة. وذلك ما أفعله الآن: إنني أتحين الفرصة لأخاطبكم جميعاً. ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر: إن الكلمات التي ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها. فإلى جميع الآباء إنما أتجه إذاً بالكلام، لا إلى الآباء الحاضرين في هذه القاعة فحسب، فأهتف قائلاً: «وأنتم أيها الآباء، لا تغيظوا أولادكم!»، فأهتف يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح، وبعد ذلك إنما يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها. فإذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء أبنائنا بل كنا أعداءهم، وسيصبحون أعداءنا هم أيضاً،

سيصبحون أعداءنا بسبب خطئنا نحن. «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم»[57]. لست أنا من يقول هذا الكلام، وإنما يقوله الإنجيل: كيلوا بالكيل الذي يكال به لكم. فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذي نكيل لهم به؟ لقد وقع في فنلندة، في الآونة الأخيرة، أن اشتبه الناس في امرأة خادمة واعتقدوا أنها ولدت ولداً. فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا في علية المنزل صندوقاً لها كانوا يجهلون وجوده، وقد أُخفى الصندوق في ركن من العلية وراء بعض القرميدات. فلما فتحوه وجدوا فيه جثة طفل وليد قتلته، ووجدوا في الصندوق أيضاً هيكلين عظميين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما، وذلك ما اعترفت به هي نفسها. فهل نستطيع يا سادتي المحلفين أن نسمي تلك المرأة أماً؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد، ولكن هل كانت أمهم حقاً؟ هل يجرؤ أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس، لقب الأم؟ ألا فلنتجمّل بشجاعة الفكر يا سادتي المحلّفين! إلا فلنكن جسورين بل ومتهورين في هذا الأمر، لأن من واجبنا في هذه اللحظة أن لا نتهيب بعض الالقاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار، وأن لا نكون شبيهين بزوجات التجار في موسكو اللواتي يؤمنّ بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت»[58]. بالعكس: يجب أن نبرهن على أن التقدم الذي تحقق في هذه السنين قد شمل تطورنا الروحي الأخلاقي. يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفي المرء أن ينسل نسلاً حتى يكون أباً، وإنما ينبغي له أن يستحق شرف هذا الاسم. أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأي، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب، هو أن أبي يظل أبي ولو كان شيطاناً رجيماً ومجرماً عاتياً في حق أولاده، وذلك لمجرد أنه أوجدني. ولكن هذا التصور تصوّر غيبي إن صح

التعبير، تصورٌ لا يستطيع أن يدركه العقل، ولايمكن قبوله إلا على أنه عقيدة وإيمان، مثله كمثل كثير من الأمور التي لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها. ومثل هذا التصور يبقى عندئذ في خارج الحياة الواقعية. أما في واقع الحياة الذي لا يشتمل على حقوق فحسب، بل يفرض علينا واجبات كبيرة أيضاً، فإنه ينبغي لنا، إذا أردنا أن نكون إنسانيين وإذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين، أن نقتصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة، أفكار مرت ببوتقة التحليل المنطقي، أي ينبغي لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء، لا تصرف أناس طاشت عقولهم فهم يغرقون في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الإنسان وحتى لا نعذبه ولا نهلكه ظلماً بغير حق. ذلك هو الموقف المسيحي حقاً، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب، بل يكون في الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر...

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة، ولكن فيتوكفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده، كأنه يضرع إليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له بإتمام كلامه. فسرعان ما ساد الصمت من جديد، وواصل الخطيب حديثه فقال:

- أتراكم تظنون يا سادتي المحلّفين أن المسائل التي من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سنّ المراهقة مثلاً، فيأخذون يفكرون ويبحثون ويناقشون؟ ألا إنكم إذن لواهمون. إن أبناءنا لا يمكن إلا أن يتساءلوا في هذه الحالة، وليس في وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك، وإلا كنا نطلب المستحيل. إن المراهق لا بد أن يطرح على نفسه اسئلة مؤلمة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخرين هم رفاقه،

فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض. قد يقال له عندئذ، على ما جرت به العادة المألوفة المبتذلة: «لقد وهب لك الحياة، وأنت من صلبه، فعليك أن تحبه». ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير إرادة منه: «فهل كان يحبني حين وهب لي الحياة؟»، وسيزداد اندهاش الفتى أثناء تأملاته، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه: «لا، إنه لم يهب لي الحياة حباً بي أنا، إنه لم يكن يعرفني، بل إنه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى في لحظة الخلق تلك، في لحظات الهوى تلك التي لعل الخمرة هي التي كانت توقدها، فلم يورثني إلا حب الشراب والميل إلى السكر. تلك كانت كل نِعَمِهِ وآلائه عليّ. . . فلماذا يُراد مني أن أحبه لا لسبب غير أنه أبي، مع أنه لم يكترث بي بعد ذلك في يوم من الأيام؟». قد تجدون هذا التفكير فظاً قاسياً يا سادتي، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق: «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع إليكم من النافذة»[59] ولنحاذر خاصةً قبل كل شيء، أن يسيطر علينا الخوف من «المعدن» و«الكبريت»، ولنقض في الأمر بما توجبه قوانين العقل الإنسانية، لا بما تفرضه التصورات الغيبيّة. فما الذي نقرره عندئذ؟ إليكم الأمر: ليتقدم الابن إلى أبيه وليلقي عليه في أناة وروية هذا السؤال «قل لي يا أبي لماذا يجب عليّ أن أحبك؟»[60] فإذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه أن يحبه، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً، أسرة قائمة لا على أوهام غيبية، بل على وقائع معقولة واضحة التصور إنسانية الحدود. أما في غير هذه الحالة، أي إذا عجز الأب عن الإتيان بالبرهان المطلوب، فقد انتهت تلك الأسرة، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر إلى أبيه نظرته إلى غريب، بل

وإلى عدو. إن على منبرنا هذا، يا سادتي المحلّفين، أن يكون مدرسةً للحقيقة والمعاني السليمة.

هنا قاطعت الخطيب عاصفةً من تصفيق مسعور. ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو، فإننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق. صفق الآباء والأمهات. كما أن صرخات حادة وصيحات إعجاب قد قامت في الجزء الأعلى من القاعة، وهو الجزء الذي توجد فيه السيدات، وأخذت الأيدي تلّوح بالمناديل، واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع. كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور، ولكنه لم يجرؤ أن يمضي إلى حد «إخلاء القاعة» عملاً بتهديداته السابقة: ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى في صف الكراسي الموضوعة في الخلف، الموقوفة على كبار الموظفين، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين. لذلك اكتفى الرئيس، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً إنه سيخلي القاعة إذا تكرر ما حدث مرة أخرى. وهذا فيتوكوفتش يستأنف مرافعته منفعلاً كَمَن قد أحرز انتصاراً، فيقول:

- سادتي المحلّفين، إنكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التي طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة، تلك الليلة التي دخل فيها المتهم إلى منزل أبيه بعد أن تسلق السور، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذي ولده وأساء إليه وأهانه وكان عدوه. إنني أعود فأقول ملحاً: ان المتهم لم يذهب ليسطو على المال، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك، لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل! كلا ثم كلا. فلو قد كان ينوي ارتكاب جريمة، إذاً لاحتاط للأمر سلفاً

فتزود، على الأقل، بسلاح، بسلاح حقيقي، لا بمدق الهاون هذا الذي تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة. لنسلّم جدلاً إذاً بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء إلى تلك الإشارات السرية، فدخل البيت. لنسلّم بهذا جدلاً، لأنني لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات، كما سبق أن قلت ذلك. ولكن فلنسلّم جدلاً، خلال بضع دقائق، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً. إني لأقسم لكم بكل ما أقدّسه في هذه الحياة يا سادتي المحلّفين، أن المتهم، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً فاقتنع بأن المرأة التي يبحث عنها ليست في المنزل، كان سينصرف مسرعاً دون أن يُلحق بمنافسه أي أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه. لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله. لقد كان في عجلة من أمره، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة. ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه، أمام أبيه، وجهاً لوجه... آه يا سادتي إن رؤية ذلك الأب هي التي كانت سبب كل شيء، ذلك الأب الذي كان عدوه منذ طفولته، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه! إن شعوراً بالكره لا يغالب قد استولى عليه حينذاك واستبد بروحه، فأصبح لا يستطيع أن يفكر. ثار كل شيء في نفسه حينذاك. كان ذلك انفجار جنون، ولكنه جنون طبيعي، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الإنسان بغير شعور وغير لجام، شأن كل ما هو من الطبيعة. ولكن القاتل، حتى في تلك الدقيقة، لم يقتل! إنني أؤكد هذا وأصيح به هنا! كلا، وإنما هو اكتفى بأن رفع المدقّة بحركة استياء مشمئز، دون أن يكون في نيته أن يقتل، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق

المشؤوم في تلك اللحظة، فلربما كان سيكتفي بأن يضرب أباه أما أن يقتله فلا. وحين هرب بعد ذلك كان لا يدري أقتل العجوز الذي ضربه أم لا. إن قتلاً يحدث في هذه الظروف ليس بقتل. وإن قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن أباه أيضاً. لا، لا يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب. إننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب إلا بسبب وهم قائم في الاذهان! ولكنني أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق، بكل نفسي: هل كان ثمة قتل فعلاً؟ تخيلوا يا سادتي المحلّفين أننا حكمنا على هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك: «إن هؤلاء الناس لم يفعلوا في سبيلي شيئاً من أجل أن يصلحوا أمري. لم يهتموا بتربيتي وتثقيفي، ولم يحاولوا أن يجعلوا مني إنساناً أفضل. إن هؤلاء الناس لم يعطوني ما أشربه ولا ما آكله، ولم يساعدوني يوماً في حبسي المظلم، وها هم أولاء يرسلونني الآن إلى الأشغال الشاقة! ألا إني إذاً اليوم براء حيالهم، لا أدين لهم بشيء، ولن أدين بشيء لأحد من الناس في هذا العالم بعد هذه الساعة قط! إنهم جميعاً أشرار، فسأكون شريراً مثلهم. إنهم جميعاً قساة، فسأكون قاسياً مثلهم». ذلك ما سيقوله يا سادتي المحلّفين. أحلف لكم أنكم إذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذي سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره. صحيح أنه سيلعن الجريمة التي ارتكبها، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة. إنكم إذا حكمتم عليه كنتم تحطمون إلى الأبد ما في نفسه من إمكانيات إصلاح حاله، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر إلى آخر عمره. فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره، مع إنقاذكم نفسه، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً إلى الأبد؟ ألا فأرهقوه برحمتكم، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروّع

النفس عندئذ، قائلاً: «هل أستطيع أن أحتمل هذه الرحمة، هل أنا جدير بهذا الحب كله، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً؟» كذلك سيكون ردّه على رحمتكم. إنني أعرف هذا الرجل يا سادتي المحلّفين، إنه متوحش، ولكنه نبيل القلب في قرارة نفسه. لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم، لأنه ظامئ إلى الحب قبل أي شيء آخر، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً، وسيولد ولادة جديدة نهائية. إن هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل إنسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة. فاشملوا هذه النفوس برحمتكم وبرهنوا لها على حبّكم، فإذا هي تلعن وضعها السابق وموقفها الماضي، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشواق النبيلة المكبوتة. لسوف تتفتح روح هذا الإنسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الإنسان وعدالة البشر. لسوف تروّعه عندئذ جريمته، فيسحقه عذاب الضمير، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذي يقع على عاتقه بعد الآن. لن يقول بعدئذ: «أنا الآن براء لا أدين لأحد بشيء»، بل سيهتف قائلاً: «أنا آثم أمام جميع الناس لأنني أحط الناس قاطبةً». ومن خلال دموع ندامته وتوبته، سيصيح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها حرق: «جميع الناس خير مني لأنهم أرادوا خلاصي لا ضياعي!». سهلٌ عليكم يا سادتي المحلّفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً إذا أنتم أصدرتم حكمكم بإدانته رغم عدم توفر الأدلة المقنعة حقاً! لأن نبرئ عشرة مجرمين خير من أن نجرّم بريئاً - هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذي انطلق في قرن ماض من تاريخنا المجيد؟ هل عليّ أنا، أنا المخلوق الضعيف، أنِ أذكّركم بأن القضاء الروسي لا يهدف إلى العقاب فحسب، وإنما يهدف كذلك إلى إنقاذ الإنسان الذي زلت

قدمه فسقط؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية النص ما شاءت، ولها أن لا تفكر إلا في العقاب ما حلا لها ذلك، أما نحن الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القانون، ونريد قبل كل شيء آخر أن نقيل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثاً جديداً. ما دام الأمر كذلك ما دام هذا هو الطابع الذي تتصف به بلادنا ويتميز به قضاؤنا، فإلى الأمام يا روسيا.. لا يا سادتي ليست روسيا ترويكا مسعورة. لا تخيفونا بهذا التشبيه اليست روسيا ترويكا جامحة تتنحى الشعوب الأخرى من أمامها مشمئزة! فإنما روسيا مركبة فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متئدة مظفرة. يا سادتي المحلّفين، ليس بين أيديكم مصير موكلي فحسب، بل مصير العدالة الروسية أيضاً. فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التي عهد بها إليكم واؤتمنتم عليها، دافعوا عنها فتبرهنوا بذلك على أننا أوفياء لها وعلى أنها في أيدٍ أمينة.

- 14 -

صمد فلاحونا

بهذه الكلمات ختم فيتوكوفتش مرافعته، فاذا بالحماسة المحمومة الهاذية تنفجر في الجمهور انفجاراً لا سبيل إلى دفعه كأنها العاصفة. كان يستحيل وقف هذا الانفجار: فالنساء تنشج وتنتحب، وعدد كبير من الرجال يبكون، حتى لقد شوهدت دموع في أعين اثنين من كبار الموظفين. وبدا على الرئيس أنه يذعن، حتى إنه تأخر في هزّ جرسه. «لو شاء أن يلجم حماسةً كتلك الحماسة لكان ذلك منه تدنيساً للمقدسات!»، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا في ما بعد. وكان المحامي منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً. وفي تلك الدقيقة إنما اعتقد صاحبنا ايبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض «ليثير بعض الاعتراضات». نظر إليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبغضاً: «كيف! ماذا يريد؟ أهو من يجيز لنفسه أن يردّ الآن؟». كذلك دمدمت السيدات. ولكن ما كان لجميع نساء الأرض، وعلى رأسهن زوجة ايبوليت كيريلوفتش، أن يجدي احتجاجهن في شيء، لأنه كان يستحيل، حتى في هذه الحالة أن يُصدّ وكيل النيابة عن الكلام في تلك اللحظة. كان ايبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون، وكان يرتعش انفعالاً. إن الكلمات الأولى التي قالها كانت مضطربة غير مفهومة، لأن الرجل

يختنق بكلامه، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز، وكانت عباراته مختلطة مشوشة. ولكنه لم يلبث أن استردّ سيطرته على نفسه. وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردّه:

. . . يعاب علينا أننا ألّفنا رواية أو أنشأنا قصة. ولكن ما الذي فعله الدفاع غير تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل؟ ألا إن مرافعته لم يكن يعوزها إلا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة. هو يرى اذن أن فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته!... بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها في تلك الظروف الغريبة! أليس هذا رواية؟... كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف؟ من ذا الذي سمع الكلمات التي قالها حينذاك؟ وهذا الإنسان الضعيف العقل، سمردياكوف، الذي يصوره لنا الدفاع في صورة بطل رومانسي يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية، هل الكلام عنه على هذا النحو إلا قصيدة من طراز قصائد بايرون؟ أما ذلك الابن الذي اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك، فإن الكلام الذي قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة، وإنما هو أبو الهول يطرح الغازاً يعجز هو نفسه عن حلّها. من قتل فقد قتل. كيف يقتل إنسان دون أن يقتل، من ذا الذي يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام؟ ولقد نودي بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوّي في الأرجاء، ثم ها هم يعلّموننا من على منبر «الأفكار السليمة» هذا، كما يعلّمون بديهية من البديهات، إن إطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أبٍ بيد ابنه إنما هو وهم من الأوهام! ولكن إذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام، وإذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الأسباب التي

توجب عليه أن يحبه، فما عسى تصير إليه بلادنا، ما عسى تصير إليه الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا، ما عسى تصير إليه الأسرة؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بخوف زوجات تجار موسكو من «الكبريت»! ألا إنهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية، ويعبثون بمصيرها ومستقبلها، وذلك كله في سبيل الوصول إلى الهدف الحقيقي الذين يسعون إليه، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه، والعفو عما لا يمكن العفو عنه. لقد صاح المحامي يقول: «حطّموه برحمتكم!». ألا إن هذا هو كل ما يتمناه المتهم، ولترون غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه! يخيّل إليّ أن المحامي كان متواضعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم. تُرى لماذا لم يطالب بإنشاء جائزة تسمى باسم قاتل أبيه، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الأعقاب والجيل الجديد؟ ويريدون أن يصححوا الإنجيل وتعاليم الدين، فيقولون: «هذا من الأمور الغيبية!». ألا إننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقّة التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة! ومضوا إلى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة! سيُكال لكم بالكيل الذي كِلْتُم به: بهذا هتف المحامي، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به. فانظروا ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا! واضح أنهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الإنجيل إلا عشية إلقائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس، ما احتاجوا إلى ذلك طبعاً! ألا إن المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم خبيث فاسد شرير، وإنما هو يأمرنا، على خلاف ذلك،

أن نغفر الإساءات التي ألحقت بنا، وأن نمد خدنا الأيسر، بدلاً من أن نكيل للمسيئين إلينا بالكيل الذي كالوا لنا به: ذلك ما يعلمنا إياه الرب، إن الرب لم يقل إن منع الأبناء من قتل آبائهم وهم من الأوهام الاجتماعية! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر، منبر الحق والمعاني السليمة، في تصحيح تعاليم ربنا الذي اقتصر المحامي في مرافعته على أن يسميه باسم «المصلوب الذي كان يحب بني الإنسان»، خلافاً لما تفعل روسيا الاثوذكسية كلها التي تبتهل إلى الرب قائلةً: «أنت إلٰهنا!».

عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيابة بالقصر والاعتدال، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو، وأن لا يبتعد عن الموضوع، إلى آخر ما هنالك، مستعملاً اللغة المعهودة في الرؤساء. وكانت القاعة تضطرب وتتحرك. لقد أصبح الجمهور عصبياً، وأصبحت تُسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك. وعدل فيتوكوفتش عن الرد، ولم يزد على أن يصعد المنبر واضعاً يده على قلبه، فقال بضع كلمات تفيض وقاراً ورصانة، قالها بلهجة إنسان أوذي شعوره وأسيء إليه، وعاد يشير إشارة عابرة ساخرة إلى «الروايات» و«السيكولوجيا» ووجد السبيل إلى أن يستشهد بالقول المأثور: «قد غضبت يا جوبتر، فأنت إذاً على خطأ»، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد صغيرة، لأن ايبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبتر البتة، ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة إنه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم، أما في ما يتعلق «بالصورة الباطلة التي قال وكيل النيابة إن المحامي رسمها للمسيح»، وفي ما يتعلق بأن المحامي لم يتنازل فيسمي المسيح إلٰهاً وإنما اقتصر على تسميته باسم «المصلوب الذي يحب بني الإنسان، مخالفاً بذلك الارثوذكسية مخالفةً ما ينبغي

أن يسمح بها من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة»، فقد غمز فيتوكوفتش أن في هذا «افتراء» وأنه حين جاء إلى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا المنبر بحرية، دون أن يتعرض لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام، فما كان من فيتوكوفتش إلا أن انحنى قائلاً إنه أنهى كلامه، ولم يبق لديه ما يضيفه، وعاد إلى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور. أما ايبوليت كيريلوفتش فقد كان «منسحقاً انسحاقاً نهائياً» في ما أكدت سيداتنا من بعد.

وطُلب إلى المتهم أن يتكلم، فنهض ميتيا، ولكنه لم يقل إلا بضع كلمات. كان يبدو مهدود القوى روحاً وجسماً. إن هيئة الكبرياء والقوة التي كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة في الصباح قد اختفت الآن أو كادت. كان يلوح عليه أنه قد عاش في هذا النهار ساعات حاسمة تعلّم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك. إن صوته ضعيف واهن، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ في بداية الجلسة، وفي كلامه الآن نبرة جديدة، نغمةٌ فيها إذعان وانكسار ومذلة. قال:

- ماذا استطيع أن أقول لكم يا سادتي المحلّفين؟ لقد دقت ساعة حسابي، ووضع الله يده عليّ. ذلك تكفير عن حياتي المضطربة الفاسدة! ولكنني أؤكد هنا، أؤكد تأكيد من يعترف أمام الله: «إنني لم أسفح دم أبي»، لا، لست أنا مرتكب هذه الجريمة! أعود فأكرر لكم «إنني لست الذي قتله». لقد عشت حياة فاسقة، ولكني كنت أحبّ الخير. كنت أفكر دائماً في إصلاح نفسي، ومع ذلك ظللت أعيش كما يعيش حيوان متوحش. أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال

عني أموراً كنت أجهلها أنا نفسي. ولكن قوله إنني قتلت أبي قول خطأ. لقد أخطأ السيد وكيل النيابة! وأشكر للمحامي دفاعه عني أيضاً. لقد بكيت وأنا أصغي إلى كلامه. ولكن من الخطأ أن يُقال إنني قتلت أبي، وما كان ينبغي حتى أن يُفترض افتراضاً أنني فعلت ذلك! أما الأطباء فلا تصدقوهم! إنني أملك عقلي كاملاً، ولكن نفسي مرهقة. إن تسامحتم معي فاطلقتم سراحي دعوت لكم وصليت من أجلكم، وإني لأعدكم بأن أصلح ما فَسُدَ من أمري، أحلف لكم على ذلك أمام الله، وإن حكمتكم عليّ توليت بنفسي تحطيم سيفي وقبلت حطامه. ولكن ترفّقوا بي: لا تحرموني من إلٰهي. إنني أعرف نفسي، فلو فعلتم لثرت وتمردت! إن نفسي مرهقة أيها السادة... فترفّقوا بي!.

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه السقوط. لقد تهدم صوته، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة إلا في كثير من العناء. وانتقلت المحكمة بعد ذلك إلى تحرير الأسئلة التي يجب أن تلقى على المحلفين، ودُعيت الأطراف إلى الإدلاء بالنتائج التي انتهت إليها. لن أدخل في وصف التفاصيل. ونهض المحلفون أخيراً للمداولة. وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه إليهم إلا كلاماً مقتضباً، قال: «لا تتحيزوا، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التي تضمنها خطاب الدفاع، بل زِنوا قراركم، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة إليكم»، الخ الخ... ورفعت الجلسة بعد خروج المحلفين. أصبح يحق للحضور أن ينهضوا، وأن يسيروا، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر، وأن يمضوا إلى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب. وكان الوقت متأخراً، فالساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف. كانت

أعصاب الجميع مشدودة متوترة، وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر في خلده أن ينصرف ليرتاح. كان الناس ينتظرون حكم المحكمة بما يشبه الحمّى. على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً، إن السيدات خاصة هنّ اللواتي سيطر عليهن نفاذ الصبر إلى حد الهستيريا. ومع ذلك لم يساورهنّ أي خوف. كنّ وهنّ يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة، كن يقلن: «لا شك أنه سيُبَرّأ». ويجب عليّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً يشاطرهن هذا اليقين بأن المتهم سيبرأ، فبعضهم مغتبط بذلك مبتهج له، وبعضهم يقطب الجبين استياءً، بل إن منهم من استطالت أنوفهم امتعاضاً واستهجاناً: كان هؤلاء لا يريدون البراءة. أما فيتوكوفتش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه. وكان الناس يحيطون به، ويهنّئونه ويتملقونه. فقال لجماعة منهم، كما رُوي ذلك في ما بعد:

- هناك تيارات تعاطف تشد المحامي إلى المحلّفين كخيوط لا تُرى، وهذه الخيوط تنعقد وتدرك أثناء المرافعة نفسها. لقد أحسست أنها موجودة لقد ربحنا القضية لا تخافوا. . .

- إني لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الآن!

كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين مجدور الوجه وهو يقترب من جماعة حَميَ فيها وطيس المناقشة. إنه أحد مالكي الأطيان في ضواحي مدينتنا.

فأجابه آخر:

- إن هيئة المحلفين لا تضم فلاحين فحسب، ففيها أربعة موظفين أيضاً.

فقال أحد أعضاء «مجلس المدينة» مؤمناً وهو ينضم إلى الجماعة:

- نعم، نعم، يوجد موظفون. . .

- هل تعرفون نازارييف، بروخور إيفانوفتش نازارييف؟

- إنه ذلك التاجر الموشّح الصدر بوسام. هو عضو في هيئة المحلفين.

- وماذا؟

- هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة.

- ولكنه يصمت طول الوقت.

- صحيح. يصمت. هذا أفضل. ليس أناس سان بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً. إنه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك. إن له اثني عشر ولداً، تصوروا...

وفي جماعة أخرى هتف أحد الموظفين يقول:

- هه! معقول أنهم لا يبرئونه؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة:

- سيبرّئونه حتماً.

فعاد الموظف يقول:

- عار أن لا يبُرئوه، خزي أن لا يبرئوه. صحيح أنه قتل، ولكن هناك أب وأب. ثم إنه كان في حالة اهتياج شديد... من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون في نيته أن يقتل، فإذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة. على أنني أرى أن إقحام ذلك الخادم في القضية أمر مؤسف. كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر. لو كنت في مكان المحامي، لصحت أقول صراحة: «نعم قتل، ولكنه ليس مجرماً، وليأخذكم الشيطان جميعاً!».

- ولكن هذا بعينه هو ما قاله، باستثناء حكاية الشيطان هذه.

فتدخل صوت ثالث يقول:

- بل كاد يقول لهم «فليأخذكم الشيطان» يا ميخائيل سيميونتش.

- تصوروا يا سادة! لقد برأوا عندنا، أثناء الصيام، ممثلةً ذبحت عنق زوجة عشيقها الشرعية.

- نعم، ولكنها لم تقطعه إلى آخره.

- أوشكت أن تقطعه على كل حال.

- هل سمعتم ما قاله عن الآباء؟ كان كلامه رائعاً!.

- رائعاً!

- وقوله عن الغيبية، هه؟

- دعوكم من الغيبية والصّوفيّة. أولى بكم أن تفكروا في ايبوليت وفي المصير الذي ينتظره. لسوف تفقأ أمرأته عينيه بسبب ميتيا.

- أهي في القاعة؟

- ما هذا السؤال؟ لو كانت في القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة. ولكنها في الدار، لأنها تشكو من أوجاع في أسنانها، هئ هئ!

- هأ هأ هأ.

وفي جماعة ثالثة دار الحديث التالي:

- من الجائز أن يُبرأ ميتيا!

- لا ينقصنا إلا هذا! لسوف يقلب غداً كل شيء في حانة «العاصمة الكبرى»، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام.

- إنه لشيطان رجيم حقاً!

- الشيطان هو الشيطان، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا. أين عسى يوجد الشيطان إن لم يوجد في هذه القاعة؟

- لنسلّم أيها السادة أن للبلاغة وزنها! ولكن تحطيم جمجمة أب غير جائز على كل حال، وإلا فإلى أين المصير؟

- وما قاله عن المركبة المظفرة، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة المظفرة؟

- نعم، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة!
- سيردها في الغد عربة بسيطة «ما احتاج إلى ذلك»، على حد تعبير وكيل النيابة.
- لقد زادت براعة الناس. قل لي: ألا تزال توجد حقيقة في روسيا؟

ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن. لقد تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة. ساد صمت عميق منذ عاد الحضور إلى أماكنهم. ها أنذا أرى هيئة المحلفين تدخل القاعة. جاؤوا أخيراً! لن أذكر، بالترتيب، الأسئلة التي كان عليها أن تجيب عنها، لأنني نسيتها. كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس: «هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق إصرار وتصميم بقصد السرقة؟» (نسيت النص الدقيق). خيّم على القاعة صمت كصمت الموت. وقال رئيس هيئة المحلفين، وهو أصغر الموظفين سناً، قال بصوت قوي واضح دوّى في أرجاء القاعة الصامتة صمت الموت.

- نعم، مذنب.

وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة: نعم، مذنب، مذنب في كل مرة، دون وجود أي ظرف مخفّف، لم يكن أحد يتوقع ذلك. لأن جميع الناس كانوا يقدرون أن تكون هنالك أسباب مخففة على الأقل. استمر الصمت الذي يشبه أن يكون صمت الموت. وأصبح الجمهور كالمتجمّد دهشةً، يستوي في ذلك الذين كانوا يتمنون أن يُحكم على ميتيا، والذين كانوا يتمنون أن يُبرَّأ. ولكن هذا السكون لم يدم إلا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة. فأما الرجال فإن عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدي غبطة وسروراً دون أن يحاول إخفاء فرحته وصُعق

المستاؤون منهم فأخذوا يرفعون أكتافهم ويتهامسون، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد. وأما السيدات، فيا رب السماء! لقد خيّل إليّ أنهن سيقمن بثورة! إنهن في أول الأمر لم يصدِّقن آذانهنّ، ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات في جميع أرجاء القاعة: «ما معنى هذا؟ ما هذه الحكاية؟»، وأخذن يثبن عن أماكهن. واضح أنهن كان يخيل إليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر. وفي تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة، وأعول يقول بصوت ممزّق، ماداً ذراعيه إلى أمام:

– إنني أحلف أمام الله، بانتظار عدالته الرهيبة، أنني بريء من دم أبي! أما أنت يا كاتيا فإنني أغفر لك. ويا أخوتي، يا أصدقائي، ترفقوا بالأخرى وأحيطوها برعايتكم...

لم يكمل ميتيا كلامه، وانفجر ينتحب. كان ينشج نشيجاً صاخباً، بصوت ليس صوته، صوت مخيف، لا يدري المرء من أين يصدر. وفي أعلى القاعة، من ركن مظلم بالشرفة، انطلقت صرخة حادة: انها جروشنكا. كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة إلى القاعة، قبل إلقاء مرافعة النيابة. واقتيد ميتيا. وأرجئ إعلان الحكم إلى الغد. ونهض الجمهور في جلبة شديدة. ولكنني كنت قد أصبحت لا أنتظر ولا أصغي إلى شيء. كل ما وعته ذاكرتي لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة:

– لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالأشغال الشاقة[61] في مناجم الاستخراج.

– لن يقل عن ذلك!

– نعم، لقد صمد فلاحونا.

وقضوا على ميتيا.

خاتمة

– 1 –

مشاريع إنقاذ ميتيا

بعد صدور الحكم على ميتيا بخمسة أيام، ذهب أليوشا في الصباح الباكر إلى كاترينا إيفانوفنا ليتخذ معها إجراءات أخيرة في أمر يهمهما كليهما كثيراً، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة قليلاً. واستقبلته المرأة الشابة في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها جروشنكا منذ بضعة أسابيع. وفي الغرفة المجاورة كان يرقد إيفان فيدوروفتش غائباً عن الوعي بتأثير الحمّى. لقد نقلته كاترينا إيفانوفنا إلى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها، ودون أن تقلق لما سيصبّه عليها المجتمع من ضروب اللوم. وقد سافرت احدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها، إلى موسكو منذ نهاية المحاكمة، وبقيت الأخرى في منزل كاترينا إيفانوفنا. ولكن كاترينا إيفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن إنفاذ ما عزمت أمرها عليه ولو كانت وحيدةً في منزلها، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً. وكان الطبيبان فارفنسكي وهرتسنشوبه يعالجان إيفان. أما الأخصائي الذي جاء من موسكو فقد سافر من دون أن يرضى الإفصاح عن رأيه في ما عسى تصير إليه حالة المريض، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض.

وكان الطبيبان يبذلان لكاترينا إيفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالاً قاطعة. وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين في اليوم. على أنه إنما جاء الآن لأمر محرج إحراجاً خاصاً، مربك إرباكاً شديداً، وهو يشعر بمدى الصعوبة في مواجهة الموضوع، ولا يعرف من أين يأتيه. وكان عدا ذلك في عجلة من أمره، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبءٍ ثان، في حي غير هذا الحي من المدينة، فكان يحسن به اذن أن يسرع. انهما يتحدثان منذ ربع ساعة. وكاترينا إيفانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون تبدو مرهقةً مهدودة القوى، ولكنها في الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً، لأنها كانت في الواقع تدرك الهدف الذي جاء من أجله أليوشا. قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة:

- لا يقلقنك أمر القرار الذي سيتخذه، فإنه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً: فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار! إن هذا المسكين، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير - أوه! لا! لست أقصد دمتري فيدروروفتش، وإنما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب، ذلك الذي ضحى بنفسه في سبيل أخيه - (كذلك أضافت تقول كاترينا وقد سطعت عيناها) قد أطلعني منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا. ولعلك تعلم أنه اتصل بعدّة أشخاص من أجل إنفاذ هذا المشروع... وقد ألمحت لك إلى هذا من قبل على كل حال... سيتم الفرار في المرحلة الثالثة من مراحل الطريق في أغلب الظن، أثناء نقل السجناء إلى سيبيريا. أوه! ما يزال الأمر بعيداً. وقد زار إيفان فيدوروفتش رئيس المحطة الثالثة. ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذي سيقود القافلة، لأن ذلك يستحيل أن يُعرف سلفاً. وقد أطلعك غداً على تفاصيل الخطة التي تركها لي إيفان فيدوروفتش قبل المحاكمة، احتياطاً

لما قد يحدث له. . . تمّ هذا في ذلك اليوم نفسه الذي رأيتنا نتشاجر فيه. . . أنت تذكر هذا. . . لقد خرج من عندي فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية. تتذكر هذا، أليس كذلك؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر؟

قال أليوشا:

- لا، لا أعرف.

- أخفى عنك هذا طبعاً! فاعلم إذاً أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا بنفسه. كان قد عرض لي قبل ذلك بثلاثة أيام، الأمور الأساسية من هذه الخطّة، وفي تلك اللحظة إنما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام. فحين أعلن لي أن ديمتري فيدوروفتش سيهرب إلى الخارج مع تلك المخلوقة إذا حُكم عليه، شعرت فجأة بغضب شديد. لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت. إنني أجهل أنا نفسي سبب غضبي. . . آه! السبب هو تلك المخلوقة طبعا! فبسببها إنما ثارت ثائرتي، لأن تلك المخلوقة تطمع في أن تسافر إلى الخارج مع دمتري!

بهذا صاحت كاترينا إيفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتاها تختلجان من فرط الغضب. وواصلت كلامها تقول:

- فلما لاحظ إيفان فيدوروفتش أنني غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أنني أغار منها، وأنني إذن ما زلت أحبّ دمتري. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى في ذلك اليوم. لم أشأ أن أقدم له شرحاً، ولا كنت أستطيع أن أعتذر إليه أيضاً. ولكن كان يحز في نفسي أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة إيفان فيدوروفتش يمكن أن يهجس في نفسه أنني ما زلت أحبّ ذلك ال. . . مع أنني كنت أكدت له أنا نفسي منذ مدة طويلة أنني أصبحت لا أحبّ دمتري، وأنني لا أحبّ أحداً إلا هو إيفان! . . .. فلما غضبت من تلك المخلوقة، ثارت ثائرتي عليه. وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ذلك المساء نفسه الذي

جئت فيه إليّ، جاءني إيفان بظرف مختوم وطلب مني أن لا أفض الظرف إلا إذا وقع له شيء. أوه! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه. وقال لي إن الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار، وإن عليّ أن أتولّى وحدي إنقاذ ميتيا، إذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً. وفي تلك المناسبة نفسها ترك مالاً، قرابة عشرة آلاف روبل - هو ذلك المبلغ نفسه الذي جاء على ذكره وكيل النيابة في مطالعته بعد أن علم مصادفة أن إيفان قد كلف أحد الناس بإحضاره من مركز الإقليم لقاء سندات يبدلّها. وقد أدهشني أشد الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن إيفان فيدوروفتش، رغم غيرته عليّ ورغم اقتناعه بأنني ما زلت أحبّ ميتيا، لم يعدل عن فكرة إنقاذ أخيه، وأنه يعهد إليّ، إليّ أنا، بالقيام بهذه المهمة. آه. . . ما كان أقوى روح التضحية في سلوكه هذا! لا يا ألكسي فيدوروفتش! يصعب إدراك ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات! تمنيت لو أسقط على قدميه، شعوراً بإعجاب لا حدود له. ولكن هجس في نفسي فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة مني إلى فرحتي بإنقاذ ميتيا (كان سيؤوّل بادرتي هذا التأويل حتماً)، فما إن تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم في حقي حتى ثارت ثائرتي من جديد، واشتد حنقي، فبدلاً من أن أقبّل قدميه، رحت أضايقه. آه. . . ما أشقاني! ذلك هو طبعي. . . إنه طبع رهيب. . . عجيب! سوف ترى، سوف ترى: سوف أعمل كل ما سيدفعه إلى أن يهجرني أخيراً إلى امرأة أخرى يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يسهل عليه أن يتفاهم معي، تماماً كما فعل دمتري. ولكن في هذه الحالة. . . لا. . . لن أحتمل في هذه المرة. . . سوف أنتحر! وحين دخلت عليّ، بعد أن أمرته بالصعود ثانيةً، جُنّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة. وعندئذ

هل تتذكر؟ - عندئذ إنما صرخت أقول إنه هو وحده الذي جعلني أعتقد بأن ميتيا قاتل!. . . لقد كذبت عندئذ عامدةً، بغية أن أجرحه مرة أخرى فأنا التي كنت قد سعيت إلى إقناعه بأن ميتيا قاتل. آه. . . إن طبعي اللعين هو سبب البلاء كله! أنا، أنا المسؤولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة! لقد أراد أن يبرهن لي على نبل نفسه، أراد أن يبيّن لي أنه، رغم حبي أخاه، لن يقبل أن يضيّعه غيرةً وانتقاماً. لهذا إنما تكلم على ذلك النحو أمام المحاكمة. . . أنا سبب كل شيء، أنا وحدي الآثمة!

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشا بمثل هذه الاعترافات في يوم من الأيام، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعاني من ذلك العذاب الذي لا يطاق، ذلك العذاب الذي يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم. ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتاريحها سبباً آخر أيضاً، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا. ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه إلى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها، وأن تحدّثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها في هذه اللحظة نفسها: الواقع أن كاتيا كانت تتألم من «الخيانة» التي ارتكبتها في المحكمة. وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها إلى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة، وربما بلطم جبينها بالأرض في نوبة هستيرية من نوبات عذاب الوجدان. وكان أليوشا يخشى هذا المشهد، ويرفق بحال المرأة الشقية. وكان هذا يفاقم حرجه وارتباكه من القيام بالمهمة التي كلّف بها. وعاد يتكلم عن ميتيا.

فقاطعته بعناد حازم:.

- لا تقلق له! صدقني إن معارضته لن تستمر طويلاً. أنا أعرفه،

أعرف طبعه حق المعرفة. ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً. لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب، وسيكون له متسع من الوقت لاتخاذ قراره. ومن الآن إلى أن يحين الموعد، يكون إيفان فيدوروفتش قد أبلّ من مرضه، فيتولى القضية بنفسه، ولن يكون عليّ أنا أن اهتم بها. لا تخف، سيوافق على الهرب. بل إنه لموافق منذ الآن: فأنّى له أن يترك تلك المخلوقة! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة إلى المعتقل، فلم يبق له إلا أن يهرب. هو يخاف منك خاصةً، يخاف أن تلومه على الهرب لأساب أخلاقية. فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق، ومن واجبك أن تأذن له مادام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه.

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة. وصمتت بضع لحظات، وابتسمت ابتسامة ساخرة، ثم أردفت تقول:

- إنه يتحدث في السجن عن نشيد، عن صليب عليه أن يحمله، عن واجب عليه أن يقوم به... إني أتذكر هذا الكلام لأن إيفان فيدوروفتش قد روى لي تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع. ليتك تعلم بأي طريقة كان إيفان فيدوروفتش يتكلم! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة في اندفاعة لا تقاوم). ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقي حين كان يتكلم عنه، وكم لعله كان يبغضه في الوقت نفسه أيضاً! أما أنا، فقد أصغيت عندئذ إلى هذه القصة التي رواها لي باكياً، أصغيت إليها وأنا أتفرّس فيه متكبرة متعجرفة ساخرة! ألا ما أحطّني من مخلوقة! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة! بسببي إنما أصيب بالحمّى! أما الآخر، الذي حُكم عليه، فإنه غير مستعد لأن يتألم البتة. وهل في وسع امرئ مثله أن يتألم؟... إن رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً.

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة. إن نبرة بغض واشمئزاز واحتقار قد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة. ومع

ذلك فإنها هي التي خانته. قال أليوشا لنفسه: «إنما هي تكرهه في بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت في حقه». كان أليوشا يتمنى أن لا تكرهه إلا في بعض اللحظات. وقد لاحظ أليوشا في الكلمات الأخيرة التي قالتها كاتيا شيئاً من تحدٍّ، ولكنه لم يحفل بالأمر.

وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز:

- إنما كان هدفي من استدعائك اليوم هو أن تعدني بأن تمارس تأثيرك فيه لإقناعه، اللّهمّ إلا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف، مناقضاً للكرامة، أو... ماذا أقول؟... ربما كنت تعد الفرار مخالفاً للمسيحية، هه؟

فتمتم أليوشا يجيبها:

- لا... لماذا؟ سأقول له كل شيء.

ثم قال لها فجأة وهو يحدق إلى عينيها بحزم:

- هو يرجوك أن تجيئي إليه اليوم.

فارتعشت كاتيا بكل جسمها، وتقهقرت قليلاً إلى وراء، ودمدمت تقول وقد اصفرّ وجهها اصفراراً شديداً:

- أنا؟... ولكن هل هذا ممكن؟

فعاد أليوشا يقول بإلحاح وقد انتعش فجأة:

- ليس هذا ممكناً فحسب، وبل هو ضروري أيضاً. لا بد أن يراك، الآن خاصةً. ولولا أن ذلك واجب حتماً، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أؤلمك في غير طائل. إنه مريض. إنه يشبه أن يكون مجنوناً. إنه لا يكفّ عن مناداتك. وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك. كل ما يطلبه هو أن تذهبي إليه وتظهري له عند باب غرفته. إن تحولاً كبيراً قد حدث في نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم. لقد أدرك مدى الإثم الذي اقترفه في حقك. ليس يسألك

أن تغفري له. هو نفسه يقول: «أنا لا أستحق الغفران». كل ما يرجوه هو أن تظهري له عند باب غرفته...

تمتمت كاتيا تقول:

- أنت تحرجني... كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئني طالباً مني ذلك... كنت واثقة بأنه سيدعوني. ولكن لا... مستحيل.

- مستحيل، أم غير مستحيل... يجب عليك أن تفعلي.

تذكري أنه لأول مرة في حياته يدرك مدى الاساءة التي ألحقها بك. يدرك هذا لأول مرة في حياته. إنه لم يدرك ذلك في يوم من الأيام إدراكاً كاملاً كما يدركه الآن. قال لي: «إذا رفضت أن تجيء فسأكون تعيساً بقية عمري». هل تفهمين؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً! أليس هذا مما يستحق الشفقة؟ تذكري أيضاً أنك تزورين إنساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحد). إن يديه طاهرتان لم يلوثهما دم. فاذهبي إليه، اذهبي إليه بسبب هذه الآلام التي تنتظره والتي لا حدود لها!... اذهبي، مدّي إليه يدك في هذه الليلة... اظهري له على الباب فحسب، على الباب فحسب.... هذا واجب عليك، هذا واجب عليك...

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة «واجب» إلحاحاً شديداً.

قالت كاتيا بصوت فيه أنين:

- هذا واجب عليّ، ولكن... لا أستطيع... سينظر إليّ... لا، لا، لا أستطيع.

- يجب أن تلتقي نظراتكما. كيف يمكنك أن تعيشي في المستقبل إذا لم تفعلي؟

- أؤثر أن أظل أتألم طول حياتي!

- يجب أن تذهبي إليه، يجب.

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثني عن عزمه.

قالت كاتيا:

- ولكن لماذا اليوم؟ لماذا حالاً؟ يستحيل عليّ أن أترك المريض وحده.

- بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات. لن يطول غيابك. ما كنت لأقول لك هذا لولا أنه حق. ليكن في قلبك شيء من شفقة.

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر:

- أنا أولى بالشفقة.

وأخذت تبكي.

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها:

- معنى هذا أنك آتية. سأبلغه أنك ستجيئين.

هتفت كاتيا تقول مذعورة:

- لا لا تقل له شيئاً البتة. سأذهب إليه، ولكن لا تبلغه ذلك... وقد لا أدخل عليه... لا أدري بعد...

قالت ذلك وتحطّم صوتها. كانت تتنفس في مشقة. ونهض أليوشا لينصرف. فسألته فجأة بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد:

- فماذا لو لقيت أحداً هناك؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من تعني:

- فإنما أسألك أن تجيئي الآن لأنك لن تلقي أحداً. لن يكون هناك أحداً. ثقي بذلك.

وختم كلامه يقول بالحاح:

- سننتظرك.

وخرج من الغرفة.

– 2 –

صار الكذب إلى حقيقة لحظة

أسرع أليوشا إلى المستشفى الذي كان فيه ميتيا الآن. لقد أصيب ميتيا بحمّى بعد صدور الحكم بيومين، فنُقل إلى مستشفى مدينتنا، وأودع القسم المخصص للسجناء. ولكن الدكتور فارفنسكي رضي أخيراً بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة خوخلاكوفا، ليزا، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء، ونقله إلى غرفة صغيرة مستقلة، هي تلك الغرفة نفسها التي أقام بها سمردياكوف. إن على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية، وإن حارساً كان يرابط في آخر الدهليز، فليس على فارفنسكي أن يخشى إذاً شيئاً من هذه الميزة التي تفضّل بها على السجين والتي تخالف القانون قليلاً. كان الطبيب شاباً طيب القلب رحيم النفس، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وألم إذا هو وجد نفسه فجأة يعيش وسط قتلة ولصوص، وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تتهيأ له فيها أسباب التعوّد على الوضع الجديد. وقد أُذن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه، أذن بذلك الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة. ولكن أليوشا وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان إلى ميتيا في تلك الأيام وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرةً أو مرتين، ولكن ميتيا رجا الدكتور فارفنسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول.

وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى. كان به شيء من حمّى، وكان رأسه ملفوفاً بفوطة مبتلة بخل. فلما أبصر ميتيا أخاه أليوشا حدّق إليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف.

وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم. وكان يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر في أمر من الأمور تفكيراً أليماً، وكان يبدو عليه في مثل تلك اللحظات أنه نسي مَنْ حوله نسياناً تاماً. حتى إذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم، استرسل في حديث من الأحاديث ارتجالاً، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف عما كان يهمه أن يقوله في الواقع. وكان يثبت على أخيه في بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم والعذاب. وكان يرتاح إلى وجود جروشنكا أكثر من ارتياحه إلى وجود أليوشا. صحيح أنه كان لا يكاد يكلّمها، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت. جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة. وكان أخوه ينتظره في هذه المرة مهموماً قلقاً، ولكنه يخشى أن يسأله. كان يقدّر أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء إليه، وكان يحسّ في الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق. وكان أليوشا يحزر عواطفه.

بدأ ميتيا الكلام فقال بعصبية:

- يُقال إن تريفون بوريستش كاد يخرب فندقه. فهو يقتلع أخشاب الأرض، وينزع ألواح الجدران، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً. إنه يبحث عن الكنز، عن الألف وخمسمائة روبل التي اتهمني وكيل النيابة بإخفائها هناك. إنه منذ أن عاد إلى موكرويه قلب كل شيء عاليه سافله. يستحق هذا الوغد ذلك. علمت هذا من حارس هناك قصّه عليّ أمس.

قال أليوشا:

- اسمع. . . إنها ستجيء. ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء. ربما جاءت اليوم، أو غداً، أو في يوم قريب، لا أعرف على وجه الدقة. ولكنها ستجيء، حتماً.

انتفض ميتيا، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً، ولكنه صمت. لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً. كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً إلى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين أليوشا وكاتيا، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه في ذلك: فإن كلمة فيها قسوة او احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كخنجر.

- إليك ما قالته في ما قالت من أمور أخرى: إنها تطلب مني ملحةً أن أهدّئ ضميرك في ما يتعلق بالفرار. وستتولى هي تدبير الأمر إذا لم يُشف إيفان من مرضه إلى ذلك الحين.

قال ميتيا مفكراً:

- سبق أن ذكرت لي ذلك.

فأجابه أليوشا:

- ونقلت أنت هذا الكلام إلى جروشنكا.

فقال ميتيا معترفاً:

- صحيح.

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة وجلة:

- لن تأتي جروشنكا هذا الصباح. لن تأتي إلا في المساء. حين حكيت لها أمس أن كاتي تهيئ أمر فراري، سكتت في أول الأمر وتقبضت شفتاها، ثم دمدمت تقول: «لها ما تشاء». لقد أدركت أن الأمر جد. لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك. أحسب أنها تدرك الآن أن كاتيا لا تحبني أنا، وإنما تحب إيفان.

فأفلت من أليوشا هذا السؤال:

- أأنت متأكد من هذا؟

- ربما كنتُ مخطئاً في ظني.

ثم أسرع يضيف قوله:

- على كل حال، لن تأتي هذا الصباح. لقد كلّفتها بمهمة ستقوم بها... أما إيفان فإنه خير منا جميعاً. هو الذي يستحق الحياة، لا نحن. وسيُشفى.

قال أليوشا:

- تصوّر أن كاتيا رغم خوفها الشديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه سيُشفى.

- هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت. فمن الخوف إنما تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيشفى.

قال أليوشا في قلق:

- إن أخانا إيفان قوي الجسم متين البنية. أنا أيضاً أتمنى بحرارة وقوة أن يبلّ من مرضه.

- سوف يبلّ من مرضه. ولكنها، هي، واثقة بأنه سوف يموت.

وصمت الأخوان بضع لحظات. كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلاً يعذب ميتيا.

وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعش مثقل بالدموع:

- أليوشا، إنني أحبّ جروشنكا حباً رهيباً.

فأسرع يقول له أليوشا:

- لن يسمحوا لها بأن تتبعك إلى هناك!

فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصوت أصبح مهتزاً مختلجاً على حين فجأة:

- إليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضاً. إذا ضربوني أثناء الطريق، أو هناك، فلن أحتمل ذلك ولن أسمح به، سأقتل أحداً فيرمونني بالرصاص. أنّى لي أن أحتمل هذا عشرين سنة! لقد بدأوا يخاطبونني منذ الآن بصيغة المفرد هنا. الحرس ينادونني بقولهم أنت. لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل. لا، لست مستعداً، لست قادراً على أن أحتمل هذا المصير! لقد أردت أن أنشد «نشيدا» وها أنذا ذا أعجز عن احتمال أن يخاطبني حارس من الحرس بصيغة المفرد! لو كانوا سيأذنون لجروشنكا بأن تصحبني لاحتملت كل شيء في سبيلها... إلا الضرب طبعاً... ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك.

ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة، وبدأ الكلام:

اسمع يا أخي. إليك رأيي في هذا الموضوع، أعلنه لك مرة واحدة إلى الأبد. أنت تعلم حق العلم أنني لن أكذب عليك. فاسمع: أنت غير مهيأ، وذلك الصليب لم يُخلق لك. أكثر من ذلك: ليس من الضروري البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك. لو كنت قد قتلت أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة. ولكنك بريء وهذه الكفارة فوق ما تطيق. كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً، ولتصبح إنساناً آخر. في رأيي أنه يكفيك أن تظل طوال حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يظل هذا الإنسان الآخر ماثلاً أمامك حيثما وُجدت، وأينما هربت. ذلك كاف من جهتك. إن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه إلا أن يعزز شعورك بواجبك، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التي ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم مزيداً من المساهمة في خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك هناك، ذلك أنك لن تحتمل نظام الحياة هناك، فإذا أنت تثور وتتمرد وتقول لنفسك آخر الأمر فعلاً: «ها أنذا

الآن براء لا أدين لأحد بشيء». لقد صدق المحامي حين قال هذا الرأي. إن من المحن ما يكون من القوّة بحيث لا طاقة لكل إنسان به. إن من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن. تلك هي آرائي ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها.

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً:

- لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون - كالضباط أو الجنود لما «سمحت» لك بأن تهرب. ولكن يظهر أن في إمكاننا، بشيء من الحذق والبراعة، أن نجنبهم المتاعب، وفي إمكانهم أن يخرجوا من الأمور بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا لإيفان). صحيح أن الرشوة عمل غير شريف، حتى في حالة من هذا النوع، ولكنني أمتنع هنا عن إبداء رأي وإصدار حكم. فلو كلفني إيفان أو كلفتني بأن أتولى هذا الأمر من أجلك، لما أحجمت عن استعمال الرشوة. أنا أعلم ذلك. إن من واجبي أن أقول لك الحقيقة كلها في هذا الموضوع. ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله. ولكن ثق على الأقل أنني لن ألومك ولن أدينك. وأنّى لي أن أكون قاضيك في هذه المسألة! هذا كل شيء. وأحسب أنني قلت كل ما كان يجب عليّ أن أقوله في هذا الصدد.

هتف ميتيا يقول:

- ولكنني سأدين نفسي بنفسي. سوف أهرب، هذا أمر مفروغ منه، هذا أمر تقرّر حتى قبل أن تكلّمني. وهل يستطيع ميتيا كارامازوف إلا أن يهرب؟ هه!... ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد ذلك، وسأكفّر عن هذا الذنب طوال حياتي في البلد الذي سألجأ إليه. قل لي: أليس يفكر اليسوعيين هكذا؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن؟

- بلى... هكذا يفكرون.

بهذا أجاب أليوشا وهو يبتسم برفق وهدوء. فصاح ميتيا يقول وهو يضحك بفرح ومرح:

- أحبّ فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفي شيئاً. ها أنذا إذاً قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعي! وددت لو أقبّلك من أجل هذا، هل تعلم؟ اسمع إذاً ما أريد أن أقوله لك أيضاً، لأنني أريد أن أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك. إليك القرار الذي اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحي: هبني هربت، بمال وجواز سفر، فأقمت في أمريكا. سوف يعزّيني ويواسيني ويشد أزري ويقوي عزيمتي أن أتصور أنني إذ أهرب لا أهرب لأفرح وأسعد، وإنما أهرب لألقي نفسي في سجن آخر مختلف عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا، ولكنه سجن على كل حال سجن يعادل السجن هنا أو هو أسوأ منه. أوه! إني أمقت أمريكا هذه منذ الآن... شيطان يأخذها!... وستكون جروشنكا معي... طيب... ولكن فكّر قليلاً: ما الذي في جروشنكا من امرأة أمريكية؟ فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية؟ إنها روسية، روسية حتى النخاع من عظامها، وستشعر هنالك بالحنين الأليم إلى الأرض التي ولدت فيها. وسوف أرى في كل لحظة أنها من أجلي إنما ارتضت عذاب النفس هذا، وأنها في سبيلي إنما حملت ذلك الصليب، هي التي لم تقترف ذنباً ولم ترتكب إثماً! وأنا؟ هل تظن أنني سأستطيع أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا خيراً مني؟ إنني أكرهها منذ الآن، أمريكا هذه! شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، تكنيكيين من الطراز الأول! ذلك أنهم ليسوا هم الناس

الذين يحبهم قلبي، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادي! أنا أحبّ روسيا يا ألكسي، أنا أحبّ إلٰهنا الروسي، رغم أنني لست أنا نفسي إلا إنساناً شقياً. ولكني سأختنق هنالك، سأختنق...

بهذا هتف ميتيا فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته ثم أردف يقول مسيطراً على انفعاله:

- فإليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسي. اصغ إليّ: سأذهب مع جروشا فمتى وصلنا إلى هناك اندفعنا نعمل فوراً: نستصلح الأرض ونحييها في مكان بعيد لا تجاورنا فيه إلا الدببة، مكان هو أنأى ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان. لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة! يُقال إنه ما يزال يوجد في أمريكا سكان حمر يعيشون في أقاصي البلاد. فإلى هناك سنذهب... إلى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ... وسنشرع، أنا وجروشا في دراسة اللغة على الفور، لا نضيّع يوماً واحداً. ونقضي في ذلك ثلاث سنين: نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة. وفي نهاية تلك السنين الثلاث، نكون قد أتقنا اللغة الإنجليزية، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين. فمتى تم لنا إتقان اللغة الإنجليزية إتقاناً كاملاً قلنا لامريكا وداعاً، وعدنا إلى روسيا كمواطنَيْن أمريكيين. ولكن لا تخف: لن نرجع إلى هذه المدينة. وإنما سنختفي في مكان ما، بعيد عن هنا، بالشمال، وربما بالجنوب. والى أن نعود يكون قد تغير مظهري، وتبدلت هيئتي، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك. ثم إن أحد أولئك الأطباء الأمريكيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي، كأن يزرع في خدي شامية اصطناعية مثلاً! إنهم هناك بارعون في التكنيك! وسأفقأ إحدى عيني إذا إقتضى الأمر ذلك، وسأرخي لحيتي طويلة جداً، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ما

أكون قد قاسيت من حنين إلى الوطن). وبذلك آمل أن لا أعرف حين أعود. وإذا افتضح أمري رغم ذلك فلا ضير... سيرسلونني عندئذ إلى المعتقل في سيبيريا... سيكون ذلك قدراً ولا شك!... وهنا أيضاً، في روسيا، سنحرث الأرض في ركن ناءٍ بعيد، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أمريكي. هكذا سيتاح لنا على الأقل أن نموت في وطننا وأن نُدفن في تراب بلدنا. تلك هي خطتي، وذلك هو قراري لن أرجع عنه. هل تؤيدني في هذا؟

- أؤيدك.

كذلك قال أليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه ويغيظه.

وصمت ميتيا لحظة ثم هتف يقول:

- ما أشد ما شوّهوا الوقائع في المحاكمة! يا لها من مسرحية!

فقال أليوشا وهو ينتهد:

- حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك.

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم:

- نعم، لقد ضاقوا بي في هذه المدينة، سامحهم الله، ولكن هذه قسوة فظيعة...

وساد الصمت مرة أخرى. ثم قال ميتيا فجأة:

- أليوشا، يجب أن أعرف حتماً: أهي آتية أم لا؟ أجب... ماذا قالت لك؟ بماذا وعدتك؟

قال أليوشا:

- وعدتني بأن تجيء، ولكنني لا أدري هل تستطيع أن تجيء اليوم.

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلى:

- ليس هذا سهلاً عليها.

قال ميتيا:

- أقدّر أن هذا ليس سهلاً عليها. وكيف يكون سهلاً! أليوشا، انني أكاد أُجن. إن جروشا لا تكف عن التفرس فيّ. يبدو أنها تدرك. آه... رباه! اللّهم ألهمني الصبر! انظر ماذا أطلب الآن: إني أطلب كاتيا، لا بد لي من كاتيا... أأنا أدرك ما الذي أريده بهذا؟ هذه حمّى آل كارامازوف! هذا هو اندفاعنا المخزي! لا، لست قادراً على أن أتألم، واأسفاه! ما أنا إلا إنسان شقي تافه... ذلك كل شيء!...

في تلك اللحظة صاح أليوشا:

- هي ذي!

كانت كاتيا قد ظهرت في عتبة الباب. وتوقفت بضع لحظات تتأمل ميتيا بنظرة زائغة تائهة. وثب ميتيا واقفاً على قدميه، وعبّر وجهه عن ذعر، وامتقع لونه، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مذلة وضراعة، ومدّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوم. فاستجابت كاتيا لهذه البادرة، واندفعت إليه، فأمسكت يديه، وأجلسته على سريره عنوةً، وجلست إلى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه، وأخذت تضغط عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً. وأرادا أن يتكلما عدة مرات، ولكنهما أمسكا عن الكلام في كل مرة، لينظر كل منهما في الآخر صامتاً، مبتسماً ابتسامة غريبة، وكأن كلا منهما قد شُدّ إلى صاحبه والتصق به. هكذا مرّت دقيقتان.

دمدم ميتيا أخيراً:

- هل غفرت لي؟

والتفت في اللحظة نفسها نحو أليوشا، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم:

- هل تسمع ماذا أسألها؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة:

- لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم إنما أحببتك. ولكن لست أنا من يغفر لك، لأنني أنا التي أحتاج إلى غفرانك. ولكن ليس هذا بالأمر الهام... لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طوال حياتي سواء أغفرت أم لم أغفر. ستكون أنت عذابي، وسأكون أنا عذابك. حسن هذا...

وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها، ثم استأنفت تقول مستعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة:

- هل تدري لماذا أتيت إليك؟ لأقبّل قدميك، لأشد على يديك، هكذا، إلى حد إيلامك، كما كنتُ أفعل في موسكو، أما زلت تتذكر؟ نعم، جئت لأقول لك مرةً ملء حنجرتي: إني أحبك حب الجنون.

صاحت تقول ذلك بصوت كأنه الأنين، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا فجأة، وأخذت الدموع تتدفق من عينيها.

لبث أليوشا صامتاً متحيراً: إنه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا المشهد.

وتابعت كاتيا كلامها فقالت:

- الحب قد انقضى يا ميتيا، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً في نفسي إلى حد الألم. تذكّر هذا إلى الأبد.

ثم دمدمت تقول وهي تبتسم ابتسامة متشنجة، تحدق إلى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح:

- لنفرض، خلال لحظة، أن ما حلمنا به قد تحقق. أنت تحب الآن امرأة أخرى، وأنا أحبّ رجلاً آخر. لا بأس... سأظل أحبك

مع ذلك إلى الأبد... وستظل تحبني أنت أيضاً. أكنت تعرف ذلك؟ هل تسمع؟ أريد أن تحبني، أريد أن تحبني مدى الحياة!

كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفي صوتها ارتعاش يشبه أن يكون تهديداً.

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترد أنفاسه:

- سأحبك، نعم... هل تعلمين أنني كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام، في ذلك المساء... حين أغمي عليك ونُقلت من قاعة المحكمة... سأحبّك طوال حياتي! ذلك ما سيكون، ذلك ما سيكون إلى الأبد...

هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة، ولعلها تفيض كذباً. ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة، وكانا كلاهما مخلصين كل الإخلاص.

وصاح ميتيا يسألها فجأة:

- كاتيا، أتعتقدين بأنني قتلت؟ أنا أعلم أنك لا تعتقدين الآن بذلك... ولكن في تلك المرة... أثناء إدلائك بشهادتك أمام المحكمة... هل يمكن حقاً أن تكوني قد اعتقدت بأنني قتلت؟

- لا، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك! لم أعتقد بذلك في وقت من الأوقات! ولكنني كرهتك في تلك الآونة، فأقنعت نفسي خلال لحظات بأنك القاتل... أقنعت نفسي بذلك في تلك الدقيقة ذاتها التي أدليت فيها بشهادتي... أقنعت نفسي بذلك، فسرعان ما اقتنعت... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الإدلاء بشهادتي. أريد أن تعرف هذا. لقد نسيت أنني إنما جئت إلى هنا لأعاقب نفسي.

أضافت كاتيا ذلك وقد تبدّل تعبير وجهها وأصبح صوتها لا يشبه

في شيء ذلك الصوت الذي كانت يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل.

قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ:

- روحك معذبة يا امرأة.

فدمدمت كاتيا:

- دعني أنصرف. سأعود إليك، أما الآن فلا أطيق البقاء. إنني متألمة.

ونهضت لتنصرف. ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة وتراجعت إلى وراء. كانت جروشنكا قد ظهرت في الغرفة. لقد دخلت بغير ضجة، ولم يكن يتوقع أحد أن يراها. اتجهت كاتيا نحو الباب مسرعة، ولكنها ما إن وصلت إلى مستوى جروشنكا حتى توقفت فجأة، وهمست تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع اصفراراً:

- اغفري لي!

فحدقت إليها جروشنكا تحديقاً متفرساً، حتى إذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره:

- كلتانا شريرة. نحن متساويتان في الشر. فعلام تغفر كل منا للأخرى. أنقذيه، فأدعو لك الله إلى آخر أيامي!

صرخ ميتيا يقول لجروشنكا بلهجة عتاب شديد:

- لم تشائي أن تغفري لها؟

ودمدمت كاتيا تقول بسرعة:

- لا تخافي! سأنقذه.

وأسرعت تفرّ من الغرفة.

وعاد ميتيا يهتف قائلاً بمرارة:

- كيف رفضت أن تغفري لها بعد أن طلبت منك ذلك؟
فتدخل أليوشا يقول بحرارة:
- لا تلمها يا ميتيا! ليس من حقك أن تلومها! وأجابت جروشنكا تقول باشمئزاز:
- لم يصدر كلامها من أعماق نفسها وإنما أوحاه إليها الكبر. ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء!
وصمتت كأنما لتكبت العواطف التي كانت تجتاح نفسها. لم تكن قد ثابت على هدوئها، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك في ما بعد، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء.
قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه:
- أليوشا، حاول أن تلحق بها... واشرح لها... قل لها... لا أدري ماذا... ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال!
فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع في أثرها:
- سأعود إليك هذا المساء!
وأدركها في الشارع. كانت تسير بخطى سريعة، وتبدو مستعجلة، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية:
- لا، يستحيل عليّ أن أذلّ نفسي أمام تلك المرأة! وإنما سألتها أن تغفر لي، لأنني أردت أن أمضي في التضحية إلى نهايتها، أن أشرب الكأس حتى الثمالة. وقد منعت عني غفرانها، فمرحى لها... إنني أحبها لموقفها هذا!...
أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج، وطاف بعينها لهيب من كره وحشي!
دمدم أليوشا يقول: .
- لم يكن يتوقع أخي حضورها، كان واثقاً بأنها لن تجيء!

فقالت تحسم الحديث:

- لا شك في ذلك. ودعنا من هذا. اسمع: يستحيل عليّ أن أذهب معك الآن إلى الجنازة. لقد بعثت إليهم بأزهار للنعش. أظن أنهم ما يزال معهم بقية من مال. قل لهم، إذا لزم الأمر، إنني لن أتركهم في المستقبل أبداً... والآن دعني، دعني، أرجوك... ها أنتذا قد تأخرت منذ الآن، فلن تدرك إلا القداس الثاني... اتركني، أتضرع إليك!

– 3 –

جنازة إيليوشا. التأبين قرب الصخرة

وصل أليوشا متأخراً بالفعل. كانوا ينتظرونه، وقد هموا أن يذهبوا إلى الكنيسة بدونه، حاملين النعش الصغير المزيّن بالأزهار تزييناً جميلاً. إنه نعش إيليوشا، الصبي المسكين. لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين. استُقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبي الراحل. كانوا جميعاً ينتظرونه بصبر نافد، وابتهجوا بوصوله. إن عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم. كان إيليوشا قد قال لهم قبل موته: «سيبكي بابا، فابقوا إلى جانبه»، وتذكر الأطفال وصيته. وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين.

هتف كوليا وهو يمد يده إلى أليوشا:

– ما أسعدني برؤيتك يا كارامازوف! إن ما يجري هنا رهيب. إن ما يجري هنا تمزق رؤيته القلب. ليس سنيجريف سكران. نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة، ولكنه كالسكران. إنني قوي القلب رابط الجأش، ولكن هذا المنظر رهيب. لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف، ولكن هل يمكنني أن ألقي عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير:

- ماذا يا كوليا؟

- هل أخوك مذنب أم هو بريء؟ أهو الذي قتل أباك، أم القاتل هو ذلك الخادم؟ سوف أؤمن برأيك. إن هذا السؤال قد حرمني النوم أربع ليال.

أجابه أليوشا:

- الخادم هو الذي قتل. أخي بريء.

فهتف الفتى سموروف يقول فجأة:

- ذلك هو رأيي أنا أيضاً.

صاح كوليا يقول:

- إذاً سيهلك بريئاً، سيهلك شهيداً من شهداء الحقيقة. لقد هوى، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً! ألا إنني، من جهتي، لمستعد أن أغبطه وأحسده!

قال أليوشا مدهوشاً:

- كيف؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟

فأجابه كوليا بحماسة:

- أوه! لشد ما أتمنى أن أضحي بنفسي يوماً في سبيل الحقيقة.

قال أليوشا:

- ولكن ليس في قضية من هذا النوع، فما أتخيل... ليس في مثل هذا الجو من الخزي والهول والهوان!

- طبعاً... أنا أتمنى أن أموت في سبيل الإنسانية كلها. أما هذا الخزي الذي تشير إليه فلا قيمة له! ألا سحقاً لأسمائنا! إنني أحترم أخاك.

- وأنا أيضاً أحترمه.

كذلك قال صوت آخر في جماعة التلاميذ، على نحو لم يكن متوقعاً. إنه صوت ذلك الصبي الذي أكد في الماضي أنه يعرف

أسماء بناة طروادة، وكما حدث في المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل أليوشا الغرفة. كان إيليوشا مسجّى في نعش صغير أزرق مزدان بتخريم أبيض، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه. إن ملامح وجهه الناحل لم تكد تتغيّر. والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن من جثته. وكان وجهه يعبّر عن الجد، وكأنه يعبّر عن تفكير. وكانت يداه جميلتين جمالاً خاصاً. مقدودتان من مرمر. وقد وضعت بين أصابعه أزهار. وكان النعش كله مزداناً في الباطن والظاهر بأزهار أرسلتها ليزا خوخلاكوفا، منذ الصباح. وقد وصلت الآن أيضاً أزهار أرسلتها كاترينا إيفانوفنا، وفي اللحظة التي فتح فيها أليوشا الباب كان النقيب ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيد مرتعشة. لم يكد ينظر إلى أليوشا. وكان غير عابئ بأحد على كل حال، حتى ولا بامرأته الخرفة التي كانت تبكي وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب. أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش، فهي الآن مسندةً رأسها إلى النعش، ولا شك أنها تبكي هي أيضاً في صمت. وكان وجه سنيجيريف يعبّر عن حركة ونشاط، غير أن فيه ارتباكاً على شيء من قسوة. كان في اشاراته وحركاته جنون، وكذلك في الأقوال التي تنطلق من لسانه. كان يصيح في كل لحظة قائلاً: «بنيّ الصغير الشهم، بنيّ الصغير الشجاع!». لقد كان يحب، حتى أثناء حياة ابنه، أن يناديه بقوله: «بنيّ الشهم الشجاع!».

– قالت الأم الخرفة وهي تنتحب:

– بابا، أعطني بضعة أزهار أنا أيضاً. خذ منه هذه الزهرة البيضاء التي يمسكها بيده، واعطني إياها!

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هي التي أعجبتها ذلك الإعجاب كله، أم هي كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التي يمسكها ابنها بيده، ذكرى منه؟ لا أحد يعلم، ولكن الأم كانت تضطرب اضطراباً رهيباً وهي تمد يديها نحو تلك الزهرة المشتهاة.

صرخ سنيجيريف يقول بلهجة قاسية:

- لن أعطيها لأحد، لن أعطي شيئاً. هذه الأزهار له هو، لا لك أنت! كل شيء له هو، وليس لك شيء البتة!

قالت نينا فجأة وهي ترفع وجهها المبلل بالدموع:

- بابا، أعط ماما زهرة!

- لن أعطي شيئاً. لن أعطيها هي خاصةً، لأنها لم تكن تحبه! لقد أخذت منه هذا المدفع الصغير من قبل، وارتضى هو أن يهديه إليها.

كذلك قال النقيب وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذي تنازل فيه إيليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه. غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها، وأخذت دموعها تسيل. واذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه، مع أنه آن أوان نقله، فقد تحلقوا حول النعش حلقة كثيفة، وأخذوا يرفعون النعش.

- زأر سنيجريف يقول فجأة:

- لا أريد دفنه في المقبرة. سوف أدفنه قرب الصخرة، قرب صخرتنا. هذا ما أراده إيليوشا. لن أسمح بنقله.

الواقع أن سنيجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب الصخرة. احتج الحاضرون. وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت واختها وسائر الصبية، أخذوا يحاولون إقناعه.

قالت صاحبة البيت العجوز بصرامة:

– يا للفكرة العجيبة! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه شنق نفسه. المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة. والناس يجيئون إليها فيصلون على روحه. وأناشيد الكنيسة تصل إلى هناك، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبي كأنها تُتلى على قبره.

وأخيراً حرّك النقيب يده بإشارة تنم على الإذعان والرضوخ وكأنه يقول: «خذوه حيث شئتم!». أنهض الصبية النعش وساروا به، حتى إذا مروا بالأم توقفوا وأحنوه لتستطيع أن تودع إيليوشا الوداع الأخير. فلمّا رأت الأم فجأة، من قرب، ذلك الوجه الصغير الغالي الذي كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد، أخذت ترتعش وهي ترجّح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام إلى وراء، فوق النعش.

صرخت نينا تقول للأم:

– ماما، ارسمي عليه إشارة الصليب وباركيه وقبّليه!

ولكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير إرادة، وقد تشنج وجهها على ألم شديد، وفجأة أخذت تلطم صدرها بقبضة يدها. وابتعد الصبية بالنعش. فلما مروا بأخته نينا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتي أخيها المتوفى مرة أخيرة. وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا إلى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت:

– أعرف واجبي. لن أتركهم. نحن أيضاً مسيحيون! وكانت العجوز تبكي أثناء كلامها.

لم تكن الكنيسة بعيدة. إنها على مسافة ثلاثمائة خطوة في أكثر تقدير. وكان النهار مضيئاً هادئاً، على شيء من صقيع، وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنة بالصلاة. إن سنيجيريف يركض وراء

النعش مضطرب الحركة، تائه الهيئة، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذي يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف، حاسر الرأس يمسك بيده قبعته البالية الطويلة الحواف، المصنوعة من لباد. كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا سبيل لحلها، هو تارةً يمد ذراعيه على حين فجأة ليساعد في حمل النعش فلا يزيد على أن يُربك أولئك الذين يحملونه، وهو تارة أخرى يهرع إلى جانب محاولاً أن يصطف في الموكب. وسقطت زهرة على الثلج، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة لا يعلم إلا الله ما هي!

وصرخ يقول مذعوراً على حين فجأة:

- رغيف الخبز! نسينا الرغيف!

ولكن الصبية نبّهوه إلى أنه قد أخذ الرغيف، وأن الرغيف هو الآن في جيبه. فأسرع يخرجه، حتى إذا تأكد من وجوده اطمأن باله. وقال لأليوشا شارحاً:

- إن إيليوشا هو الذي أمر بهذا. كان لا ينام الليل، وكنت أجلس قربه. وفجأة أمرني قائلاً: «بابا، حين يهيلون على قبري التراب، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير، فأسمع صوتها، فلا أشعر بأنني وحيد».

قال أليوشا:

- فكرة حسنة. يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة.

- كل يوم. سأفعل هذا كل يوم!

بهذا أجاب الأب متحمساً.

ووصل الموكب أخيراً إلى الكنيسة، ووضع النعش في وسطها، وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال إلى آخر القداس. إنها كنيسة قديمة فقيرة، وإن عدداً كبيراً من أيقوناتها معلق من غير أطر. وفي

كنائس من هذا النوع إنما يَصلى أحسن الصلاة في أكثر الأحيان. بدا على سنيجيريف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً، غير أن قلقاً لا شعورياً، قلقاً ليس له سبب ظاهر، كان يجتاح نفسه من حين إلى حين. واقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت[62]. وفي مرة أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها إلى موضعها وانشغل بهذا العمل مدة طويلة. وعاد إليه الهدوء بعد ذلك من جديد، فوقف عند رأس التابوت مذعناً، على شيء من بلادة وقلق وحيرة في تعبير وجهه. حتى إذا انتهت قراءة ما قريء من الإنجيل، قال سنيجيريف لأليوشا هامساً في أذنه (وكان أليوشا إلى جانبه): لم تكن القراءة «كما يجب أن تكون»، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته. وحين أنشد الكروبين، صاحَبَ الأب الإنشاد بصوت خافت، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الإنشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط، ولبث على هذا الوضع مدة طويلة. وأخيراً تليت صلاة الجنازة، ولكن مهابة الغناء الجنائزي المؤثر لم تلبث أن نفذت إلى قلبه فهزته، ثم عاد إلى ذاته، وتجمع على نفسه، وأخذ يبكي بنشيج قصير سريع، خانقاً صوته في أول الأمر، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً غير مكظوم. حتى إذا آن أوان التوديع وأريد إغلاق التابوت، فأسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون إغلاقه، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت. وراح يغمره بالقبل في ظمأ لا يرتوي[63]، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقبيل لا يريد أن يتوقف. وردّوه أخيراً إلى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه. وفيما هو ينزل على الدرجات، غيّر رأيه فجأة، فأغار بذراعيه على التابوت واختطف منه بضع زهرات، وأخذ يتأملها. إن فكرة جديدة قد نبتت في نفسه عندئذ، حتى لكأنه نسي،

خلال لحظات، الأمر الذي هو فيه. وهوى، شيئاً فشيئاً، إلى نوع من تأمل عميق، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين رُفع التابوت الصغير لنقله إلى القبر. كان القبر قريباً كل القرب، فهو في الحوش إلى جانب الكنيسة. وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترينا إيفانوفنا. وقام الحفارون بإنزال التابوت في القبر بعد إجراء الطقوس المألوفة، فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه إلى وراء. غير أن من يراه في تلك اللحظة يخيّل إليه أنه أصبح لا يفهم ما يجري حوله فهماً واضحاً. حتى إذا أهيلت على القبر أولى مجارِف التراب، خرج من خدره فجأة، فأشار بيده إلى التراب الذي كان يتكوم، ودمدم بعباراتٍ غامضةٍ لم يفهمها أحد. على أنه لم يلبث أن صمت فوراً. وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز، فاضطرب فجأة، وأخرج الرغيف من جيبه، وأخذ يفتته، مبعثراً فتاته على القبر، مدمدماً في تشفع قلق: «هيّا اسرعي يا عصافيري الصغيرة!». وقال له أحد الصبية إن الازهار التي يمسكها بيده تعوق حركته، واقترح أن يحملها عنه لحظات، ولكنه أبى أن يعطيها، حتى لقد بدا عليه ذعرٌ من تصوّر أن أحداً يريد انتزاعها منه. حتى إذا ألقى نظرة على القبر، فاطمأن إلى أن كل شي قد تم على ما يرام، وأن فتات الخبز قد نثر، استدار فجأة ومضى متجهاً إلى البيت وقد هدأ هدوءاً كبيراً على حين بغتة. ولكن خطواته أخذت تسرع شيئاً بعد شيء، وأخذ يتعجّل المشي مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً. ولم يتركه أليوشا والصبية.

بدأ يهتف:

- أزهار للأم. لا بد من أزهار للأم. لقد أوذيت الأم وتألّمت.

ولفت أحدهم انتباهه إلى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد، فإذا بهذه الملاحظة تغضبه، وإذا هو يرمي قبعته على الثلج بعنف قائلاً:

- لا أريد قبعة، لا أريد قبعة!

فمال الفتى سموروف على الثلج، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها. وكان جميع الصبية يبكون، ولا سيما كوليا والصبي الذي اكتشف بناة طروادة. أما سموروف فكان يبكي بكاءً غزيراً هو أيضاً، ممسكاً قبعة النقيب بيده، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها في الثلج، فرماها في الهواء على سرب من العصافير، فلم يصبها طبعاً، فعاد ينضم إلى جماعته وهو يبكي. وفي منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة، وشرد فكره نصف دقيقة ثم إذا هو يستدير وكأن فكره مباغتة قد انبجست في ذهنه، واندفع يركض نحو الكنيسة، نحو القبر الصغير المهجور. ولكن الصبية لحقوا به وأدركوه في لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات ليصدّوه، فتهاوى عندئذ على الثلج محطّماً مهدم القوى، وأخذ يئنّ منتحباً صائحاً:

- بنيّ الشهم الشجاع إيليوشا، بنيّ الشهم الشجاع!

أنهضه أليوشا وكوليا محاولَيْن أن يواسياه ويهدئاه.

دمدم كوليا يقول له:

- ما هذا يا نقيب؟ إن على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم!

وقال له أليوشا:

- سوف تفسد الأزهار، بينما الأم تنتظرها. هي الآن في البيت تنتحب لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار إيليوشا.

وفي البيت أيضاً السرير الصغير الذي كان يرقد عليه إيليوشا.

فصاح سنيجيريف يقول وكأن ذاكرته قد عادت إليه فجأة:

- نعم نعم، لنركض إلى الأم.

وأضاف يقول مذعوراً من تصوّر أنهم قد يُبعدون سرير ابنه:

- سوف يرفعون السرير، سوف ينقلون السرير!

نهض وأخذ يركض نحو البيت. ولم تكن المسافة الباقية طويلة. ووصل الجميع في وقت واحد. وفتح سنيجيريف الباب بسرعة، وصاح يقول لامرأته التي خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل:

- ماما، ماما العزيزة، إن إيليوشا يرسل إليك هذه الأزهار. إن ساقيك مريضتان!...

هكذا صاح وهو يمد إليها الأزهار التي تجلدت وتكسرت بعض التكسير حين كان يتخبط في الثلج. ولكنه في تلك اللحظة نفسها أبصر في ركن من الأركان أمام سرير إيليوشا، حذاءي ابنه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هناك منذ هنيهة - وهما حذاءان عتيقان حال لونهما واهترأت أطرافهما، ورقّعتا في كل موضع، فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما، فتناول أحدهما، وأطبق عليه بشفتيه يقبله تقبيلاً نهماً، ويئن قائلاً:

- بنيّ الشهم الشجاع إيليوشا، بنيّ الشهم الشجاع، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان؟

فأعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق.

- إلى أين أخذته؟ إلى أين أخذته؟

وأجهشت نينا تبكي وتنتحب أيضاً. فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون، ولحق بهم أليوشا إلى الخارج، وقال يخاطب كوليا: «لندعهم يبكون. ليس هناك ما نعمله الآن، فلسنا نستطيع أن

نعزيهم. لننتظر هنا بضع لحظات، ثم نعود إلى الغرفة».

قال كوليا مؤيداً:

- نعم، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً. فظيع، فظيع!

ثم أضاف يقول خافضاً صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد غير أليوشا:

- هل تعلم يا كارامازوف! إنني أشعر بحزن رهيب، وإني لمستعد أن أهب كل شيء في العالم من أجل يُبعث حياً، لو كان ذلك في الإمكان.

قال أليوشا:

- وأنا أيضاً.

- هل يجب علينا أن نعود إليهم في هذا المساء؟ ما رأيك يا كارامازوف؟ إن من الجائز أن يكبّ على الشراب ويسكر!

- من الجائز فعلاً أن يسكر. ولكننا سنجيء وحدنا نحن الاثنين. هذا كاف. وسنقضي في صحبتهم ساعتين، مع الأم ونينا. أما إذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم.

كذلك اقترح أليوشا.

قال كوليا:

- إن صاحبة البيت تهيئ المائدة الآن. أغلب الظن انها تفعل ذلك إعداداً لوجبة إحياء ذكرى الميت. وسيجيء القس. هل علينا أن نعود إلى الغرفة يا كارامازوف؟

أجابه أليوشا:

- حتماً!

- ما أغرب هذا كله يا كاراماوزف؟ أيكون الناس في مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر؟ ما أكثر ما هنالك من أمور غريبة في ديانتنا!

قال الفتى الذي اكتشف بناة طروادة، قال فجأة بصوت عالٍ:

- هنا أيضاً سمك سلمون.

فقال له كلوليا بصوت حانق:

- أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء! وأننا نؤثر أن نجهل وجودك!

فاحمرّ وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب. وكان الصبية يسيرون في الطريق على مهل، فصاح سمورروف يقول فجأة:

- تلكم هي صخرة إيليوشا، الصخرة التي كان يُراد أن يدفن تحتها.

توقف الجميع أمام الصخرة الكبيرة ولبثوا صامتين، فنظر إليهم أليوشا، ورأى بخياله المشهد الذي قصه عليه سنيجيريف، ورأى إيليوشا معانقاً أباه قائلاً له: «بابا! حبيبي بابا! ما أشد ما أذلّك!». وتحرك شيء ما في نفس أليوشا عندئذ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية، وجوه التلاميذ، رفاق إيليوشا، وقال لهم:

- يا أصدقائي، أحبّ أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا، في هذا المكان بعينه.

فأحاط به الصبية وحدقوا إليه بأعينهم الملتهبة.

قال أليوشا:

- يا أصدقائي، سنفترق عما قريب. أنا الآن مقيم في هذه المدينة قرب أخويّ اللذين سيرسل أحدهما بعد مدة قصيرة إلى الأشغال الشاقة، أما الثاني فيحتضر. ولكنني سأبارح هذه الديار قريباً، وربما غبت عنها سنين طويلة. سنفترق إذاً يا أصدقائي. لذلك أقترح عليكم

أن نتعاهد هنا، قرب هذه الصخرة التي كان إيليوشا يحب أن يقف عندها، على أن لا ننسى الراحل الصغير أبداً. هذا أولاً، وأن نتعاهد ثانياً على أن يتذكر بعضنا بعضاً على الدوام. يجب علينا، مهما يقع لنا في هذه الحياة، ولو طال فراقنا عشرين عاماً، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذي دفنّا فيه الصبي المسكين الذي كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك - قرب الجسر الصغير، هل تتذكرون؟ - ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب. لقد كان فتى شهماً، طيب القلب، شجاعاً، قوى الشعور بالشرف، أبياً عميق الإحساس بالمرارة من الإهانة التي أُلحقت بأبيه، تلك الإهانة التي تمرّد بسببها وثار. يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا. مهما يكن مصيرنا المقبل، وأياً كانت الأمور الخطيرة التي ستشغل فكرنا، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن في الحسبان، يجب أن لا ننسى أبداً هذا العهد الذي أسعدنا فيه شعورنا بالاتحاد على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبي الراحل، وأسعدنا فيه هذا الحب الذي حملناه له والذي لعلّه جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن في الواقع. يا طيوري الصغار - اسمحوا لي أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة - إنني أتأمل الآن وجوهكم التي تفيض طيبة ولطفاً ورقة، فأقول، يا أبنائي الأعزاء، إنكم قد لا تدركون أقوالي الآن لأنني في كثير من الأحيان أعبّر تعبيراً غامضاً، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل، ثم يأتي يوم توافقونني فيه على رأيي. ألا فاعلموا إذاً أنه ليس في حياتنا شيء أقوى ولا أطهر ولا أكثر سمواً وأنفع لحياتكم المقبلة من ذكرى طيبة، ولا سيما إذا نفذت إلى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء. ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم. ألا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة

يحملها المرء في نفسه منذ طفولته هي خير تربية وأفضل تهذيب. سيجد المرء خلاصه إذا كانت نفسه تحتفظ بذكريات كثيرة من هذا النوع. ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافية لخلاصنا ولو لم يبق في قلوبنا أي شيء سواها. قد نصبح أشراراً بعد، قد نعجز في المستقبل عن مقاومة فعل سيئ. قد نسخر من ألم الإنسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً إلى «التألم في سبيل الإنسانية»، كما قال كوليا منذ قليل، قد نستهزئ بمثل هؤلاء الناس في خبث وشر، ولكن مهما نصبح أشراراً، لا سمح الله، فما إن نتذكر اليوم الذي دفنا فيه إيليوشا، والحب الذي حملناه له في الآونة الأخيرة، وهذه المودة والصداقة والمحبة التي ترفرف علينا في هذه الدقيقة، قرب هذه الصخرة. إن أشدنا ميلاً إلى القسوة وحباً بالتهكم - هذا إذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام - لن يجرؤ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى، لن يجرؤ، في قرارة نفسه، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعرة الكريمة النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات. ومن يدري؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصدَّه في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيئ، فمتى تذكرها ثاب إلى ذاته وحدَّث نفسه قائلاً: «نعم، لقد كنت في ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً». قد يبتسم قليلاً حين يتذكر هذا العهد... إنه لأمر طبيعي أن يتندر الإنسان على ما هو خير وطيب وبراءة. تلك خفة وطيش لا أكثر. ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أن أحدنا ما إن يبتسم قليلاً حينذاك حتى يبادر إلى لوم نفسه في قرارة قلبه قائلاً: «لا، لقد أخطأت حين ابتسمت، فلا مزاح في هذه الأمور».

هتف كوليا يقول وقد سطعت عيناه:

- ذلك ما سيكون يا كارامازوف! إنني أفهمك يا كارامازوف!

واضطرب الصبية الآخرون أيضاً، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم، وحدّقوا إلى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال والحنان. وتابع أليوشا كلامه فقال:

- إنما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً. ولكن لماذا نتصور هذا الإمكان، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً؟ أليس كذلك يا أصدقائي؟ ألا فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شيء، ولنكن شرفاء بعد ذلك، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً إلى الأبد. إنني ألح على هذا، وأعاهدكم، من جهتي، على أنني لن أنسى أي واحد منكم! سأظل أتذكر، ولو بعد ثلاثين عاماً، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر إليّ الآن. منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر «أن نجهل وجوده بيننا». ولكن أنّى لي أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمرّ في هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة، والذي ينظر إليّ الآن بعينيه الطيبتين الباشتين الفرحتين. يا أصدقائي، يا أصدقائي الأعزاء، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان الصغير إيليوشا، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكياء مثل كلويا (الذي سيتوهج ذكاؤه. مزيداً من التوهج حين يكبر)، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين فحسب؟ إنني من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائي، فستحيون جميعاً في قلبي، وأرجو أن أحيا في قلوبكم أيضاً! من ذا الذي وحّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سنظل نتذكرها بغير انقطاع، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر؟ من ذا الذي وحّدنا على هذه العاطفة إلا إيليوشا، ذلك الفتى الطيب الرائع، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية إلى الأبد؟ نعم، يجب أن نتذكر إيليوشا مدى الحياة.

يجب ألاّ ننساه قط. ألا فلتعش أرواحنا، ألا فلتعش في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الطيبة، الآن وإلى آخر الزمان!

- نعم نعم، ذكراه الطيبة!

كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة.

- ألا فلنتذكر وجهه، فلنتذكر ثيابه، وحذاءيه الصغيرين الفقيرين، ونعشه، ألا فلنتذكر أيضاً أباه الشقي الخاطئ، ولنتذكر تلك الجرأة التي أظهرها إيليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف!

- نعم نعم، فلنتذكر هذا كله! لقد كان شجاعاً، وكان طيباً!

بهذا راح يهتف الصبية من جديد.

وصاح كوليا قائلاً:

- آه... كم كنت أحبه!

- يا أصدقائي الأحبة، يا أبنائي، لا تخافوا الحياة! ما أجمل الحياة حين يحقق المرء في هذا العالم شيئاً من خير وعدل!

- نعم نعم، صحيح...

كذلك ردّد الصبية في حماسة.

وقال صوت على حين فجأة، هو صوت كارتاشوف في ما يبدو:

- نحن نحبك يا كارامازوف!

فكرر جميع الصبية قوله:

- نحن نحبك، نحبك يا كارامازوف!

وسالت دموع من أعين عدد كبير منهم.

وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة:

- مرحى كارامازوف!

فأضاف أليوشا يقول بانفعال:

- وعاشت أبدية ذكرى الميت الصغير!

فردد الصبية بصوت واحد:

- عاشت إلى الأبد!

وقال كوليا سائلاً:

- كارامازوف، هل صحيح ما يعلمنا إياه الدين من أننا سنُبعث أحياء بعد الموت في يوم من الأيام، فيرى بعضنا بعضاً، ونرى إيليوشا؟

- هذه حقيقة مطلقة. لا شك في أننا سنبعث أحياء بعد الموت، فنلتقي جميعاً، ويقص بعضنا على بعض ما وقع له بفرح ومرح.

بهذا أجاب أليوشا بين هزل وحماسة. فقال كوليا صائحاً:

- آه... ما أروع هذا!

- كفانا الآن كلاماً، وهيّا بنا إلى وجبة إحياء ذكرى الميت. ولا تقلقنكم الفطائر التي سنأكلها. هذه عادة قديمة لها جانبها الجميل أيضاً. هيّا بنا إلى الطعام يداً بيد.

كذلك قال أليوشا ضاحكاً. فصاح كوليا يقول من جديد بصوت يفيض حماسة:

- نعم، يداً بيد، وليكن الأمر كذلك على مدى حياتنا كلها. مرحى كارامازوف.

وردّد سائر الصبية هتاف كوليا بصوت واحد.

1880 ـ 1879

حواشي

(1) استشهاد من قصيدة «قبيل المطر» (1846) للشاعر الروسي نيكولاي نيكراسوف:
ويقبل البرد
تياراً جافاً وحاداً.

(2) «كان سكرتيراً حكومياً»: السكرتير الحكومي موظف من الدرجة الثانية عشرة وهي رتبة تقابل في الجيش رتبة ملازم ثان.

(3) كوليا: تصغير نيقولا.

(4) «كتاب سماراجدوف»: في الكتاب المدرسي «المرشد في معرفة التاريخ القديم لدور التعليم المتوسط» من وضع س. سماراجدوف 1840، ذكر ان مؤسسي طروادة (ايليون) هما طروادة وابنه ايل. وطروادة مدينة قديمة في شمال غرب آسيا الصغرى وترجع شهرتها إلى ملحمة «الألياذة» الإغريقية. وقد اكتشفت طروادة في الحفريات التي جرت سبعينات القرن الماضي.

(5) «ناستيا»: تصغير آناستاسيا.

(6) «كوستيا»: تصغير كونستانتين.

(7) يُستخدم اسم إيليوشا في هذا الجزء للتدليل على أليوشا الصغير، وليس أليوشا (ألكسي) كارامازوف، وإيليوشا هو اسم الدلع لـ«إيليا».

(8) «قريب محمد أو الجنون النافع»: رواية فرنسية ماجنة من تألف فروماجيه (1742) وقد ترجمت إلى الروسية سنة 1785 في عهد «حرية الطباعة». ويتحدث بطل هذا الكتاب، وهو فرنسي وصل إلى القسطنطينية، عن مغامراته الغرامية المتنوعة.

(9) «اللغات المندثرة»: المقصود بها هنا اللاتينية واليونانية القديمة. ومن المعروف أن وزير التعليم، الكونت دمترى تولستوي قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القديمة في المدارس الثانوية. وذلك إجراء كانت الأوساط الليبرالية تعده رجعياً.

(10) «صحيح أن فكرة الله ليست إلا افتراضاً... إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه...»: يردد كوليا هنا عبارة الكاتب والفيلسوف الفرنسي ماري فرانسوا فولتير (1694 - 1778) «s'il n'existait pas Dieu il faudrait l'inverter».

(11) «ألا يمكن أن يحب المرء الإنسانية من دون أن يؤمن بالله؟ لقد كان فولتير مثلاً لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب الإنسانية».
هذا الكلام هو تحوير لعبارات الناقد الروسي والثوري الديمقراطي فيساريون بيلينسكي (1811 - 1848) التي وردت في رسالة بيلينسكي الى جوجول (1847). وقد قرأ دوستويفسكي «رسالة بيلينسكي إلى جوجول» في حلقة الاشتراكي الطوباوي الروسي ميخائيل بتراشيفسكي (1821 - 1866). وقد وجهت لجنة التحقيق في قضية حلقة البتراشيفسكيين اتهامها إلى دوستويفسكي بصدد هذه الواقعة بصفة خاصة. وفيما بعد، أثر عودة دوستويفسكي من الأشغال الشاقة في سيبيريا، كثيراً ما كان يجادل في أفكار بيلينسكي الواردة في الرسالة، وذلك انطلاقاً من قناعته هو، دوستويفسكي.

(12) «.. قرأت (كانديد) في ترجمة روسية، ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة.»: كانديد أو «التفاؤل» رواية فلسفية لفولتير (1759)، تسخر من فلسفة التفاؤل للفيلسوف والرياضي الألماني غ. ف. ليبنتس (1646 - 1716).

(13) «واعلم بالمناسبة أنني لا آخذ على المسيح شيئاً... ولو عاش في عصرنا لانضم إلى الحركة الثورية...»: كتب بيلينسكي في رسالته الى جوجول: «... لماذا أقحمت المسيح هنا؟ وما الذي رأيته يجمع بينه وبين أي كنيسة، ومن باب أولى الكنيسة الأرثوذكسية؟ لقد كان أول من أعلن في الناس تعاليم الحرية والمساواة والأخوة واكد باستشهاده صدق تعاليمه». ثم كتب ايضاً: «إن من يقدر على المعاناة لدى رؤية الآخرين، ومن يثقل عليه مشهد اضطهاد الغرباء.. فهذا يحمل المسيح في قلبه...».

(14) «قرأت كلامه عن تاتيانا...»: المقصود هنا بطلة رواية بوشكين الشعرية «يفجيني اونيجين» (1823 - 1831).
«إنني أهواك (فما الداعي للكذب؟)
لكنني زُوجت من آخر
ولَهُ أبقى وفيةً ما حييت».
وفي إحدى مقالاته عن بوشكين كتب بيلينسكي بغضب معلقاً على رد تاتيانا

السابق على أونيجين: «يا له من إباء حقيقي للفضيلة النسائية! الوفاء الأبدي... لمن وفيم؟ الوفاء لعلاقات تعد امتهانا للمشاعر ولطهارة الأنوثة، لأن بعض العلاقات التي لا يكتنفها الحب هي لا أخلاقية إلى أقصى حد». أما دوستويفسكي وفي خطابه الذي ألقاه في حفل افتتاح تمثال بوشكين (1880)، فقد اعتبر تصرّفها، خلافاً لتقدير بيلينسكي، مظهراً للإحساس الأخلاقي السامي الذي لا يسمح لها بأن تبني سعادتها الشخصية على آلام الآخرين.

(15) النساء تحيك (بالفرنسية في الأصل).

(16) «الشعبة الثالثة»: هي إدارة الشرطة السياسية التي كان مقرها قرب «جسر الجنازير» على نهر فونتانكا. والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهي د. مينايف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية في مبنى قريب، ولكن ما لبث هذان البيتان أن أصبحا يقصدان «الشعبة الثالثة».

(17) «الناقوس»: جريدة ثورية حررها الكاتب الثوري الروسي الكسندر هرتسين (1812 - 1870) والشاعر الروسي نيكولاي اوجاريوف (1813 - 1877). وقد صدرت في لندن من عام 1857 حتى 1867 وكانت توزع في روسيا سراً. وقد لعبت «الناقوس» دوراً هاماً في تربية الطليعة المثقفة في روسيا.

(18) «ألا فليعقل لساني إذا نسيتك يا أورشليم...»: المزمور المائة والسابع والثلاثون، 5 - 6.

(19) «الشائعات»: لعل الإشارة هنا الى مجلة «الصوت»، التي أصدرها آ. آ. كرايفسكي من سنة 1863 إلى سنة 1883، وكانت ذات اتجاه ليبرالي معتدل.

(20) إن هذا الاسم المستعار مشتق من كلمتي «سكوت» أي بهائم و«بريجانت» أي سَاقَ، وبذلك يكون معنى الاسم: سَوْق البهائم.

(21) «إن في هذه النية إقامة نصب تذكاري لبوشكين...»: كان الناس منذ سنة 1862 يتكلمون عن إقامة نصب تذكاري للشاعر الكبير بوشكين، وفي سنة 1871 أعلن في الجرائد عن اكتتاب تبرعات. وجرى افتتاح النصب التذكاري لبوشكين في 6 حزيران 1880، في موسكو.

(22) أعتقد أنك تفهم: بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعة. (بالفرنسية في الأصل).

(23) «الايطيقا»: هي كلمة يونانية معناها علم الأخلاق.

(24) «كلود برنار» (1813 - 1878): هو عالم الفيزيولوجيا الفرنسي المشهور،

مؤسس علم الأمراض التجريبي. وقد نشرت عنه في الآونة التي بدأ فيها دوستويفسكي كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات. وإن ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين.

(25) «لا جدال في الآراء»: قالها كوليا باللغة اللاتينية (de opinionibus non est disputandum) وهي تحريف للمثل اللاتيني القائل: «لا جدال في الأذواق» (de gustibus non est disputandum).

(26) «بيتر»: هو اسم التحبب المألوف الذي كان سكان بطرسبرج يطلقونه في الماضي على مدينتهم.

(27) «لم أكن إلا خادمك ليتشاردا»: ليتشاردا خادم الملك جويدون في الرواية المترجمة «قصة بوفا ابن الملك» التي صدرت في روسيا في القرن السادس عشر وذاعت شهرتها. وفي الجزء الأول من هذه الطبعة سمى سمردياكوف نفسه «خادم ليتشاردا» بالنسبة إلى ميتيا. والسخرية هنا تتجلى في أن ليتشاردا - الصورة الأدبية لشخصية سمردياكوف - كان يخدم بنفس الدرجة من «الوفاء» سيده الملك وزوجته الشريرة التي فكرت في اغتيال زوجها.

(28) «مواعظ أبينا المقدس إسحق السورى»: إسحق السورى ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكي خطبه ومواعظه مترجمة إلى الروسية.

(29) «لا تسقط أي من التفاصيل»: تروي أرملة دوستويفسكي أن هذه العبارة كانت من العبارات الأثيرة عند زوجها.

(30) «إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث»: توما، تلميذ المسيح، كان يؤمن بقصة بعث المسيح. وعندما ظهر المسيح للتلاميذ مرة أخرى هتف توما: «ربى وإلهي» فقال المسيح موضحاً: «لأنك رأيتني آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (إنجيل يوحنا، الإصحاح 20، الآيات 19 - 29).

(31) هذا عمل نبيل، هذا عمل رائع. (بالفرنسية في الأصل).

(32) هذه فروسية (بالفرنسية في الأصل).

(33) ولا شيء مما هو إنساني غريب عني (باللاتينية في الأصل).

(34) كلام فيه جدة، أليس كذلك؟ (بالفرنسية في الأصل).

(35) «وسيدون جاتسوك ذلك في التقاويم»: هو الكسندر جاتسوك (1832 - 1891)، ناشر حولية «تقويم الصليب»، التي كانت رائجة جداً في ذلك الحين.

(36) «كتبت أيضاً مسرحيات هزلية»: أقوال المتفاخر خليستاكوف، شخصية

مسرحية جوجول «المفتش العام».

(37) كتب دوستويفسكي في أحد دفاتره: أنا لا أؤمن بالمسيح إيمان صبي، ولا أعترف به اعتراف فتى غرّ... إن تسبيحي قد مرّ بهوّة من الشكوك، كما يقول الشيطان في روايتي.

(38) «أنا أفكر فأنا إذاً موجود»: هي القولة الشهيرة التي تقوم عليها فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت (1596 - 1650) والتي وردت في كتابه «مقالة في المنهج» (الجزء الرابع).

(39) «ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والإيمان»: جملة مستمدة من المسرحية المشهورة التي كتبها جريبودوف وعنوانها: «وذو العقل يشقى» (الفصل الرابع، المشهد الرابع).

(40) «وأرجلهم في الفضاء، على حد تعبير الممثل جوربونوف»: هو إيفان جوربونوف (1831 - 1890)، الفنان الهزلي الذي اشتهر كثيراً بقصصه المضحكة ونوادره التي كان يلقيها في الجمهور.

(41) تعبير روسي شائع معناه: يعود بخفي حنين.

(42) «... أن أرتدي ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس»...»: أي موظف من الدرجة الخامسة نال في القفقاس هذا الوسام من شاه إيران (فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد).

(43) «حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم هو لا يستطيع أن يفعل إلا الخير»: هذه هي الكلمات التي قالها الشيطان في الفصل الأول من «فاوست» جوته (المشهد الثالث).

(44) «لص اليمين»: لص اليمين ولص الشمال هما فيما تقول الأناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح وآمن أولهما قبل موته.

(45) «تذكر محبرة لوثر»: إن المصلح الديني مارتن لوثر (1483 - 1546) زعيم حركة الإصلاح الديني في ألمانيا (حركة معادية للإقطاع اتخذت صبغة النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية)، كان يؤمن بوجود الشيطان. وثمة رواية تقول إن «الشيطان تمثل أمام لوثر ليغويه عندما كان جالساً يترجم التوراة فرماه بمحبرته. وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النسك التي كان يقيم فيها لوثر. وإن هلوسات إيفان كارامازوف تذكر بعض الشيء بذلك «الحوار مع الشيطان» الذي تحدث عنه المصلح الديني».

(46) «أنهما خدما التاج»: أي خدما العرش، أي خدما المملكة، أي خدما الدولة. كان تعبير «خدما التاج» شائعاً جداً في بولندا حيث كان تستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة، ولم يكن هذا التعبير شائعاً في روسيا مثل هذا الشيوع.

(47) «الإخوان المورافيين»: ملة بروتستانتية ظهرت في مورافيا في القرن السادس عشر. الهيرنجوتية - حركة دينية اجتماعية ظهرت في القرن الثامن عشر في سكسونيا في منطقة هيرنجوت، وانتشرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت تعاليم الهيرنجوتية في روسيا تستهدف إعادة التربية الأخلاقية للبشر. وترجع جذور هذه الدعوة إلى تعاليم «الإخوان المورافيين»، تلك الطائفة الدينية التشيكية التي ظهرت في القرن الخامس عشر. وفي البداية كانت تعاليم «الأخوان المورافيين» تنكر الدولة وانقسام المجتمع إلى فئات واللامساواة في الملكية، كما تعارض دعوة «عدم مقاومة الشر»، ولكنها بالتدريج تحولت إلى الإذعان وعدم المقاومة.

(48) باسم الإله الأب، باسم الإله الابن (بالألمانية في الأصل).

(49) باسم الإله الأب، بسم الإله الابن «ولكنه نسي الروح القدس».

(50) «خبزاً وعروضاً!»: ذلك ما كان يطلبه الشعب في روما القديمة.

(51) «في قاعات المحاكم الجديدة العلنية التي منحنا إياها القيصر الحالي» أدخل نظام قضاء المحلفين العلني المفتوح إلى روسيا في الإصلاح القضائي لعام 1864. وخلال الستينات والسبعينات نشرت الصحف والمجلات تقارير من المحاكم ونصوص المرافعات التي كانت تتلى في القضايا المهمّة والمثيرة.

(52) «فهو ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية» المقصود هنا قضية صف الضابط المحال إلى التقاعد لانسبرج الذي اتهم بقتل أحد معارفه ويدعى فلاسوف والمواطنة سيمينيدوفا. وقد كتبت جريدة «الصوت» عن هذه القضية بالتفصيل في 7 - 10 يوليو 1879.

(53) «إن كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب، قد شبه روسيا بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعاً نحو غاية مجهولة...»: هو الكاتب الروسي الكبير جوجول في كتابه «النفوس الميتة» (الجزء الأول، الفصل 10). والترويكا عربة تجرها ثلاثة أحصنة.

(54) الإشارة هنا إلى الرواية التي كتبتها آن رادكليف بعنوان «أسرار قصر أدولف» 1974، والتي أصابت نجاحاً كبيراً في أوروبا كلها.

(55) «أنا الراعي الصالح...»: من أقوال المسيح في إنجيل القديس يوحنا (الإصحاح العاشر، 11).

(56) «وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم»: رسالة بولُس الرسول إلى أهل افسس (الإصحاح السادس، 4).

(57) «بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم»: من أقوال المسيح في إنجيل متى (الإصحاح السابع، 2) وإنجيل مرقس (الإصحاح الرابع، 24).

(58) «أن لا نكون شبيهين بزوجات التجار في موسكو اللواتي يؤمنّ بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و«كبريت»: إن الخشية الخرافية من هاتين الكلمتين الأجنبيتين قد أبرزها آ. ن. أوستروفسكي في مسرحيته الهزلية «الأيام المشؤومة» (الفصل الثاني، المشهد الثاني) التي مثلت سنة 1863.

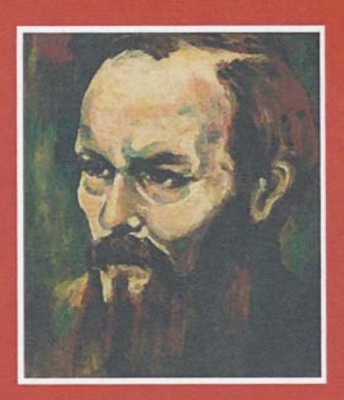
(59) «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع إليكم من النافذة»: تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن. م. كارامزين، وقد أصبح هذا التعبير من الأمثال السائدة في روسيا.

(60) جملة مأخوذة من مسرحية «اللصوص» للشاعر الألماني شيللر.

(61) «لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالأشغال الشاقة»: كانت عقوبة جريمة قتل الأب في قانون العقوبات الروسي لعام 1845 هي الأشغال الشاقة المؤبدة. ولكن الملازم ايلنسكي، الذي تشبه حالته حالة ميتيا، لم يحكم عليه إلا بعشرين عاماً، بسبب الشك في ارتكابه الجريمة.

(62) «ليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت»: هي عصابة من قماش الساتان أو من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت.

(63) «راح يغرقه بالقبل في ظمأ لا يرتوي»: في روسيا يبقى التابوت مفتوحا أثناء قداس الجنازة، حتى إذا انتهى القداس جاء الأهل وغيرهم يقبلون الميت قبلة أخيرة. وبعد ذلك يغلق التابوت.



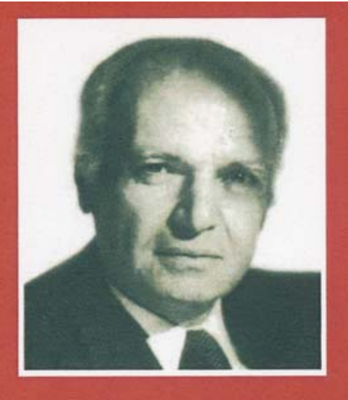
دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.



سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

في عالم دوستويفسكي يتصارع الرحمن مع الشيطان، والخير مع الشرّ، والحقيقة مع الزيف... وكل ذلك في نفس الإنسان. هكذا هو الأمر على الأرض وفي السماء.. اليوم ومنذ ألف عام.

"ديمتري"، ضابط شاب، ليس مميزاً، بل على العكس، طائش، زير نساء، وسكّير. يقامر ويبذّر أموالاً هي أمانة عنده.. ولكن مع ذلك يعذّبه ضميره. يريد إعادة هذه الأموال وأمله معقود على مال والده.. والوالد، الذي يعيش على هواه، لن يعطيه ما يريد..

لكن يا لهذا الشقيّ! ففي هذا العربيد تحيا روح تعذّبه وتمزّقه. وهو يقول مخاطباً أخاه النّقيّ الورع "أليوشا": "رهيبٌ مصير الإنسان، شديدة آلامه.. ألا فلأكن ملعوناً، منحطاً، سافلاً.. ولكنني لئن اتّبعت الشيطان يا ربّ، فإنني أظلّ ابنك، وأحبك، وفي نفسي رغبة في إرضائك.."

وهذا حال الأخ الثالث "ألكسي"، الذي يعيش ذلك الصراع والقلق بين صورة براقة في الخارج ومظلمة في الداخل.

إن قراءة دوستويفسكي تتطلّب الإنصات والتأملّ.. وذلك من أجل الدخول إلى الروعة الكامنة في أعماق الوقائع، وفي أعماق نماذجه التي يقدّمها في هذه الرواية.. إنه يدفع الإنسان لأن يميّز بين الخير والشرّ مستلهماً حُكمَ قلبه، ويرى أنه من الأفضل أن نهب الله محبتنا أحراراً من أن ننصاع له عبيداً.

اللوحة وتصميم الغلاف: مروان قصاب باشي



